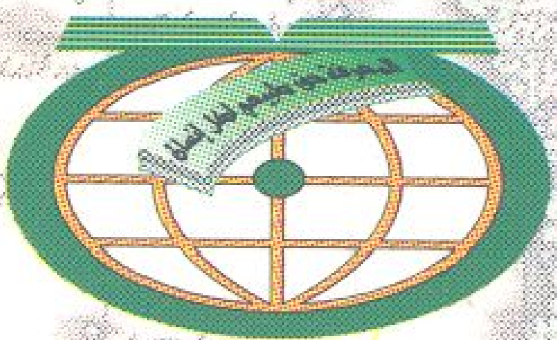
طرابلس

ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا

1500~1795 إفرنجي



تأليف: جان كلود زليتنر
ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL-JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك

طرابلس

ملتقى أوروبا
وبلدان وسط إفريقيا

جان كلود زليتنر

طرابلس

ملتقى أوروبا
وبلدان وسط إفريقيا

1500 - 1795 إفرنجي

ترجمة

جاد الله عزوز الطلحي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

جان كلود زليتنر

طرابلس
ملتقى أوروبا
وبلدان وسط إفريقيا

ترجمة:

جاد الله عزوز الطلحي

- الطبعة الأولى: الفاتح 1431 ميلادية (2001)

- كمية الطبع: 3000 نسخة

- رقم الإيداع المحلي : 3977/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي

- رقم الإيداع الدولي: ردمك 2 - 0120 - 0 - ISBN 9959

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021

ص.ب. 1459 ـ بريد مصور 619410 ـ 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

شكر

إنني مدين في الإنتهاء من ترجمة هذا الكتاب لكل من الصديق الأخ محمد علي الشويهدي والصديق الأخ الدكتور علي أبو القاسم الشيباني.

فلولا المساعدة السخية بالإمكانيات التي تكرم بها الدكتور علي أبو القاسم الشيباني، ومؤازرته المثابرة ما كان لي أن أواصل هذا العمل.

ولولا تشجيع الأخ محمد علي الشويهدي ومتابعته ما فكرت في نشره.

فإليهما شكري، وتقديري، وعرفاني بالفضل.

كما لا يفوتني أن أعرب عن جزيل شكري للأخ مراجع عبد القادر بالقاسم (قسم اللغة العربية) جامعة قاريونس الذي تكرم بمراجعة الترجمة، وأدخل فيها الكثير من التصحيحات.

وأشكر للاخوات آمنة محمد الفزاني، وأمال إبراهيم البنا من المكتب الوطني الإستشاري ما تحملهن من عناء في الإعداد والطباعة.

مقدمة

قرأت هذا الكتاب بعد صدوره مباشرة، وعاودت قراءته سنة 1994 إفرنجي. وبمجرد انتهائي من القراءة الثانية ـ التي لم تستغرق مني إلا أياماً قليلة ـ بدأت ترجمته. كانت الترجمة بقصد استيعاب أكثر، ومقارنة ما ورد فيه حول بعض الوقائع، بما ورد حولها في مصادر أخرى. لم يكن النشر وارداً.

اضطرتني مشاغلي المهنية للتوقف عن الترجمة عدة مرات وكانت فترات التوقف تطول وتقصر، ولكن ذلك لم ينل من تصميمي على مواصلة الترجمة.

لماذا تصميمي على ترجمة هذا الكتاب، وموافقتي لاحقاً على نشره؟ لأسباب كثيرة منها الذاتي وأغلبها موضوعي. سأقتصر على إيضاح دافعين موضوعيين بالإضافة إلى ما أوضحت أعلاه. وقبل التطرق إليهما لعل من المجدي التأكيد على أن اهتمامات السياسة الخارجية الليبية لم تكن حاضرة في ذهني عندما قررت ترجمة هذا العمل، ولعلها ساهمت في توقفي لبعض الوقت.

دفعني لترجمة هذا الكتاب، والموافقة لاحقاً على النشر، أنه عمل حديث نشر سنة 1992 إفرنجي، وقد انصبت جهود الترجمة من قبل الليبيين ـ في مجال التاريخ الوطني ـ على المؤلفات القديمة في الغالب الأعم. أفهم الأسباب، وإن كنت أعتقد أن مبعثها تقدير غير دقيق للأمور.

تمثل المراجع الخارجية المصدر الأساسي ـ في جانبي الوفرة والدقة ـ لتاريخ الوقائع التي شهدتها ليبيا خلال الفترة موضوع هذا الكتاب. ومثلت تقارير القناصل الرسمية، ومدوناتهم الشخصية، ووثائق الدول والمؤسسات الرسمية والأهلية الأوروبية، وكتابات مواطنين أوروبيين تواجدوا بحكم العمل أو نتيجة مخاطر الصدف، وكتابات الرحالة في القرن التاسع عشر، ثروة حقيقية للباحثين والدارسين المهتمين بتاريخ ليبيا خلال القرون الأربعة من بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر من الألفية الماضية. يقابل هذه الوفرة النسبية في «المراجع الخارجية» ندرة في «المراجع الوطنية» سواء في شكل وثائق رسمية أو كتابات ومدونات مواطنين.

إن الأوضاع الاجتماعية ـ السياسية منها خاصة ـ التي عاشتها البلاد خلال تلك الفترة تفسر قلة المراجع الوطنية التي أنتجت وحفظت خلالها. كانت البلاد في حالة تبعية مباشرة أما للحفصيين، والإسبان، والمماليك، وفرسان مالطا في البداية، أو للعثمانيين لاحقاً. وبالرغم من أن هذه التبعية كانت جزئية وإسمية في غالب الأحيان، إلا أن الحكم والسلطة كانتا دوماً في أيدي

عناصر غير وطنية تحكم من العاصمة والمدن بمعزل عن السكان الذين لا يلتفت إليهم إلا لتحصيل الضرائب، أو تجنيد محاربين في المواجهات حول السلطة. هكذا حصر الليبيون في حالة بداوة ـ بالمعنى الاجتماعي للكلمة ـ يعانون الأمية، وشظف العيش ويقاسون الاستبداد من سلطة حاكمة لا تربطها بالوطن إلا مصالح الحاكم المباشرة. وكان من الطبيعي أن تنتهي علاقة الحاكم بالوطن بمجرد فقدانه السلطة أما بالعزل في الغالب، أو بالوفاة.

لم يترك الليبيون ـ ولم يكن ذلك في مقدورهم ـ وثائق مكتوبة تذكر، تؤرخ للفترة أو تفيد في كتابة تاريخها، وذلك بسبب الأمية، والانعزال عن المشاركة في الحياة السياسية، وشؤون الإدارة العامة. يمكن أن نقول بلغة العصر أن الليبيين كانوا في حالة عزل وإقصاء داخل وطنهم طوال تلك القرون.

لعل ابن غلبون يمثل الاستثناء الوحيد لمن اهتم بكتابة تاريخ ليبيا في ذلك الزمن من الليبيين، والوضع لا يختلف كثيراً عندما ننظر في جانب الوثائق المكتوبة التي أنتجها ليبيون تفيد في الإلمام بالوقائع والأحوال. ولعل الجهد الذي بذله الباحث حبيب وداعه الحسناوي عند العمل على كتابة «فزان، تحت حكم أولاد محمد» أوضح الفقر فيما وصلنا من مصادر مكتوبة عن هذا الجزء من ليبيا الذي كان أهله في حالة استقرار نسبي، وتمتع بحكومة حافظت على شرعيتها واستمرارها لمدة طويلة، مقارناً بما كانت عليه الأوضاع في الأقاليم الليبية الأخرى.

تستحق الكتابات الحديثة من قبل الدارسين الأوروبيين عن

تاريخ ليبيا للقرون الخمسة الأخيرة من الألفية الميلادية الثانية الاهتمام والمتابعة فهؤلاء أقدر منا على تناول الوثائق التي في حوزتهم. ولعل الكتاب الذي بين أيدينا يقدم الدليل، فقد توسع كاتبه في العودة إلى وثائق الفترة التي غطاها، وتجاوز تقارير القناصل ومدوناتهم، وكتابات الرحالة ومن في حكمهم والتي كثيراً ما اقتصر الباحثون الليبيون عليها كمراجع مباشرة.

السبب الثاني الذي ولَّد لديّ الاهتمام بهذا الكتاب، هو الجهد الذي بذله المؤلف في ربط ما جرى في ليبيا بما كان يجري في المنطقة، ومحاولته الجادة إبراز وربط الحركة الاقتصادية بتطورات الحياة السياسية.

طوال الفترة التي يغطيها هذا الكتاب، كانت ليبيا حاضرة في كل الأحداث التي دارت في الشمال الأفريقي وحوض المتوسط، وامتدت إليها بأثر بالغ كل التطورات المهمة، والصراعات التي دارت في المنطقة وأثرت على أحوالها الداخلية، ولم تستطع أن تنعزل عنها أو تتجاهلها. كما أنها لعبت بالنسبة للمنطقة بوابة وجسر عبور إلى أفريقيا جنوب الصحراء.

نرى من خلال الكتاب، كذلك، أن ليبيا ازدهرت ونمت عندما كانت الأوضاع السياسية تنجح في خلق الظروف الملائمة وذلك بالرغم من شح الموارد الطبيعية، واستطاعت بعبقرية أهلها وجهد مواطنيها أن تعيش فترات سعة ورخاء. ولعل ثراء مدينة طرابلس قبل الاحتلال الإسباني والذي كان أحد دوافع هذا الاحتلال فيما ذهب إليه بعض المؤرخين، والنشاط الاقتصادي المزدهر الذي

شهدته «الولاية» في عهد درغوت الذي أعطى اهتماماً خاصاً للنشاط التجاري سواء مع دول الشمال، أو الممالك السودانية جنوب الصحراء تقدم نماذج غنية بالعبر. وقد كانت طرابلس في عهده «المكان الأكثر روعة في أفريقيا».

أن قراءة فاحصة، ومتأنية لتاريخ هذا البلد تظهر أن عبقرية أبنائه، وسخاءهم في بذل الجهد قادرة على تحقيق الازدهار والرخاء إذا ما وجد حكم راشد قادر على تهيئة الظروف، وذلك بالرغم من فقر مدقع في الموارد الطبيعية. وبالرغم من أن المساحات الزمنية الأكبر من الفترة موضوع هذا الكتاب تحتلها المعاناة والفوضى، وعدم الاستقرار إلا أنها بالغة الدلالة فيما يتعلق بما ذهبنا إليه. لعلّي كررت ما كتبه هذا المراقب النابه ـ السيد دي فالبير قنصل فرنسا في طرابلس في أواخر القرن الثامن عشر ـ ضمن مذكرة طويلة عن الأحوال في ليبيا سنة 1785 إفرنجي: «أن الجميع في هذه الولاية المنهكة من الابن الأكبر للحاكم إلى أصغر مواطن تجار.... وكلهم مشاركون في الثروة العامة. من هذا النمط للصناعة والنشاط والمهارة يؤمل أن يجد هذا البلد طريقة إلى الانتعاش شيئاً فشيئاً. أن جهود المواطنين وعبقريتهم لا تؤتي أكلها إذا لم تسخر لها ظروف ملائمة ولم تكن لها حكومة رشيدة».

كما سبق وأوضحت، ترجمت هذا الكتاب لنفسي، ومن ثم حرصت على دقة المعنى بغض النظر عن أناقة العبارة، وسلاسة التركيب. ولما أقنعني أخي وصديقي الأستاذ محمد علي الشويهدي، بالموافقة على النشر عاودت قراءة الترجمة، وحاولت

إعادة الصياغة بحيث أسهل القراءة على القارىء، ولكنني ـ وأقر بهذا ـ لم أستطع أن أتحرر من ما أخذت نفسي به بداية، بل وجدتني أكثر إصراراً على التضحية بالجانب البلاغي (الشكلي) من أجل نقل أدق لما ذهب إليه الكاتب.

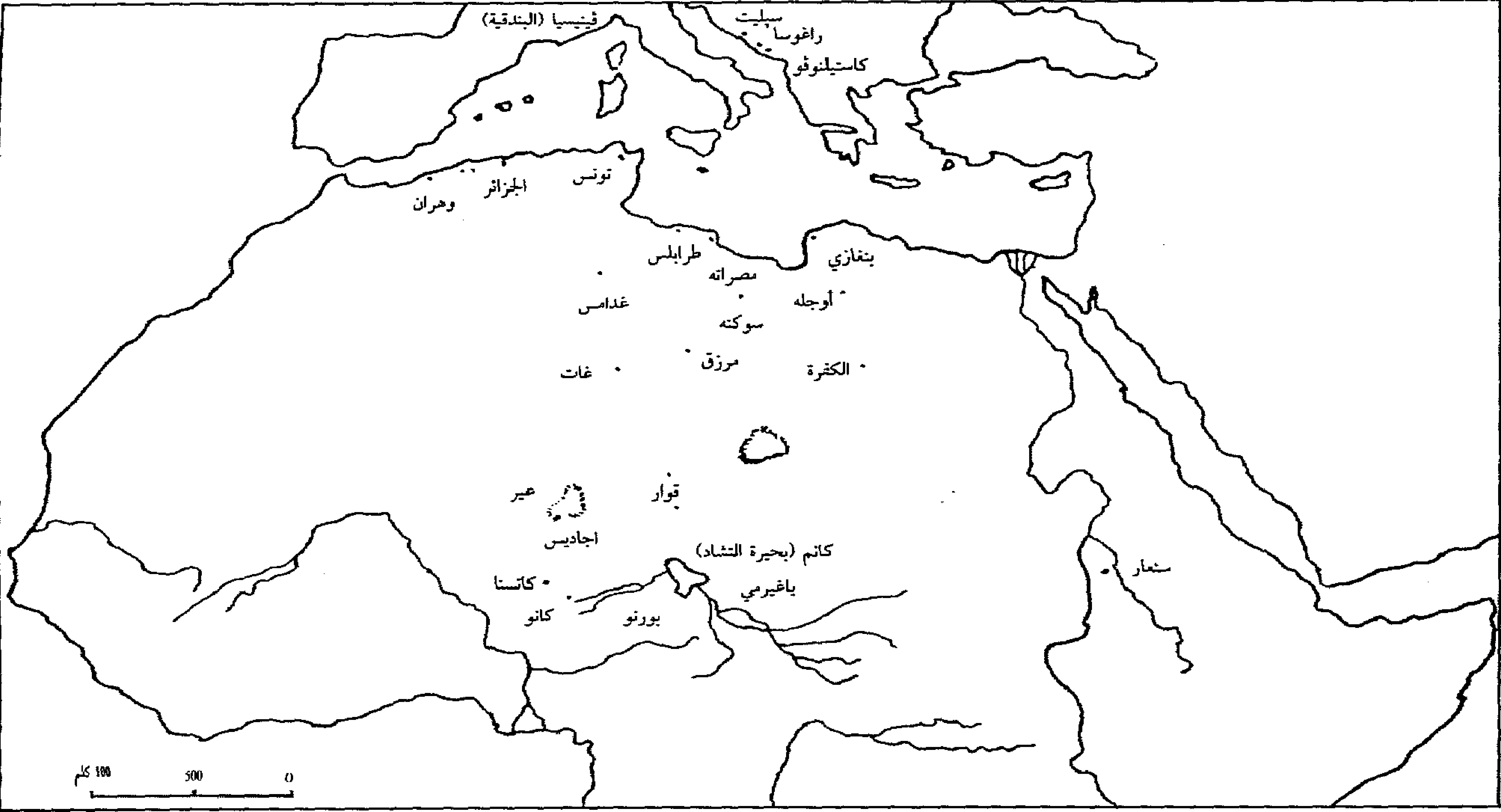
لا أشعر بالحاجة إلى التنبيه بأن كثيراً مما ورد ـ لغة ومعنى ـ لا أتفق معه ولا أقره، ولكن هذا لا يعطيني الحق في التغيير والتعديل. كما أنني لاقيت كلمات لم تسعفني القواميس المفصلة في الوقوف على معناها، ولعلها على سبيل الحصر ما يلي: كونتانتي ـ Contanty، وأباسي ـ abasi، وكونيو ـ cunieux، وكساكر ـ cassacre مما اضطرني لكتابتها كما جاءت. أي من هذه الكلمات لا تؤثر على فهم المعنى في العبارات والجمل التي وردت في سياقها.

كما حرصت على إيراد كلمات وعبارات في لغتها الأصلية، وذلك لأن المؤلف حرص على كتابتها في لغتها ولم ينقلها إلى الفرنسية مثل القبطان باشا أي قائد الأسطول العثماني، والبركان، . . . الخ.

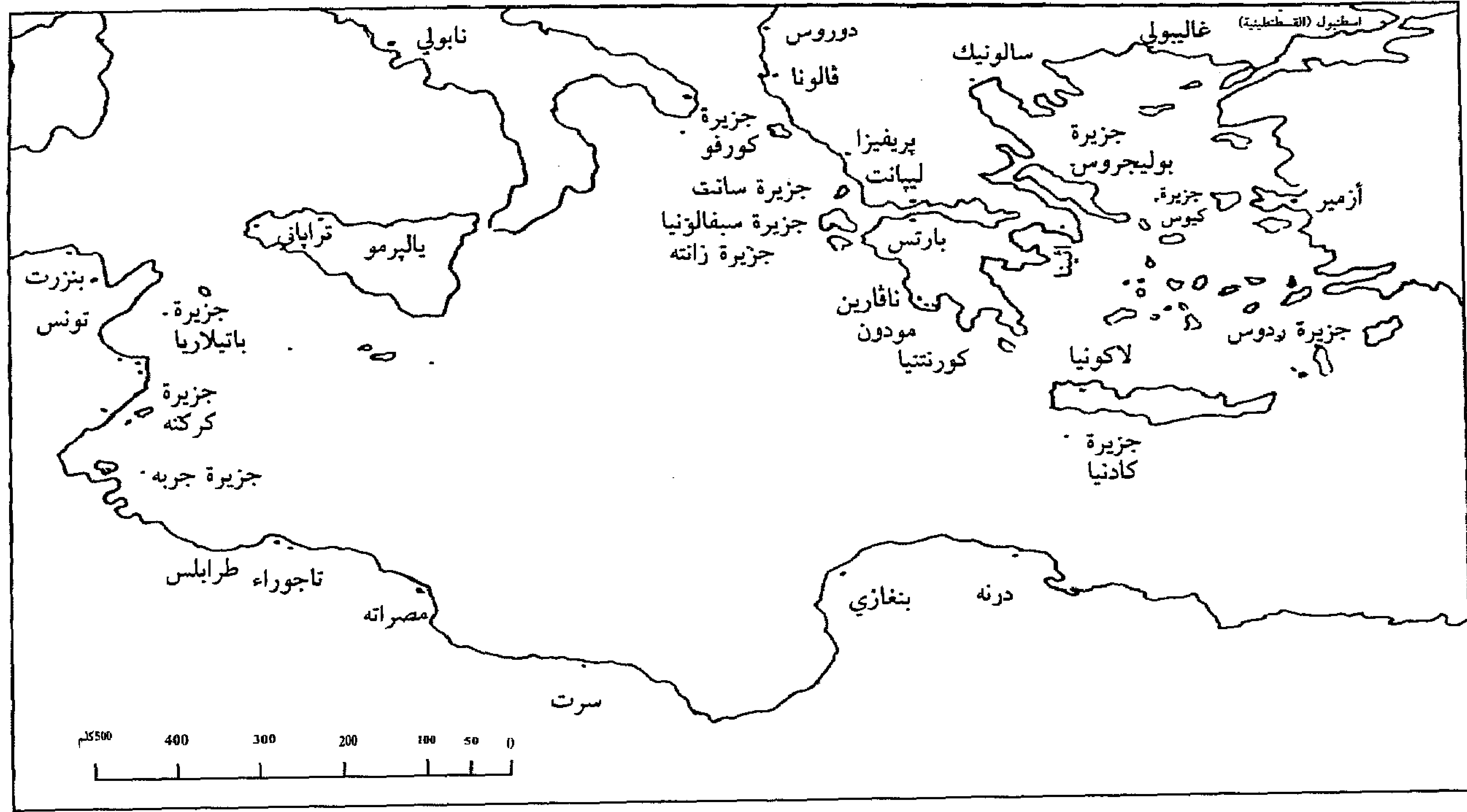
كما أوردت المراجع، والملاحظات دون ترجمة، وذلك لتسهيل الرجوع إليها من قبل الراغبين؛ ولم أستثن من ذلك المراجع العربية التي عددها المؤلف.

جادالله عزوز الطلحي

طرابلس في 21 الربيع 2001 إفرنجي

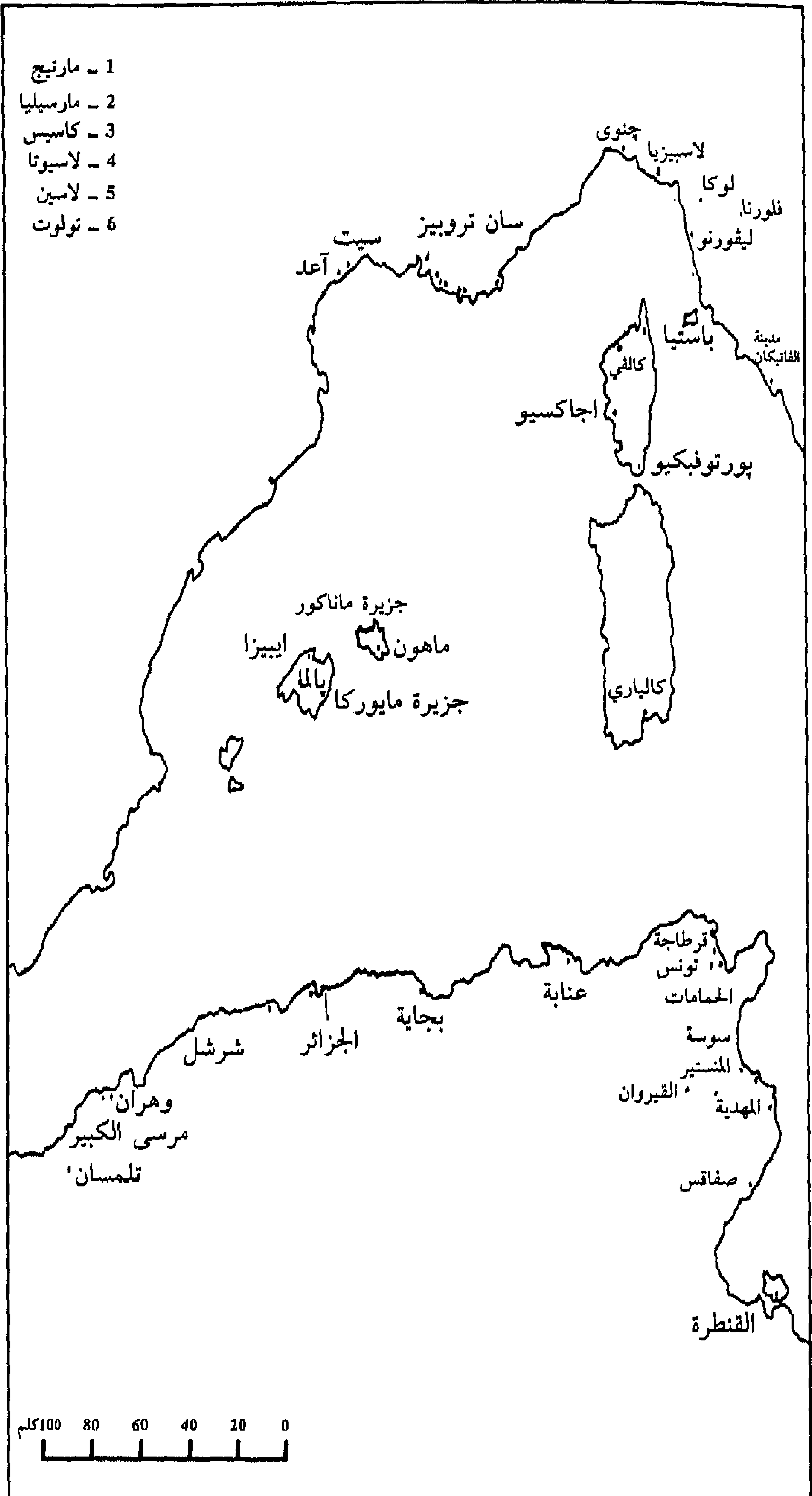

فينيسيا (البندقية)
سبليت
راغوسا
كاستيلنوفو
تونس
الجزائر
وهران
طرابلس
بنغازي
مصراته
أوجله
غدامس
سوكنه
مرزق
الكفرة
غات
عير
قوار
اجاديس
كانم (بحيرة التشاد)
كاتسنا
سنعار
باغيرمي
كانو
بورنو
0
500
100 كلم

خريطة رقم 1

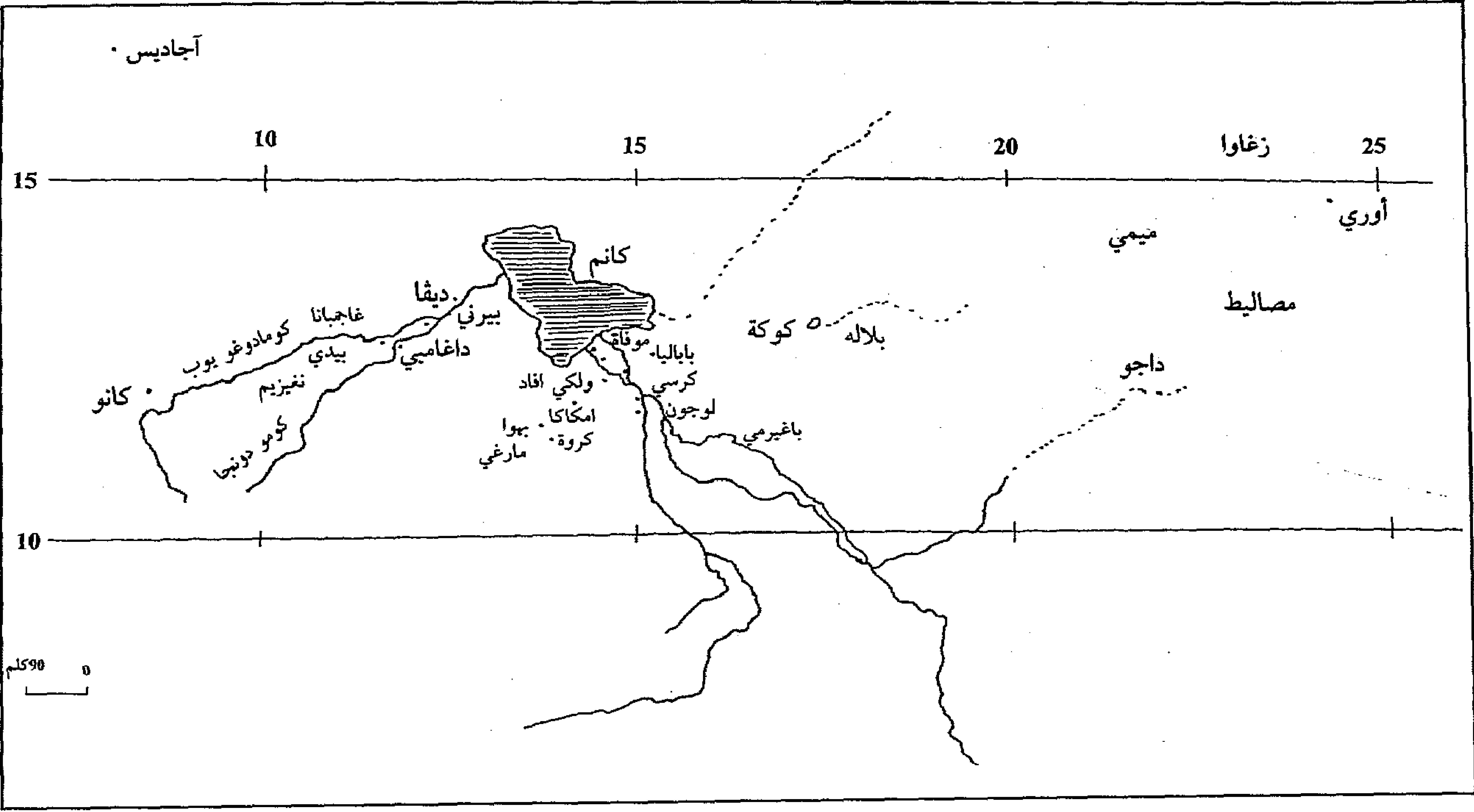

نابولي
دوروس
ڤالونا
غاليبولي
اسطنبول (القسطنطينية)
سالونيك
جزيرة
كورفو
پريفيزا
ليپانت
جزيرة
بوليجروس
جزيرة سانت
جزيرة سبفالونيا
جزيرة زانته
جزيرة
كيوس
أزمير
ترابانى
يالپرمو
بارتس
بنزرت
تونس
جزيرة
باتيلاريا
ناڤارين
مودون
كورنتيا
لاكونيا
جزيرة ردوس
جزيرة
كركنه
جزيرة
كادنيا
جزيرة جربه
طرابلس
تاجوراء
مصراته
بنغازي
درنه
سرت
500كلم
400
300
200
100
50
0

خريطة رقم 2

خريطة رقم 3

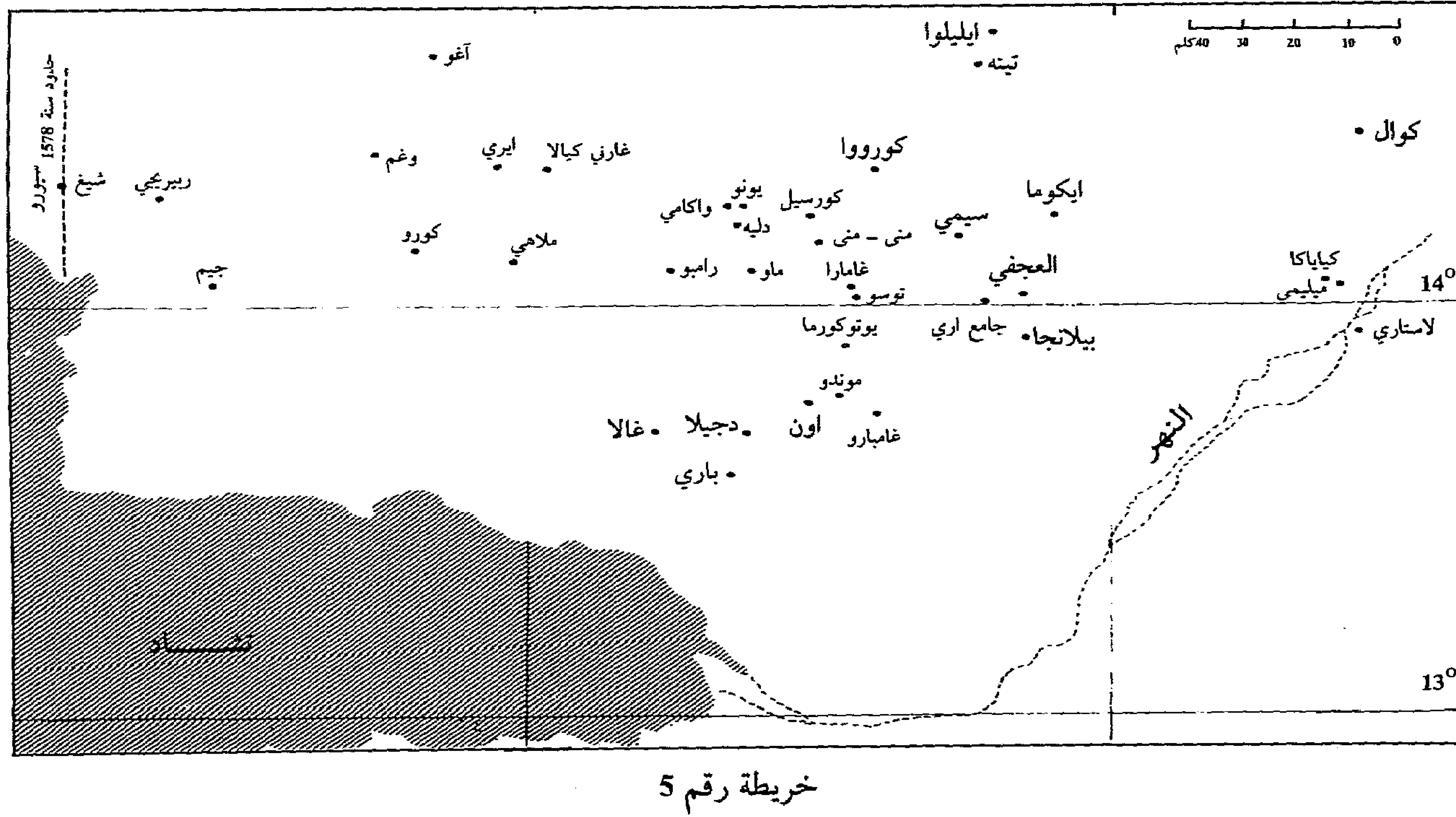


1 ـ مارتيج
2 ـ مارسيليا
3 ـ كاسيس
4 ـ لاسيوتا
5 ـ لاسين
6 ـ تولوت
جنوى
لاسبيزيا
لوكا
فلورنا
ليفورنو
مدينة الفاتيكان
سان تروبيز
سيت
آعد
باستيا
كالفي
اجاكسيو
بورتوفيكيو
جزيرة ماناكور
ماهون
ايبيزا
بالما
جزيرة مايوركا
كالياري
قرطاجة
تونس
الحمامات
سوسة
المنستير
القيروان
المهدية
صفاقس
القنطرة
عنابة
بجاية
الجزائر
شرشل
وهران
مرسى الكبير
تلمسان
0 20 40 60 80 100كلم


آجاديس
10
15
20
زغاوا
25
15
أوري
ميمي
كانم
ديفا
غاجبانا
كومادوغو يوب
بيرني
مصاليط
كوكة
بلاله
داغامبي
بيدي
نغيزيم
كانو
موفاق
باباليا
كرسي
ولكي
افاد
امكاكا
بهوا
كروة
مارغي
لوجون
باغيرمي
كومو دونبا
داجو
10
90كلم
0

خريطة رقم 4

أرياف ادريس علاومة في خانم (1574 ـ 1578)



خريطة رقم 5

تمهيد

إنها التفاصيل، التي يأخذها التاريخ
في الاعتبار، وليست التوجهات الكلية.

بلزاك

يعتمد الرخاء في أي بلد ـ وإلى حد كبير ـ على موقعه الجغرافي. ففي مجال التنمية، والتنافس الاقتصادي تمثل الإطلالة على البحر عاملاً مهماً، إن لم يكن حاسماً، حيث البحر هو الطريق الأسهل للعلاقات الثقافية والتجارية. ويمكن التذكير بالدور الذي لعبته كل من إسبانيا والبرتغال قديماً، وبريطانيا، وبدرجة أقل فرنسا في الماضي القريب، والدور الذي تلعبه اليوم كل من الولايات المتحدة واليابان.

لا شك أن قوة أي بلد وإشعاعه يقاس بطول سواحله، وفي هذا المجال فإن قارة في اتساع أفريقيا تقدم لشعوبها فرصاً لا تقارن. وتبدو بلدان في جنوب الصحراء مثل النيجر وجمهورية أفريقيا الوسطى، وتشاد خاصة، غير محظوظة لأنها بلدان (مغلقة).

لم يكن الحال هكذا دائماً، فقبل العصر الاستعماري ـ وبالذهاب بعيداً في الماضي إلى الحد الذي تسمح الوثائق بالوصول إليه ـ كانت بلدان (الحوض التشادي) بلداناً (مفتوحة). لقد كانت على ضفاف بحر يعج بالحركة والتنقل مثل أي محيط، ولكنه بحر من الرمال: أنه الصحراء الكبرى. ولم تكن الصحراء في ذلك الزمن عقبة لا يمكن تخطيها، بل كانت تمثل طريق اتصال طبيعية. كان هناك طريقان للقوافل تصلان المنطقة بالبحر الأبيض المتوسط؛ الأولى تنطلق من القرن الشمالي الغربي لتشاد وتنتهي في فزان مروراً بكوار، ومن هناك كان من السهل الوصول إلى طرابلس، وتونس، وبنغازي، ومصر. والطريق الأخرى تعبر منطقة الاير وتصل كانو بغات ومنها يمكن التوجه إلى تونس، أو طرابلس، أو مصر. ومن منطقة الاير كان من الممكن كذلك التوجه شرقاً والانضمام إلى القوافل المتجهة إلى فزان في منطقة كوار. وقد أضيف إلى هذين الطريقين، في بداية القرن التاسع عشر، طريق ثالث يصل أبشة عاصمة الواداي، ببنغازي وذلك بالتوجه مباشرة من أبشة نحو الشمال.

لقد كان للصحراء، مثل المحيط، مخاطر، وكانت بشكل عام هي نفس المخاطر. كان هناك قطاع الطرق من جانب، والقراصنة من جانب آخر، كما كانت المسافات التي لا تنتهي، والظروف المناخية المتغيرة، ومخاطر عدم الاستقرار السياسي في البلدان المقصودة مخاطر مشتركة بين الصحراء والمحيط. كان السفر الذي يستغرق ثلاثة أشهر في الصحراء يقتضي استعدادات دقيقة: اختيار

الجمال، وتوفير التموين اللازم للطريق، وإعداد القرب، والتحقق من صلاحية الأسلحة والذخيرة. كل هذا يتطلب، الكثير من الوقت والمال. ما ذكرناه شروطاً لازمة للنجاح، ولكنها ليست كافية، فالمسافر سيء الحظ الذي يُفقد في عاصفة رملية كثيراً ما يموت عطشاً. كما قد يفاجأ المسافر سيء الحظ وغير الحذر بإحدى عصابات قطاع الطرق من العرب، أو الطوارق، وهناك للأسف مخاطر أخرى لم يكن من السهل معرفتها مقدماً، مثل الثورات والحروب التي لم تكن نادرة الحدوث في طرابلس، وقد تكون فزان، ملتقى الطرق، في حالة عصيان وتمرد أحياناً. ويحدث أن تصل قافلة إلى مرزق ولا تستطيع مغادرتها شهوراً عديدة.

إلى هنا يتوقف التشابه بين الصحراء والمحيط. من المعروف، فيما يتعلق بالأسعار، أن النقل البري لم يستطع أبداً منافسة النقل البحري والنهري، ومن ثم فالمبادلات عبر الصحراء لم تكن مجدية إلا بشرط أن تكون السلع ذات قيم كبيرة لأوزان خفيفة. وكانت السلعة المفضلة لدى القوافل هي الرقيق، وذلك لأنها لا تتطلب النقل، حتى وإن كانت تتطلب نقل حاجتها من التموين والمياه. وقد جاء ذكر تجارة العبيد منذ نهاية القرن التاسع من قبل الجغرافي العربي اليعقوبي في مؤلفه (كتاب البلدان) الذي كتب سنة 891 إفرنجي[1] تقريباً. ولا أحد يعرف ما كان يعمل بهذه السلعة البشرية في ذلك الزمان. وأن من المعلوم وجود حركة نقل للرقيق السود والبيض من الجنسين من شمال أفريقيا إلى أوروبا منذ بداية القرن الخامس عشر، وهو ما يمكننا قراءته في يوميات دون بيدرو نينو

(Don pedro nino) سنة 1403 إفرنجي[2]. كما يذكر أنانيا (Anania) سنة 1582 إفرنجي أنه في زمن خضوع طرابلس للإسبان ـ أي من 1510 إلى 1530 إفرنجي ـ كان الرقيق من السود يرسل إلى صقلية، وآخرون أكثر عدداً يوجهون إلى تركيا.

يذكر أنانيا، كذلك، أن من بين صادرات بلدان تشاد الجلود والتبر. كما أن العاج الذي كان يمثل في القرن التاسع عشر، مع الرقيق وريش النعام، أهم الصادرات التشادية كان يتم توجيهه غالباً إلى طرابلس وتونس منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فقد ذكر واردات إيطاليا من العاج كل من بيقولوتي (Pegolotti) سنة 1350 إفرنجي، وأوزانو (Uzzano) سنة 1508 إفرنجي. أما عن ريش النعام الوارد من شمال أفريقيا فقد كان من السلع المدونة في تسعيرة النقل البحري لمدينة بيزا (Pise) في سنة 1461 إفرنجي، وكذلك في وثائق البندقية (Venise) سنة 1508 إفرنجي[3].

في المقابل، كان التجار يأتون إلى بلدان تشاد بسلع غالية: أولها النحاس الذي كان يورد بكميات كبيرة إلى بلدان المغرب منذ القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر، ومن هناك يجد طريقه إلى بلدان جنوب الصحراء. وهذا ما تشهد به وثائق مدينة جنوا (Genes) للسنوات 1155، و1164 إفرنجي، ووثائق مدينة البندقية لسنوات 1508، 1518، 1540 إفرنجي. وفي القرن السادس عشر نشأ ـ كما سنرى ـ طلب كبير على الأسلحة في بورنو (Borno)، شمل الخيول من الشمال الأفريقي، وكذلك الزرد، والدروع، والخوذ، والسيوف التي تأتي من إقليم لومبارديا، وألمانيا[4]. ومن

بين السلع الأوروبية يمكن أن تذكر كذلك الأقمشة الصوفية والقطنية، وأقمشة الكتان، والقنب، والأقمشة والأغطية الحريرية[5]، وورق (بيزا) (Pise)، وعطور البندقية (Venise). كما تستحق المصنوعات الزجاجية المعروفة باسم كونتري (conterie) ذكراً خاصاً، وهي اختصاص لمدينة البندقية (Venise) ولاقت دائماً إقبالاً كبيراً من السودانيين[*]. وقد كتب ماس لاتري (Mas latrie) ما يلي: ـ **(كان لصناع الزجاج وسطاء ومتاجر في كل أسواق دولة البندقية، وبشكل أساسي في الاسكندرية وطرابلس وتونس، ومن طرابلس حيث ظل آخر مصنع وصلت المصنوعات الزجاجية إلى دارفور وفزان)**[6].

نرى، من الأمثلة السابقة، أن طرابلس، وربما تونس، وبنغازي، وتاجوراء ومصراتة لم تلعب إلا دور حلقة الوصل في حركة تجارة البلدان التشادية وذلك باستثناء الخيل. هناك كانت تتم المبادلات والتسويات بين التجار. كانت الموانىء تستقبل القوافل القادمة من الصحراء والقادمين عن طريق البحر. ولم يكن القادمون من الصحراء والقادمون عن طريق البحر يلتقون مباشرة، كان اللقاء يتم عند تجار المكان الذين تتم الصفقات بواسطتهم. وكان أغلب هؤلاء التجار من اليهود، كما كان من بينهم مسلمون مغاربة وأتراك، وبعض المسيحيين أحياناً.

وقد ساهم هؤلاء التجار، إلى جانب النشاط البحري، في

(*) قصد بهذا اللفظ من قبل المؤلف سكان منطقة الساحل جنوب الصحراء.

ازدهار طرابلس، وكان التجار يحققون، أحياناً، أرباحاً خيالية. كما يحدث أن تكون مخازنهم خاوية، ولا يستطيعون مواجهة الطلب عندما تكون طرق الصحراء غير آمنة، كذلك الحال بالنسبة للطرق البحرية حيث كان يجب أخذ الحذر من القراصنة مسيحيين ومسلمين. كانت الملاحة تعتمد إلى حد كبير على العلاقات الدولية، وحالة السلام والحرب بين الدول.

عرفت بلدان الشمال الأفريقي(*) في العصور الوسطى ازدهاراً كبيراً، وذلك لتوفر شروط ملائمة للتجارة عبر البحر الأبيض المتوسط، وقد احتلت جنوا المكان الأول. فمنذ منتصف القرن الثاني عشر تكونت فيها شركات تجارية، وقامت بتوقيع اتفاقيات مع كل من تونس وطرابلس خلال الفترة (1156 ـ 1164 إفرنجي). كما لحقت بجنوا كل من بيزا والبندقية في فرض تواجدهما في السوق. كانت الحركة المتوسطية في بداية القرن الثالث عشر بين أيدي أهالي جنوا، وبيزا، والبندقية، وأهل الجنوب الفرنسي.

مثل وصول الحفصيين للسلطة في تونس مرحلة جديدة. فتحت حكم هذه الأسرة عرفت تونس انطلاقة اقتصادية وثقافية مدهشة. فقد استطاع الأمير أبو زكريا (1228 ـ 1249 إفرنجي) والذي كان واعياً ومتسامحاً، خلق ظروف ملائمة للتبادل التجاري مع أوروبا. ستبقى الاتفاقيات التي وقعها مع كل من البندقية ومرسيليا سنة 1231 إفرنجي، ومع بيزا سنة 1234 إفرنجي، ومع

(*) ترجمة تعبير Les pays barbaresques.

جنوا سنة 1236 إفرنجي، نماذج للمستقبل. لقد ضمنت تلك الاتفاقيات حماية للأشخاص، وحرية التبادل وكذلك حماية الممتلكات، وحرمة الكنائس والمقابر. كما أن طرابلس، حيث كانت سلطة الحفصيين في كثير من الأحيان اسمية، حذت حذو تونس في سياستها ومنحت للدول المسيحية نفس الضمانات[7].

في الوقت الذي انفتح فيه الحفصيون على الشمال، أسسوا علاقات مع الجنوب. كانت القوة الكبيرة في الداخل (الجنوب) هي كانم التي وصلت إلى قمة ازدهارها تحت حكم محمد بن جيل ـ دونما ديبالي في اللغة الكانوريه ـ، وبسطت سلطتها على فزان. كانت العلاقات بين الدولتين ـ الحفصية وكانم ـ ودية[8] للغاية. وهكذا امتد الوئام من الجمهوريات الإيطالية إلى قلب أفريقيا، ووجدت حركة القوافل ظروفاً ملائمة لم يسبق لها أن شهدتها. لقد وقعت حوادث بين الحفصيين والدول الأوروبية، أكثرها إيلاماً ما قامت به طرابلس من سلب الأميرال الجنوي فيليب دوريا «Philippe Doria» سنة 1355 إفرنجي، وكانت، لحسن الحظ، مبادرة فردية لم تحدث آثاراً دائمة[9]، واستمرت العلاقات في مجراها الذي كانت عليه دون انقطاع حتى نهاية القرن الخامس عشر. أن آخر الاتفاقيات المعروفة هي تلك الموقعة مع فلورنسا سنة 1445 إفرنجي، ومع البندقية سنة 1456 إفرنجي، ومع جنوا سنة 1465 إفرنجي. بعد ذلك تبقى الوثائق صامتة[10]. لماذا هذا الصمت؟ أن مرجع هذا الصمت هو احتلال العثمانيين للقسطنطينية سنة 1453 إفرنجي، وهو ما اعتبره المعاصرون نهاية عصر، وبداية عصر جديد.

لم يظهر العثمانيون مباشرة في البحر المتوسط، لقد كانوا مشغولين على اليابسة لدرجة لم تترك لهم مجالاً للتفكير في امبراطورية بحرية. وكان البحر المتوسط وقتها لا يزال حراً.

الفصل الأول

تقسيم البحر المتوسط

كان البحر المتوسط في مطلع القرن السادس عشر لا يزال حراً، يتقاسمه الإسبان، وأهالي البندقية، وجنوا، وجنوب فرنسا، وكذلك القراصنة. كان القراصنة من الشمال الأفريقي(*) يغيرون على السواحل الإسبانية وسواحل الجزر. بل ذهبوا، أبعد من ذلك، إلى تحريض العرب الذين بقوا في الأندلس بعد احتلالها على العصيان والتمرد. ولمواجهة هذا الخطر المزدوج لم يجد الكاردينال جيمنيز دي سسنروس (Jimenes de Cisneros) اسقف طليطلة (Tolede)، ومدير إقليم الكاستليا منذ وفاة الملكة إيزابيلا سنة 1504 إفرنجي، بدّاً من مطاردة المغاربة حتى مواطنهم واحتلال موانىء الشمال الأفريقي الرئيسية. كان الكاردينال موضع ثقة الملك فرديناند ومن ثم تم تبني مشروعه، وأوكل التنفيذ للكونت بيدرو دو نافار (Pedro de Navarre) وهو عسكري ذو تاريخ مدهش، «**فقد صعد من مجرد جندي بسيط إلى درجة جنرال بسبب كفاءته**»[11].

(*) استعملنا التعبير (القراصنة من الشمال الأفريقي) بدل الترجمة الحرفية (القراصنة البربر) (المترجم).

وبالفعل استطاع على رأس جيش بحري الاستيلاء أولاً على مينائي تلمسان، والمرسى الكبير سنة 1505 إفرنجي، ثم على وهران سنة 1508 إفرنجي، وفي سنة 1510 إفرنجي خطط لعملية واسعة هدفها طرابلس. لماذا طرابلس هذا الميناء البعيد الصعب الدخول إليه؟ سببان وراء ذلك. السبب الأول ذو طبيعة استراتيجية يمكن فهمه بمجرد إلقاء نظرة على الخريطة. فإسبانيا كانت تتبعها كل من نابولي، وصقلية، ومالطا ومن ثم كان الاستيلاء على طرابلس يعني تقسيم البحر المتوسط إلى قسمين، ومنع الأتراك عن الجزء الغربي منه. كان هذا يمثل إجراء احترازياً حيث أن الأتراك كانوا قد استولوا على ليبانت Lepante سنة 1499 إفرنجي، ثم على مودون Modon سنة 1500 إفرنجي، وهو ما كان يعني السيطرة على كامل بيلوبونيز(*) Peloponnese. ومن المحتمل أن وراء اختيار بيدرو دي نافار سبباً آخراً هو الطمع، فثراء طرابلس، في ذلك الوقت، أذهل المعاصرين. يشهد على هذا ما كتبه لوس دلمارمول كرافاجال (Luys del Marmol Caravajal): **«كانت تونس غنية بالأثاث والمعدات، ولكن طرابلس تفوقت في الذهب والفضة، واللالىء وكل السلع بفضل التجارة. لقد كان في المدينة، عادة، مائة وخمسون مشغلاً لصناعة أقمشة الحرير، بالإضافة إلى أخرى عديدة لصناعة الشيلان، وغيرها من المنسوجات الرفيعة دون الأخذ في الاعتبار أعداداً من البقالين والتجار الميسورين»**[12].

(*) منطقة في اليونان.

كانت طرابلس مشهورة بالنوعية الراقية لصناعتها من النسيج بالإضافة إلى نشاط مينائها في مجال التجارة مع المشرق والمغرب، وكذلك مع الداخل. ويضيف مارمول (Marmol):

«على طول العصور، كانت هناك تجارة واسعة في هذه المدينة بسبب قرب نوميديا وتونس بالإضافة إلى عدم وجود مثيل لها على امتداد الشاطئ حتى الاسكندرية، واعتاد التجار من مالطا، والبندقية، وصقلية استعمال مينائها. كما كانت تتردد عليها السفن الحربية بسبب تجارها المهرة، وكانت تكثر في المدينة المساجد والمدارس، والمستشفيات، والشواطئ. وكانت الشوارع أكثر تنظيماً من الشوارع في تونس»[13].

هكذا تحرك بيدرو دي نافار (Pedro de Navarre) إلى طرابلس، واستولى في طريقه على بجايه، وهي محطة ضرورية للتزود بالمياه والمؤن، ولكن تفشي الطاعون اضطره لمغادرة هذا المرسي على عجل، والعدول عن التوجه مباشرة إلى طرابلس. وبسبب نقص المياه والمؤن توجه للبحث عنها في صقلية. هذا الظرف الطارىء المعوق مكنه من التزود بالمؤن حيث ارسل العقيد ديجو دي فلانسيا (Diego de Valencia) على رأس قوة من ثمانمائة رجل إلى نابولي بينما أبحر هو مع الجزء الأكبر من الجيش (15000 رجل) إلى سواحل صقلية ونزل في جزيرة فابيان «حيث توجد المياه بوفرة، والغابات، ولحوم الطرائد»، وهناك التحق به العقيد ديجو دي فلانسيا بعد أن أدى مهمته. وهكذا أبحر الكونت بخمسين سفينة شراعية بعد أن استعد استعداداً جيداً. توجه نحو الجنوب وعند

مروره بمالطا، شاهد الجيش منظراً غير مألوف. فقد ظهر مذنب كبير عبر السماء من المغرب إلى منتصف السماء، وكان هذا يعني ـ دون شك ـ فألاً حسناً.

كان بيدرو دي نفار بحاراً مجرباً، وعسكرياً خبيراً ومن ثم لم يكن ليقوم بعملية عسكرية دون معرفة كل المعطيات اللازمة، فالاقتراب من طرابلس خطير بسبب انتشار المساحات الرملية في كل مكان، والوقوع في هذه الرمال يعني أن تكون تحت رحمة العدو، ومن ثم فلا بد من استطلاع مسبق. كُلِّف العقيد البندقي ديجو دي فلانسيا بالمهمة، وبدافع الحرص على أداء مهمته كما ينبغي اقترب العقيد البندقي من المدينة لدرجة كشفته للسكان الذين أسرعوا لتجميع قواتهم من كل جانب، وتحصنوا. وهكذا سقط عنصر المباغتة، وكان لدى الطرابلسيين الوقت للاستعداد. وكانت قد وصلت أنباء عن تحركات الجيش، كما أن تجاراً من جنوا أخطروا السكان بالخطر المحدق بهم منذ أكثر من شهر.

إن مهاجمة مدينة محصنة من البحر ليس بالأمر الهين، فقبل النزول إلى البر من المهم تحييد دفاعات الأسوار والمتاريس، وهذا شأن القوادس، وقد اقتربت هذه «**ودكت المدينة بقسوة بالغة لدرجة أن المغاربة هربوا تاركين مدافعهم ودفاعاتهم**».

بدأ الهجوم عند الساعة التاسعة صباحاً بأحد عشر ألفاً من الرجال، ولاقى مقاومة عنيدة وسقطت فيه أعداد كبيرة من القتلى والجرحى من الجانبين. وفي الساعة الحادية عشر، وصل الإسبان إلى الأسوار، وانسحب حاكم المدينة وأقاربه إلى القلعة، ولجأ

الآخرون إلى الجامع الكبير باستثناء عدد تحصن في الأبراج. وتم اقتحام المسجد أثناء الليل حيث قتل فيه أكثر من ألفين من الرجال ألقي بجثثهم في آبار أو في البحر، كما استسلم المتحصنون في الأبراج. وبعد بعض المقاومة استسلم حاكم المدينة وأخذ سجيناً هو، وزوجته، وولديه وبعض أعمامه وأشخاص آخرون[14]، وتم نفيهم إلى صقلية[15].

وصلت حصيلة المعارك إلى ستة آلاف قتيل من المغاربة، وخمسة عشر ألف أسير، وأعداد لا تحصى من الهاربين. أما الغنائم فقد كانت ضخمة: ذهب وفضة وجواهر، وأثاث، ورقيق. وبالإضافة إلى ثروات المدينة، وجد المنتصرون عدداً من البواخر على أبواب المدينة: «**مركب سعة مائة برميل، وغليونيه ذات اثنين وعشرين مقعداً لم يكن قد انتهى من تشطيبها، ومركبان كبيران ذات ثمانية عشر مقعداً لكل منها، وخمس قوارب، وغيرها**».

وفي الأيام اللاحقة وصل عدد من الربابنة، الذين لم يكونوا على دراية بما حدث، إلى الميناء. حيث وصلت مركب تركية من الشام محملة بالتوابل، وعدة مراكب من اليونان، والاسكندرية وغيرها محملة بالبضائع والسلع «**وتحقق منها ربح كبير**»[16].

لقد حقق الإسبان انتصاراً عظيماً، ولكن ماذا فعلوا به؟ لقد سيطروا دون شك، ولكن على مدينة مدمرة، ومنهوبة، وخالية من سكانها. ولقد بقوا داخل الأسوار معزولين عن بلد معبأ ضدهم بكامله، لم يكونوا يخرجون من ملجأهم داخل الأسوار إلا في بعض الأحيان للقيام بغارات سريعة في الريف المجاور بغرض

النهب، وأسر مواطنين من أجل استرقاقهم ونقلهم إلى صقلية[17]. ولم يكونوا يجرأون على المغامرة بالذهاب بعيداً. وعلى بعد خمسة عشر كيلو متر تقريباً لم تكن مدينة تاجوراء الساحلية حيث لجأ الهاربون الناجون من المعارك، تخضع للإسبان بل تنظر[18] إليهم بازدراء. وفي الغرب حاول الإسبان الاستيلاء على جزيرة جربة، ولكن العملية فشلت فشلاً ذريعاً[19] بسبب الإعداد السيء لها، وهكذا لم يعرف ـ أو لم يستطع ـ بيدرو دي نفار استثمار نجاحه لا عسكرياً ولا سياسياً.

لقد مثلت طرابلس النقطة الأقصى للتوسع الإسباني في شمال أفريقيا، وقد كان التوسع أبعد منها يتطلب طاقات بحرية وعسكرية تفوق إمكانات الملك الكاثوليكي. وفضلاً عن ذلك، أو لم يكن كافياً في الوقت الذي سيطر فيه الأتراك على سوريا ومصر، أن أصبح البحر المتوسط مقسماً إلى قسمين بخط يمتد من نابولي إلى طرابلس؟.

إذا كان العقد الأول من القرن السادس عشر إسبانياً، فإن العقد الثاني كان عثمانياً. فخلال سنتين ونصف بين 1514 إفرنجي، 1517 إفرنجي استولى السلطان سليم على الجزء الغربي من فارس، وعلى سوريا ومصر. كانت بداية المعارك مع فارس. لماذا كانت الحرب بداية مع فارس؟ عند وصول السلطان سليم إلى السلطة قرر القضاء على أخوته وأبناء أخوته، ونجح أحد هؤلاء في الهرب إلى فارس والاحتماء بالشاه إسماعيل مؤسس الأسرة الصفوية. وبالإضافة إلى هذا الدافع الشخصي كان هناك عامل ديني، فسليم ـ ككل

العثمانيين ـ كان سنياً، وكان اسماعيل شيعياً اثنى عشرياً. تمت المواجهة يوم 24/ 5/ 1514 إفرنجي في شرق بحيرة الرمية (Urmiyah)، وفيها تم سحق الجيش الفارسي بمدفعية الجنود الانكشاريين. وفي سنة 1515 إفرنجي، استولى العثمانيون على مدينة تبريز، عاصمة إسماعيل، وعلى العراق، وجزء من أرمينيا.

كان قنصوه سلطان مصر قد وعد إسماعيل بمناصرته، وبحجة قيامه بدور الوسيط توجه قنصوه إلى سوريا، ولكن السلطان سليم لم يكن غافلاً فقد أعلن الحرب على قنصوه، وتقابل الجيشان شمال حلب بتاريخ 2/ 5/ 1516 إفرنجي وعهد قنصوه بقيادة ميسرة جيشه لحاكم حلب، ولكن هذا الأخير خان، وبمجرد هجوم الفرسان غادر ميدان المعركة بقواته. وبسبب هذا أصيب السلطان قنصوه، الذي كان عمره خمس وسبعون سنة، بسكتة دماغية. كانت الهزيمة ساحقة ودخل السلطان سليم دمشق منتصراً.

في السنة التالية زحف المنتصر (السلطان سليم) على مصر التي تولى فيها السلطة تومان بك أحد عبيد قنصوه خلفاً لهذا الأخير. وبتاريخ 22/ 6/ 1517 إفرنجي خرج سلطان مصر الجديد من القاهرة لملاقاة زحف السلطان سليم، ولكن تومان بك هُزم بالرغم مما أظهره من براعة. وهكذا دخل السلطان سليم العاصمة (القاهرة)، ونهبها، وقتل جميع المماليك الذين وقعوا في أيديه. وقد تم شنق تومان بك على أبواب المدينة بعد أن قام بتسليمه شيخ بدوي استقبله بعد هروبه. حدث هذا بتاريخ 14/ 4/ 1517 إفرنجي، وهو التاريخ الذي يمثل نهاية حكم أسرة المماليك الذين

حكموا مصر طيلة مئتين وسبعة وستين سنة. وعلى أثر هذا أعلن شريف مكة ولاءه للسلطان العثماني وتعهد بالدعاء له في خطبة الجمعة[20].

أعطت هذه الانتصارات الساحقة للعثمانيين كل السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وأصبحت المنافسة منذ ذلك الحين مفتوحة بينهم وبين الإسبان. وحدث تطور ليس أقل إيلاماً في الغرب بنجاح العثمانيين في الحصول على موقع قدم في الشمال الإفريقي. لقد كانت هناك نقطة ضعف في الترتيبات العسكرية التي وضعها الملك الكاثوليكي وهي الجزائر التي غزاها الإسبان ولكنهم لم ينجحوا في احتلالها، واكتفوا ببناء قلعة بنون (le Penon) على جزيرة صغيرة تتحكم في مدخل الميناء، وهو ما وضع حداً لحركة القرصنة[21]. أو لم يكن هذا هو الهدف؟ لكن السيطرة على الجزائر كانت أمراً حيوياً، وهو ما تأكد بعد ذلك.

كان الاستيلاء على الجزائر يبدو غير ممكن، ولكن الحقيقة غير ذلك. فما عجز عنه أسطول إسباني كبير، نجح في تحقيقه قرصان يسمى عروج (Aruj) معروف عند الأوروبيين باسم برباروس (Barberousse)، وأصله يوناني من جزيرة ميتيلين (Metylene) المسماه كذلك لسبوس (Lesbos). وقد كان أبوه مسيحياً عاملاً في صناعة الفخار يسمى جاكوب (Jacob)، ولديه ثمانية أطفال أكبرهم عروج يليه ثلاثة أولاد وأربعة بنات.

كان عمر عروج واحداً وعشرين سنة عندما رست سفينة ربان تركي في الميناء، ولما كان مهتماً بتخفيف الأعباء عن عائلته فقد

ذهب لملاقاة قائد السفينة وتوسل إليه أن يستخدمه، وتحول بعدها إلى الإسلام. وقد أظهر مقدرة دفعت أصحاب السفن إلى توليته قيادة سفينة سريعة. وأثناء تجواله مر على جزيرة ميتيلين (Metylene) وأحضر معه اثنين من أخوته. بعدها بدأ نجمه في الصعود. ووجد في تونس، حيث ارتبط بصداقة مع الملك محمد، قاعدة آمنة. في سنة 1508(*) إفرنجي خرج من ميناء حلق الوادي (La Goulette) بقادسه الحربي ومركبين شراعيين صغيرين واستولى على غنيمة أحضرها إلى تونس وقام بتسليحها. في سنة 1510 إفرنجي، عينه ملك تونس حاكماً لجزيرة جربة (الجلف آنذاك)، وحدث أن استولى بيدرو دي ناڤار على بجاية (Bougie) التي استنجد ملكها بعروج. وكان تحت إمرة عروج في ذلك الوقت أكثر من ألف من الأتراك الذين التحقوا به على ضوء نجاحاته. لم يتردد عروج في مهاجمة بجاية بهدف تخليصها من الإسبان، وأثناء المعركة بترت رصاصة ذراعه مما أثر على معنويات جنوده وأدى إلى تراجعهم. وانسحب عروج إلى حلق الوادي (La Goulette) ثم إلى تونس. وترك في جربة أخاه خير الدين وأوكل إليه مهمة بناء سفن. كان الانسجام تاماً بين الشقيقين.

في سنة 1512 إفرنجي، كان تحت إمرته اثني عشر سفينة شراعية حربية، ثمانية منها ملكه. وهكذا أصبحت طموحاته بدون حدود.

(*) وردت في الأصل 1805 افرنجي. المترجم.

جربة قاعدة ممتازة، ولكنها بعيدة جداً، وكان عروج في حاجة إلى نقطة انطلاق على الواجهة الشمالية لأفريقيا الشمالية، وفكر من جديد في بجاية (Bougie). وعاد إلى جربة في مايو سنة 1513 إفرنجي لإعداد ما يلزم. في سنة 1514 إفرنجي أكمل استعداداته وأبحر بسفنه الإثني عشر وعلى متنها ألف ومائة تركي، وقام بمحاصرة بجاية وفشل مرة أخرى، وأنسحب إلى جيجلي (Gigeli) الواقعة على مسافة سبعين كيلو متراً إلى الشرق. ولكنه لم ييأس، وبرزت له بعد قليل مدينة الجزائر كبديل أفضل من بجايه. سبق وأن عرفنا أن الإسبان عندما عجزوا عن الاستيلاء على هذه المدينة قاموا بقفل مينائها حيث أن ما كان يهمهم هو منع سكانها من مزاولة أعمال القرصنة. لكن سكان مدينة الجزائر الذين حرموا من مصدر رزقهم الأساسي، لم يستسلموا فعندما علموا في بداية سنة 1516 إفرنجي بوفاة ملك الإسبان فرديناند الذي كان وراء كل ما حاق بهم، رأوا أن وقت الانتقام قد حان. ومن أجل تحقيق هدفهم دعوا عروج. استجاب القرصان دون تردد بإرسال ستة عشر سفينة حربية على متنها خمسمائة تركي، بينما توجه هو براً على رأس ثمانمائة تركي مسلحين بالبنادق، وثلاثة آلاف من مغاربة الجبال[22].

وحاول الاستيلاء على قلعة البنون (Le Penon) ولكن دون جدوى، فقرر الاستيلاء على المدينة، وقام بمباغتة سكانها وقتل أميرها وحل محله. لم يتم هذا بالسهولة المتوقعة. فقد اكتشف سكان المدينة أنهم خدعوا، خاصة وأن الإسبان كانوا يتحكمون في مدخل الميناء، فقاموا بتدبير مؤامرة مع العرب في المناطق المجاورة

والمسيحيين، ولكن عروج قمع هذا العصيان بإعدام المسؤولين الرئيسيين عنه. استنجد العرب بملك تونس الذي جمع عشرة آلاف من الفرسان وتوجه إلى مدينة الجزائر، وفي كل محطة كان الجيش يتعزز بفرسان ومشاة لأن الأتراك كانوا مكروهين. لم ينتظر عروج أن يحاصر وفضل أخذ زمام المبادرة. كان واثقاً من شجاعة جنوده الأتراك وتسليحهم الأقوى. كان جنوده مسلحين بالبنادق، التي لم تكن متوفرة[23] للعرب والمغاربة، وكان تقديره صحيحاً. وبالفعل تمت المواجهة بعد يومين في أرض مكشوفة، وتمت هزيمة العدو. منذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد على منازعة عروج على السلطة[24] في مدينة الجزائر.

شجع النجاح الذي حققه عروج على أن يستهدف هدفاً كبيراً وهو احتلال تلمسان، وتتوفر حول هذه العملية التي تمت بسرعة وبدون معارك روايتان مختلفتان. تعود الرواية الأولى لفري ديجو دي هايدو (Fray Diego de Haedo)، وهو من رهبانية القديس (Benoit) وقسيس فروميستا (Fromesta) والذي ألف كتاباً تحت عنوان (طبوغرافيا الجزائر وتاريخها العام)، وهو مؤلف يمكن الركون إليه لأن صاحبه جمع وثائقه في الجزائر أثناء أسره فيها خلال المدة (1578 ـ 1581 إفرنجي). وقد تم نشر هذا الكتاب في فالادوليد (Valladolid) سنة 1612 إفرنجي من قبل دون ديجو دي هايدو (Diego de Haedo) أسقف بالرمو (Palerme) والمشرف العام لمملكة صقلية.

أن رواية دي هايدو موجزة. فقد كتب أن سكان تلمسان طلبوا

تدخل عروج بسبب تذمرهم من ملكهم الذي كان متحالفاً مع الإسبان. ترك عروج أمر الحكم في مدينة الجزائر لشقيقه خير الدين، وزحف على تلمسان ودخلها دون مقاومة، فقد هرب ملكها بمجرد اقتراب عروج منها. وأستنجد ملك تلمسان بشارل الأول الذي خلف جده فرديناند على عرش إسبانيا، وتقررت عملية عسكرية، وكلف الحاكم العام لوهران الماركيز كوماريس (Comares) بطرد المعتدي. ووجد عروج، هذه المرة، نفسه في مواجهة قوات تتفوق عليه كثيراً فهرب ولكن الماركيز لحق به وهزم الأتراك وأبادهم وكان عروج[25] بين الموتى.

هل تمت الأمور بهذه البساطة؟ لا يبدو ذلك. فقد قدم جان بيرو (Jean Berot) في كتابه (Diarium expeditionis Tunetanae anno 1535 susleptae) المنشور في لوڤان[*] (Louvain) سنة 1554 إفرنجي رواية أكثر تفصيلاً. في هذه الرواية لم تكن المبادرة من أهل تلمسان، ولكن من قبل عروج الذي تصور خدعة امتزجت فيها المهارة مع القسوة البالغة من أجل تحقيق هدفه. وكانت الخطة تقوم على تحريض أهالي تلمسان على التخلص من ملكهم وتنصيب آخر في المرحلة الأولى، ثم التخلص من هذا الأخير والحلول محله. كان عروج يعرف التأثير الكبير للمرابطين «**ومن خلالهم أقنع أهالي تلمسان بالعمل على إسقاط ملكهم حليف المسيحيين إذا كانوا لا يرغبون في إغضاب النبي ـ محمد ﷺ ـ حيث أنه ليس من المقبول توافق مسلم مع مسيحي**». كان هدف عروج بكل وضوح

(*) مدينة بلجيكية.

الوصول إلى العرش الشاغر، وكان يهمه ألا يتهمه أهالي تلمسان بالاستيلاء على السلطة بالقوة ومن ثم وضع خدعة. كان للملك ابن أخ يحتفظ به في السجن مخافة أن يتآمر ضده. وكانت خطة عروج تقضي بإخراج ابن أخ الملك من السجن وتتويجه مكان عمه. وجد اقتراح عروج قبولاً من أهالي تلمسان الذين طردوا الملك، و«**فكت قيود المراهق الحديدية، الذي أسرع بالتفاخر بحمل الإشارات الملكية، وكم كان هذا الطموح للسلطة أعمى ومهلكاً! فقد قام عروج باغتيال هذا الشاب الذي كان مقدراً له أن يتولى عرش تلمسان. يا لشقاء هذا المراهق الذي أخرج من السجن وتخلص من أيدي عمه المجرمة ليقع صريع خنجر قرصان**».

كان لدى بيرو (Berot) الحس بالمأساة، واستشعار البعد الأخلاقي. فإذا كان الطموح قد لقي عقابه فإن الجريمة لم تمر، هي كذلك، بدون عقاب، وكان الإسبان هم وسيلة العدالة. قال لنا ذلك دي هايدو، بيد أن كاتب اليوميات (Diarium) أخبرنا أن عروج قبل أن يصرع حاول القيام بجريمة أخرى. فلمحاولة الهروب من تلمسان كان عليه خداع المُحَاصِرين ولهذا أجبر الأسرى المسيحيين على فتح ثغرة في الأسوار. وعندما انتهى هؤلاء من عملهم قام بقتلهم. وهكذا استطاع الخروج ليلاً مع مائة من الفرسان، وانتبه له بعض الفرسان الإسبان ولاحقوه، ولم يدركوه إلا على بعد حوالي أربعين ميلاً من المدينة في مكان ظليل استراح فيه مع رجاله لبعض الوقت.

ودارت معركة طاحنة وغير متكافئة بين الطرفين.

كان الإسبان، الذين كانوا أقل من أربعين، على شفا الهزيمة عندما وصل المشاة لنجدتهم «وأخيراً هزم عروج، ليس بسبب شجاعة المحاربين ولكن بالتفوق العددي، وتحقق لنا النصر ولكنه كان نصراً باهظ الثمن. وتم نقل رأس هذا الطاغية إلى تلمسان[26] ثم إلى إسبانيا»[27].

نلاحظ بإعجاب الاحترام الذي عبر عنه كل الكتاب العسكريين في القرن السادس عشر للجنود الأتراك، فقد اتفقوا مع بيرو (Berot) على الاعتراف بشجاعة، وضراوة الأتراك وقوة تحملهم التي لا تصدق.

عندما وصل نبأ موت عروج إلى الجزائر، قام الجنود[28] بإعلان شقيقه خير الدين ـ الملقب ببرباروس ـ أميراً. نحن الآن في سنة 1518 إفرنجي أو بداية 1519 إفرنجي[29]، وحدث توافق غريب في هذه السنة، فقد أوصلت حادثة غير متوقعة إلى السلطة في الجزائر من سيصبح باني القوة التركية في البحر المتوسط، وتم تتويج شارل الأول ملك إسبانيا أمبراطوراً جرمانياً تحت اسم شارل كنت (Charles Quint).

قبل أن ندخل في سرد الصراع الطويل بين خير الدين وشارل كنت، لنتوقف عند طرابلس التي شهدت حادثة لا يقلل من أهميتها البالغة كونها سلمية لأنها ستمكننا من رسم صورة للوضع في البلاد الطرابلسية، تجارتها وعلاقاتها مع الداخل (الجنوب) بعد ثمان سنوات من الاحتلال الإسباني. ففي سنة 1518 إفرنجي وصل الرحالة العربي الحسن بن محمد الفاسي[30] إلى المدينة. كان

حينها غير معروف، ولكنه اشتهر بعد اثنين وثلاثين سنة بصدور كتابه (وصف أفريقيا) في إيطاليا، وقد كان عمره ثلاث وعشرون سنة عند وصوله طرابلس.

كان الحسن شديد الاهتمام بكل شيء؛ العمارة، والأسلحة، والسياسة، والتجارة. وكان محباً للاستطلاع، يلاحظ ويراقب ويسأل. لم يكن يكتفي بسؤال تجار مدينة طرابلس والمدن المجاورة، ولكن اهتمامه امتد إلى المتعاملين مع الداخل الذين كانوا يقومون بزيارة بلدان البربر ـ النوميديون كما كانوا يسمونهم ـ، وربما المناطق المجهولة الواقعة ما بعد الصحراء.

كانت الكآبة تعم طرابلس في سنة 1518 إفرنجي كما كان الحال قبل ثمان سنوات، أي بعد الاحتلال الإسباني مباشرة. كانت المدينة التي لم تصلح إلا أسوارها، مهجورة، ولا زال الوالي في الأسر في منفاه في ميسينيا، وكانت هذه ظروف غير ملائمة لنشاط التجارة. كان صمت الحسن عن التجارة في طرابلس ذا دلالة. فقد هجرت القوافل طرابلس إلى مصراتة التي ازدهرت بسبب الركود في طرابلس. **«كان السكان في مصراتة يملكون ثروات ضخمة، ولا يدفعون أي نوع من الضرائب أو الرسوم. كانوا يشترون البضائع التي تأتي بها سفن البندقية، وينقلونها إلى نوميديا حيث يقايضونها مقابل الرقيق، والمسك، وعطر الزباد التي تأتي من أثيوبيا، ويصدرون كل ذلك إلى تركيا، وهكذا يحققون أرباحاً مضاعفة»**[31].

لقد أوردت هذا الاستشهاد عن قصد، لأنه يستحق أن ينتبه إليه، فما أورده المؤلف هو تجارة في ثلاث اتجاهات؛ فمصراتة

تستقبل السلع المصنعة من أوروبا، وتقايضها في الداخل ثم تصدر ما تحصل عليه إلى تركيا. وهكذا كانت الحركة: أوروبا تصدر، وبلدان السود تستورد وتصدر، وتركيا تستورد، ومصراتة هي التي تدير التبادل وتثري. توصف تجارة الرقيق مع أمريكا بأنها كانت ثلاثية، ولكن الوصف الذي ينطبق هنا هو أنها في شكل حرف Y، وبقيت هذه الصورة حتى نهاية القرن التاسع عشر.

لم يكن تجار مصراتة يغامرون بالذهاب إلى بلاد السود، فهم لا يتجاوزون نوميديا أي بلدان البربر، وهناك يقايضون السلع الأوروبية بسلع أثيوبيا، أي بلدان السود، طبقاً لمصطلحات هيرودوت التي استعارها الحسن. وهذا يعني أن الحركة بين البلاد الطرابلسية وبلدان السود لم تكن مباشرة. على الطريق كانت هناك محطات، كما نعرف، وهي فزان وغدامس، وهناك يلتقي التجار القادمون من الساحل والقوافل القادمة من الجنوب، وتتم المعاملات ويتوجه كل إلى نقطة انطلاقه.

وبقيت هذه الآلية دون تغيير طوال فترة استمرار التبادل بين الحوض التشادي، والبحر المتوسط، أي حتى بداية الحقبة الاستعمارية.

لم تتح الفرصة ـ بكل أسف ـ للحسن ليذهب مع القوافل نحو الجنوب، ولكنه استفسر وجمع معلومات. وإذا كان لم يسلك تلك الطرق، فإنه عرف المسارات. فهناك، أولاً، فزان ملتقى الطرق العابرة للصحراء، والتي كانت مملكة مستقلة أو بالأحرى جمهورية. عنها كتب الحسن: «يحكمها ويديرها سيد كان إماماً

للناس، ويقوم بتوزيع إيرادات البلاد على الشعب بعد استقطاع بعض المبالغ النقدية المستحقة للعرب».

من هذا الوصف الموجز تبرز ثلاث حقائق: الأولى أن الحاكم كان من أبناء البلاد وهو ما يعني أن أسرة محمد الفاسي لم تصل بعد إلى السلطة. كما تستوقفنا الطبيعة الخيرية للسلطة حيث توظف كل الإيرادات لصالح الناس، وكذلك المبالغ المحفوظة للعرب تعاقدياً. ويبدو من المؤكد أن الدور الرئيسي للحاكم كان تأمين السلام والوفاق بين الحضر والبادية. وسنرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن القبيلة العربية القوية أولاد سليمان كانت تأتي من سرت كل سنة لجمع التمور، وكذلك لإظهار تحالفها الوثيق مع حاكم فزان. هل كان هذا التوافق الغريب موجوداً في سنة 1518 إفرنجي؟ يبدو أن نص الحسن يوحي بذلك.

كانت المبادلات بين البحر المتوسط وبورنو تتم عادة في فزان، بينما كانت تتم المعاملات مع كانو، وتومبكتو في بعض الأحيان، في غدامس. كانت لغدامس «التي كانت في السابق تحت حكم ملك تونس بواسطة طرابلس». حكومتها الخاصة بها، ويبدو أنها تخلصت من ظلم الحفصيين وكذلك من التبعية لطرابلس سنة 1497 إفرنجي. كانت مساحتها محدودة لا تضم إلا بعض القرى، وعدداً من القلاع التي تحميها من الغزو. ويلاحظ الحسن أن «سكانها كانوا أغنياء بما يملكونه من نخيل ونقود، وينشطون في بيع كميات كبيرة من السلع في أرض السود، مع دفع بعض الرسوم للعرب»[32].

يقودنا الحسن، بعد هذه المحطات التجارية الرئيسية ملتقى

الطرق العابرة للصحراء، إلى أغاديس في قلب منطقة الاير، منطقة الطوارق. ما يشد انتباه الزائر في أغاديس بعد عبور الأسوار هو المظهر الحديث لمبانيها. «كانت المنازل مبنية بطريقة جيدة كالمنازل في شمال أفريقيا». والسبب «أنه لا يكاد يوجد فيها إلا تجار أجانب، والعدد القليل جداً من سكانها الأصليين كانوا حرفيين أجراء لملك المدينة».

كانت أغاديس مدينة تجارية على علاقة بالبحر المتوسط في الشمال، وكانو وبورنو في الجنوب. ولكن طرق التجارة لم تكن آمنة، ولهذا السبب «كان التجار من كل بلد يتوجهون في مجموعات مصحوبين بأرقائهم لغرض الحراسة، وكان هؤلاء مسلحين جيداً بالسيوف، والحراب والأقواس ثم بعد ذلك تسلحوا بالأقواس القذافة». كان كل التجار من الأجانب. وماذا عن السكان الأصليين؟ كان أبرزهم الحاكم والذي يوجد قصره في وسط المدينة وكان مصحوباً دائماً بحراسة قوية ولكن سلطته تعتمد على إرادة مواطنيه، «ولهذا كان يحترم مواطنيه من سكان الصحراء والأرياف احتراماً كبيراً، وكان يحدث في بعض الأحيان أن يخلع هؤلاء ملكهم ويختارون آخراً. وهكذا كان القادر على إرضاء سكان الصحراء هو الواثق من الوصول إلى عرش أغاديس».

كانت إيرادات أغاديس تأتي من الضرائب التي تفرض على السلع العابرة، وكان ملكها يدفع جزية لملك تومبكتو مقدارها مائة وخمسون ألف دوكا(*).

(*) وحدة نقدية بندقية من الذهب.

مثلت أغاديس بلد عبور بين أفريقيا البيضاء وأفريقيا السوداء، ويرى هذا على سكانها الذين كانوا أكثر بياضاً من السود الآخرين. وكانت تتبعها مساحات شاسعة تمتد شمالاً إلى حدود فزان، منطقة أصحاب الجمال، وتمتد جنوباً حتى السهول التي نسميها اليوم داميرقو (Damergou) وسكانها من رعاة الأبقار والأغنام. وعن هؤلاء كتب الحسن وصفا ذا دلالة «**أنهم يسكنون أكواخاً مصنوعة من أعواد القصب ينقلونها من مكان إلى آخر على ظهور الأبقار، ويقيمون أكواخهم في أماكن رعي قطعانهم كما يفعل العرب**».

ونتعرف هنا على خيمة القصب التي لا زال العرب والقرعان يستعملونها في حوض تشاد حتى يومنا هذا. لم يكن الرحالة الشمال الأفريقي يشعر بأي غربة في أغاديس، فكل ما حوله يذكره ببلده الأصلي، ويتغير الحال عندما يتوجه أكثر نحو الجنوب في الممالك السودانية في نهاية رحلته. فذكرياته تبدو غير مؤكدة وأحكامه أقل موضوعية. فعن كانو لا يقول إلا القليل حيث يذكر أنها مدينة محاطة بسور من الطين وهو ما لم يمنع مؤخراً ملك تومبكتو من الاستيلاء عليها. ومنذ ذلك الوقت وكانو تدفع الجزية لتومبكتو. وقد كان سكان كانو من التجار «**الأثرياء وفي غاية التهذيب**»[33].

يصف الحسن بورنو بعد كانو. وتبدو المعلومات التي أوردها غير واضحة، وغير متسقة، وأحياناً غير قابلة للتصديق على ضوء ما نعرفه من مصادر أخرى لدرجة يبرز معها الشك في أن مخبريه قد قاموا فعلاً بزيارة بورنو. ومن المحتمل أنه أستقى معلوماته من تجار

مغاربة وعرب لا يهمهم من هذه المناطق إلا ما يعود عليهم من أرباح. إنهم، بدون شك، من تجار الخيول الذين كانوا يودعون حيواناتهم في فزان لتجار القوافل الذين يتولون بيعها. كانت الأرباح كبيرة في سوق بورنو حيث كان الحصان يقايض بخمسة عشر أو عشرين عبداً. كان الزبون الرئيسي هو الملك الذي لا يكلفه الرقيق، إلا الإغارة على بلد العدو أي بلد الكفار. وعن العاصمة برني قازرقامو (Birni Gasergamu) وعن سكانها المسلمين لا يذكر المؤلف شيئاً، بعكس إطنابه عندما تعلق الأمر بوصف المجموعات الوثنية التابعة للمملكة. ويفسر عدم التناسب هذا، بأن بورنو في حد ذاتها بسكانها المسلمين كانت منطقة صغيرة محاطة بشعوب وثنية[34] من كل جانب.

في الوقت الذي كان فيه الحسن يجمع معلوماته، كان على عرش بورنو الملك إدريس، ابن الملك علي (1497 ـ 1519 إفرنجي)، الذي اشتهر بغزواته المظفرة على كانم. وبالرغم من أنه استعمل الخيول كثيراً فلا شيء يوحي بأنه تحصل على أسلحة نارية. فلم تكن البندقية قد ظهرت بعد في جنوب الصحراء إلا كمادة لحب الاستطلاع لدى ملك جاوجا (Gaoga) الذي أهداه الأمير دي دامييت (De Damiette) واحدة لا غير[35]، بعكس القوس القذاف الذي كان خطيراً جداً في أيدي الأتراك، والذي انتشر هناك بشكل واسع، وقد رأينا تجار أغاديس يستعملونه للدفاع ضد قطاع الطرق.

ما الذي حدث لطريق القوافل التي تمر بكوار خلال الحرب التي استمرت مائة سنة (1460 ـ 1564 إفرنجي) بين بورنو وبلالة

كانم؟ هل توقفت فيها الحركة بسبب حالة عدم الاستقرار؟ هذا ما توحي به قراءة ما كتبه الحسن. صمته عن كوار[36] ذو دلالة، فما كان ليغفل ذكرها لو أن القوافل استمرت في استعمال نفس الطريق، ويبدو أن المسافرين قد اضطروا للمرور بمنطقة الاير.

هذا ما أخبرنا به الحسن بن محمد الفاسي عن العلاقات بين البحر المتوسط وتشاد سنة 1518 إفرنجي. إن تحقيقاته قيمة خاصة وأنها ربما الأخيرة التي تناول فيها أفريقيا. فقد تم أسره من قبل قراصنة مسيحيين بعد ذلك بقليل، ووصل إلى روما سنة 1520 إفرنجي تقريباً، وتم تعميده تحت اسم جان ليون (Jean Leon) وسيعرف بعد ذلك باسم ليون الأفريقي. وبدأ كتابة مؤلفه (وصف أفريقيا) الذي انتهى منه في 10/ 3/ 1526 إفرنجي، ولكنه لم ينشر إلا سنة 1550 إفرنجي وحقق بمجرد صدوره نجاحاً كبيراً. وقد أعيد نشره سنة 1554 إفرنجي، وقام بترجمته إلى الفرنسية تامبورال (Temporal) سنة 1556 إفرنجي، ثم ترجمه إلى الإنجليزية (John Pory) سنة 1600 إفرنجي. كان كتاباً رائجاً، وأخذ عنه كل الكتاب المعاصرين الذين كتبوا حول أفريقيا دون تردد. ولكن لا النجاح، ولا الأمجاد التي حققها الحسن أنسته أصوله. فلم يستطع مقاومة الرجوع إلى أفريقيا حيث عاد إلى تونس وهناك توفي مسلماً تقياً.

لم يتوقف ليون عن متابعة الأحداث في شمال أفريقيا طوال مدة إقامته في روما. وهكذا علم بأن شارل كنت حرر حاكم طرابلس وابن عمه واختار هؤلاء العودة إلى مدينتهم[37]. وقد تطرق مارمول (Marmol) لهذه الواقعة وأضاف «قام **الشيخ الذي كان**

حاكماً للمدينة بإعادة إسكانها بحلفاء باسم الامبراطور»[38]. وهكذا انتهت فترة طويلة من عدم الاستقرار كانت بالغة الضرر لازدهار طرابلس واستطاع التجار وأصحاب القوافل البدء في العودة إلى نشاطهم. إذا كان لنا أن نصدق أنانيا (Anania) فقد كتب أن الإسبان لم يكونوا يعارضون العمالة القادمة من وراء الصحراء، وكان الرقيق الأسود المباع في طرابلس يوجه إلى صقلية[39].

في سنة 1519 إفرنجي، وبعد وفاة ماكسيمليان ـ النمسا، واختيار شارل ملك إسبانيا امبراطوراً جرمانياً، بدأ الأخير سياسة جديدة في الشمال الأفريقي، فلم يكن الوقت للعداء وانعدام الثقة. عمل الزمن عمله في تهدئة العواطف وخفض الأحقاد، خاصة وأن الخطر التركي كان يدفع في اتجاه البحث عن حلفاء من العرب والمغاربة. وقد مثل إطلاق سراح حاكم طرابلس، وعودته إلى مدينته التي أعاد إسكانها باسم الامبراطور، أول النجاحات، وتلته نجاحات أخرى.

الفصل الثاني

الاستعداد للحرب

دامت المواجهة بين العثمانيين والمسيحيين في البحر المتوسط نصف قرن، من 1522 إفرنجي إلى 1573 إفرنجي. كان التحدي كبيراً سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي، وشهد تغيرات عدة، وتقلبات غير متوقعة أدت إلى تعقيدات يصعب معها التمييز والفرز. وبالرغم من تضخم الأحداث وتداخلها، إلا أن عدد أبطالها الذين أداروها محدود، لحسن الحظ، وهو ما جعل من الممكن تبين نسيج الأحداث بالرغم من تعقدها. سنرى، بالتتابع، ظهور شارل كنت الامبراطور الجرماني وخصمه السلطان العثماني سليمان اللذين دخلا مسرح الأحداث في نفس الوقت تقريباً. وبجانب هاتين الشخصيتين الاستثنائيتين برز على مسرح الأحداث بطل استثنائي ثالث، ليس في شكل شخص طبيعي، وإنما منظمة دينية هي رهبانية القديس يوحنا القدس. كما برز الأمير أندري دوريا «Andre Doria» قائد أسطول شارل كنت في المتوسط لفترة قصيرة. وأخيراً ظهر فجأة خير الدين بربروس، الرجل الذي كان الخصم والمنافس الحقيقي لشارل كنت طوال الفترة من 1534 إلى 1546 إفرنجي.

فيما يلي استعراض لهذه الشخصيات:

شارل كنت Charles Quint:

عندما تم انتخاب شارل كنت امبراطوراً أثر وفاة ماكسميليان النمسا سنة 1519 إفرنجي، كان عمره تسعة عشر عاماً، أي أنه ولد مع القرن السادس عشر. وكان في هذه السن المبكرة يتمتع بكل مزايا القيادة: الذكاء النافذ، والسيطرة على الانفعالات، والتكتم لدرجة لا يستطيع أحد معها الادعاء بفهم حقائق شخصيته. كان من الناحية الجسمانية قوياً، وكان جريئاً، وشجاعاً لا يتردد في أن يقود بنفسه قواته إلى المعارك، وهو ما جعله يحظى بإعجاب وثقة جنوده. له عيوبه كذلك، فقد كان قليل الجاذبية، جافاً، قاسياً، ولم يعرف بكرم متميز. كما كان متديناً جداً، وهو ما جعل الحرب ضد الأتراك بالنسبة له، حرباً صليبية حقيقية. ولا يرقى الشك لإخلاصه للكنيسة الرومانية، وإذا كان قد حارب البابا، وكان مسؤولاً عن نهب روما سنة 1527 إفرنجي، فإن هدفه لم يكن البابا وإنما الأمير الحاكم. كان الوضع يتطلب التمييز في القرن السادس عشر.

كانت مناطق نفوذه تشمل إسبانيا وتوابعها: نابولي، وجزر سردينيا وصقلية والبليار. وفي أوروبا الوسطى كانت تتبعه ألمانيا والنمسا، والأراضي الواطئة، وبرغونيا(*) بالإضافة إلى العالم الجديد حيث كان يكثر الذهب. كانت امبراطورية شاسعة ذات

(*) منطقة فرنسية حالياً ـ المترجم.

موارد ضخمة، ولكنها هشة، وقد برز له خصم رهيب، نازعه عليها وهو السلطان العثماني سليمان القانوني.

السلطان سليمان:

سماه الأتراك سليمان القانوني، ونحن نسميه «البديع» فهو الذي أوصل الامبراطورية العثمانية إلى أوجها. خلف والده السلطان سليم الذي توفي في 20/ 9/ 1520 إفرنجي، وعمره لا يزيد عن عمر شارل كنت إلا بسنوات قليلة، فقد كان عمره خمسة وعشرين سنة تقريباً. وكان سليمان موهوباً كالامبراطور الجرماني الشاب. كما كان مثله ـ إن لم يكن أكثر منه ـ شجاعاً قاد بنفسه ثلاثة عشر حملة عسكرية من بينها ستة في أوروبا. كان عسكرياً عظيماً كما كان رجل دولة بارز. وترك إرثاً قانونياً مدهشاً ومن هنا جاءت تسميته بالقانوني. وفي مجال السياسة الخارجية برز كدبلوماسي واستراتيجي بارع، وفرض نفسه حكماً في أوروباً بتوسطه بين شارل كنت وفرانسوا الأول. واهتم بحماية الفنون والآداب والعلوم. لقد كان عهده العصر الذهبي للامبراطورية العثمانية.

بمجرد وصول السلطان سليمان إلى السلطة، أدركت أوروبا بقلق وخوف أن عليها أن تأخذ في اعتبارها عدواً خطراً. ففي سنة 1521 إفرنجي هاجم المجر واستولى على بود (29 أغسطس)، وفي السنة التالية ألحق ضربة جديدة بالمسيحيين في البحر المتوسط بطرده فرسان القديس يوحنا من رودس. يجب الإقرار بأن وجود هذه المنظمة الدينية العسكرية في المياه العثمانية كان يمثل، إلى حد كبير، تحدياً للعثمانيين.

كان السلطان سليم يعد حملته على الجزيرة عندما فاجأته المنية، فواصل السلطان سليمان المشروع. بقي حصار رودس شهيراً، وعنه أعطى فيرتو «Vertot» في كتابه «**فرسان القديس يوحنا القدس**» المنشور في أربعة أجزاء سنة 1726 إفرنجي رواية حولها خلاف شديد. يقال أن فيرتو كتب إلى أحد الفرسان ليحصل منه على بيانات دقيقة حول الحصار الشهير، ولما تأخر الرد كتب فيرتو ما عَنَّ له. وعندما وصلته البيانات المطلوبة كتب «**لقد كنت غاضباً، ولكن حصاري انتهى**». هل كان هذا صحيحاً؟ من الصعب التسليم بهذه الواقعة، وإذا كانت هذه الحادثة قد ابتدعت، فلا شك أن وراءها سبباً. لهذا أفضل الرجوع إلى الرواية التي كتبها بوزيو «Bosio» في كتابه «Istoria della Sansa religione de San Giovanni Gierosolomitanae» الذي نشر في جزئين في روما سنة 1594 إفرنجي.

كان جاك بوزيو، المولود في ميلانو، قسيساً في خدمة رهبانية فرسان القديس يوحنا، وكان مندوبها لدى البابا جريجوار الثالث عشر «Gregoire XIII»، وهو الذي شجع بوزيو على كتابة تاريخ رهبانية القديس يوحنا. لم يكن هناك من هو أقدر منه على هذا العمل، فقد كان في حوزته وثائق الرهبانية، كما كانت لديه الإمكانية، فيمّا يتعلق بتاريخ القرن السادس عشر، لاستشارة شهود أحياء شاركوا في صنع الأحداث.

كانت الكثير من السفن تتوقف في ميناء رودس، الواقعة في منتصف الطريق بين القسطنطينية والاسكندرية، وحالما تصل سفينة

إلى الميناء يسارع الناس للاستفسار عن الأخبار، وهكذا علم الفرسان في 22/6/1522 إفرنجي أن «القسطنطينية تشهد إنزال الكثير من السفن إلى البحر». كان أسطولاً ضخماً ولم يتوان في الظهور أمام الجزيرة. «كان في هذا الجيش مائة قادس بالإضافة إلى ثلاثين غليونيه تتقدمه لتأمين المرور، وأعداد كبيرة أخرى من مختلف الأنواع تحمل المؤن والمدفعية الثقيلة. وبعد بضعة أيام وصلت سفن من سوريا وتوالى وصول السفن. وهكذا تكون الجيش من أربعمائة سفينة تقريباً من مختلف الأنواع، ومائتي ألف رجل بينهم ستون ألفاً للعمل بالمناجم».

عرف الفرسان أنهم لا يستطيعون الانتصار بالرغم من حصانة أسوارهم، وشجاعتهم. لقد قاوموا ستة أشهر، وفي 17 ديسمبر بدأ الأتراك هجومهم النهائي واستطاع المحاصرون الحصول على استسلام مشرف، ووقع السلطان سليمان بنفسه وثيقة شروط الاستسلام، ووفَّى بما تعهد به، وانسحب الفرسان(*) من ميسينيا إلى صقلية(40).

بعد رودس لم تقع أحداث بارزة في البحر المتوسط لانشغال سليمان في أوروبا مستفيداً من الصراع الذي كان قائماً بين شارل كنت وفرانسوا الأول. وقد وصل مبعوث من الملك فرانسوا الأول إلى القسطنطينية ليطلب إلى السلطان مهاجمة المجر لإرباك الامبراطور شارل كنت، فاغتنم السلطان سليمان الفرصة، ومكنه

(*) أينما ترد كلمة الفرسان في هذا الفصل فهي تعنى فرسان القديس يوحنا ـ المترجم.

انتصاران متتابعان من الاستيلاء على بود في 10/9/ 1526 إفرنجي، وشجعه هذا النجاح على مهاجمة النمسا، فظهر سنة 1529 إفرنجي أمام فيينا وحاصرها من 27/9 إلى 15/8، ولكن دون نجاح. في سنة 1532 إفرنجي واصل السلطان سليمان الحرب ضد شارل كنت وتوغل حتى ستيريا «Styria» الولاية الجنوبية ـ الشرقية للنمسا[41].

قام سليمان خلال أثنى عشر سنة بأربع حملات عسكرية مظفرة في أوروبا. لم يكن هذا كافياً لإرضاء السلطان سليمان، ففي الوقت الذي كان يحارب في أوروبا كان الامبراطور يسجل نقاطاً في البحر المتوسط. فقد حدثت واقعتان مقلقتان في المتوسط؛ الأولى سنة 1530 إفرنجي والثانية سنة 1532 إفرنجي. ما الذي جرى سنة 1530 إفرنجي؟ حدثت واقعة لا يمكن أن تصنف عملاً عسكرياً ولكن نتائجها كانت كبيرة على المستقبل، أنها تسليم شارل كنت مالطا وطرابلس لفرسان القديس يوحنا.

رهبانية القديس يوحنا القدس:

كانت رهبانية القديس يوحنا تهتم بالعلاج، فقد تأسست سنة 1099 إفرنجي لاستقبال حجاج الأراضي المقدسة، وانتبه الرهبان في وقت مبكر إلى ضرورة توفير الحماية للحجاج والدفاع عنهم، وهكذا أضافوا في القرن الثاني عشر الخدمة العسكرية إلى الخدمة العلاجية. ومنذ ذلك الوقت أصبح الدفاع عن المسيحيين ضد الكفار الواجب الأساسي للفرسان.

تاريخ هذه الرهبانية تاريخ متقلب مليء بالأحداث، فبعد استيلاء صلاح الدين على القدس سنة 1187 إفرنجي اضطر الفرسان للهرب. وفي سنة 1191 إفرنجي استولوا على مدينة عكا «Acre» التي أجبروا على الانسحاب منها سنة 1291 إفرنجي إلى جزيرة قبرص. في سنة 1310 إفرنجي احتلوا جزيرة رودس، ورأينا كيف طردهم منها السلطان سليمان سنة 1522 إفرنجي، ومنذ ذلك الحين وهم في حالة تنقل دائم. فقد لجأوا أولاً إلى ميسينيا وكان اختياراً غير موفق حيث كان الطاعون منتشراً فيها، فتوجهوا إلى بوزول «Pouzzoles» ثم إلى نابولي. وفي سنة 1523 إفرنجي كان المرشد الأكبر للرهبانية في روما حيث استقبل في 17 ديسمبر من قبل البابا وحصل منه على مدينة فيتربى «Viterbe»، ومثل هذا حلا عشوائياً غير مرض بالنسبة للفرسان. فمن هذه المدينة الواقعة في منطقة لاتيوم «Latium»(*) لا تتأتى مواجهة الكفار[42] التي كان الفرسان ملزمين بها. فبالإضافة إلى الواجبات الرهبانية الثلاث المعتادة، أضاف فرسان القديس يوحنا قسم: «**محاربة أعداء المسيحية طوال حياتهم**»[43].

هل كان هناك أنسب من جزيرة في البحر المتوسط لمحاربة الأتراك كفار ذلك الحين؟ يمكن لهذا الغرض الاكتفاء بمالطا ما دامت رودس غير متاحة، ولكن مالطا كانت تابعة لإسبانيا ومن ثم للامبراطور شارل كنت. وهل كان هذا الأخير مستعداً للتنازل عنها للفرسان؟ للوقوف على مدى استعداد الامبراطور، ذهب إليه

(*) المنطقة المحيطة بروما ـ المترجم.

الفارس بوزيو «Bosio» مندوباً ووافق الامبراطور على ترك مالطا وجوزو لفرسان القديس يوحنا «**بشرط أن يتولوا أمر طرابلس كذلك**». عندما رجع بوزيو برد الامبراطور سيطر القلق على الرهبانية فتحمل مسؤولية طرابلس التي كانت «**نقطة ضعف محاطة بالأعداء**» أمر لا يمكن أن يفكر في قبوله المرشد الأكبر. ولما لم يكن هناك بديل إذ أن الرفض أمر مهين وغير مناسب، قرر المرشد الأكبر الانتظار بحجة أنه يحتاج لمعلومات قبل اتخاذ قراره. وتم إرسال ثمانية مندوبين ـ مندوب عن كل لغة ـ أوكلت إليهم مهمة الذهاب إلى مالطا، وجوزو، وطرابلس وإعداد تقرير عن أوضاعها. كان التقرير الذي تقدم به المندوبون عند عودتهم مفحماً فيما يتعلق بطرابلس. فقد أوضحوا أن المكان لا يمكن الاحتفاظ بالسيطرة عليه: «**فالأسوار والمساكن مهدمة، والتحصينات القديمة غير فعالة ضد المدفعية، والخنادق صغيرة والقلعة غير محصنة إلا من جانب واحد. ويمكن للعدو أن ينصب مدافعه على حافة الخندق. أما الدخل فيتمثل في 10% على** السلع، و2 دكات(*) على كل عبد وهو ما لا يزيد عن ثلاثة آلاف فرنك فرنسي سنوياً. وأخيراً فإن الميناء صغير جداً وخَرِب لدرجة لا يمكن معها للرهبانية مواجهة متطلباته».

بالنسبة لمالطا كان الوضع مختلفاً، وقد كان رأي المندوبين الموافقة بشرط «**أن يسمح الامبراطور بحرية الحصول على المؤن الضرورية من صقلية ونابولي**».

(*) وحدة نقدية بندقية ـ المترجم.

لم يأت التقرير بجديد، فما أورده كان معروفاً مسبقاً، أو على الأقل كان متوقعاً. لم يبق إلا التأسيس على نتائج التقرير، وهو ما قامت به الرهبانية. فقد كان من الواضح «أن الرهبانية في حالة فقر مدقع، ومدينة بسبب تكاليف الدفاع عن رودس، والانسحاب من إيطاليا، ومن ثم فإنها لا تستطيع مواجهة الاحتفاظ بطرابلس خاصة وأن طرابلس كانت على بعد حوالي ثلاثمائة ميل، ولم يكن ميناء المدينة قادراً على استقبال سفن المؤن».

كان قبول مالطا موضوع رغبة من الفرسان منذ زمن طويل، ولكنه يواجه صعوبة كبيرة مرتبطة ـ نتيجة ـ بالتنازل عن الإقليم، وهو قبول التبعية والخضوع للامبراطور من قبل المستفيد. وهذا ما بينه المجلس بطريقة واضحة «فليس هناك من وسيلة أمام الفرسان إلا أداء قسم الإخلاص للامبراطور في شكل قانون عام، ومن ثم سيكونون ملزمين بمساندة جلالته عسكرياً في حالة حرب ضد الأمراء المسيحيين الآخرين. وبما أن جلالته لم يكن نصيراً لطاعة الكرسي البابوي فإن الفرسان سيجدون أنفسهم ضد البابا. كما لم يكن من الممكن ترك سفن الفرسان تحت الأمرة الوحيدة لقائد الأسطول الامبراطوري، لأنها قد توجد تحت قيادة غير كفؤة».

كان من الصعب توجيه نص بهذا المعنى إلى الامبراطور. ومن ثم خاطب المرشد الأكبر البابا راجياً منه استعمال نفوذه لدى الامبراطور. وللإحاطة بوجاهة التحفظات المعبر عنها هنا، يجب تذكر أن شارل كنت كان حينها في حالة حرب ضد فرنسوا الأول، أما التخوفات حول مدى ولاء شارل كنت للكرسي البابوي فقد

تحققت بعد ثلاث سنوات حيث أمر الامبراطور بنهب روما.

لم يكن وضع الفرسان مريحاً في إطار الأوضاع السياسية السائدة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، فهم ينتمون إلى أمم مختلفة متحاربة أحياناً. كانوا مقسمين إلى ثمان لغات أو أمم: بروفانس(*)، وإفرني(**)، وفرنسا، وإيطاليا، وأراجون(***)، وألمانيا، وكاستليا(****)، وإنجلترا. وفي وسط الصراعات الجارية آنذاك، كانوا يقدمون نموذجاً لجماعة أخوية مثالية، ولكنهم يواجهون أوضاعاً متناقضة. فمن كان يتمنى أن يكون في موضع الفرسان الفرنسيين وهم يحاربون الأتراك، بينما كان هؤلاء حلفاء لملك فرنسا فرانسوا الأول.

اشترط الفرسان ضمانات قبل قبول مالطا، فتنازل الامبراطور عن مالطا لصالحهم لا يمكن أن يتم وفق الشروط العادية التي تتطلب أداء قسم الإخلاص للامبراطور. كان هذا مطلباً واضحاً، حتى أن الامبراطور لم يكن يفكر فيه. وقد حدث للامبراطور بعد ذلك أن طلب تعاون الرهبانية ولكن لم يكن ذلك بشكل ملزم. كانت للامبراطور اهتمامات أخرى وهي أنه لا يستطيع الاحتفاظ بطرابلس ـ كان تقرير المحققين واضحاً بهذا الخصوص ـ ومن ثم يجب أن يقبل الفرسان مسؤولية طرابلس. أصر شارل كنت على أن يكون تنازله عن طرابلس ومالطا معاً، وهو ما قبل الفرسان به كنقطة

(*) جنوب فرنسا ـ المترجم.
(**) مقاطعة فرنسية حالياً ـ المترجم.
(***) مقاطعة إسبانية حالياً ـ المترجم.
(****) مقاطعة إسبانية حالياً ـ المترجم.

انطلاق. هكذا نجح الامبراطور وهو ما يستحق إعجابنا ببراعته. فقد استعمل أولاً الخديعة بأن طرح على الفرسان إعادة احتلال رودس، وعرض تقديم خمسة وعشرين ألف فرنك فرنسي والإذن للمرشد الأكبر «**بإعداد جيشه حيث يشاء على أراضي الامبراطور**». كان من الواضح أن المرشد الأكبر لا يستطيع جمع القوات اللازمة حتى بتوفر الخمس والعشرين ألف فرنك فرنسي. لهذا اقترح هذا الثعلب الماكر «**في حالة فشل هذا المشروع فإنه يقدم للفرسان مالطا وطرابلس بالشروط المخففة من قبل البابا**». وهكذا متظاهراً بالكرم، وضع الرهبانية في نقطة البداية. نحن الآن في سنة 1525 إفرنجي. بعدها بسنة ونصف قبل الفرسان المنهكون من الحرب ما اقترحه الامبراطور. في 21/ 1/ 1527 إفرنجي اجتمع مجلس الكهنة العام، بعد إذن البابا، ونظر في قبول العطية من عدمها. كانت الآراء متباينة، فقد كان الإسبان مع قبول العطية بينما عارضها الآخرون. عندها عرض المرشد الأكبر على كل المجتمعين «**إن عدم وجود مقر مؤكد، يجعل من الضروري تجاوز الانقسامات**»، واستطاع بكلماته ونفوذه أن يقنع. وهكذا صوَّت الجميع لصالح القبول «**دون أي شرط إلا صلاة جماعية سنوية، وإهداء صقر لنائب الملك في نابولي**». وفوض المرشد الأكبر، والمجلس الفارس بوزيو دي تانتفيل لدى البابا راجين قداسته «**العمل على إنهاء إجراءات العطية دون أي مسؤولية أو شروط أخرى باستثناء إعطاء صقر للامبراطور، ودون أي علاقة ذات طبيعية إقطاعية، وأن تكون للرهبانية حرية الحصول على الحبوب من صقلية. كما تطوعوا بالاحتفاظ بطرابلس على أن يُساعدوا بالوسائل التي تمكنهم من تحصينها**».

وأرسلت رسائل بنفس المعنى إلى الامبراطور مباشرة.

حقق الامبراطور أهدافه بعد أربع سنوات من العناد والتصميم، وتم توقيع الوثيقة النهائية للقبول من قبل المرشد الأكبر والمجلس في 25/ 4/ 1529 إفرنجي. وبعد ذلك بسنة واحدة وعند تتويجه من قبل البابا في بولونيا «وهب الامبراطور مالطا، وجوزو، وطرابلس للرهبانية». وفي 24/ 3/ 1530 إفرنجي سلمت الوثيقة للفارس بوزيو ليتولى توصيلها للمرشد الأكبر[44]. لا يخفي على القارىء النابه مدى الوقاحة التي سمح شارل كنت لنفسه بها في استغلال وخداع الرهبانية. في سنة 1527 إفرنجي قبل المرشد الأكبر، بعد أخذ رأي مجلس الكهنة العام، عطية مالطا، «ومتطوعاً كذلك بالاحتفاظ بطرابلس».

لا تذكر الوثيقفة النهائية للعطية سنة 1530 إفرنجي هذا التمييز، فطرابلس تم إعطاؤها كما هو الحال لمالطا. أكثر من ذلك لم يقبل الفرسان الاحتفاظ بطرابلس إلا «آملين مساعدتهم بالوسائل لتحصينها». ولكن بالرغم من طلباتهم المتكررة والملحة لم ينالوا شيئاً، وسيندم الامبراطور على هذا عندما تسقط طرابلس تحت ضربات الأتراك سنة 1551 إفرنجي. لقد كان الامبراطور هو السبب في اندحار المسيحيين في المتوسط بسبب قصر نظره، وربما بسبب بخله.

كانت إمكانيات فرسان مالطا ـ هكذا ستكون تسمية فرسان القديس يوحنا من الآن فصاعداً ـ محدودة جداً. فأسطولهم يتكون من أربع قوادس، وبعض السفن ذات الصاريين، وهي سفن صغيرة خفيفة مهمتها تأمين الاتصالات السريعة، وبقي الوضع على هذا

الحال حتى سنة 1563 إفرنجي على الأقل. وكانت لدى الفرسان بارجة فريدة من نوعها، لا مثيل لها عند أيِّ دولة، تسمى الكراك. كانت سفينة بست جسور أربعة منها خارج الماء، واثنين في الماء. وكانت الجسور مغطاة بألواح من الرصاص مثبتةٌ بمسامير من البرونز ـ الحديد يتفاعل مع الرصاص ـ «وكانت مثبتة بدقة يتعذر معها على مدافع جيش كامل إغراقها». طبقاً لما أعرف، كانت الكراك أول بارجة مدرعة في التاريخ، وكانت ساريتها الرئيسية «ضخمة لدرجة أن ستة رجال لا يستطيعون الإحاطة بها». وكان تجهيزها من الداخل فخماً فخامة غير معهودة. «كان يوجد فيها مصلى خاص، وغرفة للسلاح تتسع لخمسمائة رجل، وقاعة، وغرفة وقاعة انتظار للمرشد الأكبر والمجلس، وأخرى للفرسان، ومقر للضباط، وفرن وطواحين يدوية للطبخ اليومي، كما ثبتت بمؤخرتها سفن شراعية، وصناديق معبأة بالبارود، وكان بها مسبك».

كانت الكراك مزودة بأشرعة وليس بمجاديف، ولهذا يتعذر تحريكها في حالة خمود الرياح. هل كان هذا يعني إنها فريسة سهلة لهجوم السفن التي تتحرك بمجاديف؟. ليس الأمر كذلك، فقوة نيران مدفعيتها تجعلها عصية «لأنها مزودة بخمسين مدفعاً من عيار كبير وأعداد كبيرة من عيارات أخرى أقل»، وكان هذا رادعاً كافياً لأي معتد[45]. وفيما يلي مثل: خلال شهر فبراير سنة 1531 إفرنجي كانت الكراك مبحرة من طولون إلى مالطا، والتقت بأسطول تركي مكون من خمسة وعشرين بارجة، وثلاثة عشر قادساً، واثني عشر غليونية كلها مسلحة تسليحاً جيداً «كان قبطان الكراك هو الفارس

الفرنسي توش بيف «Touche-boeuf»، الذي لم يفاجأ بهذه القوات الكبيرة، وأرخى الأشرعة فوراً وأخذ وضع الاستعداد للمعركة، ورفع الأعلام متحدياً أعداءه، وبادر بدك السفن القريبة منه ملحقاً بها دماراً ملحوظاً. فوجيء الأتراك بهذه الجرأة وعندما تبينوا أنها كراك مالطا الكبير انسحبوا من المواجهة»[46].

شاركت الكراك في معارك القرن البحرية الكبيرة دون أن يلحق بها أي ضرر، لقد كانت قلعة عائمة. هذا لا يعني أن البحرية المالطية كانت تعني الكثير بالنسبة لأساطيل الامبراطورية والعثمانية. بالرغم من ذلك فقد لعب فرسان مالطا دوراً من الدرجة الأولى، وفي كثير من الأحيان حاسماً، في كل المعارك التي دارت في البحر المتوسط لأنهم كانوا عسكريين من النخبة تحركهم مثل عظيمة. وباعتبارهم نساكا كانوا يترفعون عن النهب والاغتصاب وكل الفظائع المعروفة عن الجيوش خاصة في ذلك العصر، وباعتبارهم عسكريين كانوا يخضعون لنظام صارم. فقد كان لكل مجموعة لغوية رئيس، تحت أمرته عدد من القواد العسكريين، ورؤساء الكهنة، وقضاة مشرفين. كان أعضاء الرهبانية مقسمين إلى ثلاث طبقات: النبلاء أو الفرسان، والقساوسة أو الكهنة وهم مكلفون بالخدمات الدينية، والأخوة الخدم؛ من بينهم أخوة لخدمات السلاح، وأخوة لخدمات العلاج. كما كان يرتبط بالرهبانية متطوعون مدنيون(*) من بينهم سادة أغنياء بعضهم يملك أسطوله الخاص الذي ينضم أحياناً لسفن الرهبانية.

(*) من غير رجال الدين.

كان المطلوب من أعضاء الرهبانية كبيراً وأي تقصير خطير، مثل الاستسلام للعدو دون مبرر، كان موضوع محاكمة وعقاب. كانت لمالطا سجونها. وكان الرهبان الجنود يمثلون قوة صغيرة العدد، ولكنها فعالة وخطيرة. فضلاً عن ذلك، كانوا قساة لا يترددون في تنصيب أنفسهم قضاة، والويل للكفرة الذين يقعون بين أيديهم. كانوا سيجدون أنفسهم تحت عوارض الصواري. كما يشنق كل قرصان يتم أسره على الأقل حتى[47] . . . . دعنا لا نستبق الأحداث.

جعل الفرسان من مالطا موقعاً حصيناً ثبت أنه غير قابل للاحتلال ولعب في التجارة البحرية دوراً متميزاً. وقد يكون ما قاموا به في طرابلس، أخذاً في الاعتبار بعد المسافة، والفقر في الوسائل، وعداء السكان المجاورين هو ما يستحق الإعجاب أكثر. فقد حدد أول الحكام، وهو الفارس سانقويسا «Sanguessa» هدفين حال توليه القيادة في طرابلس: استقرار الأمن، وإعطاء التجارة دفعاً جديداً، والهدفان متلازمان.

كانت البلدتان الساحليتان المجاورتان لطرابلس تاجوراء وجنزور مصدر تهديد مستمر، ومن ثم كان من الأهمية بمكان إخضاعهما، أو استدراجهما لاقرار سياسة تبادل وتعاون إذا كان ذلك ممكناً. نجح سانقويسا مع جنزور في الغرب، بمقابل مالي محدود ومنح لسكانها «**السلام، وحرية التبادل التجاري**»، ولم ينجح مع تاجوراء في الشرق. وبعد مناوشات، استطاع الحصول على غنائم ورجع بأسرى، ولكنه فقد أحد الفرسان الفرنسيين جان

دي هارلي «Jean de Harly»، وبقي الوضع على ما هو عليه[48] في تاجوراء. لماذا قاومت تاجوراء؟ السبب دون شك في أن الفرسان لم يكونوا في مواجهة مغاربة فقط، وإنما كان هناك تواجد محقق[49] للأتراك.

من أجل تنشيط التجارة بشكل فعال وعلى نطاق واسع كان لا بد من الاستعانة بالمغاربة، وأولاً تجار طرابلس الذين كانوا متخصصين في التعامل مع الداخل. ولكن تجار طرابلس كتجار جنزور كانوا من الكفار، هل كان من المقبول التعامل معهم؟ يبدو أن ذلك كان غير مقبول، وهو ما دفع المرشد الأكبر، بتحريض من سانقويسا دون شك، لطلب الأذن من البابا. «**في بداية سنة 1531 إفرنجي حصل من قداسته على أذن بموجب منشور أباح المتاجرة مع المغاربة وتزويدهم بالمؤن، وأوعية من القصدير، والبرونز، والأثاث والسلع لاستعمالهم**[50]**، وذلك احتراماً لطرابلس وللرهبانية ورعاياها**». ماذا كان المغاربة يقدمون في المقابل؟ الرقيق من السود خاصة. «**الذين كانوا يبيعونهم بعد شرائهم بأسعار بخسة من العرب الذين اعتادوا القيام بغارات لأسرهم في مناطق بعيدة كبورنو، وأفنو (بلد الهاوسا)، ومندرا وغيرها من بلدان الداخل**»[51]. وهكذا بارك البابا ـ ربما دون أن يدري ـ تجارة الرقيق السود.

توحي البيانات الدقيقة التي احتوتها وثائق الرهبانية عن تجارة طرابلس مع الداخل أنها كانت مهمة. وهذا لا يدهشنا فالوضع السياسي للبلدان التشادية كان ملائماً للمبادلات منذ أن حقق علي ملك بورنو، وابن إدريس، انتصاراً على السلطان آدم رئيس كانم

سنة 1500 إفرنجي. فقد أبرمت هدنة أوقفت الحرب التي كانت دائرة بين الكانوري والبلالة منذ سنة 1460 إفرنجي، واستمرت هذه الهدنة حتى سنة 1540 إفرنجي[52]. أن سلاماً متزامناً في كل من بورنو وطرابلس كان يعني توفر الظروف الملائمة لازدهار التجارة. واستفاد الجميع من هذه الظروف، الكانوري، والعرب، والمغاربة، وكذلك فرسان القديس يوحنا الذين شهدت علاقاتهم مع مغاربة طرابلس مرحلة من الود والصداقة. في السياسة كثيراً ما يكون الاقتصاد عاملاً حاسماً.

مثَّل إعطاء الامبراطور مالطا وطرابلس لفرسان القديس يوحنا سنة 1531 إفرنجي عملاً محكماً لإقلاق السلطان العثماني الذي ربما ندم على الكرم الذي أظهره في رودس قبل ذلك بثمانية عشر عاماً. ولكن استيلاء الامبراطوريين على كورون «Coron»، وبتراس «Patras»، ولبانت «Lepante» على سواحل اليونان سنة 1532 إفرنجي كان أكثر إزعاجاً. وكان صاحب هذا العمل المفخرة هو أندري دوريا «Andre Doria».

أندري دوريا «Andre Dorai»:

لم يخبر بحار البحر المتوسط في القرن السادس عشر كما خبره أندري دوريا، كما لا يدانيه أحد في طول مدة خدمته العسكرية. ولا يمكن إحصاء المعارك البحرية التي خاضها.

ولد دوريا سنة 1468 في أنجيليا (حي من أحياء أمبريا حالياً)، وهو جنويّ، اجتذبه البحر مبكراً ـ وكان ذلك تقليداً في الأسرة ـ

وكرس كل حياته لمحاربة الأتراك. وبسبب إنجازاته، وخاصة انتصاره على العثمانيين سنة 1519 إفرنجي في بيافوزا «Piavosa»، طلبه فرانسوا الأول (ملك فرنسا) ليكون قائداً للأسطول في البحر المتوسط. في سنة 1522 إفرنجي حوصرت جنوا من قبل الامبراطوريين، فأسرع دوريا لنجدة موطنه ولم يتمكن من إنقاذ المدينة لتأخر أسطوله في الوصول يوماً واحداً. واستطاع في سنة 1527 إفرنجي أخذ ثأره بانتصاره البحري في رابالو «Rapallo»، وحرر جنوا. بالرغم من ذلك، ونتيجة عدم رضاه عن ملك فرنسا، رجَّع لهذا الأخير قلادته، وانضم إلى شارل كنت سنة 1528 إفرنجي، وأخلص منذ ذلك الحين للامبراطورية. وبينما جازف الخائن فرانسوا الأول بمزيد من التعامل مع الأتراك، استطاع دوريا مواصلة الصراع ضد الأتراك دون عائق.

أقلق تقدم السلطان سليمان نحو النمسا شارل كنت ففكر، سنة 1532 إفرنجي، في عمل في اليونان يشغل به العثمانيين. وأبحر أندري دوريا على رأس أسطول من مائة قادس إلى شواطىء اليونان، ولم يستطع القبطان باشا صائب التصدي لهذا الأسطول الضخم. وهكذا استولى دوريا دون معارك على كورون «Coron» وبتراس «Patras»، وليبانت «Lepante». وبهذا العمل كان دوريا وراء بروز من أوصل القوة البحرية العثمانية إلى أوجها. بالفعل، غضب سليمان من تخاذل قائد أسطوله، وعزله. وكان لابد من البحث عن خلف قادر، ويبدو أن ملك الجزائر، هذا القرصان المشهور، هو رجل الموقف. «لم يكن في الامبراطورية العثمانية

من هو أكثر شجاعة وكفاءة». كان هذا رأي[53] الوزير الأعظم إبراهيم. واتخذ القرار باستدعائه بأقصى سرعة ممكنة.

خير الدين:

سبق وأن تعرضنا لبرباروس، حيث تركناه في الجزائر عندما خلف أخاه عروج. ولكن أي طريق قطع منذ ذلك الحين؟ لم يتوقف عن القيام بمبادرات ناجحة. ففي سنة 1520 إفرنجي احتل كولو «Collo»، وقسطنطينة في السنة اللاحقة، وعنابة سنة 1522 إفرنجي. وأحرز أكبر انتصاراته سنة 1530 إفرنجي باحتلاله بنون «Penon»، وهي التسمية التي كانت تطلق على القلعة التي شيدها الإسبان على جزيرة صغيرة تتحكم في مدخل ميناء الجزائر. ولما لم يعد البحارة قادرين على اللجوء إلى هذا المرفأ ـ بنون ـ اضطروا لسلوك حِيَلٍ مكلفة. يصف هايدو «Haedo» الوضع بالآتي:

«كان القراصنة مضطرين لسحب سفنهم على رمال شاطىء نهر صغير يقع على مسافة ميل واحد غرب الجزائر، ويجب القيام بهذا العمل يدويا، وكان يقوم بهذا العمل الشاق أسرى فقراء. ولم تجد سفن التجارة المسيحية ملجأ إلا الخليج الصغير الواقع خارج باب عزون (بالما حاليا)، ومثلت التجارة مع هذه السفن مصدر أرباح كبيرة لسكان الجزائر بالإضافة إلى ما تدفعه من رسوم. كانت السفن هناك في خطر حيث تنقصها الحماية، وتهددها الرياح من كل جانب». ومن ثم كان تحرير الميناء بطرد الإسبان منه في غاية الأهمية. وإذا كان خير الدين قد تأخر في القيام به فلاعتقاده

باستحالة النجاح. في سنة 1532 إفرنجي قدَّر خير الدين أن بإمكانه طرد الإسبان من بنون، وتطلب منه الاستيلاء على القلعة ستة عشر يوماً: «بدأ قصف القلعة نهاراً وليلاً منذ بداية 6 مايو سنة 1530 إفرنجي، واستمر القصف دون انقطاع خمسة عشر يوماً، كما استعمل البنادق التي مكنت من قتل أعداد كبيرة من المدافعين المائتين وذلك لقصر المسافة الفاصلة بين المتحاربين، حوالي مائتي خطوة. وفي اليوم السادس عشر للهجوم، وهو يوم الجمعة 21 مايو، وقبل شروق الشمس تم الاقتحام بأربعة عشر غليونية على متنها قوات منتقاة من بينها ألفان من الأتراك مسلحين ببنادق، وغيرهم كثيرون مسلحون بالنبال».

عندما دخل المنتصرون القلعة وجدوا قائد الحامية النقيب مارتان دي فارجاس «Martin de Vargas»، وثلاثة وخمسين جندياً جرحى جراحاً بالغة فأخذوهم أسرى. كما وجدوا ثلاث نساء، إسبانيتين ومايوركية واحدة، وهبن لمسلمين من أصحاب الرتب الرفيعة. وبعد ثلاث أشهر قام خير الدين بقتل النقيب دي فارجاس ضرباً بالعصي. ولا أحد يعرف السبب وراء هذا التصرف القاسي.

بعد إزالة القلعة قام خير الدين بتنفيذ مشروع كان يفكر فيه منذ زمن طويل، وهو تشييد رصيف حاجز يربط جزيرة بنون بالميناء. وبإنهاء العمل في هذا المشروع سنة 1531 إفرنجي أصبح ميناء الجزائر آمناً. وقام في الوقت نفسه بتنفيذ عمل مشابه في شرشل. واستخدم لهذه الأعمال سبعمائة أسير مسيحي. أخطر دوريا بما كان يجري فصمم على منعه. وهكذا غادر جنوا في شهر يوليه سنة

1531 إفرنجي. كانت الرياح ملائمة ومكنته من الوصول بسرعة إلى مقصده حيث قام بإنزال 1500 رجل بالقرب من شرشل. وعندما علم الأسرى المسيحيون المحجوزون في المدينة هربوا والتحقوا بسفن دوريا عند دخولها إلى الموقع. وكان يكفي الاستيلاء على القلعة ليكون النصر مؤزراً، ولكن الأوضاع تدهورت وتحولت بسرعة إلى كارثة، بسبب عدم انضباط الجنود. لم يهتم الجنود بالحصن الذي كان يدافع عن الميناء وتفرقوا في المدينة يسلبون وينهبون. أسوأ من ذلك، لقد عثروا على خمارات مليئة بالخمور فشربوا حتى الثمالة. وهكذا أعطوا الوقت اللازم للأتراك لتجهيز مدفعية القلعة وقصف السفن بنيرانها. خاف دوريا من إغراق سفنه فانسحب إلى عرض البحر تاركاً أكثر من ستمائة من رجاله أخذوا أسرى. وانتهت بالفشل حملة كان يمكن أن تعطي للامبراطوريين قاعدة بحرية على مسافة حوالي خمسين كيلومتر من الجزائر، تمكنهم من عرقلة الأتراك بفاعلية[54].

كان خير الدين محظوظاً جداً، فبعد ثلاثة عشر سنة من حكمه استطاع أن يكون سيد الشمال الأفريقي من شرشل حتى قسطنطينة، ولم يتبق له إلا تونس وطرابلس ليتملك كل الواجهة الشمالية لأفريقيا. كانت مملكة الحفصيين لا تزال مستقلة وحرة ولم يحاول الإسبان إخضاعها أبداً. لماذا عدم المبالاة هذه من قبلهم؟ السبب هو أن تونس لا تمثل مصدر خطر بالنسبة لهم. فقد كان الملك محمد، الحادي عشر من الأسرة الحفصية، مخلصاً لتقاليد أسلافه في الانفتاح على الدول الأوروبية. وفوق ذلك كان حرسه الخاص

من المسيحيين وأكثرهم من مواليد تونس. وكان هؤلاء العسكريون المميزون يسكنون بلدة بالقرب من المدينة، ولهم كل الحرية في مزاولة شعائرهم الدينية[55].

كانت تونس بلداً صديقاً، ولكن كان في الحياة السياسية التونسية ما يجب أن يشد انتباه الإسبان، وهو حالة التدهور التي كانت تشهدها المملكة فسلطتها كانت مُنازعة في كثير من البقاع، كما كثر[56] المعارضون لها. لم يكن الملك يستطيع الاعتماد على أبنائه بل كان يحتفظ بأكبرهم المأمون سجيناً لمنعه من التآمر ضده، وكان الآخرون ماجنين لدرجة منعت الملك محمد من تسمية خليفته من بينهم. اتخذ ـ في الأخير ـ قراراً سرياً بتسمية أصغرهم حسن، وهو من زوجة عربية بنت مشايخ وأخت مشايخ. كان حسن، في تقدير والده، هو الأشجع من بين إخوته وفي استطاعته الاعتماد على مساندة العرب الذين كان مشائخهم هم الأقوى في المملكة[57].

كان الوضع كما أسلفنا، عندما مات الملك العجوز في بداية فبراير سنة 1531 إفرنجي[58]. وبما أن المأمون كان هو الأكبر فقد طمع في السلطة «**ولكن حسن قتله برصاصة، وأعلن نفسه ملكاً وسط هتاف الشعب**». كان للرشيد ـ الأخ الثاني لحسن ـ أن يطالب بالعرش بعد وفاة المأمون، فبقي خارج القصر ثم قدَّر أن من الأفضل له الهرب. وهنا قبض حسن على كل إخوته، وأخواته، وأبناء إخوته وأخواته، وزوجات إخوته، ويقال أنه قتل الذكور أو أعماهم، وسجن النساء[59].

قام حسن، بمجرد وصوله إلى السلطة، بمساعدة قوات زوده بها عمه، بحملة أخضع خلالها بعض المدن والقلاع التي كانت قد تحررت من السلطة في تونس، ومن المهم هنا ذكر أنه استولى على تاجوراء ومن هناك أرسل رسالة صداقة إلى حاكم طرابلس، ونتج عنها وقف العمليات العسكرية بين المدينتين الجارتين. وهنا ظهر الناجي من مذبحة تونس.

كان الرشيد قد لجأ في البداية عند رئيس بلدة مجاورة تولى مناصرته، وجمع جيشاً وقام بمحاولة ضد تونس باءت بالفشل. لم يبق أمام الرشيد إلا البحث عن حام قوى، وفكر في خير الدين الذي كان حينها في جربة. كتب بوزيو: «**طلب الرشيد حماية القرصان ــ خير الدين ــ وفوض له أمر الدفاع عن قضيته**».

كان ملك الجزائر يبحث عن ذريعة للتدخل في تونس، وها هو الرشيد يقدم له ذريعة لا يمكن تصور أفضل منها لتحقيق غرض خير الدين، وحرص من ذلك الوقت على الاحتفاظ بالرشيد إلى جانبه طوعاً أو كرهاً. لم يكن الوقت مناسباً بعد للاستيلاء على تونس بسبب عدم توفر الإمكانيات. ولما لم يكن يستطيع احتلال تونس فقد قام بالاستيلاء على تاجوراء التي كانت قريبة نسبياً من جربة. أبحر خير الدين في اتجاه بلاد المشرق مصطحباً الرشيد، وعند مروره بمحاذاة طرابلس نزل إلى البر بالقرب من المدينة المقصودة (تاجوراء)، وطرد منها المغاربة التابعين لحسن ــ ملك تونس ــ وترك فيها حامية اختار رئيساً لها عسكرياً شجاعاً نشأ على يديه ويحمل نفس الاسم: خير الدين. للتمييز بين الاثنين سيستعمل من الآن فصاعداً لملك الجزائر اسم بربا روس.

أصاب برباروس عصفورين بحجر واحد باستيلائه على تاجوراء: ألحق هزيمة بتونس، ووفر قاعدة انطلاق لاحتلال طرابلس. وبعد بعض المناوشات ضد طرابلس بهدف التوضيح لقائد تاجوراء الجديد ما هو مطلوب منه، عاد برباروس إلى الجزائر مصحوباً بالرشيد.

عمل خير الدين بنشاط وحماس على جعل تاجوراء مكاناً حصيناً قادراً على مواجهة الفرسان، وقد ترك له برباروس غليونية وبعض السفن الشراعية من ذات الصاريين، قام بتخبئتها في قناة، وشيد في مدخل القناة برجاً وضع فيه بعض المدفعية. في ذلك العصر لم يكن هنا مرفأ آمن دون حماية مدفعية.

كان فرسان القديس يوحنا في طرابلس ينظرون بقلق لهذه الاستعدادات، فبناء قاعدة تركية على بعد كيلو مترات من أسوارهم يمثل تهديداً مرعباً، ومن ثم يجب تحطيمها بأسرع ما يمكن. ولكن كيف؟ والحاكم الجديد لطرابلس برناردن مكادو «Macado Bernardin» لا يملك وسائل تذكر، فقد كان أسطوله مكوناً من سفينتين شراعيتين من ذات الصاريين. أرسل الحاكم إحدى سفينتيه إلى المرشد الأكبر للفرسان راجياً تدخله، وأسرع هذا الأخير بإرسال رئيس كهنة روما على رأس أربعة قوادس مالطية مساندة بقادسين تابعين لجاك سلفياتي «Jaques Salviate». كادت الظروف المناخية أن تقضي على الحملة، فقد هبت عاصفة عاتية حطمت إحدى السفن المسماة «النسر»، «وقام قبطان السفينة الفارس نيبيا ـ Nibbia ـ بفك قيود المجدفين بسرعة، وهو ما أنقذ الرجال ولم

يفقد منهم إلا سبعة عشر من الرقيق المحكومين بالأشغال المؤبدة».

تستحق هذه الحادثة الذكر، فلم يكن من المعتاد في حال غرق سفينة أن يقوم ربانها وطاقمها بفك حديد المجدفين المقيدين إلى دكتها لأنها عملية صعبة تعرض للخطر حياة المنقذين. ولاقى عمل الربان تقديراً من الفرسان.

أثَّر فقدان السفينة «النسر» سلباً في الحملة، وبالرغم من نجاح رئيس الكهنة في تحطيم غليونية تاجوراء لم يستطع الاستيلاء على البرج. وتحول الموقف لصالح خير الدين، فقد هب لنجدته القرصان سنان المسمى باليهودي، والذي كان معروفاً ومرهوباً في البحر المتوسط، وباع له غليونية، وهو ما مكن خير الدين من أخذ ثأره: «**فقد باغت سفينتي طرابلس الشراعيتين وعاد بهما إلى تاجوراء منتصراً**».

ولَّد هذا العمل حماساً، دفع سكان تاجوراء وعدة مدة أخرى إلى المطالبة بخير الدين ملكاً، وقطع سكان جنزور تحالفهم مع طرابلس وانضموا إليه. وكان هذا يعني بالنسبة للرهبانية فشل السياسة التي وضعها سانقويسا.

لحسن الحظ تدخل ملك تونس، فقد قام في نهاية يناير سنة 1532 إفرنجي بمحاصرة تاجوراء بكل ما لديه من قوات، وأحاط المدينة، والبرج وقلعة الزيغ «Zegue» التي تقع في غرب المدينة بخنادق. وهكذا أصبح خير الدين والأتراك في وضع صعب لو لم يهب برباروس لنجدتهم. ففي منتصف أبريل أبحر برباروس بأسطوله مصطحباً الرشيد كالعادة، واضطر ملك تونس لرفع الحصار قبل أن يتمكن من الاستيلاء على المدينة والبرج، ولكنه

تمكن من احتلال حصن الزيغ، وتركه لبوتيقلا «Botigella»، ثالث حكام طرابلس، الذي وضع فيه خمسة وعشرين جندياً وبعض قطع المدفعية «وهو ما عرقل بعض الشيء خير الدين، وحافظ على التجارة مستمرة بين طرابلس وجنزور»[60].

إذا كنت قد استعرضت تفاصيل هذه الأحداث وفقاً لما أورده بوزيو فلأنها تبرز الأهمية الاستراتيجية لتاجوراء. فقد برزت هذه البلدة الصغيرة في إطار المنافسة على الشمال الأفريقي كنقطة في غاية الأهمية. أدرك هذه الحقيقة برباروس منذ سنة 1532 إفرنجي وكان عليه في ذلك الحين احتلال تونس، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد. وبالرغم من أن الرشيد أعطاه ذريعة للتدخل، ووفر له حلفاء في الداخل إلا أن إمكانياته لم تكن تسمح بتحقيق الهدف. في هذه الأثناء قرر السلطان سليمان الذي كان مصاباً بخيبة أمل من تقصير القبطان باشا أمام كورون، «وبتراس» Patras، وليبانت Lepante، بعد استشارة الوزير إبراهيم، دعوة ملك الجزائر إلى القسطنطينية.

تم اختيار رجل ثقة ضابط في حرس القصر هو سنان للقيام بمهمة دعوة ملك الجزائر. وصل سنان إلى مدينة الجزائر في النصف الأول من سنة 1533 إفرنجي على ظهر سفينة شراعية حربية سريعة. لم يكن برباروس على دراية بمشاريع السلطان عندما أخذ علماً بالرسالة التي نقلها إليه سنان. «كان رضاه وسروره بالغين لدرجة أنه لم يصدق ما ورد فيها».

أصبحت كل طموحات برباروس ممكنة منذ ذلك الوقت،

ورأى أنه سيكون سيداً لتونس وكل شاطىء الشمال الأفريقي، وعامل باحترام شديد مبعوث السيد الأعظم، وبدأ استعداداته للرحيل[61].

تمثل مهاجمة الجزائر في غياب برباروس كارثة. لكل قرصان أعداء كثيرون، بسبب ما قام به من سلب، ونهب. كان برباروس في حالة حرب دائمة مع الجميع في البحر المتوسط، وكان من الأهمية البالغة، على ضوء التطورات الجديدة، أن يكون في حالة سلم مع أحد أكبر القوى في ذلك الوقت. كان لا يمكن التفكير في إسبانيا ومن ثم ستكون فرنسا. تم إرسال بعثة دبلوماسية إلى فرنسا مكلفة بإبلاغ تحياته ومحملة بهدايا ثمينة **«من بينها أسود ونمور»**. كان الملوك يحبون الاحتفاظ بمعارض للوحوش هي أصل حدائق الحيوان الحالية. تم قبول الهدايا ومظاهر الصداقة قبولاً حسناً، ولكن الحذر كان ضرورياً. لاحظ ساندوڤال «Sandoval» ما يلي: **«عندما كان يكتب لملك فرنسا أو يتحدث إليه عن معاهدات ومفاوضات كان لا يستعمل إلا كلمة هدنة»**[62].

لم يكن لدى فرانسوا الأول أي أوهام، وبرغم ذلك فبعد عشر سنوات لم يصبح القرصان فقط في حالة سلم معه، وإنما أصبح حليفه.

عندما أمَّن برباروس خلفياته، أبحر بثمان قوادس، وعشر غليونيات على متنها ثلاث آلاف من الأتراك، وفوض سلطته في الجزائر لحسن آغا، وهو خصي سرديني يثق فيه ثقة كاملة. حدث هذا في منتصف سنة 1533 إفرنجي تقريباً، في مايو حسبما كتبه

هايدو[63]، وفي أغسطس طبقاً لما أورده ساندوفال[64].

استغرق وصول برباروس إلى القسطنطينية عدة أشهر، فقد كان من الضروري التوقف أثناء الرحلة للتزود بالمؤن والمياه، وكانت محطات التوقف فرصة للحصول على غنائم فلم يكن من اللائق الحضور إلى الباب العالي دون هدايا.

كان برباروس قرصاناً وبقي هكذا دائماً. كان يخرب كل ما يأتي في طريقه أثناء حملاته البحرية ولكنه هذه المرة قام بما هو أكثر، فبدل أن يسلك الطريق المباشر إلى المشرق توجه نحو الشمال الشرقي وتوغل في البحر الترهيني «mer Terrhenienne» بعد عبور البوش دي بونيفاسيو «Bouches de Bonifacio» بين سردينيا وكورسيكا. وهناك التقى بسفن بندقية في طريقها لإحضار قمح من صقلية، وقام بمهاجمتها وحرقها بعد استيلائه على المؤن والغنائم. توجه بعدها شمالاً ماراً بمونتو كريستو ثم بلغ جزيرة الب «Elbe»، وهاجم موقعها الحصين ليلاً واستولى على غنائم كثيرة وأخذ كل سكانه أسرى. توجه بعد ذلك جنوباً ثم شرقاً حتى ظهرت له السواحل اليونانية. هناك بدت له نڤاران «Navarin» وكورون «coron» ووصل أخيراً إلى القسطنطينية[65].

تكتسي إقامة برباروس في القسطنطينية أهمية بالغة، فعليها تعتمد كل الأحداث اللاحقة. وقد تناولها مؤلفان هما: باولو جوڤيو «Paolo Giovio»، ومصطفى بن عبد اللّه المعروف أكثر بحاجي خليفة. الأول إيطالي والثاني تركي. وبالرغم من اختلافهما في

المولد، والثقافة إلا أنهما يشتركان في تركهما كتابات غزيرة ذات تنوع، وقيمة استثنائية.

كان باولو جوڤيو «Paolo Giovio» أسقفا لمدينة نصرا في أومبرى «Ombrie» وكان يكتب في غالب الأحيان باللاتينية وأحياناً بالإيطالية. كان مختصاً بالعلوم الطبيعية واشتهر بدراساته حول أسماك المياه المالحة والعذبة، والقواقع، والتلميح، ولكنه اهتم أكثر بتدوين الوقائع والأحداث. أراد أن يكون شاهد عصره. نشر في سنة 1527 إفرنجي كتابه: «libellus de legatione Basilii Magni principisis Muscoviae ad Clementem VII» وبعد ذلك بخمس سنوات - أي في سنة 1532 إفرنجي - ركز اهتمامه على العالم العثماني وعنه نشر كتابه «Commentario delle cose de Turchi»، وألحقه بمؤلفاته الرئيسية وكلها باللاتينية. يظهر في كتبه «illustrium vivorum vitae» بين الشخصيات البارزة في ذلك العصر الأمراء فيزكونتي «Visconti»، وسفورزا «Sforza»، والباباوات ليون العاشر «Leon X»، واندريان السادس «Andrien VI». في الوقت الذي كان يكتب هذه الأعمال كان يعد لكتاب سيكون وراء ما حظى به من شهرة، إنه تاريخ عصره. نشرت هذه الدراسة الضخمة المعروفة تحت عنوان «Pauli lovii historiae sui temporis» في فلورنسا أولاً سنتي 1550 و1552 إفرنجي، ثم في باريس 1553 و1554 إفرنجي في جزئين، وفي سنة 1554 إفرنجي نشر منها كورنيليوس دوبليسيوس سبر «Cornelius Duplicius Scepers» مقتطفات في أنڤرس «Anvers» في كتيب جمع فيه شهادات الأبطال الرئيسيين وشهود عيان في حملات الامبراطور في شمال أفريقيا. وقد أورد إلى جانب جوڤيو،

جان بيرو الذي سبق ذكره، ونيكولا ڤيلقانيون «Nicolas Villegagnon» أحد فرسان مالطا، وكالڤيت أسترلا «Calvette Estrella» . وقد كتب كل هؤلاء بلغة لاتينية أنيقة كما كانت في القرن السادس عشر، وأوضحوا ما كتبوه بخرائط مفصلة للمعارك التي وصفوها مسهلين هكذا فهمها والإحاطة بها.

إن حاجي خليفة يثير الدهشة، أكثر من جوڤيو، بغزارة علمه وسعة اطلاعه وحجم الأعمال التي كتبها. فهذا التركي من القرن السابع عشر هو امتداد القلقشندي ورائد الموسوعيين، ولد سنة 1600 إفرنجي تقريباً من أب جندي. في سن الخامسة والعشرين أصبح موظفاً وبدأ كتابة التاريخ، ومن هذا المنطلق شارك في العديد من الحملات العسكرية. ودفعته ويلات الحرب إلى التفكير في عمل أعتقد أنه أفضل من المشاركة في الحروب، فكرس نفسه للجهاد الأكبر، أي محاربة الجهل. أعطى حاجي خليفة جهده لدراسة اللغات، والقانون والمنطق والرياضيات والجغرافيا. ولما كانت صحته قد تدهورت، فقد بدأ الاهتمام بالطب وخفايا الدين. ويرجع إليه الفضل في تأليف ثلاث كتب في الجغرافيا، وخمسة في التاريخ أحدها باللغة العربية ذو طابع شامل، ولكن أعظم ما تركه هو قاموس أنسكلوبيدي في البيبليوغرافيا جمع فيهِ أربعة عشر ألفاً وخمسيمسائة عنوان. لم يكن يكتفي بسرد العناوين وإنما يورد بيانات غير مسبوقة عن المؤلفين مضيفاً إلى نقد المصادر معلومات ثمينة. ولعل الفائدة الرئيسية لهذا القاموس هي إيراده كتباً لم يعد لها الآن وجود. نعطي لهذا مثلاً. أورد حاجي خليفة في معجمه كتاباً

ألفه الزهري عن غزوات محمد (ﷺ)، وكان الزهري تلميذاً لعروة في المدينة المنورة قبل سنة 700 إفرنجي، وبفضله نعرف أن الروايات عن حياة النبي (ﷺ) دونت كتابة في زمن كان عدد من شهود العيان لا زالوا على قيد الحياة. نتساءل في بعض الأحيان عن القيمة التاريخية لعيون الكتب التي تناولت حياة محمد (ﷺ) والتي كتبت في نهاية القرن السابع وبداية القرن التاسع من قبل ابن إسحاق والواقدي، وقد زودنا حاجي خليفة بالإجابة.

ليغفر لي القارىء هذا الاستطراد. إنه مستحق لذكرى حاجي خليفة. كما أن هذا الاستطراد ليس خارجاً عن الموضوع تماماً، فهو يمكننا من تقييم تبحر ودقة هذا المؤرخ. والكتاب الذي نتوقف عنده ليس في حجم قاموس، أو كتاب تاريخ شامل، إنه كتيب صغير عدد صفحاته مائة وتسعة وأربعين في طبعته الأصلية التي صدرت في القسطنطينية سنة 1726 إفرنجي، وهو مخصص لـ«**تاريخ الحروب البحرية التركية**». كتب هذا الكتاب بالتركية وترجمه جيمس متشل سنة 1831 إفرنجي. يتعرض الكتاب لإقامة برباروس في العاصمة العثمانية بالآتي: «**في يوم الديوان حضر (برباروس)، مصحوباً بثمانية عشر ريس (ربان سفينة). ومرافقيه، وهدايا ثمينة. . . استقبل باحترام وتشريف، كما سمح للربابنة بالمثول أمام السلطان ومنحوا بدل تشريفات ومبالغ نقدية. وأمر صاحب الجلالة بأخذهم إلى الترسانة الملكية ليمارسوا مهارتهم في بناء السفن. في منتصف ربيع الثاني الموافق 2/ 11/ 1533 إفرنجي بعث الأمبراطور الوزير الأعظم إبراهيم لقضاء الشتاء في حلب. قام هذا الجنرال**

(إبراهيم) بدعوة خير الدين ليشارك في الحملة... بعد يومين أو ثلاثة قضاها خير الدين في حلب بعثه إبراهيم من جديد إلى الباب العالي. عند رجوعه من حلب شيد الباشا واحدة وستين من سفن القيادة وغيرها وأبحر إلى ميسينيا»[66].

تبرز من هذا النص المختصر واقعتان، أولاهما الأهمية التي يعطيها المؤلف لبناء السفن من قبل الربابنة، ثم من قبل بربا روس بعد رجوعه من حلب. لا شك أن القرصان ساهم مساهمة كبيرة في تقوية الأسطول العثماني، وهذا ما قاد لين بول «Lane Poole» إلى تأكيد «أن التفوق البحري التركي في البحر المتوسط يعود لإقامة خير الدين الشتوية في الترسانات البحرية».

الواقعة الثانية أكثر دقة ويحيط بها الغموض. لماذا السفر إلى حلب؟ يظهر أن بربا روس لم يذهب إلى سوريا لغرض الذهاب إلى سوريا، ولا بد أن هناك دافعاً آخراً بعد أن تولى مسؤولية البحر. يورد جوفيو أن الأحداث لم تمر بالسهولة التي ذكرها حاجي خليفة، فالعلاقة بين بربا روس والسلطان سليمان مرت بثلاث مراحل: حظوة، ثم انعدام حظوة، ثم حظوة مرة أخرى.

حظي ملك الجزائر بعطف ورعاية عندما استقبله السلطان للمرة الأولى، فقد تأثر السلطان بمظهره، وسمعته، وكذلك الهدايا الثمينة التي حملها: «صبيان صغار بوجوه جميلة، وعذارى صغيرات في غاية الجمال، ومخصيون، وحيوانات برية من ليبيا؛ أسود ونمور». مرت بعض الأيام التي نوقشت فيها مشاريع الحروب، أو ما يخص المغاربة والمسيحيين. تغير الوضع بسرعة، فصعود القرصان أثار

غيرة البعض، وبدأت الأقاويل، لاحظ البعض «إن ليس من تقاليد العثمانيين وضع أسطولهم تحت قيادة هذا النوع من الرجال الذين فقدوا الاعتبار بسبب ما قاموا به من أعمال قطع الطرق واللصوصية، أي القراصنة». كان لهذه الحجة وزنها، ووجد الحساد آذاناً صاغية، خاصة وأن حامي برباروس الوزير الأكبر إبراهيم كان حينها في حلب. تأثر السلطان بتلك الأقاويل ولكنه لم يستطع التراجع فهو الذي دعى المعني، ووجد ذريعة في وجود الوزير الأكبر، الذي وصى ببرباروس، في حلب. وهكذا ذهب برباروس إلى حلب.

كان الوزير الأكبر يعرف مكائد القصر، ومن ثم لم يتأثر بتلك الأقاويل، وبقيت ثقته كاملة في برباروس، وكتب إلى السلطان سليمان مادحاً قدرات ملك الجزائر فاضحاً أكاذيب الذين حاولوا النيل منه. ولهذا تم تسمية برباروس القبطان باشا(*). كان لإبراهيم وزن كبير في تسيير أمور الامبراطورية، وهكذا تغير الوضع رأساً على عقب. تم الاحتفال بالقرصان عند عودته من حلب، وأعطي كل الوقت لشرح مشاريعه ومما قاله للسلطان في حضور الوزراء: **«لتوسيع حدود منطقتنا يجب مطاردة المسيحيين في البر والبحر. إنني لا أطلب أكثر من أن تضم أساطيلك وقواتك إلى أساطيلي وقواتي، وسأقود هذه وتلك في خدمتك. وإذا ما قدرتني الآلهة فعما قريب سيطرد الإسبان من كل أفريقيا».**

هنا يخطىء جوفيو الذي كان يكتب باللاتينية وينسى أن ما كان

(*) قائد البحرية العثمانية ـ المترجم.

يجري، يجري في القسطنطينية في العصر العثماني ، وليس في روما القديمة. فالإشارة إلى «الآلهة» لا تتفق مع حقائق العصر في حينه، ولو أن برباروس تكلم بما تقدم لذكر الله لا الآلهة، ولكن من أين للمؤلف أن يعرف؟ على كل لا يهم إذا ما كان الخطاب قد قيل، وهو ما يبدو احتمالاً ضعيفاً. مكن هذا أسقف ناصرا «Nucera» من شرح خطط برباروس وهي خططه الحقيقية بالفعل. فبعد طرده المسيحيين من أفريقيا وإخضاعه المغاربة والعرب، اعتقد القبطان باشا أنه قوي بما يكفيه لاحتلال سردينيا، وكورسيكا، وصقلية، ومن هناك سيكون من السهل عليه احتلال إيطاليا. يكفي لهذا تغذية، واستغلال النزاعات التي تعاني منها إيطاليا[67].

هل كان برباروس يعتقد أنه سيكون سيداً على إيطاليا؟ ليس هذا بالمؤكد، ولكن المؤكد أن الإيطاليين كانوا يخشون أن يحدث ذلك. أن جوڤيو كان يعبر عن مخاوفه الذاتية عندما نسب إلى القرصان الخطاب ـ الذي ذكر أعلاه ـ وكانت تلك مخاوف كل المراقبين الفطنين، كان جوڤيو بهذا يوجه دعوة مؤثرة إلى مواطنيه من أجل الوحدة. كان أسقف ناصرا نذيراً لقومه.

كان عمر برباروس ثمانية وستون سنة عندما عين قائداً للأسطول العثماني، ولكن السنين لم تنل من قدراته الذهنية، ولا قواه الجسمانية. وقبل أن نستعرض أعماله لنتعرف إلى الرجل، وهذا ليس بالصعب، فقد ترك عنه ساندوفال «Sandoval» صورة متكاملة: «كان أشقراً، كما يشير إلى ذلك اسمه، متناسقاً جسمانياً، ولكنه سمن كثيراً، وكانت حواجبه كثيفة جداً، ثم فقدت كثافتها

وأصبحت خفيفة. كان يتعلثم في الكلام ويعرف عدداً كبيراً من اللغات، ويتباهى بالحديث باللغة الكاستلية(*) وكل الذين في خدمته تقريباً من الإسبان. كان أكثر قسوة من كل القراصنة في عصره، وعنيداً لدرجة لا يمكن وصفها. . . كان الفسوق أبرز نقائصه، وكان ثرثاراً ويخبث في أحيان كثيرة. يظهر كبرياءه بسهولة، ولا يحترس في الكلام خاصة عندما يغضب، كان تسامحه المدروس، ولطفه، وحظه الذي رافقه في كل ما بادر به مزايا تغطي على نقائصه. كان شجاعاً وحذراً في الهجوم والمعارك. كان حريصاً في الحروب، حازماً في العمل، متماسكاً رابط الجأش في النكسات العابرة، ولم يُظهر أبداً أي ضعف أو خوف»[68].

كان أسقف بامبيلين «Pamplune» مصنفاً، وكان يأخذ عن الذين سبقوه دون حذر، ودون أن يذكرهم. من هو مؤلف هذه الصورة لبرباروس؟ لا أعرف، وكل ما أستطيع قوله أنها ليست لجوڤيو ولا لحاجي خليفة.

من شارل كنت إلى برباروس نكون قد استعرضنا كل الرجال الفاعلين، ولم يبق لي إلا وصف معاركهم. لقد استمرت المواجهة بين القرصان والامبراطور سبع سنوات ودارت على مراحل عدة، أولها كانت تونس مسرحاً لها.

(*) لغة رومانية لأحد أقاليم إسبانيا الحالية ـ المترجم.

الحرب في تونس

18/ 5/سنة 1534 إفرنجي تاريخ لا ينسى في حوليات البحر المتوسط، ففي هذا اليوم تسلم برباروس مسؤولية القبطان باشا أي قائد البحرية العثمانية. وقد أذهلت المعاصرين فخامة الاحتفالات، وسعة الصلاحيات التي أوكلت للقرصان. سلمه السلطان سليمان شخصياً شارات منصبه، والعلم، وعصاة الشرف، والسيف، ثم قام ثلاثة من الوجهاء من بينهم مدير الديوان بمرافقته إلى الترسانة وهناك سلموه 800000 دكا مصاريف حرب، و80 جندياً إنكشارياً لحرسه الخاص. «منذ ذلك الحين أصبحت سلطته كاملة على البحر، وخضعت له الجزر، والموانىء، وسكان المدن الساحلية. يستطيع، كما يشاء، أن يجند مجدفين، وبحارة، وجنوداً ويأخذهم على متن سفنه».

أبحر برباروس، بعد تنصيبه بقليل، على رأس ثمانين سفينة من ذات الثلاث دكات والدكتين[69]، وثمانين قادساً حربياً، وعشرين سفينة من أنواع أخرى. هذا ما أورده ساندوفال[70]. منذ حصار رودس سنة 1522 إفرنجي، لم تظهر في البحر المتوسط بحرية

عثمانية بهذه الضخامة. ويلاحظ هنا أنها مكونة كلها من سفن بمجاديف.

لماذا هذه الأفضلية للمجداف على الشراع؟ للإجابة، نطرح السؤال على مختص، وهو القسيس بيير دان «Piere Dan» من رهبانية خلاص الأسرى. فقد كتب: «**تتميز سفن المجاديف على السفن الأخرى بأنها تستطيع التقدم والتراجع بالاعتماد على مجاديفها. وهكذا استحقت التسمية نسور أو ملكات البحر، وهو ما يعطيها وسيلة قوة وحرية حركة بعكس السفن الشراعية المستعبدة للرياح، والتي لا تستطيع التقدم، ومن ثم تكون عديمة الجدوى، عندما تكون الرياح غير ملائمة**»[71].

استعمل الأتراك، وكذلك الامبراطوريون، أنواعاً من السفن ذات المجاديف، أكبرها القادس ذو الخمس والعشرين إلى ثلاثين دكة مجدفين على كل جانب. أما الغليونة فكانت سفينة أصغر حجماً بثلاث وعشرين دكه على كل جانب. وهناك السفن الصغيرة الخفيفة والسريعة التي تستعمل في الاستطلاع، وسفن النقل القادرة على خوض المعارك. كل هذه السفن كانت مجهزة بأشرعة لاتينية بالإضافة إلى المجاديف. ولكل مجداف رجلان أو ثلاثة. كانت دكات الميمنة مفصولة عن دكات الميسرة بممر حيث يتحرك مشرفون مسلحون بسلاح خطير، وهو سياط من عصب البقر. وكان الربان والطاقم والجنود يحتلون مؤخرة السفينة.

تذكرنا تلك السفن، بشكلها المستطيل، بزوارق السباق الحالية. وكان يمكن إبرار السفن المصنعة لغرض القرصنة في أي

مكان لأنها لا تحتاج لمياه عميقة، ولكنها تعاني من عيب خطير وهو هشاشتها. أن الأب بيير يعرف أكثر من أي شخص آخر. كتب: «**أظهرت التجربة أن القوادس وكل السفن بمجاديف يعيبها أنها لا تستطيع مقاومة الرياح الشديدة وحالات المد، وتمثل لها هذه وتلك خطراً شديداً. لهذا السبب قلما تبحر السفن المجهزة بمجاديف خلال فصل الخريف خشية الرياح، ولا تبحر إلا خلال الفترة من شهر مايو إلى سبتمبر. كما أن البحر المتوسط هو البحر الوحيد الملائم لتلك السفن التي لا تعبر المضيق إلا نادراً خشية حركات المد الكبيرة في المحيط**»[72].

عندما تكون الرياح مواتية، تستعمل كل السفن الأشرعة، ولا يلجأ إلى التجديف إلا عندما يكون البحر هادئاً أو الرياح معاكسة، وهو ما يحدث كثيراً. كان يفضل الإبحار ليلاً لأن النهار يكرس للتوقف من أجل التزود بالمؤن، وعمليات السلب. ولكن كانت هناك مخاطرة، فبعد التجديف طوال الليل يكون المجدفون في حالة إعياء ومن ثم لا تكون السفينة قادرة على خوض المعارك. كم من مفاجآت سيئة جاءت مع طلوع النهار!.

كانت أطقم التجديف مكونة من المحكوم عليهم بالمؤبد، والرقيق أي الكفار أسرى المعارك. كان الكفار على السفن التركية من المسيحيين، والكفار على السفن المسيحية من الأتراك، وكان وضع المجدفين لا يحسدون عليه. لفهم ظروف عمل المجدفين على السفن يمكن التذكير بأطقم زوارق السباق في عصرنا، إنها السيقان التي تعمل وليست الأذرع. ولم تكن سفن القرن السادس

عشر مجهزة بكراس متحركة ومن ثم فإن كل تحريك للمجداف يتطلب حركة من الجسم كله. «عندما يشير المشرف يقف المجدف، ويضع رجله على الموضع المثبتة فيه السلسلة ويمد ذراعيه وجسمه في اتجاه مؤخرة السفينة ويدفع أمامه المجداف... عندما يكون كل المجدفين وقوفاً ومن أجلِ وضع المجداف في الماء يقوم السجين برفع طرف المجداف الذي في يديه في الهواء ويضع رجله غير المقيدة على أعلا الدكه ويلقي بنفسه نحو المؤخرة ليقع على الدكة وأذرعه ممدودة، ورأسه في اتجاه مقدمة السفينة»[73].

من أجل توافق الحركة يجب أن يثبت المجدفون عيونهم على المجدف في الدكة الأمامية وهو الذي يعطي الإيقاع. وعادة ما يختار لهذا الموقع رجل قوي ومجرب. يفضل أن يكون متطوعاً، ويسمى الموجه. في العادة، يجب دفع المجداف حتى يلامس الدكه المواجهة. كانت القاعدة هي «لمس الدكة». وعندما يكون موضوع السرعة مسألة حياة أو موت، كان الربان يعطي الأمر بتبني «تجاوز الدكة». ويجب في هذه الحالة أن يدفع المجداف حتى يتجاوز الدكة السابقة، وكان هذا عملاً منهكاً ولكنه قد يستمر ساعات. «أثناء أي مطاردة غاضبة، كان أحد الأطراف يتابع فريسته بحدة مثل النسر، حتى يضطر الطرف الأضعف للهرب من أجل سلامته والحفاظ على حريته»[74].

كم كان هؤلاء الرجال مدهشين جسمانياً وذهنياً، «فقد كانوا مرغمين على بذل جهود تفوق الطاقة الإنسانية بالضرب بقسوة على جلودهم العارية». ولم يكونوا يموتون بالرغم من ذلك، ليس دائماً

على الأقل. عندما حاول الأتراك الاستيلاء على مالطا سنة 1565 إفرنجي، وأنذروا المرشد الأكبر بالاستسلام، «**بعثوا إليه برسالة مع عبد مسيحي في السبعين من عمره قضى ثلاثين سنة مقيداً إلى دكة سفينة**»[75].

كانت القوادس، والغليونيات، والشراعيات القلعية مسلحة أثناء الحرب، وكل منها مجهزة بمدفع واحد على الأقل في المقدمة، للقذف فوق الجزء البارز من مقدمة السفينة. كان المدفع يثبت في مقدمة الممر ومن هنا اشتق اسمه كورسير «Cousier». أما على القوادس وحتى على الغيليونيات، فكانت تحمل قطع مدفعية متحركة يمكن إنزالها. كانت المقذوفات كوراً من الحديد أو من أحجار البرونز قادرة على خرق السفن والأسوار. أما لقتل المحاربين فكانت تستعمل الشظايا من كل نوع؛ من الحديد، والأحجار، وقطع الرخام وغيرها. كانت هذه المواد توضع في إسطوانات خشبية «**وتقذف بواسطة مدافع ضخمة على الأعداء فتحدث فيهم خسائر فادحة**»[76].

كان أسطول برباروس أسطول قرصان، تميزه القدرة على سرعة الحركة، ومن ثم يصعب اللحاق به. يظهر فجأة حيث لا يتوقع، ويضرب ويختفي. كان يعتقد أنه في الجزائر فيبرز فجأة في البليار، ويبحث عنه أحياناً في شواطىء الشمال الأفريقي، في الوقت الذي يكون في شواطىء إيطاليا وصقلية ملحقاً بها الدمار. كانت السرعة والمباغتة هي ما يميز العثمانيين.

بالمقابل، ماذا نجد عند الامبراطوريين؟ كانت لديهم قوادس

أقل خفة، من ذوات الدكتين والثلاث دكات وأحياناً الأربعة. كان أسطول الامبراطوريين مصحوباً دائماً بسفن نقل ثقيلة لا تستطيع مواكبةَ الأسطول بشكل مستمر لأنها تعتمد على الرياح. وكم من مرة اضطرت السفن الحربية ذات المجاديف للتوقف في انتظار الناقلات. وكم من مرة فقد الامبراطوريون النصر لأن الإدارة العسكرية لم تكن في الموقع المناسب في الوقت المناسب. كتب جوريان دي قرافيير «Jurien de Graviere» إن البحر المتوسط كان في القرن السادس عشر بحر السفن المجدفة. كان هذا صحيحاً بالنسبة للأتراك، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة للأساطيل المسيحية.

كانت الأساطيل مختلفة عن بعضها جزئياً على الأقل، لأنها تجيب على أساليب استراتيجية وتكتيكية متباينة، ولكن التسليح كان متطابقاً. فمن بين الأسلحة البيضاء، نلاحظ السيف، والقوس، والرمح، والمقلاع، والقوس الحديدي القذاف الذي كان سلاحاً تركياً متطوراً ذا فاعلية كبيرة في الأجواء السيئة عندما يبلل المطر أو الرذاذ الفتائل والبارود. أما الأسلحة النارية، فتتكون من بنادق الإسكوبيت «Escopette»، والقربينه «Arquebuse» ويبدو أن العثمانيين، بعكس الامبراطوريين، كان لديهم أكثر من البنادق الأولى. فأثناء معركة أفريقيا سنة 1550 إفرنجي لم يستعمل العثمانيون إلا جنوداً مسلحين ببنادق الإسكوبيت.

تطرح الإسكوبيت مشكلة صعبة، حيث استعملت التسمية «Escopette» لأنوع كثيرة من الأسلحة النارية. تم استعمال هذه البندقية لأول مرة في بداية القرن السادس عشر. فقد لاحظ النقيب

الإسباني جونزاليز دي كردوبة «Cordoba»، أثناء حروبه في فرنسا سنة 1550 إفرنجي، أن السويسريين الذين كانوا يحاربون إلى جانب الفرنسيين لديهم قوة نيران كبيرة. لمعالجة نقطة الضعف هذه لديه، أوكل إلى صانعي سلاح إيطاليين مهمة تطوير سلاح أفضل، وهكذا ظهرت البندقية ذات المخرج الواسع المعروفة في اللغة الإيطالية بـ «Scopietta»، وعند الإسبان بـ «Escopetta» وعند الفرنسيين «escopette». تميز هذا السلاح الجديد، الخفيف والمأمون ذو السبطانة الطويلة والأرجل الأربع، بأنه كان يعبأ بالذخيرة من غرفة لهذا الغرض. كان يتكون من جزئين يتحركان حول مفصل. وهو يشبه بنادق الصيد الحالية مع فارق أن الخرطوشة لم تكن معروفة بعد بالطبع، ومن ثم كان يجب الاحتفاظ بكرة الرصاص. ولهذا كانت غرفة الذخيرة أوسع قليلاً من السبطانة. «**لغرض الاستعمال كان يجب وضع السلاح ضد الكتف ومع تثبيتها باليد يشعل الفتيل**».

لم تستعمل هذه البندقية من قبل المشاة الإسبان إلا لمدة قليلة، حيث حلت محلها بندقية ذات فتيل لا تختلف عن القربينة إلا بأنها كانت أصغر، ومثلت سلاح الفرسان المتطور قبل إدخال الغدارة. ما الذي كان يعنيه المؤلفون الإسبان أو اللاتين عندما يتحدثون عن سلاح الأتراك «Scopeta» أو «Sclopeta»؟. لم يعط أي من المؤلفين وصفاً لهذه الأسلحة، ومن ثم فليس أمامنا إلا التخمين.

أما عن القربينة «arquebuse»، فمعلوماتنا أكثر. فقد كانت، مثل «Escopette» الجيل الثاني، تشحن من الفوهة. ومثلها،

كذلك، كانت مزودة منذ سنة 1520 إفرنجي بصفيحة قداحة للفتيل، ولم تعد هناك حاجة لمسك الفتيل باليد، فقد كان الفتيل محمولاً بساق معدني متحرك مثبت على السبطانة، ومجرد شد بسيط بالأصابع على الجزء السفلي للرافعة يوصل الفتيل إلى البارود. كان القذف بمعدل قذيفة واحدة كل دقيقة. وكانت الميزة الرئيسية للصفيحة القداحة هي تحرير اليد التي كانت، قبل ذلك، تمسك بالفتيل، ومكنت من أحكام الإمساك بجسم البندقية باليدين معاً أثناء التصويب والقذف، كما في البنادق الحديثة[77].

عندما عم استعمال الصفيحة القداحة وانتشر، جاء اختراع جديد ليحل محلها، وهو القداحة المستديرة. وهي أشبه ما تكون بالقداحة المستعملة الآن، عبارة عن عجلة صغيرة من الصلب يتحكم فيها نابض، تولد الشرارة اللازمة لإشعال البارود عند اصطدامها بقطعة من الباريت(*) مثبتة بقوابض. ينسب هذا الاختراع لليونارد دي فانشي «Leonard de Vinci». وبالفعل، فإن من بين الرسوم الكثيرة التي تركها هذا النابغة، رسم هو عبارة عن خريطة مفصلة لآلية القداحة. وقد استغل هذا الاختراع بسرعة من قبل صانعي السلاح الألمان، ومنذ سنة 1525 إفرنجي، كانت القداحة منتشرة في ألمانيا، لدرجة صدور تعليمات رسمية تحذر من الاستعمال غير المتبصر لهذا الاختراع البالغ الخطورة: «**فالقذيفة تنطلق تلقائياً**»[78]. لهذا السبب، وقد يكون بسبب تعقيدها وهشاشتها كذلك، لم يلاحظ استعمال القداحة في الجيوش قبل

(*) كبريتيد الحديد.

سنوات 1540 إفرنجي. كان بوزيو أول من ذكرها سنة 1547 إفرنجي، في ظرف استثنائي، في كتابه عن فرسان مالطا. فقد قتل جندي، أثناء مشاجرة، محارباً ينتمي إلى وحدة عسكرية أخرى، فقام رئيس الأخير «**بمواجهة الجاني، وأطلق عليه رصاصة من قربينة بقداحة، ومنها سقط على الأرض ميتاً**»[79]. هكذا يظهر أن استعمال القربينة بقداحة حدث غير مألوف لدرجة أنه شد انتباه الشهود.

عندما غادر برباروس القسطنطينية في 20/ 5/ 1534 إفرنجي تقريباً على رأس أسطوله، كانت مهمته هي الاستيلاء على تونس. لم يعد وارداً تمكين الرشيد من السلطة في تونس، وكان الرشيد في العاصمة (القسطنطينية) مصاحباً لبرباروس ولم يخرج منها أبداً. «**كان (الرشيد) يتصور نفسه عائداً من جديد إلى مملكته، وعند الاستعداد للإبحار تم القبض عليه بأمر من السلطان، ولم يسمع عنه بعد ذلك أبداً. كانت هذه هي النهاية التي ادخرها له الباب العالي**»[80].

بالرغم من أن تونس كانت هي الهدف، إلا أن برباروس لم يسلك طريقها. فقد توجه إلى صقلية وإيطاليا. لماذا؟ لغرض التمويه وخداع الامبراطوريين حول الهدف الحقيقي للحملة، وكذلك من أجل أداء تكليف في غاية الأهمية، وهو توصيل سفير للباب العالي لدى ملك فرنسا. وقبل أن ينقض برباروس على المدينة الشمال أفريقية، قام بجولة بحرية طويلة بتلك السرعة التي لا يمكن تصديقها، والتي ستميزه دائماً وتكون مصدر حيرة لخصومه.

بدأ رحلته بالمرور على كورون «Coron» التي غادرها الإسبان منذ قليل، طردهم منها الطاعون. وترك في كورون أعداداً ممن كانوا معه وقطع مدفعية. ثم ذهب إلى مودون «Modon» حيث استقبل مبعوثاً من فرانسوا الأول طلب منه مهاجمة جنوا التي كانت في حالة حرب ضد فرنسا[81]. في 27 مايو، ظهر برباروس في قناة ميسينيا[82] «Messine» ثم سلك شاطىء كالابريا مخرباً وحارقاً مدناً عديدة، وامتد القلق منه حتى روما[83]. ثم ظهر في سافون «Savon» حيث ترك هناك سفير الباب العالي لدى فرانسوا الأول[84]. ومن هناك عبر البحر المتوسط مباشرة حيث رسا في ميناء بنزرت واستطاع الاستيلاء على المدينة[85] بفضل أنصار الرشيد.

كان سكان تونس غاضبين من ملكهم وينتظرون عودة الرشيد، وعندما ظهر الأسطول العثماني أمام حلق الوادي في يونيه ـ وفق هايدو[86] ـ اعتقدوا أن الوقت قد حان لتمكين الوريث الشرعي من العرش. كانوا يجهلون أن الرشيد قد أبقي في القسطنطينية. عرف الملك حسن أن معركته خاسرة فهرب دون مقاومة، ولم يجد برباروس صعوبة في الهبوط إلى البر. ومن حلق الوادي توجه إلى تونس التي تبعد حوالي خمسة عشر كليومتراً تقريباً، وأودع أنصار حسن في السجن، وأعدم بعض المشايخ.

لم يستسلم الهارب (الملك حسن)، وجمع محاربين من العرب وزحف بهم على المدينة، فخرج برباروس لمواجهتهم. وهُزِم العرب ـ أنصار الملك حسن ـ بعد أن تركوا ثلاثمائة قتيل في أرض

المعركة. بالرغم من النصر الذي حققه، اعتقد برباروس أن الحذر يقتضي دعوة قوات من الجزائر. كان حذره صائباً، فغياب الرشيد قد يكون مصدر خطر. وبالفعل عندما اكتشف التونسيون الخدعة تمردوا، وقضى برباروس على التمرد بقتل بعض رؤوسه. بالرغم من كل ذلك لم يتراجع حسن وجمع قوات جديدة في القيروان، وقام برباروس بالزحف عليه من جديد بقوة من ألف رجل من العسكريين أكثرهم مسلحين ببنادق «Escopette»، وثلاثين مدفعاً. ووفقاً لحاجي خليفة ـ الذي نقلت عنه رواية الأحداث ـ حدث مشهد غير مسبوق: فالعربات الحاملة للمدفعية لم تكن مجرورة بخيول أو بالرجال، وإنما كانت تحركها الأشرعة مثل السفن. وأمام قوة نيران العثمانيين هرب العدو وتشتت. وعرض الرؤساء العرب أنصار حسن استسلامهم. وهكذا أصبح برباروس سيد تونس[87].

كان اهتمامه الأول وضع حاميات، ليس فقط في تونس العاصمة حيث وضع ألفا من الجنود الإنكشاريين[88]، وإنما في بعض مدن المملكة الأخرى خاصة في القيروان. واهتم في المقام الثاني بتوسيع الميناء. وقام، بواسطة عبيد مسيحيين، بفتح قناة تصل البحر ببحيرة داخلية، وهكذا حصل لسفنه على ملجأ مأمون[89].

أثار الخراب الذي قام به برباروس في شواطىء كالابريا، والاستيلاء على تونس القلق في إيطاليا والامبراطورية. ورجع شارل كنت الذي كان في كربات «Carapte» إلى إسبانيا. كان لا بد من حرب صليبية جديدة، وسيكون على رأسها.

لعلمية بهذا الاتساع لا بد من تحريك العالم المسيحي بكامله، وهو ما عمل من أجله شارل كنت. كانت دعوته إلى الحرب ضد الأتراك دعوة ملحة للسلام في أوروبا. فقد قام بإرسال وفود إلى أمراء إيطاليا، وقبل هؤلاء المشاركة في الحرب باستثناء البندقية التي وقعت معاهدة سلام مع الباب العالي[90]. كما دعى ملك فرنسا، أيضاً، للمساندة بقواته البحرية وسفنه، وأكد له أن الحرب المدعو إليها ليس لها من هدف إلا مجد الرب وإنقاذ المسيحية. لكن المحاولة مع ملك فرنسا باءت بالفشل. أو لم يكن الامبراطور يعرف أن ملك فرنسا كان متورطاً مع الباب العالي لدرجة لا تسمح له بالتراجع[91]؟ وبالفعل وقعت القوتان (الفرنسية والعثمانية) في السنة اللاحقة اتفاقيات تربطهما.

لم تكن الحرب الصليبية ضد الكفار موضوع اهتمام الامبراطور وحده، بل كانت تهم البابا في المقام الأول. كان بول الثالث قد انتخب لشغل مقعد البابوية بتاريخ 13/10/1534 إفرنجي، وبعد انتخابه بأحد عشر يوماً ـ أي 24/10 ـ شكل لجنة من ثلاثة كرادلة لمناقشة الإجراءات التي يجب اتخاذها. كما قام شخصياً بالتفاوض مع سفراء السافوا، وميلانو، وفيراري، وسيان حول ما يمكن أن تقدمه كل دولة من هذه الدول. أكثر من ذلك، قام البابا بمخاطبة فرنسوا الأول: فمشاركة أسطوله عامل مهم، وقد يكون حاسماً. ولإزالة أي لبس أوضح البابا صراحة أن السفن الفرنسية لن تكون تحت أوامر الامبراطور وإنما تحت أوامر الفاتيكان.

إذا كان البابا يجهل الحلف السري الموقع بين ملك فرنسا

وبرباروس، فإنه لم يكن ليخفى عليه أن فرنسوا الأول كان يفكر في حرب جديدة ضد شارل كنت.

«توسل البابا بحرارة، من أجل أن لا يعرقل (ملك فرنسا)، على الأقل، مشروع الامبراطور ضد تونس وحصل منه على وعد بأن يتوقف مؤقتاً عن البدء في أعمال عدائية»[92].

يجب الاعتراف بأن الحملة على تونس ما كانت لتتم، لولا تدخل البابا.

لم يتحصل الامبراطور على مساندة فرنسا، يكفيه كثيراً وقوفها على الحياد، فبتحرره من كل تهديد في أوروبا استطاع التركيز على البحر. وهكذا بدأ تجميع قوات برية وبحرية ضخمة لم يسبق أبداً أن جمعت. كان وراء هذا العمل بشكل رئيسي: الامبراطور نفسه في برشلونة، وأندري دوريا وألفونس فاستيوس في جنوا، والبابا ونائب الملك في نابولي، والمرشد الأكبر لفرسان مالطا.

كانت القوات البحرية التي جمعها شارل كنت في برشلونة مدهشة، ففيها نجد أسطولاً ضخماً أتى من ملقا: قوادس وسفن أخرى متنوعة للنقل، بعضها مهيأ لنقل القوات والمعدات الحربية، وأخرى مهيأة خصيصاً لاستقبال الخيول[93]. وساهمت البرتغال أيضاً بخمس وعشرين سفينة رائعة ذات أشرعة لاتينية. **«قادرة على مقاومة عوارض المحيط، ومستعملة للإبحار إلى الهند، وكانت تسمى كرافيل»**. يضاف إلى ما تقدم غليونية مسلحة بمدفعية **«لا مثيل لها»**.

كان الجيش البرتغالي يضم ألفاً من جنود المشاة بالإضافة إلى

البحارة. وجاءت من قان «Gand» في بلجيكا أكثر من ستين سفينة[94] نقل. كما تواجد بين القوات التي كانت مجمعة للنقل خمسمائة من الفرسان، وخيولهم، وعدد من الجنود المسلحين بالبنادق[95] من نوع أسكوبيت «Escopette». إلى جانب العسكريين كانت هناك فرق طبية بأطبائها وجراحيها، وصيدلييها، وممرضيها.

كان من غير المألوف رؤية السفن من نوع «Caravelles» في البحر المتوسط، ولكن الغليونيات انتشرت فيه بعد ذلك أكثر فأكثر، حتى الأتراك كانوا يستعملونها، ولم يكونوا يصنعونها. كان مصدر ما لديهم منها القرصنة أو الشراء، وكانوا يستعملونها كسفن نقل للتجارة.

ازداد استعمال السفن الغليونية أثناء القرن مع تطور المدفعية التي كانت تتطلب سفناً ذات حمولة كبيرة، وقد ترك لنا جوفيو وصفاً ممتازاً للغليونة:

«إنها سفينة مصممة للحرب، قادرة على تحمل الهجوم بالمدافع، والعوامل الطبيعية. أصغر من سفن النقل، وأقل ارتفاعاً وكانت مزودة بأشرعة مربعة، كما يمكن تحريكها بمجاديف للخروج من الموانئ إلى عرض البحر حيث يمكن استغلال الرياح».

عيب السفن الغليونية، مثل كل السفن الشراعية، هو عدم قدرتها على الحركة في حالة هدوء الرياح. وهو وضع صعب إذا كانت محاطة بسفن معادية. هل يحدث هذا للغليونة؟ لا. **«فهي مزودة بكمية كبيرة من الأسلحة النارية، وعندما تهاجم من عدة سفن ثلاثية الدكات، كان بإمكانها بفضل مدافعها مواجهة السفن**

المهاجمة وإغراقها. ومن خلال فتحات على مستوى الماء كان بإمكانها إطلاق قذائف من الحديد من كل جانب ولمسافة بعيدة».

يلاحظ أسقف نصرا «في حالة مواتاة الرياح تكون الغليونة أسرع من أي سفينة أخرى»[96].

عن القدرات العسكرية للسفينة الغليونية أذكر حالة نقلاً عن بوزيو. في سنة 1556 إفرنجي هوجمت سفينة من هذا النوع، كانت قد قدمت لفرسان مالطا، من قبل ثلاثين قادس تركي، واستطاع طاقمها الذي دافع بمهارة أن يجبر القوادس التركية على انسحاب مخز[97].

في الوقت الذي كان فيه الامبراطور يجمع هذا الأسطول الضخم في برشلونة، كان أندري دوريا، والفرنسي فاستيوس يجمعان أسطولاً أكثر ضخامة في جنوا. كان الأميرال(*) مهتماً بالبحر، وبسرعة مدهشة استطاع بناء سفينة خاصة رباعية الدكات مجهزة بفخامة غير معهودة. كانت مقدمتها مزينة بلوحات فنية، ومؤخرتها مغطاة بخيمة مزينة بالذهب والأقمشة الأرجوانية. وكان المجدفون يرتدون سترات من الحرير، كما كان للطاقم بدل زاهية.

من جانبه عبر ألفونس فاستيوس سلسلة جبال ابنين(**) «Apennin»، والتقى الدوق سفورزا والدوق أنتوان ليڤا «Antoine leyva» من أجل جمع فيالقهم. بدأت العملية في فبراير سنة 1535

(*) أندري دوريا ـ المترجم.

(**) سلسلة جبلية في إيطاليا ـ المترجم.

إفرنجي. وهكذا تم تجميع أربعة وعشرين مفرزة إيطالية أي خمسة ألاف رجل، بينما أحضر ماكسيمليان دي أفرستين «Maximilien d'Everstein» سبعة آلاف من المرتزقة الألمان. توجهت كل هذه القوات إلى بورتو فينير لاسبسيا «Porto Venere la Spesia» حيث كانت في انتظارها ثمانية وثلاثون سفينة نقل، واثنان وعشرون قادساً أحضرها أندري دوريا. والتقى ألفونس فاستيوس والأميرال دوريا بعض الوقت ثم افترقا. وبينما أبحر الأخير نحو الغرب لينضم إلى الامبراطور في برشلونة، سلك الأول الطريق إلى شيڤيتا ڤيكيا. نحن الآن في بداية شهر أبريل(98).

لماذا شيڤيتا ڤيكيا «Civita - Vecchia»؟ كان هناك لقاء مهم، وكان من المنتظر قدوم البابا إليها. ساهم البابا بول الثالث بمجهود كبير في الحرب. كان الأسطول البابوي الذي عُين على رأسه ڤيرجينو أرسيني «Virginio Orsini» في 20/ 11/ 1534 إفرنجي، يتكون من ثلاث سفن فقط، وكان من المقرر تجهيز تسع سفن أخرى في جنوا، ولكن الخزائن خالية، ومن ثم كان لابد من دعوة القساوسة للمساهمة المالية. بالرغم من هذا فلم يكن ممكناً تسليم أكثر من ستة سفن في الوقت المناسب (تسعة وفق بيرو). يضاف إلى ما تقدم صعوبة تجنيد بحارة، ولهذا السبب كان يحكم على المجرمين بالتجديف.

غادر بول الثالث روما إلى ميناء تراجان «Trajan» يوم 18 أبريل، ومن على برج روكا «Rocca» بارك الصليبيين المجتمعين على الأرصفة. وسلم البابا لڤيرجينو أورسيني العلم، وعصا

القيادة، وشارات وظيفته. يوم 28 عاد البابا إلى روما[99]، بينما كان الأسطول الذي باركه في اتجاهه إلى نابولي، حيث سلح نائب الملك سبع قوادس أضيفت إليها خمسة أخرى قدمها الوجهاء.

كان التجنيد ـ حتى ذلك الوقت ـ يتم بحماس، فبالإضافة إلى الجنود بأجر، انضم كثير من المتطوعين الشباب بدون أجر خاصة من النبلاء. حدث في نابولي، وللمرة الأولى، مشهد مختلف: عصيان. فبينما كان الكل مشغولين بالاستعداد للرحيل، بدأ جنود في الشكوى بدعوى أنهم يخشون دوار البحر في الوقت الذي ينتظرهم أبحار طويل من أجل هدف غير مؤكد، بأجور تافهة. أخذ الوضع منعطفاً خطيراً اضطر معه فاستيوس للضرب بقسوة، فقد وضع كل المتمردين في أكياس ورماها في البحر[100].

كانت نابولي هي محطة فاستيوس الأخيرة، فقد أكمل استعدادته ولم يتبق له إلا الذهاب إلى كقلياري في سردينيا حيث حدد الامبراطور موعداً لكل الجيوش. في نابولي انضم إلى سفن قادمة من مالطا. كان المرشد الأكبر لفرسان مالطا في عداد المحرضين الرئيسيين على الحرب الصليبية إلى جانب البابا والامبراطور. أو لم يكن هو الذي طلب إلى شارل كنت «**أن يذهب بنفسه إلى تونس**»؟ وعليه لم يكن هناك أمامه مجال للتقتير في المساهمة، ومن ثم تم تحريك كل قوات الرهبانية، وهي: «**أربع قوادس على متنها مائتان من الفرسان المنتقين، والكراك الذي كان بقيادة توش بيف كليرمون، يساعده دي قرولي «de Grolee»، كقائد احتياطي، وكان على الكراك سبعون حصاناً، وكتيبة من المشاة.**

وأعلن بوتيقلا جنرالاً على البحر، والفارس دي فرولي ـ قاضي لوجانو ـ جنرالاً على البر».

لم يترك شيء للصدفة، وفي عمليات حربية يقوم بها جنود من النخبة كان لا بد من توقع خسائر. ففي حالة موت أحد القادة كان المرشد الأكبر «يعين من يخلفه في مسؤولياته». تحرك الأسطول يوم 30مايو، ووصلت القوادس بسرعة إلى كقلياري مروراً بتراباني «Trapani»، ووصل الكراك متأخراً بسبب خمود الرياح[101].

هكذا منذ بداية يونيه، وصلت جيوش أيطاليا ومالطا إلى مكان التجمع، ولكن الامبراطور لم يكن قد وصل بعد. لماذا تأخر الامبراطور؟ نعرف السبب بفضل جان بيرو الذي مكنتنا يومياته من متابعة التقدم البطيء للجيش الامبراطوري يوماً بيوم، وأحياناً ساعة بساعة، وهي فرصة فريدة للوقوف على خفايا الإبحار في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر.

بينما كان فاسيتوس يغادر السبزيا «La Spezzia» إلى شيڤيتا ڤيكيا ونابولي، كان أندري دوريا يبحر إلى برشلونة لينضم إلى شارل كنت، كما سبق ورأينا. كان دوريا على رأس عشرين سفينة حربية من بينها سفينة الامبراطور الرباعية الدكات. كان وصوله مشهوداً، وعاش فيه سكان المدينة منظراً رائعاً: «من كل السفن، كانت المدافع تطلق قذائف من البرونز، والحديد، والحجارة وبجلبة اعتقد الناس معها أن السماء قد ثارت».

اختلطت ضوضاء العبيد مع أصوات الأبواق بينما كانت تدور

في المرسى مناورة بحرية، وكان الامبراطور يراقب المشهد من نافذة في القصر.

بعد الاحتفال حان وقت الجد. أمر شارل كنت بركوب الفرسان سواء المحترفين أو المساعدين على السفن، وكذلك بنقل الجياد من الإسطبلات إلى السفن. وفي يوم الأحد 30 مايو، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، صعد هو نفسه إلى ظهر السفينة ذات الأربع دكات على أصوات طلقات المدفعية وموسيقى الأبواق. حضر جميع سكان برشلونة انطلاق الصليبيين. «كانت الجماهير تغطي الشاطىء، ويتزاحم الناس على النوافذ. واكتظت الأسطح، والكل ينظر في اتجاه البحر.... عندما غادر الامبراطور الميناء ارتفع النواح، والتأوهات وسالت الدموع، وامتدت الأيدي إلى السماء بالدعاء إلى الله أن يبسط حمايته، ويكلل الحملة بالنجاح والنصر المؤزر. في هذا اليوم توجه موفدون إلى كل الأقاليم الأوروبية تقريباً لإعلان سفر الامبراطور إلى أفريقيا».

للأسف، لم يتم الرحيل بسبب خمود الرياح، وكان الانتظار حتى الغد 31 مايو، عندما مكن هبوب ريح خفيفة الأسطول من مغادرة الميناء إلى عرض البحر عند الساعة الثامنة مساء، وانتظر على بعد أربعة أميال من الشاطىء طلوع النهار. استمر خمود الرياح طوال يوم 1 يونيه، ووحدها القوادس «Galeres» استطاعت مواصلة السفر، ووصلت قريباً من جزر البليار يوم 2 يونيه. طوال ليلة (2/ 3) تقدم الأسطول بواسطة التجديف حتى وصل إلى ميناء الكودية «Alcodia»، ونزل الامبراطور إلى اليابسة مع المشاة من البرتغال،

وفي المساء صعدوا إلى ظهور السفن، وبالتجديف طول ليلة (3/4) يونيه وصلوا إلى مينورك «Minorque»، وعند منتصف النهار هبطوا من أجل إعادة التزود بالمؤن، وواصلوا الرحلة. تحركت رياح ملائمة مكنت من التقدم بواسطة الأشرعة والمجاديف، وتمكنت طلائع الأسطول من الوصول إلى ميناء ماهون «Mahon» يوم 5 يونيه عند الظهر. وهكذا في أربعة أيام ونصف قطعت القوادس 285كم تقريباً ـ أي 63,4كم يومياً ـ بواسطة التجديف.

استقبل الامبراطور في ماهون من قبل نائب الملك، وأقيمت صلاة على اليابسة، وأخذت وجبة على ظهر الأسطول. كان لا بد من انتظار وصول السفن الشراعية، والتي وصلت في الليل، وهكذا انطلق الأسطول بكامله يوم 6 يونيه، وسلك طريقاً بمحاذاة الساحل مستعملاً الأشرعة والتجديف. تم النزول إلى الأرض في مكان مهجور حيث أقيمت الصلاة وتمت العودة إلى ظهور السفن والاتجاه شرقاً. استعملت هذه المرة الأشرعة.

9 يونيه: عاصفة. اضطر جزء من الأسطول للتوقف في جزيرة سانت بيير «Saint-Pierre» على بعد عشرين ميلاً من سردينيا.

10 يونيه: عند الساعة الحادية عشر وصلت القوادس إلى كالاري «Calaris»، ورست في الميناء في انتظار السفن التي توقفت في سانت بيير. قطعت المسافة من برشلونة إلى كالاري، أي حوال 745كيلو متر، في سبعة أيام ونصف، أي بمعدل 78.5 كيلو متر يومياً. من مينورك إلى كالاري، وبفضل الرياح كان المتوسط

أحسن: 460 كيلو متراً في خمسة أيام ونصف، أي بمعدل 83.6 كيلو متراً يومياً.

11 يونيه: عند الفجر صعد ألفونس فاستيوس إلى ظهر سفينته الثلاثية الدكات، وذهب ليحيي الامبراطور. وصلت السفن التي كانت في سانت بيير.

12 يونيه: عند الساعة الرابعة صباحاً دخلت إلى الميناء سفينة الامبراطور، وغيرها من السفن ذات المجاديف الثلاثية والثنائية تاركة السفن الأخرى.

13 يونيه: صلاة على اليابسة.

14 يونيه: التوجه إلى تونس بكامل الجيوش البحرية، وكانت كالآتي:

- السفن الحربية: 74 قادساً، ستة منها من ذات الأربع دكات (من نابولي وصقلية)، و68 ثلاثية الدكات.
- 30 قادساً من ذات الدكتين.
- سفن نقل: 300 من بينها عشرة من ذات الدكتين.

كانت كل سفن الأسطول الامبراطوري الحربية، أثناء الحملة على تونس سنة 1535 إفرنجي، من ذات المجاديف، ولن نرى اشتراك السفن الغليونية المسلحة في المعركة إلا بعد ثلاث سنوات.

لسرد أحداث معركة تونس، سأتبع خطوة بخطوة، كما درجت على هذا منذ مغادرة برشلونة، يوميات جان بيرو. إن هذا الفرنسي

يكتب بلاتينية أقل تميزاً من اللاتينية التي يكتب بها جوفيو، ولكن وصفه كان دقيقاً، ورواياته مفصلة لدرجة تعطي الانطباع بأنه عاش الأحداث. ولم يكن الأمر كذلك. فقد يكون شاهد مغادرة الأسطول الضخم لبرشلونة، ولكنه، بكل تأكيد، لم يشارك في الحملة. وقد قام من أجل كتابة يومياته باستعمال تقارير شهود عيان، أو مشاركين، شفهية أو مكتوبة، واكتفى بترتيبها بطريقة غير موفقة أحياناً. وكانت لديه روح النقد؛ فهو حذر من واقعية الأحداث المنقولة سماعاً، وعندما تبدو له رواية مشوبة بالانحياز يعرب عن شكه. إن روايته المفصلة والطويلة جداً اهتمت خاصة بالعمليات البرية. وقد زودنا بوزيو بمعلومات ثمينة بالنسبة للمعارك البحرية.

تركنا الجيش البحري عند مغادرته كالاري يوم 14 يونيه. وقد مكنته رياح مواتية من الوصول خلال ثمانية عشر ساعة تقريباً إلى الشاطىء التونسي في مواجهة مرتفعات قرطاج. ولنعرب عن إعجابنا بالمهارة البحرية التي أظهرها أندري دوريا وبحارته الذين قادوا الأسطول مباشرة إلى الموقع المحدد.

كان المشهد الذي تعرض له الامبراطوريون مؤثراً. توقعوا الدفاعات مقامة على الشاطىء، ولكن من الأبراج والقلاع، بدأ الأتراك ضرب الأسطول عن بعد، وهو ما كان مصدر قلق حقيقي للامبراطوريين، كما قام الأتراك من على الأبراج، وقمم الصخور بإشعال النيران للتحذير من الخطر القادم.

عند الساعة الثانية صباحاً، رست القوادس والسفن الغليونية في ميناء بورتو ڤارنيا (أوتيك القديمة) في انتظار ما تأخر من الأسطول. بعد ثلاث ساعات تكامل وصول الأسطول، وأعطى الأمبراطور الأمر بالتوجه إلى حلق الوادي مستغلاً ملاءمة الرياح. كان من الضروري معرفة مواقع العدو، واختبار قدرته على المقاومة، واكتشاف نقاط الضعف في تحصيناته قبل القيام بأي عمليات. واتضح مبكراً أنه لا يمكن الاعتماد على عنصر المباغتة. فقد أُخطر برباروس بما كان يعده المسيحيون، ومن ثم كان لديه كل الوقت للاستعداد.

علم الامبراطوريون ذلك بطريقة غير متوقعة. فبينما كان الأسطول قبالة حلق الوادي يطلق قذائف في اتجاه الشرق أحياناً، وأحياناً أخرى في اتجاه الغرب، خرجت سفينتان تابعتان لمرسيليا من الميناء. تم اعتراض السفينتين وأحضر ربابنتهما على ظهر سفينة الامبراطور وأخضعوا لتحقيق ضاغط. أعطى الربابنة إجابات غامضة في البداية، ثم أقر أحدهما بأن سفير الباب العالي الذي أوصله برباروس إلى سافون «Savone»، رجع مصحوباً بمبعوث من طرف ملك فرنسا ليخطر القرصان، ثم السلطان بقرب موعد الهجوم. وبينما كان المبعوث في طريقه إلى القسطنطينية، سارع برباروس بتجهيز برج حلق الوادي بمدفعية قوية، ووضع سفنه في ملجأ آمن؛ في السباخ. كان هذا ترتيباً غريباً من قبل بحار مجرب، فأسطول راسٍ يمثل صيدا سهلاً. هل كان هذا عدم حذر؟ كلا، لقد كانت هذه السفن آمنة ولم يكن هناك ما تخشاه لأن حلق الوادي غير قابل

للاستيلاء عليه، وهو ما لم يتأخر الامبراطوريون في الوقوف عليه. فقد اقترب قاربا استطلاع من الأسوار فتعرضا لقوة نيران جعلت من الضروري إعطاء الأمر لهما بالانسحاب.

تحقق الامبراطور من قوة خصمه ومدى تصميمه فجمع مجلس حرب على ظهر سفينته. كان الليل قد حل. وكان من الواضح أن الاستيلاء على حلق الوادي سيكون مكلفاً ويحتاج لوقت طويل. كان الهجوم من البحر مستحيلاً، وعليه يجب القيام بالعمليات العسكرية الرئيسية على اليابسة، ومن ثم تقرر إنزال القوات إلى البر في اليوم التالي، واختيرت طلال قرطاج، غرب حلق الوادي، لإنزال هذه القوات.

16 يونيه: بدأ إنزال القوات في الصباح، وتولت القوارب والسفن ذات الدكتين نقل القوات من السفن إلى الشاطىء. إن أي إنزال يمثل دائماً عملية صعبة لا تخلو من مخاطر، ولكن الثقة والحماس أنست الخطر. فقام الألمان والإسبان الذين كانوا مستعجلين بالقفز إلى البحر بدل انتظار حملهم على أكتاف البحارة، بينما كان الإيطاليون والبرقونيون أقل استعجالاً مخافة البلل. كانت ملامسة اليابسة تعني الدخول في المعركة، فقد ظهر من كل الاتجاهات فرسان أتراك ومغاربة. دخلت بنادق الامبراطوريين النارية في المعركة وأحدثت تفوقاً فعالاً، بينما كان الامبراطور على ظهر جواده مهتماً بتنظيم قواته وترتيبها.

كان يوجد بالقرب من مكان المعركة، برج يسمى أكواريا «Aquaria»، ومنه يتزود سكان حلق الوادي بمياه الشرب. تمت

مهاجمة البرج والاستيلاء عليه، كما تم القضاء على كل جيوب المقاومة التي وزعها العدو في أطلال قرطاجة.

17 يونيه: وضع الامبراطور ترتيب القوات للمعركة: وسط، وأجنحة، ومقدمة، ومؤخرة.

18 يونيه: عُقد مجلس حرب. وأكد الأتراك والمغاربة الأسرى، والمسيحيون الذين استطاعوا الهرب، ما أعطته المشاهدات الأولى التي تمت من البحر من عدم إمكانية الاستيلاء على حلق الوادي إلا بخسائر جسيمة. ما العمل؟ أكد البعض ضرورة الاستيلاء عليه، واقترح آخرون تركه والتقدم نحو تونس. وظهر بسرعة أن الفريق الأول محق، فقد كان من المستحيل مهاجمة تونس، مع ترك مكان بهذا الخطر خلف القوات، ومن ثم كان لا بد من الاستيلاء عليه.

للاستيلاء على هذه القلعة لم يكن هناك إلا خيار واحد، وهو فتح ثغرات في الأسوار عن طريق القذائف أولاً، ثم الهجوم. لهذا الغرض، تقرر بناء معسكر حصين على مسافة ألف وخمسمائة خطوة من القلعة، تنقل إليه المدافع التي على السفن، وتبدأ بالقذف بمجرد وصولها.

23 يونيه: أقيمت تحصينات للدفاع ضد قذائف العدو ومناوشاته.

وصل مغربي مبعوثاً من ملك تونس حسن، وقد قرر الامبراطور أن يجعل من حسن حليفاً، وهكذا أعطى أوامره بإطلاق المغاربة الأسرى، وتحاشى أي إزعاج مستقبلاً لرعايا الملك. وأبلغ

الامبراطور مبعوث الملك رسالة واضحة فحواها أنه إذا كان الملك ومعه النوميديون ـ أي العرب ـ يرغب في المشاركة في الحرب ضد هذا الذي سلبه عرشه فإن الامبراطور يرحب بذلك، وأنه في انتظار رد الملك خلال أربعة أيام.

25 يونيه: تم صد هجوم معاد، وهبت عاصفة نزعت الخيام، ومن حقول الزيتون بين تونس وحلق الوادي قام محاربون بمهاجمة الألمان والإسبان. كان هذا مقدمة معركة طاحنة.

26 يونيه: خرج برباروس من تونس على رأس ألف من الفرسان، وأكثر منهم من المشاة. أعطى الأمبراطور الأمر للفرسان الإسبان ووحدتين من المشاة بملاقاة برباروس، ولحق بهم شخصياً مع فرسانه، وقسم من حملة البنادق النارية. تم دحر العدو الذي هرب تاركاً خمسين من القتلى في الميدان، ولم يخسر الامبراطوريون إلا خمسة قتلى.

27 يونيه: وصلت تعزيزات من صقلية ونابولي: ألف ومائتي رجل أتت بهم قوادس وسفن نقل.

في اليوم نفسه وصل ثلاث فرسان من ملك تونس حاملين رد ملك تونس بطلب مقابلة مع الامبراطور.

«برجاء أن يبعث إليه الامبراطور بعض السفن ثلاثية الدكات لنقله من مكانه الجبلي». لم يتردد شارل كنت، وبعث اثني عشر سفينة.

29 يونيه: وصل الملك حسن، واتفق الطرفان. وأكد الملك

أن لديه في الجبال أكثر من ستة آلاف من الفرسان. تمت مرافقة الملك إلى الخيمة التي أعدت له.

بدأت الاستعدادات للهجوم على حلق الوادي منذ 1 يوليه. ومن أجل فاعلية أكبر نقل المعسكر قريباً من الحصن. كان هذا عملاً مضنياً، وجعلته الحرارة الشديدة، ونقص مياه الشرب أكثر إيلاماً. كانت المناوشات من قبل العدو مستمرة، والتحذيرات تتابع حتى أثناء الليل. وتعرض المعسكر لقصف مدافع حلق الوادي والسفن الراسية في السباخ.

12 يوليه: نقل المعسكر من جديد إلى مكان أقرب إلى الحصن وسط عاصفة رملية صعبة. وأمر الامبراطور بقصف حلق الوادي تمهيداً لمهاجتمه في الغد.

13 يوليه: مناخ غير ملائم: ومنعت العاصفة والمطر أي تحرك.

14 يوليه: مناخ أكثر ملاءمة، وسيقع الهجوم اليوم.

خصص كل الصباح للأعمال التمهيدية، وتم احتلال برج واقع على صخرة. ومن أجل اتقاء أي مفاجأة أقام الامبراطور ساتراً أمام المعسكر، وأعد ثلاثين ألف جندي للمعركة وأمر المدفعية بقصف حلق الوادي من البر والبحر بشكل مكثف[102].

عند هذه النقطة لنترك العمليات البرية ولنراقب ماذا كان يجري على البحر. كان تكتيك أندري دوريا مليئاً بالدروس:

«قام الأمير دوريا بصف كل السفن بنفس الطريقة التي طبقها في

كورون، السفن المنخفضة في المقدمة، والأكثر ارتفاعاً في المؤخرة لتتمكن من القذف من فوق السفن الأخرى. كان الصف الذي يفرغ من القصف ينسحب، ويتقدم في نفس اللحظة صف آخر، يمثل بمقدمات سفنه تحصيناً للصف المنسحب ضد مدفعية حلق الوادي التي كانت تطلق بجسارة لأن الأتراك وجدوا الوقت الكافي لأعداد ونصب قطع مدفعيتهم بطريقة أفضل مما كانت عليه. وهكذا كانت تنسحب القوادس المصابة، وتتقدم أخرى لتحتل مكانها في نفس الصف، وقد أصيبت سفينتان من سفن مالطا تعرف عليهما العدو من العلم. وللانتقام لهذا قام الكراك الذي كانت لديه أقوى مدفعية في الجيش بقصف شديد أسكت مدفعية العدو في الجانب الذي استهدفه».

يُبرز بوزيو ـ الذي أخذت عنه السطور السابقة ـ إقدام فرسان رهبانيته، ويبين كيف أن الجنرال بوتيقلا:

«عنَّف بحدة مشرف المجدفين، الذي قام برفع المجاديف خشية أن تصطدم القوادس بالقاع، طالباً إليه إذا كان من الأمانة أن ينسى هدفه من أجل اقتصاد سفينتين أو ثلاثة،... وقام آخر بوضع مدفع صغير، وبنادق على القارب الكبير للكراك، واقترب حتى وصل تحت الاستحكامات البارزة للقلعة حيث لم تكن مدفعية العدو تستطيع مهاجمته».

كان من نتيجة هذه الأعمال المتوافقة التي جرت على البر والبحر: «تحطيم البرج والتحصينات كما حطمت مدافعها ودفنت تحت الأنقاض».

هكذا أصبح الوضع جاهزاً من أجل العمل الحاسم[103].

عند الساعة الثانية بعد الظهر، أعطى الامبراطور الإشارة بالهجوم، وهو ما تم برياً وبحرياً في نفس الوقت[104]. في الجانب البحري أعطيت المقدمة لفرسان مالطا، وقد كتبوا في هذا اليوم صفحة مجيدة في تاريخهم.

«حمل القاضي باسم «Passim» جنوده على قاربين كبيرين، وعدد من قوارب الكراك الصغيرة، وسلم شارة الرهبانية للفارس جيوم كوبييه «Guillaume Copier». كما أعلن الامبراطور منح خمسمائة أيكوس(*) لمن يدخل الأول في حلق الوادي. وصل الفرسان في المقدمة ولكن حصى الشاطىء ورماله أوقفت زوارقهم، فألقى الفارس كوبييه بنفسه في الماء بملابسه الرسمية وتبعه الفرسان الآخرون، وغمرتهم المياه حتى الأحزمة، وبدأوا في تسلق الأسوار وسط قذائف البنادق والسهام، والحجارة والأسهم النارية وهو ما أدى إلى إصابة أغلبهم بجروح، وبصعوبة أكبر صعدوا متسلقين بأرجلهم وأيديهم، متعاونين مع بعضهم البعض حتى اشتبكوا بالأيدي مع الأتراك، وتمكنوا من الدفع بهم إلى الخلف واحتلوا أعالي الممرات، والبرج، كما فعل الإسبان على الأرض. هكذا كان فرسان مالطا أول من احتل البرج الكبير، وهو ما وضحه رفع الفارس كوبييه لعلم الرهبانية والتلويح به أمام الجيش»[105].

لم يكن المهاجمون أقل جرأة «على الأرض»: فمن أجل

(*) وحدة نقديه.

الوصول إلى أعالي الأسوار استعملوا سلالم. هوجم المدافعون على الحصن ـ الذين بقوا على قيد الحياة على الأقل ـ من كل جانب فهربوا محاولين الوصول إلى تونس، وأوقع الامبراطوريون بهم مذبحة، واستولوا على سفن برباروس التي كانت في السباخ[106]، وكان عددها أربعين قادساً، ومثلها من الغليونيات، والقوارب.

كان النصر كاملاً والخسائر مخيفة: ألف وخمسمائة قتيل من الأتراك، وخمسمائة من الامبراطوريين[107]، أما الجرحى فلا يحصون. كان المشهد مؤلماً، وصرخات الألم فوق إحتمال البشر. لم يستطع الأطباء، والجراحون، والصيادلة، والممرضون مواجهة الوضع بالرغم مما بذلوه من جهود، وتوفي كثير من الجرحى الذين نقلوا إلى المستشفيات التي أعدت على عجل.

«جرح البعض من البارود الذي أشعل بطريقة غير حذرة، وجرح آخرون بالسهام وطلقات البنادق، والسيوف، والرماح. كانت الجراح الأكثر قسوة تلك التي وقعت بسبب قذائف المدافع: أيد، وأذرعة، وأرجل، وأفخاذ حطمت أو على الأقل خلعت. آخرون فقدوا أطرافهم كلها. من بين هؤلاء نذكر هذا الإسباني من أصل متواضع الذي فقد فخذيه من كرة برونزية أطلقها مدفع، ونزعت بندقيته من بين يديه. اهتم ببندقيته أكثر من اهتمامه بنفسه، وبحث عنها بعينيه حتى رآها فزحف بيديه وما تبقى من جسمه حتى استطاع الوصول إليها، وأمسك بها بين ذراعيه فرحاً، وقبلها ثم سلم الروح».

كان النصر عظيماً ولكنه باهظ الثمن، وطرحت كيفية التصرف على أساسه. جمع الامبراطور المجلس يوم 15 يوليه لمناقشة ما الذي يمكن عمله وكانت الآراء متباينة. البعض رأى العودة إلى إسبانيا، وآخرون رأوا أنه لا معنى لهذا النصر المكلف ما لم يتم الاستيلاء على تونس، ويبدو أن الرأي الأخير كان أكثر حكمة ومن ثم تم تبنيه. واتضح بسرعة أن الاستيلاء على تونس كان مشروعاً صعباً وخطيراً للغاية.

يوم 17 يوليه تحركت الطلائع، وأطلقت اثني عشر قذيفة مدفعية من الشاطىء الغربي للبحيرة. واتضح أن هذه الطريق صعبة ومن ثم يجب تجنبها. ومر يوم 18 يوليه في تردد. وضح أولاً أن أنصار الملك حسن ـ إذا كان لهم وجود ـ لم يأتوا، والطريق بين حلق الوادي وتونس طويلة بالإضافة إلى أن مشاكل الإدارة بدت غير قابلة للحل، فالمياه غير متوفرة لأن الآبار نادرة، وهي أما تحت سيطرة العدو أو قام بتخريبها، أما مياه السباخ فقد كانت مالحة لا يمكن شربها. وبسبب عدم توفر الحيوانات كان يجب جر المدافع بواسطة الرجال. كانت هذه أسباباً تدفع في اتجاه العدول عن مهاجمة تونس.

كان ترك المدينة في أيدي برباروس يعني تشجيعه على مواصلة تخريب السواحل المسيحية، وهل كان من المقبول ترك كل هؤلاء الأسرى المسيحيين قابعين في سجون تونس؟ برزت كل مزايا الاستيلاء على مدينة تونس، كما أن إعادة تنصيب الملك حسن على عرش تونس تجعل منه أسير فضل الامبراطور وأداته الطيعة.

لم يكن الامبراطور من هذا النوع من الرجال الذين يتراجعون أمام المخاطر، ومن ثم تقرر الزحف على تونس.

غادر الجيش حلق الوادي يوم 20 يوليه ليعسكر على بعد خمسة أميال من مدينة تونس. عندما وصل الامبراطوريون إلى المكان الذي اختاروه لقضاء الليل اكتشفوا أن برباروس قد احتله. «رأى **الامبراطور بسرعة أن هناك أملاً في تحقيق نصر**» فأعطى أوامره لبدء المعركة. وبعد تبادل قصف مدفعي وبندقي هاجم الامبراطوريون خصمهم وتمكنوا من هزيمته، وانسحب تاركاً مائتين وخمسين من القتلى في الميدان.

عانى الجيش من محنة العطش طوال الليل، وشوهد جنود يشربون الوحل. هل كان في الإمكان في هذه الظروف مهاجمة المدينة واقتحامها في الغد؟ كان الحظ إلى جانب الامبراطور هذه المرة، فقد دخل المدينة يوم 21 دون مقاومة، بعد أن هرب منها برباروس. كان ما وقع لا يمكن تصديقه، فما الذي حدث؟ كل المؤلفين ومنهم حاجى خليفة يتفقون على سببين لهروب القرصان: بداية، تخلي أعداد كبيرة من التونسيين أو على الأقل عدم رغبتهم في أن يحكمهم تركي. أما السبب الثاني، وهو العامل الحاسم فهو ما قام به الأسرى المسيحيون الذين يصل عددهم ـ حسب حاجي خليفة ـ إلى أربعة آلاف. فقد تعاونوا فيما بينهم ـ ربما بمساعدة بعض العلوج ـ على كسر قيودهم ونجحوا في السيطرة على المدينة، وفتحوا أبوابها للمحرر.

ترك الامبراطور المدينة للنهب طوال اليوم. ولم يخف جان

بيرو ـ وهو شاهد محايد ـ شيئاً من الفظائع التي ارتكبها الجنود الذين قتلوا كل من قاوم دون اعتبار للعمر أو الجنس.

«تم تجميع كل المغاربة الذين تم أسرهم في المدينة أو ضواحيها، وكغيرهم من الغنائم عرضوا للبيع، الآباء أمام أعين أطفالهم، والأزواج فصلوا عن زوجاتهم»[108].

بعد أربعة أيام، أي يوم 24 يوليه، غادر الامبراطور المدينة متبوعاً بجيشه إلى قرية تقع على مسافة أربعة آلاف خطوة غرب حلق الوادي. لقد حان وقت التقييم. كان هدف شارل كنت الاستيلاء على تونس، وقد نجح. ولكن، بأي ثمن؟ هل كانت النتيجة على مستوى الإمكانات التي وظفت والتضحيات التي قدمت؟ البعض يشك في ذلك. فها هو فيرجينيو أوربينو «Virginio Orbino» كونت انجويارا يكتب في رسالة مؤرخة في 25 يوليه ما يلي:

«يعتقد كثيرون أن هذا الأمر كان قليل الأهمية، ونتيجته جلبة أكثر من أي شيء آخر. فبرباروس سيصعد من جديد بسهولة، فما زالت لديه أعداد كبيرة من السفن والأتراك. باختصار كان حصار تونس عملاً عسكرياً بحتاً ونصراً محدوداً»[109].

نحن، الذين نكتب التاريخ اليوم، لدينا ميزة على الكونت، وهي معرفة كيف تمت الأحداث لاحقاً، ولا نستطيع إلا نعجب بصحة تنبؤاته. لم يتأخر برباروس، فقد استطاع على أثر سلسلة من الانتصارات المدهشة أن يبرز أن إمكاناته هائلة بالرغم من خسائره. ولكن هل يمكن التسليم بالقول **«أن الأمر كان قليل الأهمية»**؟ لا

يبدو هذا القول صحيحاً. فقد استطاع الامبراطور بانتصاره أن يجعل من تونس محمية طوال أربعين سنة، وأن يضع حداً بطريقة حاسمة للتوسع العثماني في سواحل أفريقيا. لو كتب أوربينو رسالته بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ كتابتها لكان أقل قسوة في حكمه.

وقع الامبراطور مع ملك تونس، يوم 6 أغسطس، معاهدة تستحق شروطها أكبر الاهتمام. فيما يلي أبرز بنودها:

1 ـ أن ملك تونس الذي سلبه برباروس عرشه، لم يستطع استعادة هذا العرش إلا بفضل الامبراطور.

2 ـ عليه، فإن ملك تونس وخلفاءه لن يقوموا مستقبلاً بما من شأنه الاضرار بمصالح رعايا الامبراطور وخلفائه على عرش إسبانيا، وعلى الأخص لن يحتفظوا بأي أسرى من رعايا الامبراطور أياً كان جنسهم أو حالتهم. كما يعد الامبراطور بنفس الضمانات بالنسبة لرعايا الملك.

3 ـ للرعايا المسيحيين حرية الاستقرار في تونس، وممارسة شعائرهم، ولهم بناء مساكنهم، وكنائسهم وأديرتهم دون أي عراقيل.

4 ـ إذا استطاع الملك الاستيلاء على أي من المدن التونسية الواقعة حالياً في أيدي الأتراك مثل أفريقيا (المهدية) أو عنابة، أو بنزرت أو غيرها فإنه يتنازل عنها لصالح الامبراطور. وكذلك إذا استطاع الامبراطور الاستيلاء على أي من هذه المدن فإنه يحتفظ بها لضمان أمن الأقاليم المسيحية والتونسية.

5 ـ حلق الوادي ملك للامبراطور بحق الغزو «droit de conquete»، ويتنازل الملك عنها وذلك من صميم مصلحته، فالدفاع عن هذا الموقع الحصين من قبل الامبراطوريين يؤمن سلامة المملكة التونسية.

6 ـ يعفى سكان حلق الوادي وضواحيها من أي ضرائب شخصية. وللملك أن يجبي الضرائب التقليدية على العقود والتجارة، ورسوم الموانىء، ومن هذه الإيرادات يجب دفع مبلغ اثنى عشر ألف ديكات لحاكم حلق الوادي، ويحتفظ الامبراطور شخصياً بتجارة المرجان.

7 ـ يكون رعايا الامبراطور تحت النظام القضائي لمجلس الشيوخ، ومجلس وقاضي حلق الوادي.

8 ـ يقر الملك أن الامبراطور ـ وخلفاءه على عرش إسبانيا ـ هو حاميه والمدافع عنه، وحامي مملكته والمدافع عنها، وكتأكيد لهذا يقدم الملك للامبرطور وخلفائه كل سنة ستة من أجمل الخيول المغربية، واثنى عشر صقراً.

9 ـ ستكون هناك حرية للتجارة والتنقل بين الامبراطورية ومملكة تونس. وتكون الموانىء والشواطئ محظورة على القراصنة[110].

كانت هذه هي الأحكام الرئيسية في المعاهدة، وهي تبرز بعد نظر شارل كنت ومستشاريه القانونيين. بجعل تونس محمية، وفر الامبراطور التكاليف الباهظة لجيش احتلال، وإدارة، وباحتفاظه بحلق الوادي أعطى لنفسه قاعدة بحرية بالغة الأهمية، وضمن

الاحترام الدقيق لبنود المعاهدة في نفس الوقت. ومن بين هذه البنود هناك اثنان يشدان الانتباه: حرية التجارة، وحظر الموانىء على القراصنة.

لو فرض نموذج المحمية الإسبانية وفق النموذج الذي أقيم في تونس في كل الشمال الأفريقي واستمر، لكان العائد على العلاقات التجارية والرخاء في أفريقيا كبيراً للغاية.

كان لاحتلال تونس وقع كبير في كل البلدان المسيحية وخاصة في روما، وكان البابا بول الثالث يتوقع أن يرى شارل كنت مبحراً نحو القسطنطينية من أجل توجيه ضربة حاسمة للقوة العثمانية[111]. كان هذا يمثل عدم معرفة بقدرات القوى المتواجهة، ولم يفكر الامبراطور أبداً في عمل بهذه الضخامة.

بالرغم من ذلك حاول الامبراطور استغلال انتصاره بالاستيلاء على بعض المواقع في الشاطىء الشمال أفريقي. فقد تمكنت حملة بقيادة دوريا من الاستيلاء على عنابة بعد أيام من سقوط تونس. وكما تسمح بذلك المعاهدة احتفظ شارل كنت بالقلعة وترك المدينة وما جاورها لملك تونس مقابل أتاوة سنوية. ترك شارل كنت في حلق الوادي حامية من ألف من الجنود الإسبان، وغادر معسكره مصحوباً بجيشه يوم 17 أغسطس متوجهاً إلى المهدية والتي كانت قلعتها من أضخم القلاع في الشمال الأفريقي. لسوء الحظ، هبت الرياح الجنوبية بعنف حاملة الأسطول إلى تراباني في صقلية بدل المهدية، ووصل هناك يوم 22 أغسطس. وهكذا انتهت الحرب الصليبية التي كانت قد أحيت كثيراً من الآمال[112].

بينما كان الأسطول الامبراطوري بسفن نقله الشراعية الثقيلة يعاني من تقلبات المناخ، استغل برباروس الوضع وأخذ بثأره. فبعد هروبه من تونس توجه إلى عنابة حيث كانت سفنه راسية، ومن هناك إلى الجزائر. وبمجرد وصوله إلى الجزائر بدأ تسليح سبعة قوادس كان قد تركها تحت قيادة أحد مساعديه المخلصين، مراد آغا الذي كان حينها قرصاناً مشهوراً. كما كانت تحت تصرفه ثمانية قوادس مملوكة لخواص. وهكذا بدأ الأبحار على رأس اثنين وعشرين سفينة بعد ستة عشر يوماً من عودته. وخلال شهر سبتمبر مر بمايوركا واستولى على قاربين، ثم تقدم إلى مينورك، وخرب ماهون[113]. وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى روما سببت الكثير من الذعر والقلق. وهكذا انتبه إلى أن قدرات القرصان الجريء لم تحطم كما كان قد كتبه أوربينو[114].

تأثرت السمعة التي نالها شارل كنت باحتلال تونس كثيراً، وبالرغم من استطاعة برباروس الهرب إلا أن ذلك لم يكن بخطأ من الامبراطور. كان من المدهش عدم سقوط الجيش الامبراطوري على أبواب تونس، فقد كان الزحف على تونس مخاطرة غير محسوبة. كتب فيرجينو أوربينو الذي كان شاهد عيان في رسالته المشار إليها سابقاً الآتي:

«وضع صاحب الجلالة نفسه في خطر بذهابه إلى تونس بجيشه، ولو بقي برباروس يومين أو ثلاثة حتى دون أن يحارب لهلك الجيش، وتشتت بكل تأكيد بسبب نقص الماء. ففي فرقتنا لم يبق رجل واحد دون أن يمرض».

ليس هناك ما يمكن أن يلام عليه الامبراطور من الناحية الاستراتيجية والتكتيكية، وإذا كان من نقد يوجه إليه فهو، دون شك، وضعه على عرش تونس شخصية مكروهة، الملك حسن. فعند مغادرته مرسى حلق الوادي ترك خلفه في تونس سلطة متنازعاً عليها وغير مستقرة. وستظهر نتائج هذا الاختيار السيء أكثر في طرابلس. بالفعل كانت أعداد من المعارضين للملك قد لجأوا إلى تاجوراء، ورجع خير الدين الذي كان قد شارك في الدفاع عن تونس، إلى تاجوراء بعد الهزيمة، حيث «**كان يستقبل كل المنفيين وأعداء مولاي حسن**». وبفضل هذا المدد استطاع أن يجهز حصناً على بعد ميل واحد من طرابلس، وضع فيه حامية من ستين تركياً، وكتيبة من الفرسان، ومن هناك كان في استطاعته ضرب الميناء، وأصبحت المدينة كالمحاصرة. ولقد حاول، دون نجاح، مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها. وليس من المشكوك أن لو أتى برباروس لنجدة خير الدين لتقرر مصير طرابلس.

كان فرسان مالطا ينتظرون الأسوأ عندما علموا بأن القرصان (برباروس) وصل إلى القسطنطينية لقضاء فصل الشتاء، وبقي الخطر حقيقياً.

«لم تكن الرهبانية تستطيع أن تحرك أكثر من سبعمائة رجل، كما كان يوجد مائة وخمسون فارساً مسلحاً وهو عدد لا يكفي لتشغيل المدفعية».

جاءت لفرسان مالطا النجدة من مغاربة طرابلس، فالحصار المضروب على المدينة أضر بتجارتهم مع الداخل، وصارت

المبادلات مع بورنو وكانو، التي هي مصدر دخلهم، مستحيلة. ومن ثم استنجدوا ببعض القبائل العربية وبفضلهم تم الاستيلاء على البرج الذي بنى مؤخراً وتم هدمه. وعادت طرق القوافل سالكة من جديد، وكما يحدث غالباً، كانت الاعتبارات الاقتصادية حاسمة[115].

مدرسة القراصنة

عاد برباروس إلى جربة بعد أن عاش تخريباً في مينورك، ومن جربة توجه إلى القسطنطينية لقضاء الشتاء. كان عمره في ذلك الوقت سبعين سنة، وأصبحت أيامه معدودة. نحن الآن في سنة 1535 إفرنجي، وسيقوم خلال السنوات الأربع اللاحقة بأعمال تمثل تتويجاً لحياته المهنية. كان أولها سلسلة من الانتصارات الباهرة، وربما كان إعداده لخلافته أبرز إنجازاته. فللمرة الأولى سنرى في العمل هؤلاء الربابنة العظام الذين قام بتكوينهم، وهم مثله في بداياته، قراصنة لا ينتمون إلى سلك الضباط في الجيش النظامي. كانت لديهم مرونة ويتمتعون باستقلالية، ومن ثم في استطاعتهم اتخاذ المبادرات التي تفرضها الحوادث الناتجة عن مخاطر الصدف، بخلاف بحارة الأسطول النظامي. وقد تمرسوا بأساليب رئيسهم وأصبحوا قادرين على معرفة ردود فعله، ويستطيعون بالفطرة معرفة إلى أين يوجهون ضرباتهم عند مواجهة الأعداء. عندما سيختفي برباروس سيكونون على استعداد لملأ الفراغ.

لم يترك برباروس لنفسه أي وقت للراحة بعد وصوله إلى

العاصمة، أو بالأحرى لم يترك له السلطان وقتاً للراحة. فبمجرد رجوعه من بغداد حيث استقبل بحماس، أعطى السلطان سليمان الأمر لبرباروس لتصنيع مائتي قادس، وهو عدد مدهش أعطى للأسطول العثماني قوة لم يكن قد عرفها أبداً من قبل. لماذا هذا المجهود الحربي غير المسبوق؟ لم يكن الأمر يتعلق بإعادة احتلال تونس، وإنما كان هدفاً أقرب وأكثر أهمية من وجهة نظر السلطان، وهو إحكام السيطرة على البحر الأدرياتيكي.

أبحر برباروس على رأس ثلاثين قادساً في سبتمبر سنة 1536 إفرنجي، ونزل في أبولي «Apulie» (في إيطاليا) واستولى على مكان حصين يسمى الكاستيل «Castel». كانت غارة سريعة دون نتائج استراتيجية ولكنها مقدمة لعملية واسعة منتظرة في السنة اللاحقة.

في 25/ 5/ 1537 إفرنجي، أبحر برباروس على رأس قوة تتكون من خمسة وثلاثين قادساً وسفن أخرى، بلغت في مجموعها مائة وثمانين شراعاً وثلاثين ألف بحار، وفي نفس الوقت غادر السلطان العاصمة على رأس قواته. كان الهدف المشترك هي أفلونا[116] «Avlona». لماذا هذا الميناء الألباني؟. من السهل تخمين نوايا السلطان بمجرد القاء نظرة على الخريطة. فافلونا تقع على خليج صغير يجد فيه الأسطول مرفأ ممتازاً، وهي تقع في مواجهة أبولي «Apulie»، وبالقرب من كورفو «Corfo». كان هدف سليمان الاستيلاء على هذين الإقليمين. كانت مهاجمة إيطاليا عملاً منطقياً، والأعمال الغسكرية ضد البابا والامبراطور ليست جديدة، ولكن الوضع مختلف بالنسبة لكورفو، فقد كان الباب العالي مرتبطاً

بمعاهدة سلام مع البندقية. لم يتردد السلطان وأعلن الحرب على أمراء البندقية من أجل أحكام السيطرة على البحر الأدرياتيكي.

كانت الحملة على أبولي «Apulie» بقيادة لطفي باشا الذي نزل في نهاية يوليه غير بعيد من أوتران «Otrane»، وخرب العديد من القلاع. قدَّر أندري دوريا أن ليس في استطاعته مواجهة الأسطول العثماني، فترك إيطاليا لمصيرها وانسحب إلى مسينيا. دب الذعر في روما، ولكن الخطر اختفى فجأة كما بدأ فجأة، وبطريقة غير متوقعة، ودون معرفة السبب. ربما كان الأتراك معتمدين على هجوم مصاحب لهجومهم من طرف فرنسوا الأول الذي تراجع في آخر لحظة، وجعل تراجعه من المستحيل على العثمانيين مهاجمة إيطاليا[117].

تركز الجيش البحري العثماني حول جزيرة كورفو، ولكن الحصار طال أمده، وقاومت القلعة بشجاعة جعلت اقتحامها أمراً مستحيلاً، وهو ما اضطر الأتراك يوم 20 سبتمبر للعدول عن اقتحام الجزيرة والانسحاب. وفي طريق العودة انتقم برباروس، فقد نزل في سيفالوني «Cephalonie» ونهبها، وحصل على غنائم ضخمة. ثم استولى على ست جزر في بحر إيجه منها باروس «Paros»، وناكسوس «Naxos». وهكذا احتل ثلاث قلاع خلال أربعة عشر يوماً، وأسر أحد عشر ألفاً من بينهم ألف فتاة، وألف وخمسمائة فتى[118]. لنتذكر أن جزر الأرخبيل اليوناني، مثل جزر بحر إيجه، كانت تابعة للبندقية.

كان الحــذر يتطلب أن تكون الحمــلات البحرية العثمانية

منتظمة وأن تبقى السفن راسية في الموانىء ما بين شهري أكتوبر ومايو من كل سنة. كانت راحة مفيدة لأصلاح الأعطاب وتمكين طواقم التجديف من استعادة قواهم. وبينما كان برباروس يجهز قوادسه كان المسيحيون يستعدون للرد. ودفعت الضربة الموجهة للتجارة البحرية للبندقية بجمهورية البندقية للانضمام إلى جانب الحلفاء، وهو ما كان البابا والامبراطور ينتظرانه منذ زمن طويل. وهكذا في جو من البهجة، وقع يوم 8 / 2/ 1538 إفرنجي في روما الحلف الذي سيعرف باسم «**الجامعة المقدسة**»[119] «Sainte Ligue». وقرر الحلفاء أن يكون الانتقام في البحر الأدرياتيكي لأن السلطان وجه ضرباته الحربية هناك. كان الخطر هناك حقيقياً فقد استولى الأتراك، في مارس سنة 1537 إفرنجي، على كليسا «Clissa» في الشمال الشرقي لسبلاتو «Spalato»، وكان وقوع هذا المكان الحصين يفتح أمامهم منطقة دلماس «Dalmatie» المواجهة لرومانيا «Romagne»، والمارش «Marche»، وهكذا أصبحت إيطاليا، وروما مهددتين. وبفضل انضمام البندقية تولد الأمل في هزيمة الامبراطورية العثمانية، وقرر الحلفاء النزول في اليونان، واتخاذ بريفيسا «Prevesa»[120] رأس جسر لعملياتهم.

في شهر أغسطس كانت قوات البندقية البحرية وقوات البابا في كورفو قاعدة انطلاق الحملة، ولكن دوريا لم يحضر. كان جريماني قائد الأسطول البابوي مستعجلاً، وسئم من انتظار الامبراطوريين، فقرر مهاجمة بريفيسا مع دي كبيلو «de Capello» قائد أسطول البندقية[121]. كان هذا التسرع غير موفق، فعندما أراد الحلفاء

النزول ليلاً واجهتهم مقاومة غير متوقعة. لقد أُخطر برباروس بما كان يعد في كورفو فأخذ مواقع في الخليج، وبدأ بإطلاق مدافعه من على الساحل، بينما كان قراصنته في عرض البحر للأطباق على المهاجمين من الخلف. وقد أورد حاجي خليفة أسماء هؤلاء القراصنة الذين اعتمدت عليهم نتيجة المعركة: فبجانب مراد آغا، نرى درغوت جي، وكوزلوت جي. والرايس صادق وآخرين. وبينما كان المسيحيون يحاولون النزول إلى البر أُخذوا بين نارين فأصيبوا بالهلع وانسحبوا. وبعد يومين خرج برباروس من الخليج وهاجمهم وأجبرهم على التراجع إلى كورفو[122].

أخيراً، في 7 سبتمبر، ظهر أندري دوريا ولم يحضر معه الدعم المأمول، فقد أتى باثنين وخمسين قادساً فقط بدل الاثنين والثمانين المنتظرة، وذلك لأنه لم يجرؤ على ترك خلفياته دون حماية. كان لا بد من تأمين الدفاع عن تونس والساحل الإسباني ضد القراصنة. لم يكن هذا مهماً، ففي مواجهة الأتراك كان للحلفاء قوات متفوقة وساحقة[123].

كانت القوات المتواجهة، حسبما أورد حاجي خليفة، كالآتي:
من جانب الكفار أي المسيحيين:

- **قوادس**: دوريا 52، البندقية: 70، البابا: 30، مالطا: 10 = 162.
- **بوارج**: إسبانيا والبرتغال: 80، البندقية: 10، وأخرى: 50 = 140.
- **سفن نقل**: 300.

الإجمالي: 602 شراع.

في المقابل كان لدى برباروس 122 قادساً خفيفاً[124].

كانت القوات غير متناسبة، ولكن عكس ما هو متوقع هزم أندري دوريا واضطر «**للهرب مخز**». بل ذهب هايدو إلى حد كتابة أن الأميرال انسحب دون أن يحارب[125]. ما الذي حدث حقيقة؟ من غير المفيد طرح السؤال على المؤلفين المسيحيين فغموض رواياتهم، وتناقضاتهم تترجم اضطرابهم. كتب باستور «Pastor»: «**وفق الرأي الغالب كان دوريا هو المذنب والمسؤول عن الهجوم الذي انتهى بانسحاب مخز يشبه الهرب**»[126].

هل كان هذا مؤكداً؟ يرجع الجانب التركي هزيمة الأميرال إلى توافق عدة ظروف. فبالإضافة إلى براعة برباروس وإقدام بحارته، حدثت معجزة إلهية.

كان أندري دوريا ينوي حصر برباروس في خليج بريڤيسا والقضاء عليه هناك، وعندما وصل، كان برباروس لا يزال في البحر، ونبهته رؤيا إلى ما كان يحاك ضده. فقد رأى في المنام سرباً من الأسماك يخرج من الخليج إلى عرض البحر. عندما استيقظ أدرك تفسير الرؤيا، وخرج خلال الليل بكل أسطوله من الخليج إلى عرض البحر.

عندما رأى الحراس الذين وضعوا في أعلى الصواري أسطول أندري دوريا ـ وكان ذلك يوم 27 سبتمبر ـ أعطى برباروس أوامره بالاستعداد للمعركة.

«عندما رأى الكفار الذين كانت الرياح إلى جانبهم المسلمين، تقدموا لملاقاتهم فأصيب المسلمون بالخوف، فالقوادس لا تستطيع منافسة السفن في مثل هذه الظروف. قام خير الدين (برباروس) بكتابة آيتين من القرآن ورمى بهما على جانبي سفينته، فخمدت الرياح فجأة ولم تعد السفن قادرة على الحركة».

تكفلت شجاعة وعنف الأتراك بالباقي. وهكذا تمت هزيمة الأسطول المسيحي الثقيل. وأعطت معركة بريڤيسا شهرة لبربروس أكثر من كل انتصاراته الأخرى. كتب حاجي خليفة أنها «كانت المعركة الكبيرة لخير الدين باشا»[127]. وفي الوقت الذي يمجد فيه حاجي خليفة بربروس، يعيد الاعتبار لأندري دوريا. فهذا الأخير كان قد سجل نقطة، هناك ميل لنسيانها، فبعد هزيمته في بريڤيسا ذهب وطرد الأتراك من كاستيلنوفو. حدث هذا في أكتوبر سنة 1538 إفرنجي عندما كان الأسطول العثماني في طريقه إلى القسطنطينية لراحة الشتاء[128].

لم يكن لحملات بربروس في الصيف اللاحق 1539 إفرنجي سوى هدف واحد: إعادة احتلال كاستيلنوفو. فمنذ شهر يونيه، أعطى بربروس الأمر للقرصان درغوت ليكون مستعداً بثلاثين قادساً وغليونة أمام هذا الميناء لمنع السفن المسيحية من دخوله. لم يستطع دوريا القبول بهذا وأعد للقيام بعملية مضادة. ففي 7 يوليه غادر مسينيا على رأس ثلاثة وأربعين قادساً لنجدة الحامية في كاستيلنوڤو. وفي أوترانت علم بانضمام بربروس إلى درغوت، ودخوله إلى خليج كاتورو «Caturo» بمائة وخمسين شراعاً، فقام

دوريا بإرسال بعض القوادس للاستطلاع، نجحت اثنتان منها، تابعتان لفرسان مالطا، في الاستيلاء على غليونتين معاديتين. نجاح محدود دون شك. في هذه الأثناء:

«كان برباروس يضرب قلعة شتونف بثمانين مدفعاً، وفي القلعة كانت توجد سبعة مدافع ثنائية، وأربعة مدافع ذات حجم كبير جداً، كل واحد منها مجرور على ثماني عجلات».

تحت هذا القصف، لم تتمكن القلعة من الصمود طويلاً، واضطر رئيس الحامية القبطان سرامينتو «Saramiento» لاتخاذ القرار الواجب في مثل هذا الظرف:

«اقترب من الأتراك، وخرج عليهم وقتل منهم خمسمائة من بينهم خير الدين أحد أقارب برباروس. كان خير الدين قبطاناً شجاعاً، وكان قد نصب نفسه ملكاً لتاجوراء»[129].

لم يكن هذا كافياً لكسر الحصار، وسقطت القلعة يوم 24 يوليه[130].

كانت بريفيسا، وكاستيلنوفو آخر انتصارين كبيرين لبرباروس، بعدهما احتل تلاميذه واجهة الأحداث. وأولهم مراد آغا.

مراد آغـا:

سبق وأن قابلناه مرتين. كانت الأولى في الجزائر سنة 1535 إفرنجي، حيث كان على رأس تسع قوادس ينتظر سيده المطرود من تونس. كما رأيناه في بريفيسا يحتل موقعه بين القراصنة الآخرين. كان برباروس يعرف أن في الإمكان الاعتماد عليه، ولهذا فعندما

قتل خير الدين أمام كاسيتلنوفو، كان مراد هو اختياره ليخلف المرحوم كرئيس لتاجوراء[131].

في تاجوراء، أبرز مراد لفرسان مالطا أنه خصم يخشى. في سنة 1551 إفرنجي أصبح أول والٍ تركي لطرابلس، حيث ترك ذكرى محارب مقدام، وراع للآداب. ويقال أنه كان يتكلم عربية صحيحة راقية[132]. بعد قرن من الزمان، بقيت ذكراه حية لدرجة أن الجراح جيرارد الذي كان أسيراً في طرابلس، استطاع أن يجمع رواية عن «مغامراته الأولى».

ها هو مراد كما قصه «تاجر من طرابلس مغرم باستطلاع ماضي بلاده»:

«ولد مراد آغا في مدينة راجوس «Raguse». عندما كان والداه في قرية مجاورة، هاجمهم أتراك، وأخذوا مراد إلى القسطنطينية، وهناك بيع بستين أيكوس لخصي من السرايا، قام بختانه بعد قليل، وأعطاه اسم مراد. كان مراد لطيفاً مؤدباً في كل تصرفاته مما دفع سيده الخصي لتقديمه إلى السلطانة سُلَيمة التي كانت المفضلة عند السلطان سليم الأول. أعجبت سليمة بسلوك العبد الشاب وطلبته من الخصي الذي لم يتردد في وهبه لها. كان من المستحيل على سليمة أن تحتفظ بالشاب قريباً منها بسبب الصرامة التي كانت سائدة في السرايا تجاه الجنس اللطيف. ولما رأى الخصي أن السلطانة مفتونة أيما فتنة بالشاب اقترح عليها أن تقوم بخصيه ليتأتى لها الاحتفاظ به قريباً منها. كان الاقتراح قاسياً بالنسبة للسلطانة خاصة وأنه مضر لمراد، ولكنها انتهت بقبول الاقتراح. وهكذا أصبح مراد

هذا الرجل الكامل الأنيق خصياً بأمر سيدة كانت تلعن حظها لأنها لم تستطع العثور على ذريعة أخرى تمكنها من الاحتفاظ به قريباً منها. حالما شفي مراد من جروحه، أحضرته سليمة إلى القصر وأغدقت عليه العطايا والافضال، واعتبرته أغلى محظى لديها، واستخدمته في نقل رسائلها إلى السلطان الذي أعجب به وأحبه. قضى مراد خمس، أو ست سنوات في السرايا يتمتع بالمتع التي تمكنه حالته منها، وغمرته السلطانة الجميلة بأفضالها، وكثيراً ما كانت تلتهب بين ذراعيه بحب عنيف لا يستطيع هذا العاشق العاجز إطفاءه. عندما توفي السلطان سليم في القسطنطينية، نقلت سليمة إلى السرايا القديمة كما تقضي بذلك القوانين التركية. وتوفرت لمراد كثير من الحلي والثياب الثمينة عندما توفيت هذه الأميرة الجميلة بسبب الحمى، واستطاع شراء حريته. لم يقبل بعدها أن يبقى قريباً من السيدات، ودخل سلك الجندية وتبع إبراهيم باشا في حملته على فارس، حيث قام بأعمال شجاعة غير معروفة عادة عند الخصيان، وبفضلها رقي إلى رتبة آغا، أي نقيب. عمل مراد بعدها مع أسطول بربروس عندما غزا تونس، ولما كان ميالاً للبحر فقد عين بسرعة ربان قادس. وقام بعد ذلك بتسليح شراعيات من ذات الصاريين على حسابه واستعملها للقرصنة فاشتهر لدرجة أن بربروس اهتم به، وجعل منه سيداً على تاجوراء بعد وفاة خير الدين. وبعد ذلك بقليل ثبته السلطان سليمان في هذا الموقع الوجيه»[133].

قصة رائعة! وكم هو بارع هذا الراوي! ولكن هل كل هذه

التفاصيل حقيقية؟ إننا مثل جيرارد، لا نستطيع الجزم. ولكن هناك نقطة تبدو مؤكدة، وهي أن مراد أصيل منطقة دلمات «Dalmate»، وبالفعل فقد أكد نيكولا نيكولي «Nicolas Nicoly» في كتبه الأربعة الأولى حول «الإبحار والترحال في الشرق» المنشورة في ليون سنة 1568 إفرنجي أن بطلنا من مواليد راقوس[134] «Raguse».

من المرجح أن بربروس التقى بمراد خلال زيارته لحلب آخر سنة 1533 إفرنجي، وكان قد رقي منذ وقت قصير إلى رتبة الآغا، فأعجب به وأخذه في حاشيته خلال عملية تونس. جاء تحوله إلى بحار متأخراً بعض الشيء، ولهذا اختير لتاجوراء مُفضلاً على هذا الذي سيكون أكثر القراصنة مهابة في البحر.

درغوت:

قابلناه في معركة بريڤيسا إلى جانب مراد آغا، ولكن معركة كاستيلنوڤو هي التي أبرزته، ويبدو، من المؤكد، أن بربروس رأى فيه منذ تلك اللحظة خليفته. كان درغوت قرصاناً حريصاً على استقلاله أكثر من سيده بربروس. ويشتبه في أن هذا هو السبب في بقائه مدة طويلة في الحاشية، ولم يسم أبداً قبطان باشا.

لم يكن درغوت أبداً كافراً بعكس أغلب القراصنة، ولا من أبوين كافرين كما هو الحال للإخوة بربروس، فهو تركي مسلم بالولادة. كتب له مارمول وحاجي خليفة[135] تاريخ حياة مختصر، ولكن بوزيو قدم عنه تفاصيل دقيقة، وليس في هذا ما يدهش ففرسان القديس يوحنا لا يستطيعون إلا أن يهتموا بماضي هذا

الذي مثل بالنسبة لهم، في مالطا وفي طرابلس، الخصم الأخطر.

«كان درغوت ابناً لراع اسمه ڤيلي «Veli» ولد في قرية قريبة من سيرولوز «Seroloz» في المنطقة الإدارية مانتيش «Manteshe».

هكذا يقدمه لنا حاجي خليفة، ويذكر مارمول لقرائه ولنا، أن سيرولوز كانت في مواجهة جزيرة رودس[136]. هذا عن مكان ولادته، ولكننا نريد أن نعرف ما الصدف التي قادت درغوت ليصبح قرصاناً، وهنا يجب توجيه السؤال إلى بوزيو:

«التقاه مدفعي صدفة عندما كان يرعى قطيعاً من الغنم، وعمره اثنتا عشرة سنة، ورأى المدفعي في ملامحه الشجاعة واللياقة، فطلب إلى والده وأخذه معه إلى القاهرة، حيث تكون كمدفعي قدير. ومن هناك ذهب إلى الجزائر واشترك في سفينة بالربع وحقق مغانم لا بأس بها. ونجده بعد هذا بقليل في الإسكندرية حيث شارك في سفينة أخرى بالربع وحقق، لحسن الحظ، مغانم كبيرة. بعدها بقليل استطاع تسليح غليونية، وذهب إلى الجزائر لخدمة برباروس الذي عرف قدره وسلمه مسؤولية بعض القوادس. . . »[137].

في أي سنة انضم درغوت إلى برباروس؟ وكم كان عمره؟ ليست هناك مؤشرات تمكننا من تخمين إجابات.

بعد معركة كاستيلنوفو نشر درغوت الرعب في البحر المتوسط. كان في كل مكان، ولا يوجد في مكان. ذُكر أنه ظهر سنة 1540 إفرنجي في مياه مالطا على رأس قادسين وثلاث عشرة

غليونية، وأثناء غارة ليلية على جزيرة جوزو استطاع إختطاف خمسين من أهالي الجزيرة كانوا قد أهملوا «**العودة إلى القلعة ليلاً بعد الانتهاء من أعمال الحراسة كما تقضي بذلك التعليمات**». كان يستعمل عنصر المباغتة دائماً.

كان هذا عملاً ثانوياً، فالمهمة الموكولة إلى درغوت هي «**مباغتة القوادس المالطية، وكان مصمماً بكل جهده على الاستيلاء عليها ولو فقد فيها كل سفنه**».

هذا ما عرفه فرسان مالطا من فم مسيحي هرب من طواقم تجديف القرصان. كان الخطر محدقاً، خاصة وأن قوادس الرهبانية لم تكن في حماية الميناء والقلعة وإنما كانت في عرض البحر من جانب صقلية، فسارع المرشد الأكبر بإرسال شراعية لتحذير القوادس من الخطر. وكانت هذه على علم مسبق، فقد حذرها قبطان هارب من ليبانت «Lepante» كان هناك من عبيد درغوت. لم يكن القرصان يعرف كيف يحتفظ جيداً بأسراه... وأسراره. انتقل الخبر من شخص إلى آخر، وعلم به الامبراطور فأمر أندري دوريا «**بمحاربة القرصان**». بدأت المطاردة، ولكن لا أحد يعرف أين كان درغوت. بعث الأمير بقوات إلى مواقع مختلفة لعله يجد درغوت. من بين آخرين، بعث أندري دوريا كريستوف دوريا بأحد عشر قادساً، مع قوادس مالطا إلى تراباني، ومن هناك وصل كريستوف إلى الشمال الأفريقي، وفي الطريق استولى على سفينة غليونية من ذات الثماني عشرة مقعداً. وبالقرب من عنابة طارد سبعة قوادس واستولى على اثنتين منها. مشهد رائع! ولكن لا أثر لدرغوت.

سينجح دوريا آخر، وهو شاب صغير السن، فيما فشل فيه كريستوف. هذا الشاب هو جنتان الذي كان في صقلية على رأس عشرين قادساً، وعلم أن القرصان موجود في سردينيا، ولكنه لم يكن هناك. وانتشرت إشاعة عن وجوده في كورسيكا، وكان هذا صحيحاً، فدرغوت كان في الجزيرة وأحدث بها خسائر، وكان وقتها «منسحباً إلى ميناء صغير لتقسيم الغنائم».

للقبض على درغوت يجب معرفة مخبأه. كُلف جورج دوريا ـ كان الشأن شأناً عائلياً ـ على رأس ستة قوادس لجره إلى معركة، بينما يكون جنتان «Jennetin» بعيداً في مكمن. وقع درغوت في الفخ، فست قوادس لا تمثل أكثر من لقمة بالنسبة له. تظاهر جورج بالهرب وجر العدو إلى الموقع الذي ينتظره فيه جنتان. هكذا سقط درغوت، فبعد أن عارك بشجاعة تم أسره وتم الاستيلاء على كل سفنه.

استقبل جنتان في جنوا استقبالاً حافلاً. هناك كان هو ابن أخ العظيم والشجاع أندري دوريا. كان صغيراً لم تظهر لحيته بعد وسجل كل هذا المجد. مثل هذا عاراً وأي عار لدرغوت! في أحد الأيام لم يستطع القرصان التعس السيطرة على انفعالاته، وانفجر غضبه فقال:

«إنه لا يندم على شيء إلا على أسره من قبل شاب صغير لم تظهر لحيته بعد».

كان هذا تجاوزاً لم يتحمله جنتان وغضب، وسدد له لكمات على وجهه وقيده بسلسلة[138].

كتب كالفَت أستريلا «Calvette Estrella»: **«لم يفقد درغوت رباطة جأشه، وبقي زمناً طويلاً مقيداً بالسلاسل في سفينة دوريا، وكله أمل، مقاسياً نفس المصير الذي عاناه على يديه آخرون»**[139].

كانت هذه مخاطر الحياة البحرية ومصادفاتها. كم من القباطنة الأتراك والمسيحيين وجدوا في السلاسل على سفينة معادية! وضع مؤلم ولكنه ليس مأساوياً دائماً. فقد كان يحدث أن يتمكنوا من الهرب، وأحياناً أخرى يتم الاستيلاء على القادس التي كانوا عليها مجدفين، من قبل المعسكر المعادي، وينقلب الوضع فيصبح السجانون مجدفين. في أغلب الأحيان، وعلى الأقل عندما يكون الأسير شخصية مهمة، فإنه يحرر مقابل فدية. لا تخلو هذه التقلبات من طرائف. في أحد الأيام وبينما كان درغوت مقيداً إلى دكته زاره القومندان باريسوت دي لاڤاليت «Parisot de la Valette» ودار حوار مختصر. قال باريسوت: **«هذه تقاليد الحروب»** ورد درغوت: **«تبدل مؤقت وبالصدفة»**. سبق للقرصان أن رأى زائره في السلاسل على ظهر سفينة تركية. هذه الحادثة أوردها برانتوم «Brantome» نقلاً عن دي لاڤاليت[140] نفسه.

أي انتقام يمثله أسر درغوت بعد مآسي السنة السابقة! بالرغم من ذلك كان لا يزال قراصنة كثيرون في البحر، خاصة قراصنة الجزائر الذين كانوا ينشرون الخراب في سواحل إسبانيا وسواحل الجزر، ويعترضون القوافل البحرية في مضيق جبل طارق. صمم الامبراطور على هدم مأوى القراصنة واتخذ هذا القرار في مجلس راتيسبون «Ratisbonne» في شهر يوليه سنة 1541 إفرنجي. أمام

تقدم الأتراك في المجر كان لا بد من الرد بمهاجمة الخصم من الخلف، وعلى أرضه. وكانت هذه الاستراتيجية تتطلب حسم الوضع في الجزائر أولاً[141].

تستحق الإعجاب، كل الإعجاب، شجاعة شارل كنت. ففي الوقت الذي كان يتعرض فيه لضغوط مشاكل مستعصية من كل جانب؛ انتفاضة البروتستانت في ألمانيا، والحرب ضد فرانسوا الأول، والتقدم الصاعق للأتراك في أوروبا، واضطراب الأمن في البحر المتوسط، وإصرار البابا على حياد الكرسي البابوي في النزاع بين الامبراطور وملك فرنسا، لم ييأس شارل كنت وقرر المواجهة. فبمجرد انتهاء أعمال المجلس، وحتى قبل كتابة المحضر، غادر راتيسبون، في 29 يوليه، ووصل إلى جنوا، مارا بترنت وميلانو، وهناك في جنوا أعد أوامره للمعركة. دعيت إسبانيا، ونابولي، وصقلية، والبابا، ومالطا للمشاركة في الحرب الصليبية التي اتخذ قرارها. كان الوقت ضاغطاً والفصل متقدماً، ألم يكن ذلك متأخراً جداً؟ لم يتردد أندري دوريا في توضيح أن هذه الحملة كانت جنوناً، ولكن لم يؤخذ بوجهة نظر هذا البحار المسن والذي كان يجب أن تكون خبرته الطويلة ذات تأثير كبير[142]. استمع الامبراطور إلى نفس النصائح من البابا بول الثالث الذي التقى به في لوك «Lucques» حيث كان على موعد معه يوم 14 سبتمبر. ولكن الامبراطور كان مصمماً ويدفع بأنه في وجه النجاحات التركية في بانوني «Pannonie» ـ استولى السلطان سليمان على بود في 26 أغسطس، وكان يهدد ڤيينا ـ لا بد من عمل عاجل لمشاغلة الأتراك، واقتنع البابا بحجج الامبراطور.

18 سبتمبر، غادر شارل كنت لوك «Lucques» إلى سبسيا «Spezia» بعد مباركة البابا، وأبحر[143] يوم 28 سبتمبر بستة وثلاثين قادساً، وبينما كانت السفن ذات الأشرعة الرباعية، أغلبها للنقل، وعددها مائة وخمسون في طريقها إلى مايوركا، وصل شارل كنت إلى كورسيكا بعد معاناة بسبب هبوب عاصفة أدت لاضطراب البحر. استراح الامبراطور لمدة يومين، وكانت استراحة مستحقة، ثم توجه إلى سردينيا التي أبحر بمحاذاة ساحلها من جانب بونان «Ponant».

«وقدم للامبراطور أثناء إبحاره على هذا الطريق عجل بحري برأسين، وهو ما اعتبر نذير شؤم»[144].

بعد التزود بالمياه والمؤن في ماهون، وصل الأسطول إلى مايوركا مكان تجمع القوات. كانت القوات البحرية تتكون من 65 قادساً (7 من صقلية، 15 من إسبانيا، 43 من الامبراطور ومالطا والبابا وآخرين)، ومن 250 سفينة نقل (قدمت منها إسبانيا مائة). وكان عدد المشاة 22000 (7000 إسباني من صقلية ونابولي، و6000 ألماني، و6000 إيطالي، و3000 من المتطوعين من نبلاء إسبانيا خاصة. أما عن عدد الفرسان فكان قليلاً 40 من الامبراطور (صعدوا في نابولي)، و70 من الإسبان.

غادر هذا الأسطول الضخم مايوركا متجهاً إلى الجزائر[145]. وهكذا، ضد أراء الجميع، استمر الامبراطور في مشروعه. هل كان هذا العناد أعمى؟ كان لهذا الإصرار أسبابه، فبالإضافة لتلك التي شرحها الامبراطور لأندري دوريا والبابا نستشف سبباً آخر: خلال

شهر أكتوبر ليس هناك خطر من ملاقاة أسطول عثماني لأن البحرية العثمانية تكون منزوعة السلاح في هذا الفصل، أما عن تقلبات المناخ فسنرى. كان أخذ المخاطر من مكونات سلوك شارل كنت. لقد كان مغامراً، ولم يكن برباروس خصمه هذه المرة، بل آخر لا يخشى كثيراً. أنه حسن آغا.

حسن آغا:

كان حسن آغا هو المفضل لدى برباروس من بين كل القراصنة الذين كونهم. فمنذ أن خطفه من على شواطىء سردينيا وهو يعتبره ابناً له لدرجة أن البعض اعتقد أن ذلك حقيقة. وعندما عين برباروس القبطان باشا (قائد الأسطول العثماني)، اختاره ليحل محله في الجزائر.

رسم هايدو صورة مجيدة لحسن باشا، وهايدو غير متهم بالتحيز ضد الأتراك. فيما يلي ما أورده:

«كان قصيراً، متناسباً، عيونه جميلة، ووجهه لطيف، وكانت بشرته شديدة البياض. كان محباً للعدل وطبق أحكاماً قاسية أحياناً، وهكذا احترم من الجميع. كما كان كريماً جداً ويحب التصدق»[146].

كان هايدو يستطيع أن يضيف أن حسن آغا يتمتع بشجاعة استثنائية. عندما ظهر شارل كنت قبالة الجزائر، لم يكن لدى حسن آغا إلا ثمانمائة من الأتراك وخمسة آلاف من المغاربة[147]، وكان يعرف أنه لا يستطيع انتظار أي عون خارجي. شاهد سكان مدينة

الجزائر الأسطول الامبراطوري يتحرك قبالة مدينتهم من الغرب إلى الشرق، وذلك يوم 20 / 10/ 1541 إفرنجي[148]. وبالفعل، اختار الامبراطور، بعد تردد، الإنزال في خليج الجزائر. توقفت السفن في مواجهة رأس ماتافوز «Matafuz»، وكان النزول إلى البر مستحيلاً بسبب اضطراب[149] البحر، خاصة وإن: «**الأعداء كانوا يتحركون على الشاطىء بأعداد غفيرة، وبجرأة وتصميم كبيرين**».

استطاع الامبراطور، رغم الظروف، توصيل رسالة إلى حسن آغا. وكانت الرسالة إنذاراً «**أن يسلم ملك الجزائر المدينة وسيكافأ، وإلا فلن يجد رحمة ولا شفقة**». أدى المبعوث مهمته الصعبة بنجاح. وانفجر حسن آغا ضاحكاً عندما قرأ الرسالة:

«**أو لم يكن معروفاً على نطاق واسع أن امرأة من أهل البلاد تنبأت بأن جيش الامبراطور سيأتي إلى الجزائر وسيهلك بشكل يدعو للرثاء**»[150].

لم يبدأ الإنزال إلا يوم 23 أكتوبر حيث هدأ الجو بعض الشيء، وانتهى الإنزال يوم 24 وبطريقة غير متكاملة. فقد استطاع المشاة النزول إلى البر، ولم يلحق بهم إلا بعض الفرسان. كما أن المدافع، والذخيرة ومواد المعسكرات والتموين بقيت على ظهور السفن. من هنا بدأت معاناة الجنود.

نحن هنا محظوظون لأن في حوزتنا شهادة محارب: نيكولا دي فيلقانيون «Nicolas de Villegagnon» أحد فرسان مالطاً. وهو فرنسي كان في فرنسا بسبب عائلي عندما أخبر من بعض أصدقائه أن الامبراطور يعد حمله ضد الأتراك، فلم يتردد. أوَ لم يأخذ على

نفسه عهداً بأن يحارب «أعداء الإيمان»؟ وهكذا انضم مباشرة للحملة. وعنه أخذت رواية أحداث المعركة[151].

تعرضت قوات الامبراطور طوال ليلة 24، 25 لسهام الأتراك الذين كانوا يحتلون المرتفعات المجاورة للمدينة، ولم تستطع أن تستريح. كان من الضروري إخراج الخصم من مكامنه، ولكنه تراجع إلى غابة من الصعب الوصول إليها. ومضى يوم 25 في محاولة إخراجه من الغابة، وتم التمكن من دفعه إلى داخل المدينة.

بعد تحقيق هذا النصر الأول، كان الجنود يستعدون لقضاء ليلة هادئة، عندما وقعت كارثة لا يمكن دفعها:

«انطلقت عاصفة، وتعرضت القوات طوال الليلة، دون حماية، لتقلبات الجو. تبلل الجنود بالماء، وعانوا من برد الرياح وشعروا بفقدان الشجاعة، والقوة في نفس الوقت. ارتفعت أمواج البحر بطريقة لا تصدق، وتقطعت حبال تثبيت كثير من السفن وقذف بها إلى الشاطىء حيث تحطمت، كما غرقت سفن أخرى. وفقد الكثير من الرجال والمؤن».

بعد تلك المأساة، ما الذي كانت تخبئة الغداة، 26 أكتوبر؟ كان الوضع أسوأ.

«وصل الوهن إلى درجة يصعب معها الوقوف، وعندما لاحظ العدو الشدة التي نعانيها هاجمنا. خرج الأعداء بصمت وبإعداد كبيرة وباغتوا حراسنا، ولما قضوا عليهم اندفعوا نحو ذخائرنا وأمطرونا بالسهام. بوغتنا بهذا الهجوم، وكانت الرياح والأمطار في

وجوهنا فسارعنا نحو أسلحتنا، كل واحد واجه العدو كما يستطيع. كنا نتفوق على العدو في العدد، ونساويهم شجاعة، ولكن أسلحة خصومنا ومواقعهم كانت أفضل وأعطتهم علينا ميزة. من مواقعه المرتفعة كان العدو يقذفنا بسهام الأقواس القذافة، والأقواس العادية، وكل أنواع القذائف، ويمنعنا من صعود المنحدر. كما عطلت المطر بنادق الأسكوبيت «Escopettes»، ولم تكن لدينا سهام لنستعملها ضده. كان علينا أن نشتبك معه برماحنا القصيرة».

لأول مرة يباغت الامبراطوريون، لقد حيرهم تكتيك خصمهم، الذي لم يكن يشبه في شيء ما اعتادوا عليه في ميادين الحرب الأوروبية. لا معنى هنا لمعارك المواجهة المخططة، كما كشفت الظروف أن الأسلحة النارية لم تكن ملائمة، فالأسلحة البدائية مثل القوس، والقوس القذّاف، والمقلاع كانت أكثر فاعلية من الأسلحة النارية.

كانت الأحداث تسير على هذا النحو عندما دخل سلاح الفرسان التركي في العمليات. وهنا أيضاً، لم يكن هناك هجوم شامل وإنما مناوشات. لم تكن مناوشات عشوائية وإنما معدة إعداداً جيداً بطريقة حرص فيلقانيون من أجل استفادة جماعته، واستفادتنا أن يصفها بدقة:

«كان هذا النوع من المعارك غير مألوف لدينا. كان تكتيك العدو هو أن لا يلتحم بالأيدي ولا يدخل في المعركة بأعداد كبيرة. كان يهاجمنا بأعداد صغيرة، ويقذفنا بالسهام والنبال ليجعلنا نترك صفوفنا، وعندما نتحرك من الصفوف لمهاجمته يهرب بسرعة دون

مقاومة، ويجرنا لملاحقته بعيداً عن صفوفنا، عندها يدير العنان ويعود بأعداد كبيرة ويحاصرنا ويبيد جنودنا المشتتين».

هكذا كان الفرسان الأتراك يتظاهرون بالهرب، ويجرون القوات الامبراطورية إلى أسوار المدينة.

«عندما دخل الفرسان في حماية الأسوار أمطرنا العدو بكرات المدافع، والسهام والنبال وكل أنواع القذائف وأحدث في جنودنا مذبحة كبيرة. هرب أغلب الإيطاليين الذين كانوا جنوداً غير مدربين، ولم يبق إلا فرسان رودس وبعض الإيطاليين الشجعان أمام أبواب المدينة. عندها، وبعد تحقق العدو من هربنا هاجمنا».

كان عدد الفرسان قليلاً لا يتجاوز المائة إلا بقليل وأظهروا في هذا اليوم إقداماً منقطع النظير. كان ڤيلقانيون «Villegagnon» من بينهم، وبرز في المعركة بما أظهره وسكت عن أعماله تواضعاً، ولكننا عرفنا ما قام به بفضل بوزيو «Bosio»، فقد أصيب بسهم في ذراعه من قبل أحد الفرسان «لكنه لم يفقد شجاعته، ولما رأى أن حصان خصمه لا يستطيع الدوران بسبب الوحل، ولما كان ضخم الجثة فقد ألقى بنفسه على الفارس وجذبه من ذراعه إلى الأرض وقتله طعناً بخنجر».

ويؤكد لنا شاهد عيان أن آخرين[152] أتوا بمثل ما أتى به فيلقانيون، ولكن لم يكن هذا ليغير من الوضع شيئاً، فالمعركة كانت دون أمل. وإذا لم يكن الفرسان قد هلكوا جميعاً ـ كانت خسائرهم ثمانية قتلى وثلاثين جريحاً ـ فذلك بفضل تدخل الامبراطور شخصياً، والذي سارع لنجدتهم على رأس القوات

الألمانية، وهو ما اضطر العدو للتراجع من جديد إلى داخل المدينة. ولكن النيران انهمرت مباشرة من فوق الأسوار.

في هذا الظرف أعطى شارل كنت مثلاً للشجاعة أدهش شهود العيان:

«في الوقت الذي كان فيه ـ شارل كنت ـ في الصف الأول يحث الجنود ويشجعهم كانت أعداد من هؤلاء تسقط بفعل القذائف، ولم تظهر عليه أي علامات للخوف. ودون أن يقطع خطابه، أو تظهر ملامحه أي تأثر، احتفظ برباطة جأشه في هذا الظرف كما في الظروف العادية».

كان لا بد من التسليم بالواقع: كانت المعركة خاسرة، وعليه أعطى الامبراطور أوامره بالتراجع ونظم الانسحاب بنفس الهدوء، وضبط النفس الذي أدار به المعركة. كل شهود العيان يتفقون: إذا كان قسم كبير من الجيش قد أنقذ، وأعيد إلى صقلية، فذلك بفضل القدرة الفائقة للامبراطور على ضبط النفس. كما يعود ذلك أيضاً إلى إخلاص وتفاني أندري دوريا. لقد فقد دوريا مائة وثلاثين سفينة في العاصفة منها أربع عشرة ثلاثية الدكات[153] واضطر للجوء إلى بجاية لإنقاذ ما تبقى. لم يكن يريد أن يترك رئيسه، وكان من المستحيل عليه النزول إلى البر في مكان المعركة:

«استدعى بحاراً مغطى الجسم بالفلين وحمله رسالة في ياقة مغطاة بالشمع كان يرجو فيها صاحب الجلالة أن يخضع للواقع، ويسحب الجيش لناحية ميتافوز، حيث سيذهب بسفنه لنقلهم، وهناك سيكون خطر البحر، والعدو أقل».

اقتنع الامبراطور بالنصيحة.

إن توجيه جيش مقهور إلى نقطة تجمع في أرض صعبة، وتحت ضربات العدو ليس بالعمل السهل. بالرغم من ذلك تمكن الامبراطور من تحقيقه. لم تهدأ العاصفة أثناء الصعود والعودة وتسبب هذا في خسائر جديدة تضاف إلى السابقة. وهكذا رجع شارل كنت إلى تراباني بجيش فقد ـ حسب التقديرات ـ نصف أعداده، وانتهت هذه الحملة التي كان يؤمل منها الكثير بمأساة حقيقية[154].

ماذا حدث لأبطال هذه المأساة الرئيسيين؟ رجع شارل كنت إلى قرطاج بتاريخ 1 ديسمبر وكان لديه كل الوقت للتفكير في مصاعب حملة عسكرية بحرية في فصل الخريف. لقد قامر وفقد المقامرة. ويجب علينا الاعتراف بأن التحدي كان يستحق مغامرة بهذه الأهمية. لنتصور كيف سيكون الوضع في البحر المتوسط لو تحقق النصر: سيكون كل الشمال الأفريقي من طرابلس إلى الجزائر في أيدي المسيحيين، وستشل قدرة القراصنة، وسيتمكن أصحاب القوافل في البحر كما في البر من العودة إلى أنشطتهم في سلام. وستكون أوروبا الشريك المميز للتبادل الثقافي مع أفريقيا. لو تحقق النصر لمثّل منعطفاً تاريخياً حاسماً.

في الجزائر، أصبح حسن آغا واثقاً من أنه يستطيع إرسال قراصنته إلى السواحل المسيحية دون عقاب، ولكنه لم ينعم بانتصاره طويلاً، فقد توفي قبل الأوان، وبالتحديد بعد أربع سنوات[155] من هذا الانتصار وكان عمره ستاً وخمسين سنة مأسوفاً

عليه من كل الذين عرفوه ـ حسبما كتب هايدو[156]. أما عن المرأة صاحبة النبوءة فلا أحد يعرف هل نالت جزاء ما استحقته.

رجع نيكولا ديران دي فيلقانيون إلى روما لعلاج جروحه، وانتهز فرصة النقاهة ليكتب للجنرال جيوم دي بيلي «Guillaume du Bellay». أحد جنرالات الملك فرانسو الأول رواية مفصلة عن الحملة. ونشر كتابه «حملة شارل كنت الأفريقية على الجزائر»[157] في باريس سنة 1542 إفرنجي. ثم في انفرس سنة 1554 إفرنجي ومن روما رجع فيلقانيون إلى فرنسا وعمل في البحرية. وفي سنة 1551 إفرنجي حصل على إذن من الملك ليذهب لخدمة الرهبانية (فرسان القديس يوحنا). وفي طريقه توقف في ميسينيا في الوقت المناسب ليحذر نائب الملك وقائد القوادس المالطية من أن «الجيش التركي لم يأت إلا لمحاربة الرهبانية». ووصل في شهر يوليه إلى مالطا حيث استقبل في الأيام الأخيرة من هذا الشهر السيد دارامون «d'Aramont» سفير فرنسا لدى القسطنطينية ومعه باريسوت «Parisot». بعد استيلاء الأتراك على طرابلس رجع إلى فرنسا وعينه هنري الثاني نائباً لقائد الأسطول في منطقة بريطانيا[*]. في سنة 1555 إفرنجي، حصل على أذن من دي كولوني «de Coligny» بالذهاب إلى أمريكا ليقيم مستعمرة على نهر الريو دي جانيرو، ولكن مشروعه أجهض. في سنة 1568 إفرنجي كان فيلقانيون ممثلاً لفرسان مالطا لدى عرش فرنسا. ومات في بوفي «Beauvais» قرب نمور «Nemours» سنة 1571 إفرنجي[158].

(*) منطقة فرنسية ـ المترجم.

درغـوت

من بين تلاميذ برباروس، ظهر حسن آغا على المسرح لمدة قصيرة. سيشد انتباهنا منذ الآن كل من درغوت، ومراد آغا، اللذين ارتبط مجريا حياتيهما بتاريخ طرابلس، ومن ثم بالعلاقات بين تشاد والبحر المتوسط.

تركنا درغوت في السلاسل على قوادس جنوا. كان سجيناً مهماً ومن ثم فمن غير المحتمل أن يكون قد أرسل إلى البحر خاصة أثناء الحملة على الجزائر لأن مصير أطقم التجديف كان غير مأمون لدرجة لا تسمح باتخاذ أي مخاطر. وإذا صدقنا بوزيو فإنه لم يبق طويلاً في الأسر. ويقال أنه عرف كيف يثير اهتمام الأميرة دوريا بمصيره، «**فأخرجته من السجن وبعثت به إلى أمير ميسينيا**»[159]، وبقي هناك سجيناً. هل انتهت حياته كقرصان؟ كلا، فلم يتوقف برباروس، الذي كان دائم القلق على مصير أحسن تلاميذه عن محاولة تحريره.

كان برباروس في انتظار الفرصة، وقد حانت في سنة 1543 إفرنجي. فقد تحالف شارل كنت مع هنري الثامن ملك إنجلترا

ضامناً بهذا التفوق في بحر المانش، فلم يتوان فرنسوا الأول، وتحالف مع السلطان ليضمن لنفسه التفوق في البحر المتوسط. طلب فرنسوا الأول مساندة البحرية العثمانية من أجل حملة ضد إسبانيا، وراق المشروع للسلطان سليمان الذي عهد بالمهمة للقبطان باشا نفسه. غادر برباروس مودون «Modon» في آخر أبريل سنة 1543 إفرنجي على رأس مائة وعشرة قوادس، وأربعين غليونة، وأربع سفن صغيرة (من ذوات الأشرعة والمجاديف). وبعد أن أبحر بمحاذاة سواحل صقلية وإيطاليا، وصل في منتصف يوليه إلى مرسيليا. واستقبل في مرسيليا استقبال الأمراء ولكنه استقبال مخيب للآمال، لأن الملك عدل عن مهاجمة إسبانيا، وقرر تركيز قواته بجانب بيكاردي، وشنمبانيا اللتين كانتا مهددتين من الامبراطور. انتقد برباروس نقداً لاذعاً تراجع الملك في كلامه، ولكن الملك بقي على موقفه، وتم الاتفاق على عملية مشتركة ضد «Nice» التي كانت تابعة لكونت سفوا «Savoie». أعطى الملك أوامره لدوق أنقيان «d'Enghien» ليذهب للمرابطة أمام هذه المدينة، بينما أبحر النقيب بولان «Polain» بسبعة آلاف جندي من جنوب فرنسا وقاسكونيا، وفلورنسا. ونزل الأتراك والفرنسيون إلى البر في ڤيلفرانش «Villefranche»، وبعد قصف عنيف من البر والبحر رأى أهل نيس أن من الأفضل الاستسلام مقابل المحافظة على حياتهم وأملاكهم. لم يحصل الأتراك على غنائم لأن الاتفاق كان يمنع ذلك، ولكنهم أخذوا أسرى، وأسرع برباروس بإرسال أربع سفن حاملة ثلاثمائة عبد إلى السلطان؛ فتيان وفتيات، وراهبات انتزعن

من أديرتهن. وبعدها ذهب إلى طولون لقضاء الشتاء على حساب الخزانة الفرنسية[160].

اتصل برباروس عن طريق وسطاء أثناء إقامته في طولون باندري دوريا وبعث إليه قائلاً:

«ليسلم له درغوت مقابل فدية، وأنه على استعداد لشرائه مقابل ثلاث آلاف ديكات»[161].

كان هذا مبلغاً ضخماً، ويكفي أن نعرف أن أجر مكيافيل «Machiavel» سكرتير الدولة في جمهورية فلورنسا كان مائة ديكات سنوياً[162]. ربما اعتقد الأمير أنه بهذا يحقق صفقة رابحة. لقد أخطأ، وهو ما سيجد كل الوقت للندم عليه، فدرغوت أثمن من أي مبلغ.

في ربيع سنة 1544 إفرنجي غادر برباروس طولون، وفي طريقه عاث تخريباً في جزر ألبا واسكيا، وكالابر، وليباري. لم تضف هذه الأعمال إليه مجداً، ولكنها مكنته من الحصول على غنائم كبيرة من العبيد أُحضرت للباب العالي. وسوف لن تتاح له الفرصة بعد ذلك، فقد كانت حملاته سنتي 1543 ـ 1544 إفرنجي هي آخر ما قام به، لأن المرض اضطره للبقاء في القسطنطينية حيث توفي في 6 جمادى 953، الموافق 5/ 7/ 1546 إفرنجي وعمره أكثر من ثمانين سنة[163].

أصبح درغوت بمجرد تحريره كابوساً لأسبانيا والامبراطورية، فكان يظهر دون توقع على سواحل إيطاليا، وإسبانيا، وعلى السواحل الشمال أفريقية، ولكن هدفه الرئيسي بقي القضاء على قوة

رهبانية مالطا، وطرد فرسان مالطا من طرابلس. كان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على مراد آغا في تاجوراء لتحقيق هذا الهدف.

اختار درغوت جزيرة جربة كقاعدة، وذلك على غرار بربروس في بداياته، ومنها ستنطلق عملياته. وبالفعل بدأ تعاون وثيق بينه وبين مراد آغا الذي لم تتوقف قوته عن النمو منذ أن خلف خير الدين على تاجوراء. فمنذ الأيام الأولى، كانت لدى مراد حامية تركية صغيرة، واستطاع أن يكسب تعاطف العرب في الأرياف فزودوه بالفرسان. استطاع مراد آغا في سنة 1542 إفرنجي الحصول من الباب العالي على غليونتين، وثلاثمائة من الأتراك الذين كانت تدفع أجورهم من السلطان. كانت مهمة مراد هي الاستيلاء على طرابلس.

أقلقت هذه الاستعدادات فرسان مالطا. وهو ما دفع المرشد الأكبر لتوجيه نداء إلى نائب الملك في صقلية، والطلب إليه تحصين طرابلس، وإرسال فرقة من الجنود إليها. ولكن المرشد الأكبر لم يحصل على شيء، واضطر لتجنيد مائتين وستين جندياً على حسابه.

في السنة اللاحقة ـ أي سنة 1543 إفرنجي ـ أرسلت مالطا قوادسها إلى طرابلس، وهاجمت غليونتين تركيتين محملتين بالخمر والكتان قادمتين من الإسكندرية. في البر سجل مراد بعض النجاحات، فقد وضع حامية من الأتراك في بلدة «Adabus»(*)

(*) لم نستطع التعرف على المكان المقصود ـ المترجم.

القريبة من طرابلس، وكان هؤلاء يجوبون الأرياف ويعترضون القوافل. اضطر ما يقوم به مراد آغا فرسان مالطا للتدخل وإجبار خصمهم على طلب هدنة. وهكذا تواصل النشاط التجاري بعد توقف لبعض الوقت. كم من الوقت استمر هذا الوضع؟.

كان الوضع هكذا عندما استقر درغوت بعد تحريره في جربة، وقدم لمراد آغا دعماً لم يكن متوقعاً. فمنذ شهر أغسطس سنة 1544 إفرنجي كان درغوت أمام ميناء مالطا بعشر سفن. لم تكن مهاجمة القلعة هدفه، بل كان هناك يرصد رجوع قوادس فرسان مالطا، التي علم أنها في مهمة بجانب صقلية. وقام بإنزال رجاله على جزيرة جوزو وبدأ نهبها، ولكن سرعة رد فعل حاميتها اضطرته للانسحاب، وليس بدون خسائر، كان من بينهم شقيقه.

مثَّل درغوت خطراً حقيقاً مما اضطر الرهبانية لأن تقرر مطاردته. تولى رئيس الكهنة قاتيرانا «Gatirana» الذي كان في ذلك الوقت في صقلية مسؤولية أن يشرح لنائب الملك والبابا، والأمير دوريا ضرورة وضع حد لهذا القرصان، وبالفعل استطاع قاتيرانا في يونيه سنة 1545 إفرنجي أن يجمع في ميناء مالطا أسطولاً من ثمانية عشر قادساً: ثلاثة من البابا، وأربعة من صقلية، واثنين من ماركيز تيرانوڤا «Terranova»، وثلاثة من القبطان فيكونت سيقالا «Sigala»، واثنين من موناكو، وأربعة من الرهبانية في مالطا. غادر هذا الأسطول مالطا يوم 28 يونيه، وعاد إليها دون نتيجة بعد أن فتش في السواحل الشمال أفريقية بين عنابة وحلق الوادي.

بينما كان درغوت يهرب من ملاحقيه، كان مراد آغا يهدد

طرابلس من جديد. كانت سفينتاه تقومان بأعمال الدورية أمام الميناء وتمنعان الدخول إليه. توقفت التجارة عبر البحر، وكان هناك خطر حقيقي من توقفها على البر أيضاً. وبالفعل، قام سكان بلدة الماية الذين كانوا يدفعون الأتاوة لطرابلس ولديهم فيها رهائن، بسحب الرهائن والانضمام إلى مراد آغا. كان هناك تخوف من أن يحذو سكان أدابوس «Adabus»، وغيرها حذو سكان الماية، وتصبح طرابلس محاصرة تماماً. أخطرت مالطا بالوضع فأرسلت قوادسها في أواخر يوليه وعليها فرسان وجنود من ذوي المرتبات، وتحت ستار الليل دخلت القوادس إلى الميناء. وبفضل هذا الدعم أصبح القيام بحملة على المتمردين ممكناً. وبينما اقترب من الماية براً مائتان من الفرسان المسلحين بالرماح القصيرة دون أن ينتبه إليهم، أنزلت القوادس من الناحية الشرقية ثمانمائة رجل من بينهم مائة واثنا عشر من الفرسان، وتم الاستيلاء على الماية وأخذ أربعمائة من أهلها أسرى. بعد نهب البلدة «**رجع السكان لحاكم طرابلس لشراء أطفالهم، وسلموا رهائن من جديد**».

حدث نفس الشيء بالنسبة للقرى الأخرى. ولمزيد من الضمان تم إرسال الرهائن إلى مالطا. ووجد فرسان مالطا - في هذه الظروف - حلفاء موثوقين في اثنين من رؤساء العرب في المناطق المجاورة وهما المنصور وآخر «**كانا عدويين كبيرين للأتراك، وبفضلهما بقي سكان طرابلس أحراراً ومسيطرين على الأرياف**».

عين لافاليت «La Velette» حاكماً لطرابلس في آخر يونيه سنة 1546 إفرنجي، وبمجرد وصوله أظهر جرأته وجسارته، فقد استغل

وجود قوادس مالطا وأغار على تاجوراء. كان من المهم الانتقام للاستيلاء على غليونة صغيرة من سفن الرهبانية، توقفت بسبب خمود الرياح قبالة البلدة المعادية (تاجوراء). فبينما تقدم عن طريق البر رجال وفرسان لإثارة مخاوف سكان تاجوراء بالخطر وجذب اهتمامهم، اقتربت سفينتان حربيتان من الشاطىء وأضرمت النار في السفينة التي استولت على الغليونة المالطية. وهكذا لم يبق لمراد إلا سفينة غليونية واحدة.

في هذه الأثناء، كان درغوت في المضيق الفاصل بين مالطا وجوزو في انتظار عودة قوادس مالطا، وأصبح هذا الانتظار عادة له. ولما تأخرت القوادس في العودة توجه من جديد ضد جوزو وأنزل فيها رجالاً من أجل أخذ أسرى من بين الحصّادين. وفي هذه المرة كان الحراس يقظين، وأُعطي الإنذار في الوقت المناسب واستطاع كل الناس الانسحاب إلى القلعة، فقام درغوت بتدمير الريف ولم ينسحب إلا في الليلة اللاحقة. جاء الانسحاب في وقته تماماً، فقد وصل في الغداة دوريا بثلاثة عشر قادساً، ولكن وصوله كان متأخراً جداً.

كان مراد من جانبه بالسفينة الوحيدة التي بقيت له وبمساعدة بعض سفن قراصنة من جربة، مصمماً على الدخول إلى ميناء طرابلس لحرق السفن التي كانت راسية فيه، ولكنه لم يتمكن، وعندما تحقق من عدم قدرته أسرع بإرسال غليونيته إلى القسطنطينية للتوسل إلى السلطان بأن يرسل قواته لأن من الملح العاجل الاستيلاء على طرابلس قبل أن تُحصن بشكل كبير جداً.

لم يخف مسعى مراد على فرسان مالطا وأقلقهم كثيراً. في سنة 1547 إفرنجي ازداد التوتر، وأصبح الخطر واضحاً لدرجة أن لاقاليت بعث الشيخ المنصور إلى مالطا ليشرح الوضع ويطلب القيام بحملة لتخريب تاجوراء. لم تكن لدى المرشد الأكبر الإمكانيات اللازمة، فاستنجد بالبابا وبعث إليه رئيس كهنة لومبارديا «de Lombardi» فرا كارلو سفورزا «Fra Carlo Sforza»[164]، وأعطاه تعليماته في رسالة مؤرخة في 8/1/1547 إفرنجي. فبعد تقبيل رجلي قداسته ـ أي البابا ـ، وبعد تجديد تأكيد احترام المرشد الأكبر وإخلاصه، كان المبعوث مكلفاً بعرض الآتي:

«كما هو معروف لقداسته، مرت أربع أو خمس سنوات على وصول التركي مراد آغا إلى هنا، وهو تلميذ لبرباروس، ونصب نفسه ملكاً لتاجوراء الواقعة بالقرب من قلعة طرابلس. لقد نجح في أن يجمع حوله بالإضافة إلى الأتراك من حاشيته أعداداً من العرب ارتبطوا به بروابط صداقة وتحالف. منذ ذلك الحين، والقلعة معرضة لحرب مستمرة سببت خسائر للطرفين. لقد حاول ملك تونس طرد مراد آغا ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. بالعكس، لم يتوقف مراد آغا عن تقوية تحصيناته كل يوم سواء بمساعدة برباروس أو بمساعدة الريس درغوت، وهو قرصان كبير من رفاق مراد والمقربين لديه. حسب المعلومات التي وصلتنا، فإن مراد يعد الآن قواته للاستيلاء على القلعة وذلك بفضل مساعدة برباروس وتواطؤ الريس درغوت، والناس في المناطق المجاورة. ويعتقد أنه يستطيع تحقيق هذا الهدف ـ جزئياً على الأقل ـ بالاستيلاء على المدينة

التي تحيط بالقلعة. . . حسب التقارير التي تصلنا من طرابلس، فإن قوة من أربعة إلى خمسة آلاف رجل ستكون ضرورية لطرد هذا التركي من إقليم تاجوراء، وهذا أمر لا يمكننا تحقيقه دون نجدة من قداسته»[165].

من خلال البابا، كان الامبراطور كذلك مدعواً، ولكن أياً منهما لم يجب، كانت لديهما حينئذ هموم أخرى. ليتدبر فرسان مالطا الأمر! كان هذا يعني الجهل بفقر الرهبانية. لم يكن هناك ما يدفع للاستعجال، فقد أمهلت طرابلس، ومالطا هي التي هوجمت سنة 1547 إفرنجي من قبل درغوت الذي ظهر أمام الجزيرة بثلاث وعشرين سفينة مسلحة تسليحاً جيداً، ونجح في إنزال رجاله على البر دون أن يلاحظ من قبل الحراس. وتم تخريب ثلاث قرى وأسر ثلاثمائة من سكانها. لم تذهب الغارة أبعد، فقد خرج سكان البلدة المجاورة لمواجهة الغازي، واضطروه للتراجع والانسحاب بعد أن استردوا نصف ما حصل عليه من غنائم.

خلال سنتي 1548، 1549 إفرنجي، كانت ضحايا درغوت هي «أنهار» إيطاليا، وليست طرابلس أو مالطا. لماذا؟ لم يكن هدف درغوت خلال السنتين المذكورتين استراتيجياً وإنما اقتصادياً. أن تسليح أسطول يتطلب تكلفة عالية، وكان الأمراء المسيحيون يلجأون للضرائب من أجل توفير المبالغ المطلوبة، ولم يكن البابا نفسه يتردد في طلب مساهمة رجال الدين، أو جباية ضرائب جديدة من الدول. ولم يكن متاحاً لقرصان مثل هذه الموارد، ومن ثم ليس أمامه إلا مورد آخر، أبسط، وفي بعض الأحيان عائده أكبر: النهب.

وفي سنة 1548 إفرنجي، كان درغوت بعشرين من القوادس والسفن الغليونية في سواحل كمبانيا «Campanie». وخدمته الصدف، فقد أوصلت سفينة تابعة للرهبانية تسمى «La Catarinette» لا كتارينيت، رئيس الكهنة الفارس لافلي «La Vallee» إلى مرسيليا، وعند رجوعها كانت تحمل سبعين ألف إيكوس مخصصة لتحصين طرابلس. كانت رحلة العودة ستمر بسلام لولا هبوب عاصفة بشكل فجائي، ولحقت أضرار بالغة بالسفينة التي ارتفعت فوقها الأمواج أكثر من مرة، كما فقدت خمسة وثلاثين من مجاديفها. كان لا بد من إصلاح الأعطاب التي لحقت بالسفينة قبل أن تواصل طريقها، ومن ثم قرر ربانها الرسو في نابولي. أمام جزيرة كروسيدا «Crocida» رأى درغوت السفينة البائسة والتي لم يكن أمامها إلا اللجوء إلى البر، ولكنها لم تستطع بسبب نقص المجاديف. يضاف إلى ما سبق أن طاقم التجديف على السفينة كان من الأتراك الذين تمردوا وحطموا الساري. ولم يتمكن من الوصول إلى الشاطىء والنجاة إلا ستون رجلاً. في تلك المناسبة أظهر درغوت شهامته، فقد تحدث إلى الخمسة والعشرين أسيراً الذين أُحضروا أمامه على سفينته:

«إنه يعيب، وبعبارات رصينة، على أهل مالطا الطريقة الفظة والقاسية التي اعتادوا أن يعاملوا بها القراصنة الذين يقعون بين أيديهم، بالرغم من ذلك فقد واساهم وطمأنهم إلى المعاملة الحسنة التي يمكن أن يأملوها كأسرى حرب، وحثهم أن يتمالكوا أنفسهم مستقبلاً في حالات النجاح، وأن يتصرفوا بطريقة أكثر إنسانية مما تعودوا عليه في الماضي».

بالفعل، عامل درغوت الأسرى بلطف وأخذهم إلى جربة، وبتعهد منهم، أرسل أحدهم إلى مالطا ليفاوض شراءهم. وبعد ستة أشهر أطلق سراحهم «**مقابل ثلاثمائة إيكوس لكل واحد منهم**»[166].

كم هو أبي وشهم درغوت!.

كانت الحملات التي قام بها درغوت سنة 1549 إفرنجي في إيطاليا كذلك. تحرك على طول الشواطىء، وعاث فيها تخريباً خاصة شواطىء جنوا. أي جرأة! فجنوا هي وطن أندري دوريا[167]. ولكن الأمير، الذي كان قد ترك درغوت ينهب سواحل إيطاليا دون عقاب خلال السنة السابقة، تحرك هذه المرة، وقام على رأس ثلاثين قادساً من قوادسه وقوادس صقلية، ومالطا، بإبعاد القرصان الوقح، وبدأ مطاردته. وبحث عنه خلال شهري أغسطس وسبتمبر في السواحل الشرقية لتونس ولكن القرصان اختفى[168].

من سنة 1544 وحتى سنة 1549 إفرنجي، لم نشاهد إلا أعمالاً محدودة ومناوشات حقق فيها كل طرف نجاحات وتلقى ضربات. ومنذ سنة 1550 إفرنجي تسارعت الأحداث، فدرغوت يبحث عن قاعدة أكثر حصانة وأحسن موقعاً من جربة. ووقع اختياره على المهدية بخلاف برباروس الذي اختار مدينة تونس سنة 1534 إفرنجي. من يتحدث عن المهدية في أيامنا هذه؟ إنها اليوم عبارة عن بلدة بائسة على الساحل الشرقي لتونس، ولكن الأطلال التي نراها فيها اليوم تذكر بما كانت عليه في الماضي، المدينة الأكثر روعة على سواحل شمال أفريقيا. لقد أسسها الفينيقيون ثم الرومان وكان اسمها أفروديسيوم «Aphrodisium» وخربها

العرب[169] ـ حوالى سنة 698 إفرنجي ـ أثناء حملات حسان بن النعمان ضد قرطاجنة، والموانىء على الساحل[170]، وأعاد بناءها أبو عبيد اللّه المهدي مؤسس الأسرة الفاطمية، وقد جعل منها مقراً له وأحاطها بالأسوار. ومن المثير التذكير، أن أسطوله الذي ورثه عن الأغالبة، وانطلاقاً من المهدية فرض خشيته على مالطا، وسردينيا، وصقلية، وأن ابنه القيم نشر الدمار خلال السنوات 934 ـ 935 إفرنجي في جنوب فرنسا، ثم في جنوا، وأبحر على طول سواحل كالابريا مستولياً على عبيد وغنائم[171]. وفي وقت متأخر، احتل قراصنة من صقلية هذا المكان (المهدية)، وأطلقوا عليه اسم أفريقيا[172] (لأنها تتفوق على كل مدن أفريقيا الأخرى)[173].

تحررت المهدية من طغيان الحفصيين بعد خضوعها لهم مدة طويلة، وأعلنت نفسها جمهورية مستقلة، وكانت لديها الإمكانيات لذلك، فهي مشيدة على لسان بري يمتد في البحر نحو الشرق، وكانت محاطة بأسوار عريضة محفوفة بأبراج. بالإضافة إلى هذه التحصينات التي تعود إلى المهارة، هناك تحصينات منحتها لها الطبيعة، فالأعماق الكبيرة للمياه المحيطة بأسوار المدينة تمنع السفن من الاقتراب من الأسوار، وذلك باستثناء موقع في الجنوب الشرقي للمدينة حيث شقت قناة تقود القوادس إلى ميناء صناعي حفر داخل الأسوار. كان هذا المرفأ كبيراً لدرجة تمكنه من استيعاب خمسين سفينة ثلاثية الدكات، وله باب ضيق محصن ببرجين لا يسمح بمرور أكثر من سفينة في المرة الواحدة وبشرط أن تنزع مجاديفها. وهكذا يستطيع أسطول المدينة قضاء فصل الشتاء في أمان كامل.

لو كانت المدينة جزيرة لما أمكن الوصول إليها، ولكنها شبه جزيرة موصولة باليابسة من الغرب، وكان هذا الجانب هو نقطة ضعف لو لم ترفع فيه تحصينات كفيلة بردع أي معتد. كان الدخول إلى المدينة يتطلب عبور سورين تفصل بينهما مسافة 25 خطوة، وليس سوراً واحداً. كان عرض السور الأول تسعة أقدام، وارتفاعه اثني عشر قدماً، ومزود بثمانية أبراج، وكان الثاني المفصول من الأول بخندق، أكثر مهابة. كان أقل طولاً، بسبب تغيرات سطح التربة، وبه سبعة أبراج ضخمة، وعرضه أربعة وثلاثون قدماً، ويؤدي الباب الوحيد به إلى ممر بسقف مقبب طوله سبعون خطوة.

«كان ضيقاً، ومظلماً لدرجة تثير الارتباك في النفوس، والقلوب، وكأنما أصيبت بمس من روح شيطانية. كان أقرب إلى مدخل كهف منه إلى مدخل مدينة محصنة»[174].

لا شيء يدفعنا إلى التفكير في أن درغوت كان يؤمن بالخرافة لدرجة تجعله يسلم بتخيلات العامة. ولم يكن يستطيع تجاهل الطبيعة الرادعة ـ بحق ـ لدفاعات المدينة. كيف كان يأمل في التغلب على هذه العراقيل؟ سنرى.

غادر درغوت جربة بخمس وثلاثين سفينة من ذات المجاديف في فبراير سنة 1550 إفرنجي، وبعد أن أبحر على طول الساحل رسا بالقرب من المهدية بحجة التزود بالماء. ولما اطمأن إليه السكان، أقنع أحد أصدقائه من المدينة بأن يدخل إليها بعض الرجال عن طريق السلالم. عندما دخل هؤلاء لم يجدوا صعوبة في تحييد حراس أحد الأبواب، وبهذه الطريقة سيطر درغوت على المدينة

دون أراقة دماء تقريباً. ولما كان مهتماً بكسب السكان إلى جانبه، فقد منع أي أعمال نهب في المدينة، وعامل السكان بلطف دفعهم للانضمام إليه. لم يمكث درغوت في المدينة إلا لفترة قصيرة، كانت كافية لصيانة الميناء، وتصحيح بعض العيوب في التحصينات، وللتحقق من خضوع المدن المجاورة خاصة المنستير. وعندما انتهى مما سبق، أوكل لابن أخته الريس هيس إدارة فتحه الجديد والدفاع عنه، وأبحر بأسطوله بعيداً. كان يفكر في بعض عمليات النهب على السواحل المسيحية[175].

كان للاستيلاء على المهدية صدى واسع، لأنه يعرض صقلية للخطر، وهو ما دفع أندري دوريا إلى رد فعل بسرعة مخيفة. كان عمره اثنتين وثمانين سنة متمتعاً بكامل تجربته المهنية وبراعته، وقام بهجوم مضاد صاعق، وستبقى حرب المهدية نموذجاً يحتذي في التاريخ العسكري سواء من الجانب الاستراتيجي أو التكتيكي.

عندما انتشر الخبر الجديد كان الأمير (أندري دوريا) في جنوا، فأمر فوراً بسحب القوادس من الترسانات البحرية بسرعة ووضعها في البحر. وفي نفس الوقت كلف بتجميع قوات في لاسبيسيا «La Spezia» وإلى هناك ذهب لملاقاتها. بدأ الأبحار بثلاثين سفينة ثلاثية الدكات في حوالي منتصف أبريل، وفي لاسبيسيا صعدت القوات إلى السفن وواصل طريقه. كانت محطته الأولى ليفورن «Livourne» حيث انضمت إلى أسطوله ثلاثة قوادس ثلاثية الدكات للكوسم دي ميديشيس «Cosme de Medicis»، وأربعة للبابا جول الثالث، ثم ها هو في نابولي حيث انضم خمسون جندياً إسبانياً إلى قواته. وأخيراً

وصل إلى باليرمو «Palerme»، مكان تجميع الأسطول. وصل عدد سفن الأسطول إلى خمسين قادساً بالقوادس التي قدمتها مالطا، ونابولي، وصقلية، وبها أبحر يوم 9 مايو بادئاً حملته. هدفه؟ أولاً تحديد مكان وجود درغوت. توجه قبالة المهدية التي يعرفها، ولكن القرصان لم يكن هناك. صعد من هناك شمالاً، وها هو قبالة المنستير حيث ترك درغوت حامية قوية. من المهم قبل الشروع في أي عملية ضد المهدية أن يتم الاستيلاء على هذا الموقع الاستراتيجي. نفذت العملية بسرعة، وتم الاستيلاء على المدينة وكانت الخسائر مائة وخمسين من الرجال بين قتيل وجريح، ومن الجانب المقابل كانت الخسائر ثلاثمائة من الرجال دون احتساب ألف ومائتي أسير.

كان الاستيلاء على المنستير أمراً سهلاً نسبياً ولكن أفريقيا (المهدية) كانت شأناً آخر. رجع دوريا إلى المهدية وراقب الموقع لمدة طويلة: أسوار قوية، ومدفعية، وقوات تبدو كثيرة العدد ومدربة على الحرب. كان من المستحيل الاقتحام من البحر، ومن ثم فلا بد من عملية برية، وستكون طويلة دون شك، وتتطلب تحريك جيش مسلح تسليحاً جيداً. سيكرس دوريا نفسه لتوفير هذه العناصر.

ذهب أولاً إلى حلق الوادي، وفيها سيتقرر كل شيء. كان قائد الحامية هناك هو لويس بيريز دي ڤارقا «Louis Perez de Varga» وهو عسكري خبير مختص في المدفعية، وسيكون مفيداً للغاية.

وفجأة وصل قارسيا دي توليد «Garcia de Toledе» ابن نائب

ملك نابولي، ولم يجد دوريا صعوبة في إشعال حماسه، وكلفه على رأس ثلاثة وعشرين قادساً ثلاثية الدكات بمهمة الذهاب إلى نابولي وتوفير دعم بالقوات، والمؤن، والمعدات الحربية.

بينما كان توليد في طريقه نحو إيطاليا، توجه الأميرال إلى تراباني في صقلية. إن الحملة المقترحة مستحيلة دون مساندة جان ڤيجا «Jean Vega» نائب الملك في صقلية. وكان هذا الأخير يقيم في باليرمو، فأرسل له دوريا مارك سنتوريو «Marc Centorio» على رأس ثلاثة وعشرين قادساً ثلاثية الدكات. وأظهر نائب الملك حماسه، ولم يكتف بالمساهمة وإنما قرر أن يكون بنفسه في الحملة. هكذا أصبحت تراباني نقطة تجمع جيش لم يكن في حجم القوات التي رأيناها في تونس سنة 1535 إفرنجي، ثم في الجزائر سنة 1542 إفرنجي، ولكنه لا يقل عنها مهابة. وعندما وصل فيقا إلى هناك يوم 22 يونيه تقابل مع دوريا وتوليد، وقد رجع الأخير من نابولي بمعدات حربية، وأسلحة نارية، وبارود، ورصاص وسبعة كتائب من الجنود الإسبان القدامى، وهو ما رفع عدد الفرق التي شاركت في الحملة إلى خمسة عشر. يضاف إلى هؤلاء وحدة من اليونانيين، ومائتا فارس من فرسان القديس يوحنا من الألمان والإسبانيين. أبحر الأمير على رأس ثلاثة وخمسين قادساً ثلاثية الدكات، وبعض السفن الغليونية، والقوارب، وثلاث سفن شحن إحداها للخمر. ونلاحظ هنا أنه خفض عدد السفن الشراعية إلى الحد الأدنى الضروري، مستفيداً دون شك من تجربته، ومحتذياً حذو الأتراك.

يوم 25 يونيه، وصل الأسطول قبالة أفريقيا[176] (المهدية). كم

كانت أعداد الحامية في ذلك الحين؟ نُبه الريس هيس منذ أكثر من شهر ومن ثم كان لديه الوقت الكافي للحصول على دعم. فقد أحضرت له سفينتان من الاسكندرية أربعمائة تركي(177)، وبقيتا في مأمن في المرفأ الداخلي. كان لديه إجمالاً، حسب تقديرات بوزيو، ألف وسبعمائة رجل مسلحين ببنادق الأسكوبيت والأقواس القذّافة، والأقواس العادية، وستون من الخيول(178). أما مدفعيته فاكتشف الامبراطوريون بعد استيلائهم على المدينة أنها تتكون من أربعة عشر مدفع برونز، وعدد من مدافع الحديد(179). نضيف كذلك أنه بعكس حسن آغا في الجزائر سنة 1541 إفرنجي، كان بإمكان الريس هيس أن يأمل في دعم خارجي، فدرغوت لا يمكن أن يتركه، وهذا على الأقل ما كان يؤكده بقوة من أجل تشجيع جنوده(180). هل من الممكن أن يكون بهذا الاطمئنان لو كان يعرف أن خاله يوجد على بعد ألف وخمسمائة كيلو متر تقريباً من هناك، منشغلاً بنهب شواطىء إسبانيا والبليار(181).

يوم 26 يونيه عقد الامبراطوريون مجلس حرب قبل نزولهم إلى البر، وتقرر أن يتولى دوريا القيادة على البحر، وفيقا القيادة على البر. في الصباح وضعت القوات على البر وحدد فيقا تنظيم المعركة:

«توليد على اليمين بالجنود القدامى الذين احضروا من ولاية نابولي، وعلى اليسار الفرق الإسبانية التي سحبت من ولاية صقلية يقودها فيقا. وأما فرسان القديس يوحنا وهم عسكريون من النخبة، فيكونون في المؤخرة».

أعد معسكر حصين، ووضعت فيه المؤن المنقولة من السفن. لم يستغرق كل هذا أكثر من أربع ساعات. وانتهى النهار بأول مناوشة، فقد خرج الناس من المدينة، وتم دفعهم إلى داخلها.

قُضيت الأيام الثلاثة اللاحقة من 27 إلى 29، في نقل معدات الحرب من السفن إلى المعسكر، وأولها المدافع. يوم 30 اختار ڤرقاس «Vergas» مواقع المدفعية، واستغل فيقا الليل ليضعها في أماكنها. لقد صفها في مواجهة أسوار المدينة: تسعة عشر مدفعاً كبيراً على بعد أربعمائة خطوة من الأبراج، وأمامها على بعد ثلاثمائة خطوة من السور ثمانية مدافع من عيار أصغر، وعلى حوالى مائة خطوة، يقوم الجنود أو خدمهم بحفر خنادق ويتخذون فيها مواقع. من جهة الغرب وخلف خط المدافع الكبيرة يمتد المعسكر الحربي حيث تظهر خيام الرؤساء، وخيام الجنود.

لم يبق المحاصرون دون رد فعل أثناء الاستعدادات، فقد خرجوا من المدينة مرتين ليمنعوا أعمال حفر الخنادق، ولكنهم اضطروا في كل مرة للتراجع.

بدأت مدافع الأبراج بالقصف بداية من 1 يوليه، ووصلت في هذه الأثناء تعزيزات مهمة، أولها خمسة قوادس من نابولي عليها أربعون جندياً وباروداً للمدافع، تبعها قادسان من حلق الوادي تحمل خمسة[182] مدافع كبيرة اثنان منها من نوع كولفرين، وواحد من نوع سربنتين مع كمية كبيرة[183] من البارود والكرات. وكانت هذه المدافع بعيدة المدى يمكنها إصابة المدينة عن بعد. وبدأ قصف مدفعي كثيف استمر ثمانية أيام، ولكن أثره كان محدوداً

جداً، فالسور والأبراج كانت قوية لأنها مشيدة بأحجار مثبتة لبعضها البعض بالأسمنت، وإذا حدثت بعض الأضرار كان إصلاحها يتم خلال الليل. بالرغم من ذلك، فقد تم القيام بهجوم يوم 20 يوليه ضد البرج الواقع على اليسار، والذي بدا أنه تأثر من القصف. كانت محاولة فاشلة، قتل فيها خمسة من الرجال، وقطعت رؤوسهم وعرضت على الأسوار.

من هذه المحاولة التي أجهضت، استنتج دوريا وفيقا الدرس التالي: ستكون المعركة طويلة ولا بد من تغذيتها. أرسل نائب الملك أنطوان دوريا «Antoine Doria» إلى صقلية بعشرة قوادس لإحضار كل المتطلبات من مؤن ومعدات حربية التي يمكن للمدن والقلاع في الجزيرة أن توفرها، ومن جانبه أسرع الأمير بإرسال مارك سنتوريو إلى جنوا بعشرة قوادس للحصول على بارود وقذائف مدافع. ولنفس الغرض ذهب أنطوان مورينوس «Antoine Morenus» إلى جنوا ثم إلى لوك «Lucques».

وصل في هذه الأثناء خبر مقلق إلى فيقا: لقد نزل درغوت إلى الشاطىء، وهو موجود في صفاقس. كان الخبر صحيحاً، فعندما علم القرصان بمشروع أندري دوريا، توجه مسرعاً إلى جربة حيث حصل من شيخ الجزيرة على أعداد من المحاربين، كما وجد متطوعين في صفاقس وقرقنة. توقع المسيحيون معركة كبيرة خلال الأيام القليلة اللاحقة، لهذا أخذ فيقا استعداداته. كان الامبراطوريون يخشون محاصرتهم بين نارين وهو ما يتطلب إقامة خط دفاعي ثان في الغرب. وقد تم حفر خنادق محمية بمتاريس من التراب.

وقع الهجوم المتوقع يوم 25 يوليه. كان درغوت على رأس قوة من ثمانمائة تركي مسلحين ببنادق الأيسكوبيت، وثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف من المغاربة، ومن بينهم مائتا فارس، والآخرون من المشاة المسلحين بأقواس عادية. كان هذا سلاحاً بدائياً، ولكن ذلك لا يقلل من خطره، فقد كانت السهام مسممة، ومن تصبه يعتبر في عداد الموتى، بالرغم من أنه لا يموت مباشرة وبسرعة لأن السم يأتي مفعوله ببطء. تتأثر الأطراف أولاً، ثم يمتد الشلل ببطء للأعضاء الحيوية، ويبدو أنه لم يكن معروفاً أي ترياق لهذا السم.

كان تكتيك درغوت هو نفسه الذي وصفه فيلقانيون أثناء معركة الجزائر: الكمين. كانت، في الشمال الغربي لمعسكر الامبراطوريين، غابة من الزيتون يذهب إليها الجنود كل يوم لقطع الحطب، وخلفها واد على بعد مائة وخمسين خطوة منها. هناك في الوادي، كان القرصان ينتظر خصمه، وفي نفس الوقت يخرج السكان، الذين تم إخطارهم، لمهاجمة العدو من الخلف.

كان الجنود وخدمهم عند خروجهم للغابة يلتقون بمغاربة لا يترددون في إظهار عدائهم وكان من السهل تشتيتهم. في صباح 25 يوليه، لاحظ الحاطبون في الحقول عدداً غير مألوف من الرجال على أرجلهم وعلى الخيول. كان هذا هو الطعم الذي قدمه درغوت. كان فيقا الآن على اليمين في الوقت الذي كان يجب أن يكون على اليسار وفق النظام الموضوع للمعركة، وترك إشراف المعسكر لتوليد وتوجه نحو غابة الزيتون على رأس ثلاث كتائب مدعومة بحملة بنادق. كان العدد الإجمالي ثمانمائة رجل. على

مسافة قريبة من الأشجار الأولى تمت مهاجمته، فرد بقوة، ورأى خصمه يتراجع، فلاحقه إلى داخل الغابة، والعدو يتراجع باستمرار حتى وصل به أمام الوادي حيث الأتراك في الانتظار. ودارت معركة طاحنة تبودلت فيها النيران بكثافة. في هذه الأثناء، خرج السكان من المدينة وهاجموا المعسكر من الشرق، فاستقبلهم تُوليد بقذائف المدفعية واضطرهم للرجوع داخل الأسوار.

في الوقت الذي كانت المعركة في أوجها في الغرب، نفذ البارود، والقذائف من عند الامبراطوريين، واعتقد الأتراك أنهم كسبوا المعركة، ولكن فيقا أصدر الأوامر للاحتياطي المكون من فرسان القديس يوحنا بالتدخل. عندها خسر درغوت المعركة واضطر للانسحاب، والتراجع إلى صفاقس، تاركاً في الميدان سبعين من الأتراك، ومائة وعشرة من المغاربة قتلى دون حساب مائتين من الجرحى، كما ترك على طريق انسحابه كمية كبيرة من المعدات الحربية[184]. خسر المسيحيون من جانبهم ستة وسبعين قتيلاً من بينهم دي ڤرقاس «de Vargas»، وقائد جنود الاستطلاع، وضابط برتبة ملازم بحار، بالإضافة إلى «**أربعة وثمانين جريحاً بطلقات الإيسكوبيت، والذين توفي أغلبهم**»[185].

هزت الهزيمة درغوت وأثرت فيه كثيراً، ولكنها لم تنل من تصميمه. ومن أجل نجدة ابن أخته، ورفع الحصار عن المهدية لا بد من تجنيد قوات جديدة وتسليحها، واعتقد أن بإمكانه الحصول على كل هذا من تاجوراء، وسيفالونيا، وبكل تأكيد من جربة التي سبق لها تزويده بأعداد من المحاربين الممتازين. بعث إلى صديقه

مراد آغا بمبعوث على متن سفينة غليونية لشرح الموقف الصعب والمحزن الذي يواجهه. واستجاب مراد آغا وأسرع بإرسال مائة من القوَّاسين إلى جربة. كان في حرب ضد طرابلس، ولم يكن في إمكانه تقديم أكثر. وأظهر حاكم سيفالونيا كرماً أكثر فقد بعث بألف سهم، ومائة قنطار من البارود، وألف صاع من القمح، وثمانين تركياً. وشحن كل هذا إلى جربه حيث كان القرصان يعد لتجميع جيش جديد. وهنا تدهور الموقف.

كان درغوت يدرك عند نزوله إلى الجزيرة، أن هزيمته نالت من مصداقيته، فقد كان على الساحل رجال ونساء وأطفال ينتظرون عودة ذويهم، وعندما اتضح لهم أن كثيرين لم يعودوا، وآخرين أكثر عدداً رجعوا بجروح، ارتفع النواح، والهتافات المعادية.

«استقبل الناس أنباء وفاة أبنائهم، وأزواجهم، وأبائهم، وأخوتهم، وأقاربهم، أو عودتهم بجروح بالغة، استقبالاً سيئاً، ولعنوه ـ درغوت ـ ولعنوا اليوم الذي اقترب فيه من جربة، ولكل هذه الأسباب كانوا ينفجرون بالبكاء».

عقد الشيخ رئيس سكان الجزيرة ـ وهم مغاربة ـ مجلساً لمناقشة الوضع، وكان رأي الجميع وجوب قطع العلاقات مع القرصان. عندما وصل هذا الأخير إلى المجلس شرح له الشيخ شكاوى السكان، وأخذ عليه فقدان أعداد من المواطنين، وأوضح له عدم جدوى مشاريعه، ثم أعلن له: **«لتأخذ زوجتك، وعبيدك، وكنوزك، وثرواتك ولتخرج من أرضي».**

عندها، وبدون أن ينبس بشفة، انسحب درغوت إلى القلعة فاقداً أي أمل في إنقاذ المهدية[186].

لم يكن سقوط المدينة إلا موضوع وقت. قاوم الريس هيس، بعد فشل خاله، لمدة شهر ونصف، ويوم 10 سبتمبر اقتحم الأمبراطوريون المدينة بعد قصف مدفعي كثيف من البر والبحر، وتم الاستيلاء عليها. كان نصراً مؤزراً بكل تأكيد ولكن بأي ثمن؟ في ذلك اليوم، فقد المسيحيون مائتي قتيل من بينهم ثلاثون من فرسان مالطا دون حساب:

«هؤلاء الذين ماتوا بعد وقت قصير بسبب جروح السهام المسممة»[187].

أما عن الخسائر خلال كل الحملة فيقدرها بوزيو بألف جندي، وخمسمائة بحار سواء قتلى في المعركة، أو بسبب المرض. لم يقم أحد بحصر الموتى من الجانب التركي، نعرف فقط أنه تم قتل ثمانمائة من سكان المدينة بكل برود، وأخذ سبعة آلاف أسير من بينهم الريس هيس، وباعتباره شخصية مهمة فلم تتأخر مبادلته بأسير مهم[188].

تأثر درغوت كثيراً لفقدان المهدية، وكان يدرك أن ليس في إمكانه إعادة احتلالها بإمكاناته لوحده. لهذا أسرع هو، ومراد بإرسال مبعوث إلى السيد الأعظم ـ السلطان سليمان ـ ليوضحا من جديد أن الإهانة التي لحقت بدرغوت، لحقت كذلك بالسلطان العثماني الذي كان القرصان أحد رعاياه، كما نبهاه في الوقت نفسه إلى الخطر الذي تمثله سيطرة إسبانيا على الشمال الأفريقي حيث لم

تتبق إلا الجزائر وحدها بين أيدي الأتراك. أدرك السلطان أن الإهانة قد لحقت به أيضاً. فبعث بمفوضين إلى الامبراطور متذمراً من الإهانة، وطالب مُهدداً، بإعادة المدينة (المهدية). وأجيب المبعوثون بكل كبرياء أن أفريقيا (المهدية) تابعة لتونس ولا يمكن ترجيعها. غضب السلطان سليمان عند عودة البعثة وصمم على الحرب. وقام بإعداد جيش بحري كبير ليبدأ عملياته في الفصل المناسب لسنة 1551 إفرنجي. ومن أجل التخفيف على درغوت سماه حاكماً لجزيرة سانت مور «Sainte Maure» في البحر الأدرياتيكي. كانت هذه بداية عمله الرسمي في الامبراطورية العثمانية.

في هذه الأثناء، كانت الأخبار تثير القلق في جزيرة مالطا لدرجة دفعت بتهجير الجزء الأكبر من السكان المدنيين إلى صقلية. وفي نفس الوقت، توسل المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا إلى الامبراطور وملك الرومان، ونائب ملك صقلية، والأمير دوريا من أجل إعداد جيش بحري يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة الموقف. وبسرعته المعهودة بدأ الأميرال (دوريا) مطاردة درغوت لأنه المحرك الرئيسي للتدخل العثماني ومن ثم لابد، وقبل أي شيء آخر، من القبض عليه «حياً أو ميتاً». من بداية أبريل، ظهر دوريا قبالة جزيرة جربة حيث كان يعلم بوجود درغوت فيها.

كان القرصان بالفعل هناك، وكانت سفنه في مأمن في قناة القنطرة، ولم يكن في إمكانه الهرب فالقناة لها مخرج واحد. وهذه المرة، وكما حدث من قبل في كورسيكا، تمت مباغتته. احتفظ

درغوت برباطة جأشه، وقام بتجميع الأتراك، ومغاربة الجزيرة، ومضى إلى مدخل القناة ليدافع عنه. وبعد إطلاقات من المدافع اضطر دوريا للابتعاد، وتوقف في عرض البحر بعيداً عن مدى المدافع. وفي ليلة واحدة شيد القرصان حصناً متقدماً وضع فيه مدافع وأتراكاً مسلحين ببنادق الإيسكوبيت. سارع الأميرال يطلب الدعم، فقامت نابولي بتجهيز خمسة قوادس، كما قام نائب ملك صقلية بإرسال مؤن وذخيرة. لم يكن دوريا ينتظر إلا هذه النجدة ليدخل في القناة. لقد أخطأ بانتظاره، فبعد ثمانية أيام علم أن درغوت وسفنه غادرت إلى البحر من الجانب الآخر للجزيرة. ما الذي حدث؟ كتب مارمول: **«كان درغوت في ذلك الوضع الخطر فاخترع استراتيجية لم يفكر فيها أحد من قبل. جمع أعداداً من مغاربة الجزيرة وأطقم التجديف وجعلهم يحفرون قناة من خلفه»**.

أوقف أندري دوريا عند حده بنيران المدفعية والبنادق المستمرة، ولم يكن يخامره الشك في أن أكثر من ألفين من المغاربة كانوا يقومون بأعمال تسوية التربة. وعندما انتهى درغوت من تمهيد الأرض، وضعت السفن على أسطوانات وجرت حتى البحر. من كل نجاحات درغوت كان هذا العمل أكثر ما أثار إعجاب معاصريه، وجعل شهرته عالمية[189].

وجد درغوت نفسه طليقاً، وكان الجيش البحري الذي ينتظر نجدته مستعداً للإبحار تقريباً. وكان سنان باشا، الذي عين منذ وقت قصير القبطان باشا، على رأس الجيش. أبحر سنان باشا بمائة وأربعين شراعاً، وقوات من عشرة آلاف رجل، من بينهم ثلاثة

آلاف جندي إنكشاري، وفي نقريبون «Negrepont (eubee)» انضم إليهم درغوت[190]، ويوم 13 يوليه مروا بالقرب من ميسينيا. يوم 18 يوليه ظهرت لهم مالطا، ومن قلعتها كان المنظر مدهشاً.

كتب بوزيو: «كان الجيش يبدو كما لو كان يغطي كل البحر من هذا الجانب، كان العدد مائة وأربعين شراعاً منها خمسون قادساً، وصندلان، وغليونية كبيرة، والباقي غليونيات صغيرة وسفن أخرى».

هل سيقوم سنان بالهجوم؟ كلا فهو يعرف أن تعزيزات قد وصلت إلى الجزيرة، ومن ثم لا داعي للإصرار، ومثلما كان يفعل درغوت من قبل في أحيان كثيرة اتجه سنان إلى جزيرة جوزو. وقام خلال الفترة من 24 إلى 26 بقصف القلعة التي استسلمت. كانت الغنائم كبيرة: سبعمائة رجل، وستة آلاف امرأة وطفل تقريباً. وفي آخر يوم من يوليه اتجه «مباشرة إلى الشمال الأفريقي»[191].

كانت طرابلس هي الهدف الذي حدده السلطان للحملة، وفيها سيكون درغوت مفيداً جداً، وسيؤتي تعاونه الطويل مع مراد آغا ثماره. وصل الجيش البحري إلى رأس تاجوراء يوم 4 أغسطس، وتم إنزال القوات، والمدفعية والذخائر. وزود مراد آغا الجيش بمائتين من الفرسان، وستمائة من حملة بنادق الإبسكوبيت[192]، وهكذا أصبحت القوات التي تستعد للزحف على طرابلس ضخمة.

ما هو الوضع من جانب الخصم؟ معطيتان تشدان الانتباه: الأولى هذا العدد غير المألوف من أعمال التحصينات. كانت في طرابلس قلعتان لا قلعة واحدة، إحداها وهي الأهم تقع في مركز

المدينة، والأخرى لحماية الميناء تطل واجهتها الشمالية على البحر، ومن الشرق توفر مدافعها الحماية للمرفأ، وأسوارها الجنوبية تحتضن المرسى[193]. كان من المستحيل الوصول إلى الشاطىء إلا بحيلة كالتظاهر بالصداقة، أو كتاجر مسالم. وكانت قد تمت صيانة القلعتين منذ وقت قصير وجُهزا بالمؤن والذخائر التي وصلت من مالطا، وبعض القوات وخاصة مائتان من الكالبريين تم تجنيدهم في صقلية. كما حُصنت الأسوار، ودعمت بمتاريس ترابية، وأقيمت تحصينات في الشوارع ولحماية المدفعية.

ملاحظة ثانية تستحق الذكر، وهي تتعلق بتكوين الحامية. فالحاكم كان الفرنسي المارشال دي ڤالييه «de Vallier»، كما أن عدداً من الفرسان المقيمين معه في القلعة المركزية كانوا من الفرنسيين. وأوكل المارشال حراسة قلعة الميناء لثلاثين إسبانيا تحت أمرة الفارس دي روش «des Roches». وهكذا نرى نموذجاً للطابع المتنوع للرهبانية، وهو ملائم للفتن والشكوك، فمن كان يتمنى أن يكون مكان الفرسان الفرنسيين عندما نعرف أن فرنسا كانت حليفاً للسيد الأعظم (السلطان العثماني).

كما تجدر الإشارة إلى أنه لم يكن في إمكان طرابلس الاعتماد على أي مساعدة خارجية، فقد تم التوسل إلى الامبراطور والبابا، ونواب الملك في نابولي، وصقلية ولكنهم لم يجيبوا. كان الأمراء مشغولين جداً بحروبهم الداخلية مما جعلهم لا يهتمون بطرابلس.

أرسل سنان باشا إنذاراً للحاكم بمجرد وصوله: إذا سلم المدينة فسيترك حراً هو ومن معه، وإلا فسيقتل الجميع، وأجاب

جسبار دي ڤاليه «Gaspard de Vallier» بشجاعة: «لقد كلفت هنا بأمر من المرشد الأكبر ولن أسلم المكان إلا بناءً على أمره».

هكذا بدأت الحرب، في يوم 6 أغسطس، بالاستيلاء، على الريف وانضم المغاربة والعرب إلى الباشا، وحوصرت المدينة من قرب، وبدأت الأعمال التمهيدية، وحفرت خنادق. وهنا ظهرت على المسرح شخصية غير متوقعة، أنه النبيل دارامون «d'Aramont». كان مبعوثاً سفيراً لفرنسا إلى القسطنطينية، وحل بمالطا واقترح تقديم خدماته. لقد وصل في الوقت المناسب ويمكن أن يكون مفيداً. كان المرشد الأكبر يعرف ضعف وضع جماعته في طرابلس، كما يعرف مدى حظوة السيد دارامون لدى الباب العالي، ومن ثم سارع إلى طلب توسطه. ولم يتردد السفير في الذهاب إلى طرابلس.

نقلت السفير إلى طرابلس بارجة حربية تابعة للرهبانية، وبمجرد وصوله حاول التوسط، طالباً إلى الباشا باسم الصداقة لملك فرنسا أن يعدل عن احتلال طرابلس. أو لم يكن عدد من الفرسان فرنسيين؟ كان سنان مصمماً ولا فائدة من الإصرار، فلديه أوامر مكتوبة أراها للسفير. عندها قرر السفير التوجه إلى القسطنطينية ليقدم طلبه إلى السلطان، ولكن الباشا منعه بوضع قوادس خلف البارجة التي كانت ستقله. إزاء هذا الوضع لم يكن أمام السفير من أمل إلا الحصول على شروط تسليم مشرفة للفرسان الذين لم يعد بوسعهم المقاومة لمدة أطول[194].

لم يأت دارامون إلى طرابلس بمفرده، لقد كان في معيته عدد

من النبلاء من بينهم نيكولا دي نيكولي الذي كان مكلفاً بمهمة في القسطنطينية. كان هذا الأخير، بخلاف السفير، حراً في تحركاته، فقام يوم 11 أغسطس بزيارة أعمال الحصار، حيث شاهد على بعد 150 خطوة من القلعة وجود ثمان قطع مدفعية كبيرة تحت أمرة الريس صالح، وعلى اليسار ثماني قطع مدفعية أخرى تحت قيادة درغوت. وبينما كان دي نيكولي في جولته اقترب منه مراد آغا، وطلب نصيحته حول أحسن طريقة لإدارة الحصار. سؤال محرج لنيكولي الذي رد بإجابة مراوغة[195].

يوم 12 أغسطس، وضع سنان على مسافة اثنتي عشرة إلى ثلاثين خطوة من القلعة ستة وثلاثين مدفعاً موزعة على ثلاث مجموعات، ولكن السور استطاع المقاومة. وهنا ظهر خائن، وهو جندي من جنوب فرنسا متزوج من مغربية ومتعاطف مع الأتراك. جاء إلى سنان ووضح له نقاط الضعف في التحصينات، وعلى الفور حرك الباشا مدافعه التي تمكنت من إحداث فتحات كبيرة في السور.

أصبح وضع المحاصرين ضعيفاً لا يمكن الاستمرار فيه، وتمرد الكالابريون مطالبين بإرسال مفوضين من غير الفرنسيين للبدء في مفاوضات. استقبل سنان الموفدين، وطلب أن يأتي المارشال دي ڤالييه شخصياً. حدث بعض التردد في القلعة ولوقت قصير، ولكن لم يكن هناك ما يمكن خسارته، ومن ثم ذهب المارشال إلى الموعد. لم يكن الاستقبال كما هو متوقع، فقد انفجر سنان بلوم قاس قائلاً: إن الفرسان بحربهم ضد الأتراك خانوا شروط التسليم

في رودس سنة 1522 إفرنجي. ورد دي ڤاليه بأن هذا غير صحيح، فلم يسبق للفرسان أن أعطوا هذا التعهد. إنهم لا يستطيعون ذلك لأنهم أقسموا على محاربة الكفار.

اغتاظ سنان، وأمر بتجريد المارشال، وتقييده بالسلاسل على أحد القوادس، وأمام هذه الخيانة استطاع دي ڤاليه إبلاغ رسالة إلى الفارس مونفور «Monfort» الذي كان يرافقه، وفحواها، أن يبلغ القائد كوبييه «Copier» بالبقاء في القلعة وتأدية واجبه كاملاً. عندما علم القائد والفرسان بما حدث، قرروا الصمود حتى النهاية، ولكن كان يجب أخذ وضع الجنود في الاعتبار، فهؤلاء لم يكونوا على مستوى شجاعة الفرسان، وولوا الأدبار.

وفي الغد 14 أغسطس، انعقد المجلس وتقرر إرسال مونفور لمعرفة شروط الباشا. واشترط الباشا دفع مصاريف الحرب. ثم عدل عن هذا المطلب المبالغ فيه بعد تدخل كل من درغوث، ومراد آغا، وأحضر المارشال وأخطره أنه قرر إعطاءه حريته، هو والفرسان والضباط والخدم احتراماً لدارامون، وذلك باستثناء المدفعي الذي تسبب في بتر ذراع مهندس الجيش التركي بقذيفة[196]. وهذا ما تم.

أخذ الفرسان إلى مالطا، وتم تسليم المدفعي الذي كان إيطالياً بائساً، عذب تعذيباً شنيعاً حسب دي نيكولي الذي كان شاهد عيان على ذلك. فقد قطعت يداه، وجذع أنفه ثم دفن حياً حتى الحزام، وأشبع طعناً بالحراب، وبعد ذلك خنق حتى الموت[197].

يمثل أغسطس 1555 إفرنجي، محطة أساسية في تاريخ

طرابلس، وأيضاً في تاريخ أفريقيا الداخلية، فهو بداية العهد التركي الذي استمر حتى الاحتلال الإيطالي سنة 1911 إفرنجي. عند مغادرة سنان باشا سواحل الشمال الأفريقي ترك حكم طرابلس لمراد آغا. ووجد درغوت نفسه مستبعداً من موقع كان يعتقد أنه أحق به. لماذا؟ كانت العلاقات متوترة بينه وبين سنان باشا، فنجاحات القرصان ألقت بظلالها على القبطان باشا، الذي كان ينظر إليه كمنافس. كما كانت نجاحات درغوت تقلق الوزير الأكبر رستم باشا الذي كان شقيقاً لسنان[198].

واصل درغوت نشاطه كقرصان بسبب ما رآه استخفافاً بخدماته. وبدل أن يتبع سنان باشا إلى القسطنطينية سافر في الاتجاه المعاكس. إلى أين؟ إلى مرسيليا حيث كان ينتظره ليون ستروزي «Leon Strozzi»، وهو فلورنسي عين قائداً للقوادس الفرنسية سنة 1547 إفرنجي، وهي سنة صعود هنري الثاني للعرش[199].

قضى درغوت ثلاث سنوات، قام خلالها بسلسلة من العمليات لحسابه الخاص أحياناً، وأحياناً بطلب من ملك فرنسا. في سنة 1553 إفرنجي قام بتخريب كالابريا، واستولى على أليكاتا «Alicata» في صقلية، ثم جزيرة بانتالير «Pantalaire»، وأخذ ألفاً من سكانها أسرى. من هناك رجع إلى إيطاليا، ثم شارك مع جيش فرنسي في الاستيلاء على باستيا «Bastia». قام سنة 1554 إفرنجي بهجوم جديد على كورسيكا ولكن كالفي «Calvi» قاومت، وطال الحصار. اعتقد درغوت أن بإمكانه ما هو أفضل، فترك الفرنسيين وأبحر شرقاً ودخل إلى خليج البندقية بخمسين قادساً، وقام بتخريب أبولي[200] «Apulie». وأحضر إلى القسطنطينية:

«ثروات فاقت بكثير ما كان متوقعاً».

لم يستطع السلطان، هذه المرة، تجاهل ما يستحقه درغوت، وفكر في أن يعطيه حكومة الجزائر. إن الجزائر إرث برباروس، وهي المأوى الأخطر لقراصنة الشمال الأفريقي. أو لم يكن من الخطير وضع هذا الموقع بين يدي رجل أظهر دائماً أنه مستقل؟ هذا ما قال به رستم باشا، وانطلق التآمر، وبدأ الحديث عن نفي القرصان. لم يكن أمام درغوت إلا الالتجاء إلى السطان. وحانت الفرصة في أحد الأيام، عند خروج السلطان من القصر للقيام بجولة على ظهر جواد، فتقدم منه درغوت راجلاً وقبل ركابه وعبر عن رغبته في حكومة طرابلس، وهو ما حصل عليه. ولن يندم السلطان على كرمه، فسيثبت درغوت، أنه خادم مخلص للباب العالي، كل ذلك مع الحرص على مصالحه الذاتية. وسيتضح أنه إداري موهوب، وسيسهم في رفاهية الولاية التي أوكلت إليه[201].

لقد شيد مراد آغا الكثير في تاجوراء، ويبدو أنه أهمل طرابلس. يرجع الفضل إلى درغوت في أن جعل من طرابلس «**المكان الأكثر روعة في أفريقيا**»[202]. ووصف مارمول وهو مراقب نابه، لعناية مواطنيه الأعمال التي قام بها القرصان: «**أقام قلعتين بجانب البحر، وقوى أسوار الأبراج والشوارع. ومنذ ذلك الحين والأتراك يكونون حامية في القلعة بينما سكان المدينة من المغاربة**»[203]. نضيف أن الطرابلسيين مدينون لدرغوت بجامع وحمامات ما زالت حتى اليوم تحمل اسمه[204].

هذا بالنسبة للعمران العسكري والمدني، ولكن طرابلس مدينة بالفضل لدرغوت برخائها الاقتصادي. وأصبح ميناؤها عريناً

للقراصنة المهابين على سواحل إيطاليا وإسبانيا، والذين كانت مهابتهم لا تقل عن مهابة قراصنة الجزائر[205]. وستكون القرصنة من أهم موارد طرابلس حتى نهاية القرن الثامن عشر. وكان المصدر الآخر هو التجارة مع الداخل، وهي أيضاً من عمل درغوت، فهو الذي أسس العلاقات بين الأتراك والبلدان التشادية.

لم يقبل السكان جنوب الصحراء الوجود الإسباني في طرابلس منذ سنة 1510 إفرنجي، ووجود فرسان مالطا بداية من سنة 1530 إفرنجي. فبورنو الإسلامية كانت تكره التعامل مع المسيحيين. لهذا السبب عندما علم الملك علي ملك بورنو سنة 1538 إفرنجي، وهي سنة ارتقائه العرش، بوجود خير الدين في تاجوراء أرسل إليه مبعوثاً برسالة يطلب فيها تزويده بالسلع التي يحتاجها. هل استلم خير الدين هذه الرسالة، أو أنه ذهب لينضم إلى أسطول برباروس في كريفيسا؟ لقد رفض طلب الملك علي! لم تكن تاجوراء مهتمة بالمبادلات التجارية. واضطر الملك، رغم أنفه، أن يلجأ إلى تجار طرابلس فهم وحدهم كانوا قادرين على تزويده بالسلع الآتية من أوروبا[206]. كان الإسبان من جانبهم مهتمين، فهم في حاجة لعبيد سود من أجل مؤسساتهم في صقلية. وخلافاً لما كان يمكن أن نتوقعه، لم يوقف الاحتلال الإسباني العلاقات التجارية بين تشاد والبحر المتوسط، ولكنه جعلها مزعجة.

فتح وصول درغوت إلى طرابلس كحاكم آفاقا جديده، فالحديث عن مآثره كان قد وصل إلى بورنو، وأسرع الماي محمد بإرسال بعثة رسمية، تركت أثراً طيباً في طرابلس، وحفظت في

المذكرات العربية للمدينة. وهكذا استطاع جيرار، بعد قرن من الزمان، وكان أسيراً في سجن طرابلس، أن يقرأ رواية الواقعة. وهذه هي الترجمة التي أعطاها:

«عندما علم محمد أن طرابلس وقعت تحت سلطة حاكم مسلم، وبلغته شهرة ومآثر ونجاحات درغوت باشا، دفعه هذا لأن يبعث إليه بسفير متبوعاً بخمسة عشر رجلاً، أغلبهم على ظهور الجمال. دخل السفير طرابلس في بداية سنة 1555 إفرنجي. واستقبل من قبل درغوت بكل بذخ وإجلال ممكنين، وأكرم أثناء إقامته إكراماً متميزاً. كان السفير عبداً كامل السواد. وبعد تقديم أوراق اعتماده التي كانت مكتوبة باللغة العربية، شرح السفير موضوع مهمته التي تهدف لتأسيس علاقات صداقة وتجارة بين درغوت وسيده الملك من أجل إمكانية استعادة الحصول على مختلف السلع الأوروبية غير المتوفرة في بورنو.

بدا درغوت راضياً أيما رضا من أن يسعى للتحالف معه عاهل من أفريقيا بعيد جداً عن أراضيه. وتعهد للسفير أن يعطي اهتماماً لإرضاء سيده. كما اتفق على السلع التي يتم تصديرها إلى بورنو، وتلك التي يتم توريدها منها في المقابل. كان السفير راضياً عما جرى ومن أمانة درغوت. واستأذن في العودة إلى بلاده. عند مغادرة السفير، قدمت له أسلحة، وخيول، وعدد من الطرائف الأوروبية هدايا للملك الذي تسلمها بكثير من الرضا.

وقد أضاف جيرار أن التجارة بين طرابلس، وبورنو استمرت منذ ذلك الحين وحتى عصرنا الحالي[207]».

قدم درغوت ما يعرف أنه مقدر في بورنو: أسلحة، وخيول، «وطرائف أوروبية». كانت الأسلحة النارية مرغوبة كثيراً من قبل بورنو، ولكن الأتراك كانوا متحفظين جداً في إعطائها. وسنرى في نهاية القرن، إن الماي إدريس الأمة بادر، دون جدوى، بمساع مذلة من أجل الحصول عليها، ولم يعط درغوت للسفير إلا بعض البنادق من نوع الإيسكوبيت، ودون شك، رجالاً خبراء في استعمالها من المرجح أنهم من العبيد.

ما هي اتفاقيات التجارة التي تم التوصل إليها؟ إننا لا نعرف عنها شيئاً. يُلاحظ فقط أنه إذا كانت بورنو تطلب البضائع الأوروبية بشراهة، فأنها كانت مهتمة أيضاً بالمنتجات الطرابلسية وخاصة الخيول.

في العصر موضوع اهتمامنا، كانت الخيول تمثل حصة مهمة من واردات بورنو. لم تكن المبادلات بالنسبة للخيول تتم في طرابلس، وإنما في فزان منطلق التجارة عبر الصحراء. لم يكن العرب وحدهم هم الذين يتعاطون هذه التجارة، وإنما كان المغاربة أيضاً يقودون الحيوانات إلى فزان لبيعها للتجار البورنيين مقابل الذهب، أو الجلود «من نوعية ممتازة جداً لدرجة تبدو فيها كشيء غير عادي في فزان»[208].

كانت فزان، ملتقى الطرق الصحراوية، مملكة مستقلة في ذلك الحين. كان مؤسس الأسرة الحاكمة، هو محمد الفاسي، ويقال أن أصله من فاس في المغرب كما يوضح ذلك اسمه. وكان الذي في السلطة في منتصف القرن السادس عشر من هذه الأسرة هو

المنتصر. متى وصل المنتصر للحكم[209]؟ وهل كان هو أول الحكام في الأسرة؟ لا أحد يعرف شيئاً عن فزان في ذلك العصر. حقيقة واحدة واضحة تمام الوضوح وهي أنه إذا كانت فزان مستقلة سياسياً فإنها لم تكن كذلك من الناحية الاقتصادية. فرخاؤها مرتبط برخاء طرابلس الذي يعتمد على انتظام الحركة بين الساحل والداخل. ويبدو من غير المشكوك فيه أن الاتفاقيات التي عقدت بين ملك بورنو ودرغوت قد أعطت دفعاً جديداً للتجارة الفزانية.

وهنا مكان الإشارة إلى حادثة ستكون لها نتائج حيوية بالنسبة لفزان وبلدان الحوض التشادي. فمن طرابلس بسط درغوت سيطرته على الساحل التونسي حتى صفاقس، والمنستير، وسوسة، والقيروان[210]. وأتت مجموعة من سكان صفاقس واستقرت في طرابلس، وكانت من التجار، والحرفيين، والمزارعين. وساهمت هذه الجالية النشطة مساهمة ثمينة في انطلاق المدينة. كان على رأس هذه المجموعة المدعو المكنى والذي استطاع بكفاءته كسب ثقة الوالي وأصبح عضواً في مجلسه. وستبرز أسرة المكنى في التجارة مع البلدان السودانية، وسيكون لها نفوذ كبير في الحياة السياسية والاقتصادية في البلاد. لنحفظ هذا الاسم ـ المكنى ـ لأننا سنجده في كل المحطات الأساسية في تاريخ فزان، وكانم، وبورنو[211].

إن الشهادات التي في حوزتنا حول ما قام به درغوت في طرابلس ليست كثيرة، ولكنها تكفي لأعطاء صورة رجل مثابر على العمل، مفتوح على كل المجالات التي من شأنها المساهمة في

تكوين العظمة الجديدة للمدينة. بالرغم من ذلك فإن نشاطه العسكري لم يتوقف، وقد لجأ إلى الأعمال العسكرية مرتين على الأقل.

كانت الأولى في سنة 1560 إفرنجي، وكان الفاعلون على المسرح الدولي هم غير الذين عرفناهم سابقاً. فقبل أربع سنوات من ذلك التاريخ تنازل شارل كنت عن العرش، وخلفه ابنه فيليب كملك لإسبانيا، وهولندا، وإيطاليا، كما أن سنان باشا لم يعد هو القبطان باشا وإنما كان بيالي.

قرر الملك فيليب في سنة 1550 إفرنجي، أن الاستيلاء على طرابلس ضروري لأمن الولايات المتوسطية من مملكته، وأمر نائب الملك في صقلية ميدينا سيلي «Medina Celi» بانتزاعها من الأتراك.

بدأت السفن، والقوات في التجمع في ميسينيا «Messine» ابتداء من شهر أغسطس سنة 1559 إفرنجي. كانت قوادس صقلية في الموعد، وكذلك قوادس البابا، وجنوا، وفلورنسا، ومالطا، وأمير موناكو. كان أندري دوريا على رأس الأساطيل الإسبانية، وكان لا يزال قوياً برغم تقدمه في السن، فقد كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة. لم يسبق أن تجمع هذا العدد من المتحالفين ضد القرصان[212].

أبحر الأسطول في يناير سنة 1560 إفرنجي، وفي مالطا منعه الجو غير المناسب من مواصلة الإبحار لمدة أطول مما هو متوقع، ولم يتمكن من المغادرة[213] متوجهاً إلى جربة إلا يوم 10 فبراير. كان من المهم قبل مهاجمة طرابلس الاستيلاء على هذه الجزيرة

التي يحتفظ فيها درغوت بحامية. نزل الجيش إلى البر يوم 7 مارس، وبعد ثمانية أيام من المناوشات، والمفاوضات استسلمت القلعة[214]. كان درغوت في جربة، ورأى حجم الكارثة فرجع مسرعاً إلى طرابلس، ومن هناك وجه نداء ملحاً إلى الباب العالي. ولو عرف الدوق، أو بالأحرى لو استغل نجاحه دون انتظار لأصبح وضع المدينة القرصانة صعباً. ولكن ظرفين أبقياه في الجزيرة. الأول سوء الأحوال الجوية فقد كان من المستحيل الرسو في مرفأ طرابلس في تلك الأجواء، والثاني انتشار وباء أهلك القوات والبحارة. وقد أصيب أندري دوريا نفسه ويقال أن حالته كانت حرجة.

بينما لزم الجيش المسيحي الأرض، أسرع بيالي باشا مبحراً بمائة وعشرين شراعاً[215]. كانت مودون هي محطته الأولى حيث انضمت إليه سفن رودس وميتيلين. يوم 30 أبريل واصل إبحاره. كان يوم 7 مايو على مشارف مالطا، عندما وصلته رسالة من درغوت تفيد بأن الأسطول المسيحي ما زال في جربة، ويجب القضاء عليه هناك. توجه بيالي إلى الجزيرة ووصل إلى الشاطىء يوم 9 مايو[216]. في هذه الأثناء ذهبت السفن المعادية لعرض البحر مخافة أن تفاجأ وهي راسية، فقام القبطان باشا بمطاردتها وتم تحطيم عشرين قادساً، وسبعة عشر سفينة نقل، بينما أحرقت تسع قوادس أخرى كانت موضوعة في حماية القلعة، وهرب نائب الملك في اتجاه إيطاليا. أُخطر درغوت بالنجاح الذي تحقق فهب للنجدة. وكان وصوله مطلوباً من أجل القضاء على الاثنى عشر

ألف رجل الذين بقوا على الأرض، واحتلال القلعة. لم يستسلم المحاصرون ويقيدوا بالسلاسل[217] إلا بعد ثلاثة أشهر من المعارك وبعد أن عانوا شحا في المياه. حدث هذا يوم 31 يوليه[218].

للقضاء على القوات المعادية، اضطر الأتراك لاستخدام أربعة عشر ألف رجل واستعملوا ثماني عشرة مجموعة من المدافع[219]. لم تكن الوسائل قليلة عند المتحالفين على الأرض، كما لم تنقصهم الشجاعة، ولكن النتيجة تقررت على البحر، فالهزيمة ترجع إلى سوء الأحوال الجوية التي رافقت بداية الحملة. فلو كانت الظروف عادية، كما في الربيع والصيف، لاستطاع الأسطول المسيحي الاستيلاء على طرابلس قبل وصول السفن العثمانية. هل كان هذا محققاً؟ إذا كان بحارة مجربين مثل ميديناسيلي وأندري دوريا قد اختاروا شهر فبراير للإبحار، فلم يكن ذلك دون تفكير ناضج، ففي الشتاء كانت السفن العثمانية منزوعة السلاح وكان البحر خالياً، وعنصر المباغتة مؤكداً. كان هذا القرار مغامرة. مغامرة خُسرت. لم يعان أندري دوريا من مرارة الفشل فقد قضى عليه مرضه، وكان عمره أربعة وتسعين عاماً[220].

بعد خمس سنوات قرر السلطان سليمان أن يوجه ضربة حاسمة للقوة المسيحية في البحر المتوسط. وتحدد الهدف في الاستيلاء على مالطا. تكونت قوات الحملة من عشرين ألف رجل بقيادة مصطفى باشا، وكلف بيالي باشا بتجهيزهم على مائتي سفينة. تمت مغادرة القسطنطينية يوم 1/ 4/ 1565 إفرنجي، ووصل الأسطول قبالة مرسى شيروكو «Scirocco» في جنوب غرب الجزيرة يوم 19 مايو.

كان درغوت قد دعي للمشاركة ولكنه لم يكن قد وصل بعد. ليس هذا بالمهم. يوم 20 مايو أنزل مصطفى باشا قواته ـ مخالفاً بهذا رأي بيالي ـ ومعها خمس مدافع وصوبها إلى قلعة سانت إلم «Saint Elme». وأخيراً يوم 7 يونيه وصل درغوت على رأس ثلاثة عشر قادس وسفينتين غليونيتين حاملة ألفاً وخمسمائة جندي. انتقد درغوت الهجوم الذي حدث ضد القلعة، والتي كان يمكن أن تسقط بعد ذلك دون جهد. لكن الخطأ كان قد وقع والعدول عن احتلال القلعة وتركها عمل يخالف القيم العثمانية. تم نصب بطارية مدافع ثانية، وأخضع الحصن للقصف من السفن ومن المدافع على الأرض في نفس الوقت، ولكنه بقي صامداً[221].

يوم 16 يونيه بدأ الأتراك الاقتحام، ولكنهم ردوا على أعقابهم. قرر مصطفى ودرغوت في الغداة الذهاب لاستطلاع المواقع من خندق متقدم.

«هناك، أطلق مدفع من قلعة سان أنج «Saint Ange» طلقات من الأحجار، أصاب أحدها درغوت في الرأس قريباً من الأذن اليمنى، وبسببها تقيأ دماً وفقد النطق»[222].

كان باريسوت دي لافاليت هو حاكم مالطا في تلك الأثناء، وهو نفسه الذي قابل درغوت مقيداً في السلاسل قبل أربع وعشرين سنة، ووجه إليه ثلاث كلمات مواساة. وقد أصبح لاحقاً المرشد الأكبر، وأصبح السجين حاكم ولاية، ووضعهم القدر من جديد وجهاً لوجه. في لهيب المعركة لقي درغوت حتفه، ومن يدري فقد

يكون الدور غداً على المرشد الأكبر. «**تلك هي عادة الحروب!**»[223].

أعيد جثمان درغوت إلى طرابلس، ودفن إلى جانب المسجد الذي شيده. وهكذا قُتل هذا الذي كان أشهر قراصنة عصره «**في المعركة على طريق الله**». فإلى جانب عظمته كقائد عسكري يضاف أنه شهيد. وتحت هذه التسمية ـ شهيد ـ عرف بين الخلف[224].

الفصل السادس

إدريــس الأمــه

في الوقت الذي كان فيه درغوت يصارع الموت في مالطا، ظهرت شخصية عظيمة في جنوب الصحراء هذه المرة، إنها الماي إدريس بن علي، والملقب بالامه. وقد أحدث تغييرات جذرية في الحياة السياسية والاقتصادية في البلدان التشادية، لم يقم بها من قبله إلا قليلون. وقبل استعراض ما قام به من أعمال، من المفيد إعطاء لمحة عن الشعوب التشادية عند وصوله للحكم، أي سنة 1564 إفرنجي.

هل هذا في الإمكان؟ هل تتوفر لدينا معطيات كافية لهذا الغرض؟ نعم، على الأقل فيما يتعلق بالأساسيات، ويرجع الفضل لثلاثة من الشهود المعاصرين. الأول هو ليس دل كارافاجال مارمول «Luys del Caravajal Marmol» والذي سبق وأن ذكرناه مرات عديدة. كان هذا الإسباني، الذي ندين له بكثير من المعلومات الثمينة، شحيحاً عندما تعلق الأمر بتاريخ حياته. فعن حياته المليئة بالمغامرة، والتي من الممتع الإحاطة بها، لم يترك لنا إلا بعض السطور التي تتطلبها رواية شهاداته. وهذا في سطور، ما قَبِل أن يخبرنا به عن نفسه:

«عني، كنت صغيراً جداً عندما غادرت مدينة غرناطة التي هي مسقط رأسي، ولم أغادرها إلا من أجل أن ألتحق بمشروع شارل كنت الشهير ضد تونس سنة 1535 إفرنجي. عندما أحتلت تونس، تبعت رايات هذا الامبراطور في كل أفريقيا لمدة عشرين سنة، وحضرت كل الأعمال العظيمة التي لا تنسى. ولسوء الحظ، وقعت بين أيدي أعداء احتفظوا بي أسيراً لمدة سبع سنوات وثمانية أشهر في مملكة مراكش؛ في تارودانت، وترمسان، وفاس، وتونس. وخلال هذه الفترة عبرت الصحارى الليبية في معية محمد إلى مكان يسمى الساقية الحمراء في تخوم غينيا، وقد استطاع هذا الشريف بفضل انتصاراته في أفريقيا أن يصبح سيداً لهذه الولايات في الغرب. كما قمت برحلات أخرى برية وبحرية كنت في بعضها حراً، وفي الأخرى تحت العبودية. لقد تجولت في كل الشمال الأفريقي، وفي مصر ولاحظت أشياء كبيرة، بدا لي أن معرفتها مطلوبة من سكان إسبانيا الطيبين».

كان مارمول رجلاً مثقفاً، يجيد العربية الكلاسيكية واللهجات، وقرأ مؤلفات الجغرافيين العرب. لم يقل لنا هذا، ولكن نستطيع تخمينه من حجم المعلومات التي جمعها حول أفريقيا جنوب الصحراء. وكان محباً للاستطلاع، متلهفاً للتعلم من الآخرين، وفوق ذلك محباً لاستكشاف المجالات غير المكتشفة. في نهاية أسفاره نشر كتابه «وصف أفريقيا» في غرناطة سنة 1573 إفرنجي. وترجم هذا العمل الضخم بعد حوالي قرن إلى الفرنسية من قبل نيكولا بيرو «Nicolas Perrot»، ونشر في أكتوبر سنة 1657 إفرنجي.

لا يُذكر مارمول إلا نادراً بالنسبة لأفريقيا الداخلية، ويؤخذ عليه أنه نقل من ليون الأفريقي. وهذا صحيح للأسف! والأسوأ أنه نقل عنه حرفياً دون أن يذكره. بالرغم من هذا، فإن تجاهل مشاهداته ليس صحيحاً، بل هو مضر. وأن قراءة مركزه لمارمول تبين أنه لم يكن مجرد ناقل بسيط، فهو يصحح في بعض الأحيان ويضيف أحياناً أخرى. والاختلاف بينه وبين سلفه اللامع مفيد، لأنه يسمح بالوقوف على التغيرات التي حدثت على مدى نصف قرن. فمارمول يورد أن سكان غدامس كانوا يدفعون الأتاوة للأتراك الذين كانوا سادة على طرابلس، وليس للعرب كما في زمن ليون الأفريقي. وفي المجال التقني كان التطور مدهشاً، فالأسلحة النارية التي لم تكن معروفة في زمن ليون إلا من قبيل حب الاستطلاع، انتشرت وعم استعمالها. فنجد البندقية الإيسكوبيت في أغاديس عند التجار، وكذلك في بورنو حيث للملك حراس من الرماة.

الشاهد الثاني إيطالي، هو جيوڤاني لورنزو أنانيا «Giovani Lorenzo Anania» الذي ندين له بمدونة مفصلة عن ممالك ومدن وشعوب الحوض التشادي، من حدود دارفور في الشرق، إلى إمارة كانو في الغرب. نشر هذا العمل المدهش بدقته سنة 1582 إفرنجي في مدينة البندقية. لم يزر المؤلف أياً من البلدان التي وصفها ولكنه قام بتجميع معلومات وبيانات من شاهِدين متميزين: الأول من مدينة البندقية، وهو رحالة عظيم قضى سبع سنوات في كانو ويسمى ڤينسانزو ماتيو «Vincenzo Matteo»، والثاني جيوڤاني دي ڤيستي «Giovani di Vesti»، وكتب عنه أنانيا، «**إنه إنسان نبيل جداً وكان عبداً لكونت عظيم عند الأتراك**» في طرابلس.

بفضل مارمول، وأنانيا تتوفر لدينا وثائق مفصلة تكمل ـ لحسن الحظ ـ ما جمعه شاهدنا الثالث ابن فورتي.

في شخص أحمد ابن فورتي، لدينا الفرصة أخيراً، لسؤال أحد أبناء البلاد. وهو بورني غير عادي، فقد كان الإمام الأكبر لبورنو، وأخذ على عاتقه رواية الأحداث الرئيسية لحكم معاصرة إدريس ألامة بين سنتي 1564، و1578 إفرنجي. لم يكن محايداً، بكل تأكيد، فالإشادة بملكه، والدوافع النبيلة التي ينسبها إليه تكشف تملقه ونفاقه، ولكنه عندما يتعرض للوقائع يبدو جديراً بالثقة، فاهتمامه بالتدقيق، والتحفظات التي يعبر عنها عندما يروى عن آخر، تبين أنه كان مراقباً يتحلى بروح النقد. إن أعماله وهي وحيدة في حوليات البلدان التشادية، تستحق احتراماً أكثر. لسوء الحظ، ليس من السهل قراءة أعمال ابن فورتي، وهذا راجع لأسلوب المؤلف، فهو ضليع في الفقه والقانون، ولكنه يكتب بلغة أجنبية، وهي العربية، ويظهر جلياً في بعض الأحيان، أنه يلاقي صعوبة في التعبير. كما ترجع صعوبة قراءة مؤلفاته إلى أن العديد من الكلمات غير دقيقة، وهي وإن كانت واضحة لمعاصريه دون شك، فإنها غامضة بالنسبة لقارىء من القرن العشرين. لم يكن ابن فورتي يشك في أنه يكتب للخلف، وأننا سننكب في يوم من الأيام بعد مضي قرون على مؤلفاته باهتمام كبير وحب استطلاع. وأخيراً نضيف أن القسم الأول من مؤلفه الخاص بحروب بورنو، وهو الذي يهمنا في المقام الأول، كُتب على عجل دون تخطيط مسبق، واهتمام بتتابع الأحداث.

كان مارمول في غرناطة، وأنانيا في البندقية، وابن فورتي في

بورنو مهتمين بالكتابة حول بلدان تشاد في نفس الوقت. إن الكتابات التي تركوها غزيرة، وتتكامل وتتقاطع ولكنها تبقى غالباً محيرة. ومن الغريب أننا الآن في وضع يسمح لنا بفهم فحواها أكثر مما كان عليه المؤلفون، وذلك لأننا نستطيع قراءتها والخرائط تحت أعيننا. ماذا نكتشف؟ أسماء المملكتين المسيطرتين على الفضاء التشادي: المملكة التي كانت كانو مركزها، وبورنو التي كانت عاصمتها برني قازير قامو. بلغت شهرة كانو لحد أن اعتبرها أنانيا «**إحدى ثلاث مدن في أفريقيا، والأخريان هما فاس والقاهرة**».

كانت كانو محاطة[225] بسور به ثمانية أبواب، وتوجد داخل الأسوار صخرة عالية ربما كانت فوقها قلعة كما يوحي بذلك ابن فورتي، وهي الملجأ الأخير[226].

كان مظهر المدينة مثيراً ومدهشاً، ولكن نشاطها الاقتصادي هو الذي شد انتباه المراقبين. فقد جذبت تجارة الذهب والعاج إليها تجاراً من القاهرة، وعدداً من «**النبلاء البيض**» الذين استقروا فيها وعاشوا في بذخ، وحتى البرتغاليين حاولوا فتح وكالة تجارية بالرغم من أن قواعدهم الأطلسية بعيدة جداً، ثم اضطروا للعدول عن الفكرة، بعد أن أقنعهم بذلك التجار المصريون الذين كانوا يخشون المنافسة[227].

كان لكانو منافسوها، وهي مدن الهاوسا الأخرى في الغرب، جوبي «Gober»، وزقزق «Zegzeg»، وخاصة كاتسينا «katsina» التي كانت في حالة حرب دائمة[228] مع كانو. كما كان على كانو أن تحذر كذلك من ناحية الشرق: فبورنو جار مقلق. كان يجب أخذ

الحيطة، ولهذا أحيطت تسعة مواقع حدودية بالأسوار[229]. هل كان هذا كافياً لإبعاد أي خطر؟ كانت بورنو في أوج انطلاقها وعنها حدثنا مارمول، وأنانيا، وابن فورتي خاصة.

تقع بورنو بين خطي (10 ـ 11) غرباً، و14 شرقاً تقريباً، وتطل على الشاطىء الغربي لبحيرة تشاد، ومحورها المركزي هو نهر اليوبي. تقدر مساحتها بتسعين ألف كيلو متر مربع، وتتكون مواردها من الزراعة والرعي، وهي مشهورة بإنتاجها من القطن[230]. وكانت عاصمتها برني قازيرقامو، التي أسسها الماي علي ما بين 1465 و1497 إفرنجي، محاطة بسور مثل كانو، ويصفها أنانيا بأنها «**مدينة ضخمة تعج بكثير من الحركة**». فيها يقيم الملك أو الماي الذي تُبرز المراسم الاحتفالية التي يحاط بها حضوره قوته، «**كان يجب الجثو على الركبتين، وإلقاء الرمل على الرأس**»[231].

كان للملك جيش كبير من الفرسان، والمشاة، وأيضاً من المرتزقة:

«**كان أغلب جنود الحرس من الرماة الأجانب**»[232].

من المرجح أن تكوين سلاح البنداقة يرجع إلى عهد محمد (دوناما)، فمنذ تحالف هذا الأخير مع درغوت ذهب كثير من المغامرين الأتراك إلى بورنو بحثاً عن الثروة. وإلى جانب الأتراك نلاحظ، أيضاً، وجود مغاربة من الشمال الأفريقي كانوا في القصر يؤدون دور الكتبة والعلماء. وأكد أنانيا: «**كانت تدفع لهم أجور**

كبيرة لأنهم كانوا قليلين[233]». لم تكن موارد الملك قليلة، وتتكون من الأعشار على الحيوانات والمحاصيل، «وقنص العبيد»[234].

لم يكن قنص العبيد يتطلب الذهاب بعيداً لأن بورنو كانت محاطة من كل جانب بشعوب وثنية. ففي الغرب على بعد ستين كيلومتر تقريباً من العاصمة تبدأ منطقة البيد «Bede»، والنقزم، وفي الجنوب القاميرقو «Gamergu»، بينما كان السوتاتالا «Saw Tatala» يقطنون الشواطىء الجنوبية لبحيرة تشاد. ولا شك أن هذا هو السبب الذي أعطى ابن فورتي من أجله لبورنو صورة بلد إسلامي غارق في محيط من الشعوب الوثنية. وهناك ما هو أسوأ فعلى بعد خطوتين من العاصمة يقطن السوقافاتا «Saw Gafata». كان هؤلاء الكفار يسكنون نواحي كومادوجوقانا «Komadugu Gana» في الجنوب الغربي، وكانت مجموعة الكومادوجو يوبي «Komadugu Yobe» في الشمال الشرقي من قرية داجامبي حتى قرية ديفا أي على امتداد مائة وعشرين كيلو متر تقريباً. وكانوا يؤدون الضرائب لبورنو ولكن وجودهم في قلب دولة مسلمة كان مصدر قلق وإزعاج. كان هذا وضعاً غير مقبول ويجب وضع حد له، وفي أسرع الآجال.

كان من المدهش وجود هذه الأعداد الكبيرة من السكان الوثنيين المستقرين بالقرب من دولة إسلامية قوية. كان الاستقرار يعني سهولة النيل منهم، وبالرغم من ذلك استطاعوا البقاء، ومنعوا عنهم سلطة منظمة تنظيماً جيداً. كيف يمكن شرح هذه القدرة على المقاومة؟ يبدو أن وراء هذه القدرة سببين. الأول يتمثل في رسوخ

التقاليد الثقافية الأصلية، والثاني هو براعة المجموعات الوثنية في الاستفادة من المصادر الطبيعية. أنهم لا يواجهون هجمات الأعداء بالأسوار وإنما بنظم دفاع نباتية، ترتب فيها الأشجار، ونباتات أخرى بطريقة مضللة، وبحيث لا يمكن التقدم إلا بشكل متعرج[235]. كان الدخول على الأقدام إلى هذه الترتيبات يحتاج لكثير من الشجاعة لغير الأصدقاء، أما على ظهور الخيل فكان ذلك مستحيلاً. للتغلب على هذه الحواجز، التي تبدو للوهلة الأولى مسالمة وبسيطة، وهي في الحقيقة قتَّالة، كان هناك حل واحد: إزالة الأشجار والنباتات المتسلقة. كان هذا يتطلب الكثير من الجهد والوقت، كما أنه خطير جداً، فقد كان العمال المسلحون بالفؤوس، والسواطير معرضين لسهام المحاصرين.

يرجع الفضل في الكشف عن وجود هذه التقنية، واستعمالها إلى كريستيان سينوبو «Christian Seignobos»، وهو ضليع في قراءة آثار الماضي في الطبيعة. كانت تقنية بسيطة ولكنها فعالة بطريقة تنتزع الإعجاب. يبدو غريباً أننا احتجنا لكلمات كثيرة للتعبير عنها، بينما اكتفى ابن فورتي بكلمة واحدة: حصن، وجمعها حصون. وتبدو كلمة حصن اختياراً موفقاً: فالفعل «حصن» يعني بالعربية «عزز، قوى» سواء كان ذلك بالطبيعة النباتية أو بالبراعة. تبدو هذه الدفاعات في بعض الأحيان وسيلة مزارعين، وفي هذه الحالة كان يكتفى بشق طرق في الغابات الكثيفة. وهكذا سنرى أن السوتاتالا الذين طردهم إدريس بقوة السلاح من مواطن استقرارهم، وجدوا ملاجىء في مناطق بحيرة تشاد حيث وفرت لهم النباتات البحيرية

الكثيفة مخابىء جديدة. وقد أعطى ابن فورتي لهذه الملاجىء الطبيعية اسم «حصن» كذلك.

كان العداء مستحكماً بين بورنو وجيرانها المباشرين، ولم يكن مسموحاً للكفار بالبقاء إلا إذا قبلوا دفع الجزية، وتستغل أي ذريعة لجعلهم مادة للقنص وتغذية أسواق الرقيق. كانت هناك استثناءات، نجدها بعيداً جداً في الجنوب. فمملكة ماندرا بعاصمتها كوار ترتبط بعلاقات ودية مع بورنو، وكان هذا البلد الجبلي يتمتع بمصادر طبيعية وفيرة، وفيه توجد أحجار بركانية كانت مطلوبة للزينة، ولكن مصدر ثرائه الرئيسي كان الحديد[236] الذي يتم تجميعه من السيول التي تنزل من المرتفعات، ويتم اختزاله وإعداده في أفران عالية من الطين. كانت مملكة ماندار تفرض هيبتها بمنتجاتها وبمنعتها الطبيعية. لم تكن في حاجة لتحصينات نباتية، فالجبال توفر للسكان دفاعات منيعة وملجأ آمناً.

كان شعب المارجي، في شمال غرب مملكة الماندرا يعيش في وفاق مع بورنو مقابل بعض الأداءات، وكان من المألوف أن يشارك رئيس المارجي مع ملك بورنو في حملاته العسكرية مثل الأمراء المسلمين[237] تماماً.

ذكرنا سابقاً أن الحدود الشرقية لبورنو تتفق مع خط طول 14 درجة شرقاً. بعد هذا الحد ندخل إلى بلدان الكوتوكو أو الماكاري. كانت هاتان التسميتان مستعملتين من قبل البورنيين لشعوب مختلفة الأصول واللغات ولكنها تشترك في جوانب ثقافية معينة. وكانت أهم مدنهم: مافات على السربويل، وأفاد على

مجرى العبيد، وقولفي على نهر الشاري، وكوسري على ملتقى اللوقون والشاري، وأخيراً لوقون الواقعة على نهر اللوقون[238]. كما يضيف ابن فورتي مدينة سابالقوت وهي مدينة غامضة تعذر تحديد موقعها حتى الآن. هل كانت هذه المدن محاطة بأسوار، كما ستكون عليه في القرن التاسع عشر؟ أننا لا نعرف، وذلك باستثناء سابالقوت التي لم تكن مُسَّورة، فقد أكد ابن فورتي أن دفاعها كان «الحصن». ويبدو أن كوسري وسابالقوت كانت مدناً قوية لدرجة أن قواتها تستطيع مواجهة قوات إدريس في الأراضي المكشوفة.

أننا لا نعرف إلا القليل عن المستوى الثقافي والسياسي الذي بلغته إمارات الكوتوكو في منتصف القرن السادس عشر، ولكن معلوماتنا أوفر عن امكاكا بفضل ابن فورتي. فهذه المدينة كانت في شمال ماندارا في شرق أراضي الجامرجو، ولم تكن تابعة للكوتوكو، ولا لغيرهم من الشعوب. فقد كان سكانها من أصول مختلفة، ولكنهم يكونون مجموعة منظمة جداً ومترابطة. وكانت الحرف نشطة في المدينة وخاصة الحدادة التي كانت مفيدة للزراعة والحرب. كانت امكاكا محاطة بسور بداخله خندق يحيط بالمدينة. كان المهاجم الذي ينجح في اختراق السور عن طريق فتح ثغرات يجد نفسه أمام عقبة جديدة: «حصن» معد في داخل الأسوار[239]. إننا لا نعرف إلا مثالاً واحداً آخر لهذا التحصين الثنائي، وذلك في مدينة قاجمبانا في بلاد البيد، والتي كان الحصن فيها خارج الأسوار، وبداخله عدة تجهيزات ترابية مستعملة كملاجىء[240].

ترك لنا ابن فورتي، وأنانيا معلومات غزيرة حول مناطق السو، والكوتوكو، وليس الحال كذلك عندما نتوجه شرقاً ونعبر الشاري واللوقون. فبعد الوفرة يأتي الغموض، ولا يذكر المؤلفان كلاهما إلا اسمين: البقرمي، والباباليا. هل كانت الأولى مملكة مثل الماندارا؟ هذا محتمل، ولكن ماذا عن عاصمتها، وحدودها وهل كان الإسلام منتشراً فيها؟ لم تترك لنا أي إجابات عن هذه الأسئلة. حول النقطة الأخيرة جاءتنا شهادة تستحق الانتباه، حتى وإن جاءت متأخرة. ففي جو «Jos» بنيجيريا يوجد أحد مخطوطات ابن فورتي[241]، وهو غير معروف كثيراً، واكتشف وجوده جون لافرس «John Lavers». وقد كتب هذا المخطوط في عهد الماي أحمد بن علي أي بين 1792 إفرنجي وأكتوبر 1808 إفرنجي، ولا يتضمن إلا رواية حروب إدريس الأمة الثلاثة الأولى في الكانم. وقد أضاف ناسخ الكتاب إلى كتاب سلفه اللامع قائمة بأسماء الملوك الذين خلفوا إدريس الأمة في الفترة ما بين 1596، و1808 إفرنجي، كما تعرض لظروف موت هذا الملك. أضاف ناسخ المخطوط أن إدريس الأمة جرح أثناء حملته على البقرمي، ووصل إلى بحيرة ألو «Alaw» في جنوب برني قازيرقامو، وهناك توفي ودفن. وأورد المؤلف:

«كانت آخر حروب إدريس هي تلك التي قام بها ضد الوثنيين (الكردي) في بقرمي».

الاسم الثاني الذي ذكره كل من ابن فورتي وأنانيا هو باباليا، وهي مدينة عظيمة محاطة بسور من الآجر. وكان سكانها يتكلمون مثل البقرمي، لغة من مجموعة السارا.

في شمال البقرمي، كانت تعيش الكولا مختلطة بمجموعات عربية، ثم بلالة بحيرة الفتري[242]. وأخيراً في النهاية الشرقية للحوض التشادي نجد الزغاوة، والميمي، والمساليت والداجو. وكان كل هؤلاء خاضعين لملك اليوري. ولم يتبق اليوم من اليوري التي كانت عاصمة لدارفور[243] إلا أطلال.

بعد أن فرغنا من حصر الشعوب التي كانت موجودة في جنوب، وغرب، وشرق تشاد، بقي لنا أن نورد حصراً للسكان الذين كانوا في الشمال. كانت كانم مسكونة من الشرق إلى الغرب بالكانمبو وهم مستقرون، وبالتبو وهم رحل. وكانت السلطة في كانم للبلالة الذين أتوها منذ قرنين من بحيرة الفتري. تأتي بعد ذلك الكوار حيث كانت تعيش مجموعات من التبو، وأخيراً الطوارق الذين كانوا في السهول الممتدة جنوب الاير. وكان هؤلاء خطيرين جداً.

«كانوا يعيثون تخريباً في البلاد، وهم مجرمون غير قابلين للتقويم والإصلاح، ويتعرضون للمسلمين ليلاً ونهاراً دون انقطاع».

ولم يكونوا يعترفون إلا بسلطة واحدة، وهي سلطة رئيس منطقة الاير[244].

هذا باختصار شديد، عرض لسكان حوض بحيرة تشاد في حوالى منتصف القرن السادس عشر. ويشد انتباهنا حداثة الخريطة الاثنية، فالمجموعات الرئيسية اليوم كانت هناك في ذلك الوقت. بالرغم من ذلك كانت بعض المجموعات الاثنية غير موجودة، ففي الشرق لم تكن مملكة الواداي قد قامت بعد، كما أن العرب في

جنوب تشاد، في غرب الشاري واللوقون لم يذكروا. أما عن الفولبي، والفلاتة فيذكر ابن فورتي أنهم كانوا رحلا في المراعي الغربية لبورنو[245]، ولم يعبروا بعد حاجز الماندرا ليصلوا إلى سهول ديامري.

عند مقارنة الخريطة الاثنية الحالية، مع خريطة سنوات 1550 إفرنجي تظهر بعض الثغرات. نجد في خريطة القرن السادس عشر بعض الأسماء التي لم يعد لها الآن وجود، فقد اندثرت من جنوب تشاد مجموعتان: السوقاڤاتا، والسوتاتالا. كما لم يتبق شيء من مدينة أمكاكا التي كانت مزدهرة وقوية. واختفت تماماً الأسوار التي أقامتها كانو على حدودها الشرقية. وفي الشمال لم يعد للبلالة وجود في كانم.

ما الذي جرى؟ الأمر في غاية البساطة، ويعود إلى إدريس الامة. أورد ابن فورتي بالتفصيل كيف أن هذا الملك، وهو الأكثر مهابة من بين كل الملوك الذين عرفتهم بورنو، أسهم بشكل كبير في تغيير الخريطة البشرية للمنطقة. بدأ بمهاجمة السوقاڤاتا، فوجودهم داخل دولة مسلمة كان أمراً غير مقبول. إن قراءه يقظة للإمام أحمد تقنعنا بعدم وجود أي هدف آخر لهذا المشروع، والذي يجب وصفه بالإبادة.

تطلب القضاء على هذا الشعب ثلاث سنوات على الأقل، وثلاث وسائل مختلفة: قطع المحاصيل قبل الحصاد، وتحطيم الدفاعات النباتية، وأخيراً الهجوم. وأُبعد الناجون إلى موقعين متباعدين، ثم ندم إدريس على كرمه، خاشياً دون شك انتفاضة

أخيرة من هذه المجموعة المصممة على الحياة. وقتلهم وذلك باستثناء النساء والأطفال الذين وجهوا لأسواق الرقيق.

وعرف السوتاتا مصيراً لا يقل كثيراً في مأسويته عن مصير السوقاڤاتا، فلم تتم إبادتهم ولكن شتتوا. هرب بعض الناجين منهم إلى الجنوب ولجأ غالبية الناجين إلى ضفة بحيرة تشاد وكانت في طريقها للجفاف. ماذا حل بهم؟ لا أحد يعرف. لقد اختفى أسمهم باندماجهم في البودوما القاطنين جزر البحيرة، أو الكانوري.

باختفائهم، أصبح السو أسطورة. يقال عنهم أنهم عمالقة يأتون أعمالاً خارقة. كان الواحد منهم يرجع من الصيد حاملاً على كتفه فيلا دون عناء أو اهتمام. وقد ساهم علم الآثار الذي يعمل على أساس وثائق أكثر صحة، في تخليد ذكراهم. فقد أعطى كل من جريول «Griaule»، وج.ب لوبيف «J.P. Lebeuf» لهذه الثقافة الرائعة من الطين، والبرونز التي تميز منطقة الكوتوكو اسم «حضارة السو»، وهي تسمية عشوائية في الحقيقة. لا يجب أن تدهشنا رؤية السو الذين أخرجوا من التاريخ منذ أكثر من أربعة قرون، يعودون إليه اليوم بطريقة تشد الانتباه. لقد أصبحوا أسطورة ورمزاً: أنهم يدافعون الآن عن علم تشاد في ملاعب كرة القدم، ولهم في العاصمة شارع يحمل اسمهم، كما أن من الممتع الذهاب إلى «مشرب السو» عندما تكون الحرارة مرهقة لتناول كأس من الشراب.

تعرَّض سكان الأمكاكا لمصير أكثر غموضاً. فبعد أن نجح إدريس في اقتحام أسوارهم بفضل بَنْداقته المسلحين ببنادق

الإيسكوبيت، أمر عبيده بإعدام الناجين، ولم يتبق أي أثر من تلك المدينة الرائعة الشامخة، ولو لم يتناول الإمام أحمد احتضارها، لما عرفنا أنها وجدت أبداً.

كان القاميرجو، في غرب أمكاكا، وهم كذلك ضحايا إدريس، فقد تم الاستيلاء على مدينتهم باهوا «Bahwa» مباغتة أثناء الليل، وذبح سكانها. ولكن القاميرجو كانوا كثيري العدد ومحاربين، ومن ثم استطاعوا تجاوز هذه التقلبات.

كان الأتاتالا سكان أمكاكا، والقاميرجو متهمين بالسطو، ونشر القلاقل والجريمة، ومن ثم اعتبروا أعداء وخضعوا لإجراءات قاسية. وقد عومل السكان الوثنيون في الغرب «النقيزم» بشفقة ورحمة، فقد كانوا تحت سلطة بورنو منذ زمن طويل، واستطاعوا أثناء حكم الماي عبد اللّه سلف إدريس، الذي اشتهر بالضعف، أن يقطعوا كل روابط الولاء لبورنو. لم يكتفوا باهمال دفع الجزية، ولكنهم مارسوا أعمال السلب والنهب للمسافرين مما اضطر القوافل المتجهة إلى كانو لتجنب المرور بمناطقهم سالكة طريقاً أطول نحو الشمال. وقد استطاع إدريس إخضاعهم من جديد بالإقناع مرة، وباستعراض القوة مرة أخرى. وهنا، كما في غيرها من الحالات، كانت العمليات تنتهي بأعداد كبيرة من العبيد.

بعد النقيزم يوجد إقليم كانو، وقد هاجم إدريس الأعمال الدفاعية التي أقامها على حدوده جاره المقلق، ولم يجد صعوبة في الاستيلاء عليها وإزالة الأسوار، ولكن الاستيلاء على قلعة كانو كان صعباً لدرجة أن إدريس لم يفكر فيه حتى مجرد التفكير.

بسط إدريس سيادة بورنو من ناحية الغرب ونشر فيها الأمن، ولكنه لم يتوقف، فقد كان طامحاً لتوسيع سلطته حتى نهر الشاري. فجأة تحالف أمير المافاتا مع إدريس ضد التاتالا ومن ثم لم يعد إدريس في حاجة للجوء إلى الحرب من أجل إخضاع الكوتوكو ومد حدود مملكته حتى نهر الشاري. أما عن مدينتي كوسري وسابلقوتو فقد خضعت له بعد مقاومة بسيطة. فقد خرج أميركوسري على رأس قواته ولكنه أسر حياً، وعندما رأى السكان القوات البورنية في حالة استعداد للمعركة ولوا هاربين. «**فقتلت أعداد منهم، بينما أخذت النساء والأطفال أسرى، وفي هذا اليوم حقق المسلمون نصراً كبيراً، وحصلوا على غنائم وفيرة**».

هكذا، أصبح إدريس سيد المنطقة الممتدة من حدود كانو حتى نهر الشاري[246].

عندما فرغ إدريس من تكوين بورنو العظيمة، وأعطى لها الحدود التي ستكون من الآن فصاعداً حدودها، كان عليه أن يواجه مهمة أخرى، وهي حماية السكان المستقرين الذين كانوا عرضة لهجمات البدو في الشمال. كان احتواء هجمات المجموعات التي تسكن الفيافي، وإقامة سور غير قابل للعبور بينهم وبين سكان السفانا المزارعين الرعاة من الاهتمامات الدائمة للممالك السودانية. كانت هذه أجل خدمة ـ ولعلها الوحيدة ـ التي أدتها تلك الممالك للسكان المستقرين. لم يتأخر إدريس عن أداء هذا الواجب. كانت السهول الممتدة في شمال بورنو بين كومادوجو يوبي، والاير معرضة دون حماية لغزوات طوارق البراميرقو. على أثر العديد من الحملات من بينها ثلاثة بقيادة إدريس شخصياً:

«قبل الرعاة البربر الخضوع للسلطان، وتخلوا عن رئيس الاير»[247].

هذه، باختصار، نتيجة العمليات العسكرية التي قام بها إدريس خلال الاثنتي عشرة سنة الأولى من حكمه. إن القارىء المهتم بمعرفة أكثر يمكنه الرجوع إلى القسم الأول من مؤلف الإمام أحمد، والذي أصبح متاحاً منذ أن نشر له ديرك لانق «Dierk Lange» طبعة مُقومة ومتميزة بدقتها.

بقي أن نستعرض رواية حملات إدريس في كانم ما بين سنتي 1574، و1578 إفرنجي، وكانت حملات صعبة ومكلفة، ويبدو عائدها غير متناسب مع ثمنها، إذ أن نتيجتها تعديل بسيط في الحدود لمسافة أربعين كيلو متر تقريباً في شمال تشاد. ولقد تناولتُ وقائعها في كتابي «صفحات من تاريخ كانم» سنة 1980 إفرنجي، ولا أرى من المفيد العودة إلى هذه الوقائع، إلا من أجل تصحيح خطأ، يتعلق بنهاية الحملة الثانية في حروب كانم. فقد قلت في كتابي المذكور أن إدريس قطع مباشرة المسافة الفاصلة بين العاصمة جيمي ومدينة قمبارو. لكن هذه الرحلة لمسافة خمسين كيلو متراً بالسلاح والأمتعة لم تحدث أبداً، فقد أخطأ ناسخ المخطوط وهو من «مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية» فكتب قمبارو بدل أن يكتب قمارا، وهي المؤكدة وفقا لمخطوطة الجمعية الأسيوية، ونسخة جوس «Jos». وتقع بوتوكورما على مسافة تتطلب نصف يوم من المشي السريع من ماو كما سبق قوله بمناسبة الحملة الأولى. كان من الضروري تصحيح الخريطة التي أوردتها في الصفحة (185) من كتابي المشار إليه.

أما عن موقع العاصمة جيمي فيجب القول بأنني لم أحدده إلا بعد أن رسمت على الخريطة مسار كل حملة. فإذا أعتبرنا أن المسافة التي تفصل

- واكامى من كوال 120كم.
- توسو من كوال 104كم.
- تين من بيلانقا 72كم.

يتضح لنا مدى التعسف، وقبول تحويل موقع جيمي كثيراً يعني جعل هذا المسار أو ذاك مستحيلاً في تلك الأزمنة. وإذا عرفنا، كذلك، أن أي مدينة تتطلب تغذيةً سهلةً بمياه كافية، فإننا يجب أن نحدد موقع جيمي على ضفاف منخفض سي إيزيري أو منخفض بولونكي. في أيامنا هذه، كل قرى المنطقة، وهي قليلة، تقع على المرتفعات الفاصلة بين التلال الرملية.

إن الاحتمال ضعيف في أن تكون البقايا الأركولوجية التي وصفها أ. د. هـ بيفار «A.D.H Bivar» سنة 1962، والواقعة على بعد ميلين تقريباً من أقرب نقطة مياه، هي بقايا عاصمة كانم القديمة. أو لا تتفق أكثر مع مكان قبر الملوك، حيث ذهب إدريس للزيارة في 27 / 12/ 1574 إفرنجي؟ لقد اعترف لي بيفار أن الوقت الذي أتيح له كان قصيراً جداً أثناء بحثه، لم يتمكن معه من تحديد دقيق لموقع البقايا التي رآها. في كل الأحوال، من المؤكد أن الموقع الذي استكشفه ليس الموقع الذي قمت بزيارته بعد أربعة عشر سنة.

حَسمت اتفاقية السلام الموقعة بين بورنو وكانم في ليلة 2/ 3

يناير سنة 1578 إفرنجي مسألة الحدود في شمال تشاد كما سبق ورأينا. لم تحصل بورنو فقط على ثلاث قرى كانت تطالب بها منذ مائة سنة، ولكنها حصلت كذلك على شريط بعرض 20 كيلومتر تقريباً شرق الخط 14 درجة شرقاً. كما تضمنت الاتفاقيات بنداً آخر، حصلت بموجبه بورنو على مدينة باباليا في جنوب بحيرة تشاد. يُجهل كثيراً أن إقليم كانم كان يمتد على الضفة الجنوبية للبحيرة الواقعة شرق الشاري حتى خط العرض الذي يمر تقريباً بمدينة كوتوكو. وكانت مدينة باباليا الواقعة جنوب هذا الخط تابعة للبقرمي كما توضحه الخريطة التي أعدها دنهام «Denham سنة 1826 إفرنجي. وقد قام البلالة بضمها بالتجاوز في استعمال القوة. عندما أصر إدريس على إعادتها لم يقم، هنا أيضاً، إلا بتعديل في الحدود ولصالحه. لقد تملك إدريس باباليا بطريقة سلمية، ولهذا السبب، دون شك، لم يقم بتخريب سورها، ولكنه منع على سكانها، منذ ذلك الحين، حرق الآجر. وقد وصلنا هذا التوضيح عن طريق الرواية الشفهية للماسينيا، نقله عنهم منذ حوالي خمسة عشر سنة كريستيان سينيوبو[248] «Christian Seignobos». إن هذه الشهادة الغريبة توضح قدرة رواة الأحداث على عبور الزمن على مدى أربعة قرون، ويمكننا أن نرى في هذا مؤشراً على أن ماسينيا وجدت كعاصمة للبقيرمي منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر.

خرجت كانم، من الحروب التي تمت فيها على مدى ثلاث سنوات، مُخَربة. فبالإضافة إلى دمار الحرب كان الجفاف، فقد كانت نهاية القرن السادس عشر فترة قحط وجدب. ويحتمل أنه

لهذين السببين مجتمعين هجر البلالة بلاد كانم، كما أورد جان مالي «Jean Maley». متى حدثت هذه الهجرة الجماعية والتي تبعها تعيين خليفة أي ممثل لبورنو في ماو؟ يحدد جون لافرس «John Lavers» إنها حدثت قبل سنة 1642 إفرنجي، وهو ما يبدو محتملاً بالرغم من عدم وجود وثيقة تقدم الدليل حتى اليوم.

إن كثرة الأعمال الحربية التي قام بها إدريس خلال أربعة عشر سنة أمر محير، وتشتد الحيرة والدهشة، عندما نعلم أنه في الوقت الذي كان يحارب في كانم، كان يقوم بمفاوضات صعبة مع الباب العالي. فمنذ التحالف بين الماي محمد ودرغوت سنة 1555 إفرنجي بقيت العلاقات بين طرابلس وبورنو ودية ومفيدة، ثم ساء الوضع فجأة، وذلك في نفس الوقت الذي شن فيه إدريس هجومه الأول على كانم أي سنة 1574 إفرنجي.

لماذا هذا الذي لا شيء كان يوحي به؟ للإجابة على هذا السؤال يجب الرجوع إلى الخلف قليلاً، إلى سنة 1570 إفرنجي.

في هذه السنة ـ 1570 إفرنجي ـ حقق الأتراك انتصارين كبيرين في البحر المتوسط. فقد انتزعوا قبرص من البندقيين. والأهم هو استيلاؤهم على تونس، وكان صاحب هذا الإنجاز هو حاكم الجزائر علوج علي[249]. ولكن الإسبان هبوا، وبعد سنة من ليبانت «Lepante» ـ أي سنة 1572 إفرنجي ـ واستولوا على المدينة من جديد، ونصبوا فيها محمد بن حسن ملكا وسيكون هو آخر ملوك الحفصيين. كان احتلالاً عابراً، فالانتصار البحري في ليبانت لم يقض على القدرة البحرية العثمانية كما يُعتقد في أحيان كثيرة. وبدل

أن يستغل دون خوان «don Juan» نجاحه، ترك للقبطان باشا الوقت الكافي لإعادة بناء أسطوله. وفي سنة 1573 إفرنجي كان القبطان باشا مستعداً للإبحار. هل كان يفكر في طرد الإسبان من تونس؟ على كل، لم تأت المبادرة منه وإنما من حاكم القيروان حيدر باشا. فعندما رأى هذا الأخير لاجئي تونس يملأون الريف ويعانون الجوع والعطش وجه نداء إلى والي طرابلس، مصطفى، ثاني خلفاء درغوت. توجه الاثنان بقواتهما إلى تونس وحاصراها من الإمام. كان أمد الحصار قد طال، عندما ظهر فجأة أسطول في عرض البحر. هل هم الإسبان؟ كلا أنها سفن عثمانية يقودها الوزير سنان باشا. لم يكن هناك مجال للشك في نتيجة المعركة، وتم اقتحام المدينة وتركت للنهب. حدث هذا بتاريخ 23 سبتمبر سنة 1573 إفرنجي وهكذا استمرت تونس محمية إسبانية ثماني وثلاثين سنة.

وضع سنان باشا حداً للأسرة الحفصية، وكون سلطة جديدة تتفق مع وضع ولاية عثمانية، وذلك بتشكيل قوةً من أربعة آلاف رجل موزعةٌ على كتائب كل واحدة من مائة رجل، ويقود كل كتيبة «داي». وعلى رأس السلطةٌ وضع «الباي» في شخص رمضان بن حسن. وبعدها ذهب إلى القسطنطينية.

رجع مصطفى من جانبه إلى طرابلس، وتوفي في أول السنة اللاحقة سنة 1574 إفرنجي بعد أن منحه الباب العالي درجة «باي البايات». وكان خليفة مصطفى، محمد المسمى التركي، ولم يكن يحمل لقب[250] باي وهذا يعني أنه منتخب من الديوان المحلي، ولم يثبت من السلطان. وقد شهدت طرابلس فترة قلاقل، كان

الجنود غير المنظمين فيها هم صناع القانون، ويختارون رئيسهم بأنفسهم، وفق نموذج لم يستقر إلا بداية من السنوات 1606 إفرنجي. ومن المحتمل أن تتابع بسرعة عدد من الرؤساء وفق المزاج غير المستقر للقوات، حيث كانت تقدم أسماء من المجموعات المختلفة. من جانبه ترك محمد التركي ذكرى طاغية قاس، وفاسد فرض نفسه بالعنف.

على أية حال، حدثت واقعة في سنة 1574 إفرنجي أثارت قلقاً بالغاً عند إدريس الأمة وهي احتلال الأتراك[251] لفزان. من هو صاحب المبادرة؟ هل هو باي البايات في تونس، أو رئيس الديوان في طرابلس؟ قد لا يكون أياً منهما. إذا أخذنا بالرواية التي أوردها كل من ابن غلبون في كتابه «التذكار»، ومصطفى خوجه في كتابه «تاريخ فزان» فإن زوجة المنتصر ملك فزان هي التي دعت الأتراك. لقد أخذ الاثنان من نفس المصدر[252]. أنها قصة غريبة تستحق أن تروى. ها هي:

«كان للمنتصر بن محمد الفاسي رئيس ولاية فزان زوجتان، إحداهما ابنة عمه واسمها خود وهي ابنة شاروما بن محمد الفاسي، وكانت تسكن سبها مع بناتها. وكانت الأخرى تقيم في قلعة مرزق، ولها أبناء كثيرون. كان المنتصر يقضي وقته بين زوجتيه. في أحد الأيام غادر المنتصر سبها إلى زوجته في مرزق، فشعرت ابنة عمه بغيرة شديدة كما هو معتاد عند النساء تجاه أزواجهن. كتبت خود إلى يحيى باشا رئيس الديوان في طرابلس ليأتي إليها. نوقش الأمر في المجلس، ورأى أعضاؤه إرسال قوة مسلحة إلى فزان. بعدها

بثلاثة أيام زحفت حملة على فزان. هذا ما جرى في طرابلس. وماذا كان من أمر المنتصر رئيس فزان؟ بعد قضاء بعض الأيام قرب زوجته في مرزق، أراد الذهاب إلى زوجته ابنة عمه خود بنت شاروما، ولكن هذه أقفلت باب القلعة في وجهه، واستطاعت كسب الناس إلى جانبها، ودارت بين الاثنين معركة استمرت ثلاثة أيام، مات على أثرها المنتصر من الحزن. انطفأت غيرة خود بعد موت زوجها وطالبت بولاية فزان لنفسها، وندمت على طلبها إلى يحيى أن يأتي لنجدتها من طرابلس، واستعدت لملاقاة قوات طرابلس. عندما وصلت الحملة من طرابلس، طلبت إلى خود أن تسلم البلد، وفاء بما سبق وأن كتبته، ولكنها رفضت التسليم وأغلقت أبواب القلعة ظناً منها أن القلعة يمكن أن تقاوم. ولكن خاب أملها، فقد اقتحمت القلعة وتم الاستيلاء عليها، وقبض عليها وأحرقت بعد تعذيبها.

توجهت الحملة، بعد ذلك، إلى مرزق حيث يوجد الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي. عندما علم الناصر باحتلال الحملة لسبها جمع ممتلكاته وهرب مصحوباً بإخوته، والشخصيات البارزة في مملكته إلى مدينة كاتسينا في السودان حيث أقام. وعين الأتراك المدعو مامي التركي قائداً لفزان وتركوا له حامية. ثم رجعت الحملة إلى طرابلس»[253].

كُتبت هذه الدراما ببراعة. ففي بعض السطور يعرض الراوي عناصر المؤامرة، ليصل بسرعة إلى النهاية المأساوية من خلال شخصيات معقدة، وتغيرات مواقفها. يجب الاعتراف بأن القصة

وضعت ببراعة لدرجة يصعب معها تصديقها. بالرغم من ذلك نسلم بتعيين حاكم لفزان اسمه الحقيقي محمود وليس مامي، وقد أُعترف به من قبل الباب العالي بمنحه درجة باي، ووضع تحت السلطة المباشرة لباي بايات تونس.

أضر احتلال الأتراك لفزان بالعلاقات شمال جنوب ضرراً جسيماً. فقد كانت قوات الاحتلال تسيء معاملة أصحاب القوافل، ومن المحتمل أنها كانت تسلبهم، كما تم الاستيلاء على قلعة تابعة لبورنو واقعة غالباً في جنوب فزان. كان هذا وضعاً لا يمكن قبوله والاستمرار به، لأنه يحمل مخاطر دفع التجار إلى التوقف ومن ثم تخريب بورنو. لجأ إدريس إلى سلطان القسطنطينية الذي كان مراد الثالث في ذلك الوقت، وبعث إليه بوفد برئاسة المدعو يوسف الحاج.

مسعى بارع، فمراد لا يمكن إلا أن يشعر بالرضا عن نفسه لاستلام تحيات ملك بعيد ومشهور جداً. ولكن هل رد مراد بطريقة مناسبة على طلبات إدريس؟ كان السفير يوسف مكلفاً بتقديم ثلاث مطالب: ترجيع القلعة، وحماية المسافرين، والتزويد بأسلحة نارية، ولم يستجب مراد إلا للطلب الثاني وهو ما لا يكلفه شيئاً.

سلم مراد للسفير رسالة موجهة لسيده. كانت عباراتها مراوغة إلا حول نقطة واحدة وهي أن لا مجال لإعادة القلعة التي تم الاستيلاء عليها إلى بورنو. كيف ستكون قوة الباب العالي إذا ما تنازل عن ما يملك؟.

عندما انتهى يوسف من مهمته، بدأ رحلة العودة، وقد جهز له

مراد بنفسه الرحلة. وليجنب السفير أي مضايقات، وجهه على سفينة إلى تونس حيث باي البايات موطف منضبط. سلم مراد للضابط الذي كلف بمرافقة السفير «أمر مهمة» مؤرخاً في 23/6/1577 إفرنجي. إن هذه الوثيقة المكتوبة باللغة التركية تمثل أهمية أكبر من الرسالة الموجهة إلى إدريس، ففيها يوضح مراد نواياه الحقيقية والإجراءات العملية التي تضمن التطور والنجاح لهذه النوايا. كانت عبارات الوثيقة واضحة ومختصرة كما في التقاليد العسكرية الصارمة، وتتضمن إبلاغ باي بايات تونس بأمرين:

1 ـ إرسال السفير وحاشيته إلى بلدهم، وضمان أمنهم، وأن «**لا أحد يجب أن يقلقهم أو يؤذيهم**».

2 ـ الحرص على أن يكون لباي فزان وغيره من الأمراء على الحدود، أحسن العلاقات مع ملك بورنو ورعاياه. ويجب الحرص، على تجنيب السفير وحاشيته أي إزعاج أو مضايقة من قبل الجنود أثناء عبوره إلى بلده. ومع ذلك، فإن مراد حرص على أن يحاط علماً بمدى تنفيذ أوامره بأن أعطى للسفير الإذن «**بالتعبير عن الشكوى، أو عن الشكر**»[254].

أطيعت أوامر مراد، ووصل السفير إلى بورنو دون صعوبة مصحوباً بمبعوث السلطان العثماني. يوم 14/1/1578 إفرنجي، وصل السفير إلى قمبارو بالقرب من العاصمة، وعندما رأى الملك إدريس تقدم نحوه، وكان الملك ـ وبتوافق غريب ـ راجعاً على رأس جيوشه من رحلته الأخيرة إلى كانم. لقد وصف الإمام أحمد الأفراح التي صاحبت هذا اللقاء[255]، ولكنه لم يحدثنا عن رد فعل

الملك عندما قرأ رسالة مراد. نستطيع المراهنة على وجوده صعوبة في إخفاء خيبة أمله عن حاشيته: لن ترد القلعة، وأكثر من ذلك لا أسلحة نارية. على الأقل سيضمن أصحاب القوافل عدم إزعاجهم سواء في فزان أو تونس، أما عن طرابلس فيجب انتظار ظروف أحسن.

استمرت حالة الفوضى في طرابلس حوالي ست سنوات، وفي حوالي سنة 1579 إفرنجي تم تعيين جعفر باشا باي بايات. وعلى الفور أرسل له إدريس وفداً «**من أجل تجديد التحالف بين الدولتين، وضمان استمرار التجارة**».

وكرد على رسالة إدريس قام جعفر «**بإرسال أحد ضباطه كسفير ومعه هدية من الخيول الجميلة وأسلحة نارية**»[256]، وهكذا عادت العلاقات بين الدولتين إلى مجراها الطبيعي. في نفس الوقت حدث عصيان في فزان وقُتل محمود وجنود الحامية، وتمت دعوة الناصر وريث العرش من كاتسينا. حدث هذا وفقاً لمصطفى خوجة سنة 1582 إفرنجي. وهكذا استعادت فزان أسرتها المالكة، واستقلالها، ولكن بشرط دفع أتاوة سنوية[257] لباشا طرابلس.

كان من المتوقع أن تؤدي هذه الأسباب لرضاء إدريس، ولكنه لم يكن راضياً بسبب عدم حصوله على أسلحة نارية. أصبح هذا هاجسه الدائم. لم يكن هناك من أمل في الأتراك، ولكن بقي المغرب الذي كان تحت حكم المنصور. يجب التذكير بأن هذه المملكة لم تكن خاضعة للامبراطورية العثمانية ولن تكون أبداً جزءاً منها. كان الملك في المغرب من الأسرة السعدية، وكان يطالب

بلقب الخليفة. بعث إليه إدريس بوفد يقوده، هذه المرة أيضاً، الحاج يوسف.

جاء مسعى إدريس في الوقت المناسب بالنسبة للمنصور، فقد كان يفكر في احتلال السنغاي وعاصمتها جاو، وحصوله على ولاء بورنو يعطيه ميزة وأي ميزة في مشروعه، فجاو تسقط بسهولة إذا ما أخذت بكماشة بين المغاربة والبورنيين، وستتوسع المغرب حتى تشاد في نفس الوقت. وسيمثل هذا إزعاجاً، وأي إزعاج للأتراك!

بمجرد وصول الوفد إلى فاس، بدأت محادثات طويلة، ودقيقة. لقد كتب الفشتالي، سكرتير المنصور عن المفاوضات، وكان طرفاً فيها، تقريراً مفصلاً. لنترك له الكلمة:

«في آخر سنة 990 يناير 1583 إفرنجي وصل لدى أمير المؤمنين مبعوث من عاهل بورنو، أحد ملوك السودان. لقد أحضر معه الهدايا المألوف تبادلها: عبيد من الصبيان، وخدم من كل الأعمار. يصل العدد إلى حوالي مائتين. وذهب إلى السطان أمير المؤمنين بمعسكره في رأس الماء، في سهل فاس.

كان أحد الأهداف التي حددها ملك بورنو لسفيره أن يطلب إلى أمير المؤمنين مساعدة بالقوات والجنود وكذلك أسلحة نارية ومدافع من أجل الحرب (الجهاد) ضد الكفار الذين يوجدون في الجوار في إقليم السود. كما طلب المبعوث إلى السلطان تزويدهم بقوات الخلافة من المغرب.

عندما قدم السفير رسالته إلى أمير المؤمنين اتضح وجود خلاف بين الرسالة، وما قاله السفير شفاهة. فما جاء مكتوباً في الرسالة لا

يتفق مع ما قاله السفير. وهذا ناتج من أن هؤلاء الناس كانوا غرقى في الجهل والغباء، فليس من بينهم كاتب قادر على التعبير عن نواياهم، وعرض أغراضهم. باختصار لا وجود في بلدهم لأي مؤسسة لدراسة العلوم.

هذا يتفق مع ما قرره أمير المؤمنين، حتى قبل وصول السفير، من إعداد قوات لإخضاع بلدان التوات، والتغرارين ليتخذها منطلقاً لاحتلال مناطق السود، وإخضاع ممالكهم... استغل الاختلاف الذي ظهر بين ما قاله السفير، والرسالة وأسس عليه لاهتمام سيد بورنو.

رجع المبعوث، إلى سيده محملاً بالهدايا من الخيول الثمينة، والملابس التقليدية».

كان فرض مدة انتظار، يهدف إلى إثارة ولع إدريس، فجعل المطلوب ـ مؤقتاً ـ غير متاح يقوي الرغبة في الحصول عليه، خاصة وبمرارة الفشل اختلط الشعور بأنه هو السبب وراء الفشل. كان يجب ـ وبأسرع ما يمكن ـ تصحيح الخطأ. كان التكتيك محكماً: وسيأتي ملك بورنو حيث أريد له أن يأتي. كم هو ماهر في علم النفس هذا المنصور؟.

رجع الحاج يوسف إلى المغرب، حاملاً هدايا جديدة، ومعه رسالة محررة وفق الأصول هذه المرة. كان السلطان في انتظاره في مراكش، وليس في فاس. ورأى أن الوقت قد حان ليملي شروطه:

«كشف لهم الحقيقة، وطلب إليهم الاعتراف به ملكاً شرعياً، والدخول في طاعته، وإن يكونوا مطيعين لتعليماته الروحية.

وعرفهم بلغة السنة التي تنبع من الكتاب المنزل أن الجهاد الذي ينوون القيام به، والذي يظهرون له إخلاصاً، واستعجالاً لا يستطيعون تأدية فرضه، ولا إعطاء الأمر به، إلا استناداً إلى موافقة إمام الأمة. . . وأن المساعدة العسكرية مربوطة بقبول هذه الشروط.

تعهد السفير بمراعاة هذه الشروط، وضمان قبول السلطان لها ورده بما يفيد القبول. عند هذا استأذن وابتعد».

أخذ السفير معه نسخة من وثيقة الولاء المطلوبة من سيده، وكان قد طلب إعدادها قبل سفره حتى يتم تجنب:

«أي غموض قد يدخله الجهل والبلادة في الشروط كما حدث من قبل».

بالرغم من أن السفير ليس ضليعاً في الآداب، فإن الظرف لا ينقصه.

إن الفشتالي يعرف جيداً محتوى الوثيقة لأنه هو الذي كتبها، وبموجبها يقبل إدريس الولاء لأمير المؤمنين، ويقبل تعليماته، وينضم إلى الأمة . يؤكد المؤلف أن البورنيين «قرأوا الرسالة، وفهموا محتواها، ووافقوا على الشروط».

أخذ الحاج يوسف طريقه إلى المغرب للمرة الثالثة، وعند وصوله إلى تيقرانين وقع صريع المرض ومات. واصل رفاقه طريقهم، ووصلوا إلى مراكش في الأيام الأخيرة من سنة 991 يناير 1584 إفرنجي. . . وسلموا الهدايا المكلفين بها. وأما عن وثيقة الولاء فلم يرد بخصوصها شيء. وانتهت رواية الفشتالي هنا[258].

لنحيي تفاني يوسف، هذا السفير المخلص، والذي لم ينل من صميمه أي صد، وكان دائماً في الطريق، وتوفي أثناء تأدية مهمته ي بلاد غريبة. على كل حال، كانت هذه مهنته. تستحق شخصية خرى الاهتمام، وهي الإمام ابن فورتي. هذا الذي عرض بمهارة تفوق سيرة خليفة بورنو، والذي عرف في شخص إدريس النموذج لمثالي للإمام الأعلى، رأى مَثَله يخضع لوثيقة ولاء مذلة لعاهل جنبي. يا لها من خيبة أمل، ويا له من امتهان! للحقيقة لم تكن لبعثة الغربية أي نتائج. وفي سنة 1588 إفرنجي بدأ المنصور ستعداداته لغزو سنغاي.

ومن الآن فصاعداً سيكون مشغولاً لدرجة تمنعه من التفكير في ورنو. وهذا لا يمنع أن إدريس فقد الاعتبار أمام ذويه.

أما عن الأتراك فيبدو أنهم لم يأخذوا عليه علاقاته مع لمغرب، ففي سنة 1589 إفرنجي استقبل حسين باشا في طرابلس فداً من بورنو مكلفاً **«بتجديد التحالف»**[259].

هل نجح إدريس في الحصول على الأسلحة التي بحث عنها بكل مثابرة. لا نعرف. لقد مات سنة 1596 إفرنجي دون أن يوسع أكثر من فتوحاته حسبما نعرف. له أمجاد وأعمال عظيمة، كما أن يه مواطن ضعف. توفرت له كل المزايا التي تصنع قادة الرجال، ومن الممكن أن الحظ خدمه بأكثر مما يستحق.

الفصل السابع

طرابلس في زمن الأتراك

فرح البورنيون عند سماعهم نبأ استيلاء الأتراك على طرابلس: لقد حل المسلمون، أخيراً، محل المسيحيين. كانت البداية مشجعة، فتحت حكم درغوت (1555 ـ 1565) إفرنجي ازدهرت التجارة، وكانت بورنو ترسل كل سنة إلى طرابلس «**عدداً كبيراً من العبيد من الجنسين، يُذهب بهم للبيع في تركيا**»، وكانت تستقبل في المقابل سلعاً أوروبية، من البندقية خاصة. أعطى القرصان، الذي أصبح والي ولاية، كل التسهيلات للتجار المسيحيين لمزاولة نشاطهم[260]، وهكذا نشطت لحد الأبهار هذه التجارة في شكل حرف y كما عبر عنها ليون الأفريقي سنة 1518 إفرنجي. لم تدم هذه الظروف السعيدة طويلاً لسوء الحظ. رأينا أن العلاقات بين بورنو والأتراك قد تدهورت في السنوات 1574 إفرنجي ـ 1581 إفرنجي. بعدها ازداد الوضع سوءاً ليس بسبب مرور العلاقات الدبلوماسية والتجارية بمصاعب، ولكن السبب كان فيما شهدته المبادلات بين الدول الأوروبية وطرابلس. كانت القرصنة، المورد الأساسي لطرابلس، متنافرة بطبيعتها مع التجارة.

من كان الشركاء الغربيون لطرابلس في نهاية القرن السادس عشر؟ منذ استيلاء الأتراك على تونس سنة 1574 إفرنجي، اختفى الامبراطوريون والإسبان من البحر المتوسط، على الأقل من المياه الشمال أفريقية والشامية، وحلت محلهم فرنسا، وإنجلترا، وهولندا. كانت فرنسا حليفاً للباب العالي منذ أن وقع فرنسوا الأول اتفاقيات سنة 1535 إفرنجي، ولكن لم يوجد سفير لإنجلترا في القسطنطينية إلا سنة 1582 إفرنجي، وستأتي اتفاقيات هولندا متأخرة أكثر، وبالتحديد سنة 1612 إفرنجي. إلى هؤلاء الثلاثة الجدد يجب إضافة البندقية التي استمرت في احتلال موقعها التقليدي في التجارة المتوسطية.

•

في حين كانت الأسباب التي قادت فرنسا لتبرم مع السلطان سليمان هذا «**الحلف الكريه ــ حسب تعبير جوريان دي لاقرافيير**» «Jurien de la Graviere» ــ سياسية في الأساس، فإن أسباباً اقتصادية محضة هي التي قادت إنجلترا للتعامل مع الباب العالي. وترجع المبادرة في ذلك إلى تجار. كان الظرف مواتياً، فقد كانت الملكة إليزابيت مهتمة بتشجيع الآداب والفنون وكذلك التجارة. في سنة 1575 إفرنجي، رغب اثنان من تجار لندن هما سير إدوارد أسبورن «Edward Osborne»، وريتشارد ستابر «Richard Staper» في إقامة وكالة تجارية في القسطنطينية، وارسلا إلى هناك وكلاء لهما. حصل أحد الوكلاء وهو وليام هيربون «William Hareborne» على أذن من مراد الثالث يسمح له بالدخول إلى الأراضي العثمانية، ووقع في سنة 1580 إفرنجي اثنين وعشرين اتفاقاً تعطي للرعايا

الإنجليز حرية التجارة في الأراضي العثمانية. في 11 سبتمبر سنة 1581 إفرنجي، أعطت الملكة إليزابيت بموجب شهادة براءة لأسبورن، وستابر، وشركائهما امتياز التجارة مع تركيا لمدة سبع سنوات. وأخيراً في يوم 20/ 11/ 1582 إفرنجي استلم هيربون تكليفاً ملكياً يعينه ممثلاً للملكة في القسطنطينية[261].

اعتقد السفير الجديد وشركاؤه أن كل الأراضي العثمانية، بما فيها بلدان الشمال الأفريقي، مفتوحة أمام مشاريعهم منذ ذلك الحين. لم يكونوا يعرفون أن سلطة السلطان محدودة، وأن ولاة (باشاوات) الجزائر، وتونس، وطرابلس كانوا في الواقع حكاماً مستقلين، ولا يتبعون الباب العالي إلا إسمياً. كما كان السفير وشركاؤه يجهلون أن حكام الولايات البعيدة واقعون تحت رحمة الجنود. فقد أدت سياسة فتوحات الامبراطورية العثمانية إلى بروز طبقة عسكرية كانت هي مصدر قوتها، وضعفها في نفس الوقت. ففيالق النخبة الانكشارية التي كانت تخضع لنظام صارم في عهد سليمان بدأت بعده في فرض سيطرتها، وقد بدأت أعراض التفكك الداخلي في الولايات الحدودية. وكان التجار الإنجليز أول من مر بهذه التجربة المريرة.

في سنة 1583 إفرنجي، بعث أوسبورن وستابر بسفينة إلى طرابلس مطمئنين إلى الاتفاقيات التي وقعها وكيلهما هيربون الذي أصبح سفيراً لدى الباب التعالي. كانت السفينة تحمل اسم «Jesus»، وطاقمها مكون من ستة وعشرين رجلاً. كان أحدهم توماس ساندر «Thomas Sander» مترجماً يتكلم الإسبانية والإيطالية

بطلاقة، وقد روى المغامرة التي اشترك فيها. إن روايته حية ومفصلة، يشد الترقب القارىء في كل صفحة من صفحاتها، وهي مليئة بالدروس، وتسمح لنا بالتعرف على البحارة، ومخاطر الإبحار الشراعي في ذلك العصر، كما أنها تدخلنا إلى الحياة اليومية في طرابلس في عهد الأتراك.

صنعت السفينة جوسيس، وسلحت في بورت سموث، وحمولتها مائة برميل. غادرت الميناء يوم 16/ 10/ 1583 إفرنجي، وعادت بها رياح معاكسة ثلاث مرات إلى الشواطىء البريطانية، إلى بورت سموث في المرة الأولى ثم إلى بلايموث وبعدها إلى فالموث. ولم تمكنها الرياح المواتية من الوصول إلى سانت لوك في الأندلس إلا يوم 1/ 1/ 1584 إفرنجي، ومنها توجهت إلى طرابلس حيث وصلت يوم 18 مارس. وهكذا تطلب منها الوصول إلى هدفها خمسة أشهر.

ماذا كانت تحمل إلى طرابلس؟ لم يقل ساندر شيئاً عن ذلك. ومن المحتمل أنها لم تكن تحمل شيئاً، وكانت مهمتها هي إحضار زيت زيتون من طرابلس. كان على ظهر السفينة اثنان من الشركاء هما: الفرنسي رومان سوننق «Romain Sonning»، وريتشارد سكق «Richard Skeg». وكان ربانها هو أندرو ديير «Andrew Dier»، وأمين حساباتها ريتشارد بيرغ «Richard Burges».

بمجرد وصول السفينة أجرى الوكلاء اتصالاً مع الباشا الذي كان في حينها رمضان. وكان رمضان، كذلك، تاجراً أكثر حرصاً على مصالحه الشخصية من حرصه على المصلحة العامة. اقترح أن

يقوم بتزويدهم بالزيت معفياً من الضرائب، ووافق سوننق، وسكق. ولكنهما لاحظا لاحقاً أن الثمن المطلوب يفوق ما كان سيدفعانه في حالة دفعهما الجمارك، واعترضا، فوافق رمضان على إجراء تخفيض، وتمت الصفقة. وغادر الوكلاء الباشا الذي أظهر كثيراً من اللطف.

كان هذا يوم 15 مايو. عندما صعد الوكلاء إلى السفينة أعطوا الأمر بالإبحار. لاحظ الربان أن الرياح معاكسة، ومن المستحيل الخروج من الميناء، ولكن الوكلاء أصروا وتم جر السفينة، وهي عملية صعبة تتطلب وقتاً طويلاً. عندما كانت السفينة تحاول بصعوبة أن تخرج إلى عرض البحر، اقترب منها قارب على متنه بعض رجال الباشا، وطلبوا إلى سوننق الهبوط، فامتثل لأمرهم. ماذا كانوا يريدون منه؟ أن يدفع رسوم الجمارك. غضب سوننق لهذه المعاملة من قبل الباشا ولكنه اضطر للدفع. وكان عليه أن يعتبر نفسه سعيداً، فقد نصحه رمضان بالابتعاد بأسرع ما يمكن لأن الجنود الانكشاريين يهددون بالاستيلاء على حمولة الباخرة حسبما قال. من المرجح أن الأمور كانت ستنتهي نهاية سعيدة نسبياً لو لم يقم سوننق بمبادرة وخيمة. كان أحد مواطنيه المدعو باترون نوڤارو «Patrone Novaro» من مرسيليا يواجه وضعاً صعباً. فقد اقترض في السنة السابقة من أحد الأتراك بضائع للعودة، وكلف شقيقه بالذهاب إلى أوروبا بالحمولة وبيعها وإحضار مبالغ البيع. لسوء الحظ، كان هذا الأخير مقامراً، وعند وصوله إلى الميناء المقصود، قامر وخسر البضاعة والسفينة. هكذا بقي نوڤارو رهينة في طرابلس، وهو ما

يعني ضياعه، وكان الحل الوحيد، أمامه هو الهرب، ولهذا طلب من سوننق أن يأخذه خلسة على السفينة إلى طولون. وصل سوننق إلى السفينة جيسوس مصحوباً بهذا الشخص المشبوه، وبالرغم من اعتراض الربان والطاقم إلا أن سوننق أصر وتعهد بتحمل المسؤولية وحده.

في هذه الأثناء اشتبه المقرض فيما كان يجري، وتقدم بشكوى إلى الباشا، الذي بعث من جديد بقارب لاعتراض السفينة جيسوس وإحضارها إلى الرصيف، كان الانصياع هذه المرة يحمل مخاطرة كبيرة. حرض سوننق قائد السفينة على الابتعاد بكل سرعة، وهو ما كان متعذراً بسبب خمود الرياح. بينما كان البحارة يقطرون السفينة، أطلق مدفع ثلاث قذائف تحذيرية، ولكن السفينة جيسوس واصلت طريقها، فأُمر المدفعيون الأتراك بإطلاق قذائف حقيقية، ولما كانوا غير مدربين جيداً فقط أخطأت القذائف هدفها. عندها أرسل الباشا أحد الضباط إلى السجن ليقترح على الأسرى ما يلي: إذا كان من بينهم من متطوع قادر على إيقاف السفينة جيسوس فسيكافأ بمائة كورون بالإضافة إلى إطلاق سراحه. تقدم إسباني يسمى سيبستيان للقيام بالمهمة، وأسرع إلى المدافع، واستطاعت قذيفته الأولى أن تحطم دفة السفينة، وأحدثت قذيفته الثانية ثغرة في جسم السفينة تحت خط الغاطس، وضربت الثالثة الساري. لم يكن أمام ربان السفينة من خيار إلا التوجه إلى الشاطىء. عند وصول السفينة إلى الشاطىء وضع كل طاقمها في السلاسل. أما عن المدفعي الماهر، فلم يحصل على أي مكافأة. فلم يدفع له مبلغ

المائة كورون، واقتيد من جديد إلى السجن. كان هذا يوم 1 مايو. وفي هذا اليوم توفي أحد بحارة السفينة جيسوس.

في الغداة عقد الباشا مجلس المحاكمة، ومثل أمامه الوكيلان، وربان السفينة ومساعده. وقد أظهر سوننق الكثير من الإخلاص والشجاعة، وكان من قبل يتصرف بكثير من الاستخفاف. فقد أعلن أنه يتحمل وحده مسؤولية كل ما جرى. كان الحكم تحصيل حاصل، فقد حكم عليه بالإعدام شنقاً على السور الشمالي الشرقي، في المكان الذي انضم فيه إليه نافارو. لم يكن سوننق يتصور الخطر الذي تعرضه له اعترافاته، وأمام قسوة قضاته، مرت به لحظة ضعف. رأى أنه ضائع لا محالة، وظن أن في إمكانه إنقاذ حياته لو أعلن أنه «يريد التترك» أي يتحول إلى الإسلام، وعندما عبر عن رغبته أجابه الأتراك:

«إذا كنت ترغب في أن تكون تركياً فعليك النطق بالصيغة المطلوبة».

وهو ما قام به. عندها قالوا له: **«حسن جداً، الآن تموت على العقيدة التركية»**. وهكذا تم إعدامه وحكم على الربان كذلك بالإعدام شنقاً ولكن مساعده ريتشارد سكق جثا على ركبتيه أمام الباشا قائلاً:

«أتوسل إلى جلالتكم أن تغفروا للربان، أو اسمحوا لي بأن أموت مكانه».

تأثرت المحكمة لهذه الكلمات، وطلب الجميع العفو عن الرجلين، فوافق الباشا. عندها صرخ الأتراك.

«خذوا الربان من أمام حضرة الباشا».

أخذ دبير إلى السجن مع سكق، وعندما رآه رفاقه فرحوا أيما فرح. لقد تسرعوا للأسف! فبعد الفرج كانت الشدة: تراجع الباشا عن قراره. فقد لاحظ له أحد مستشاريه أنه في حالة عدم إعدام الربان ليس من المقبول وفقاً للقانون مصادرة السفينة، وحمولتها، والاحتفاظ بالطاقم أسرى. وهكذا أعيد أندرو دبير إلى المحاكمة، وحوكم، وشنق. كما حكم على أعضاء الطاقم الآخرين وعددهم ثلاثة وعشرون بالرق الدائم.

إن السجن مؤسسة عالمية، موجودة في كل البلدان بأسماء مختلفة، ووجدت في كل العصور. بالرغم من أن مهمته عقابية، إلا أنها في الحقيقة اقتصادية في المقام الأول. لم يكن العبد السجين يتمتع بأي حقوق في ذلك الزمن، وبالكاد يعتبر كائناً بشرياً يمكن استغلاله دون شفقة. لقد كان السجن يمثل عالماً منفصلاً خارج المجتمع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه في أيامنا هذه «المعتقل». في هذا المكان أُلقي بطاقم السفينة جيسوس، وكان الاعتبار فيه للعائد. فالأعمال تنفذ فيه بأقل التكاليف تحت الضغط والاجبار. بعبارة أخرى، كان السجين مُشَّغلاً دائماً إلى الحد الأقصى الذي تسمح به المقاومة البشرية. وفي طرابلس كان التموين اليومي في السجن قطعة من الخبز قيمتها أربعة أسبر أي ما يعادل بنسين، والسرير لوحة خشبية، والغطاء قطعة من بقايا شراع سفينة. كان يفرض على السجناء رغم سوء التغذية أعمالاً قاسية وهم مقيدون ليلاً نهاراً بالسلاسل الحديدية في ظروف صعبة وغير

صحية. وكان أخطر هذه الأعمال هو التجديف. منذ الأيام الأولى، مر توماسساندر بهذه التجربة، فقد وضع هو وخمسة من رفاقه، وثمانين من الإيطاليين والإسبان على غليونة أرسلت للبحث عن سفينة نهب يونانية جاءت لسرقة عبيد من الساحل الأفريقي.

«قيدنا بالسلاسل كل ثلاثة إلى مجداف. كنا نقوم بالتجديف عراة ما فوق الحزام. كان رئيس الطاقم، ورئيس العمال يتحركون، أحدهما أمام الساري والآخر خلفه، ممسكاً كل واحد منهما بسوط من عصب البقر، ويقومون بضرب المسيحيين بدون سبب كلما دفعهم مزاجهم الشيطاني لذلك. كانوا يعطون لكل واحد منا نصف رطل من الخبز دون أي وسيلة أخرى للبقاء غير الماء».

كانوا يقومون بتفتيش سلاسل السجناء ثلاث مرات كل ليلة للتحقق من وضع مسامير التثبيت. وعندما رأينا السفينة اليونانية ضاعفوا من إجراءات الاحتراس.

«لم يكن يسمح لنا بالاحتفاظ بأي أبرة، أو كلاب، أو سكين، أو أي نوع آخر من الأسلحة تحت طائلة العقاب بالجلد مائة جلدة. كما كانت أيدينا مثبتة بالسلاسل بطريقة قاسية لم يكن في مقدورنا معها أن نبعد أيدينا عن بعضها لأكثر من قدم».

بعد ثلاث ساعات من المطاردة، أمكن اللحاق بالسفينة، وهوجمت وتم الاستيلاء عليها. في معركة الاستيلاء على السفينة قتل اثنان من الأتراك، ومن الجانب اليوناني قتل خمسة رجال وجرح خمسة عشر، أما الباقون فوضعوا مباشرة في السلاسل. وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً رجعت الغليونة إلى طرابلس.

كانت هناك أعمال أخرى في انتظار ساندر ورفاقه عند عودتهم إلى طرابلس، وهي نقل، وقطع الأحجار لاستعمالها في بناء مسجد، وقطع الشجر في المناطق المجاورة. كما أُستعملوا، أثناء إحدى الحملات العسكرية ضد مغاربة متمردين، في جر أربع قطع مدفعية من عيارات كبيرة ولمسافة عشرين ميلاً. وعرف اثنان منهم مصيراً أكثر بؤساً فقد كان ابن الباشا وهو حاكم منطقة جربة مارا بطرابلس، وقرر زيارة السجن، وهناك رأى اثنين من الأسرى أعجباه وهما ريتشارد بيرج المفوض، وآخر يسمى جون سميث، فدعاهما إلى أن «يتحولا إلى تركيين»(*)، وسيكونان جزءاً من حاشيته. رفض الشابان الاقتراح بقوة، ولكن ابن الباشا أخذهما معه بعد الحصول على إذن من والده. عندما وصل إلى جربة ضغط عليهما من جديد ليتحولا إلى الإسلام فأجابا: «**لقد ولدنا مسيحيين، وسنبقى مسيحيين**»، عندها ختنا بالقوة.

قضى المحكومون حوالي السنة في السجن، عندما وصلت سفينة من القسطنطينية على متنها شخصيتان مهمتان: إنجليزي وهو إدوار بارتون «Edward Barton» وكان مفوضاً من سفير إنجلترا، وضابط عدالة تركي مبعوث من السلطان. كانت مهمتهما محصلة مساع طويلة، فقد أثارت مغامرة السفينة جيسوس قلقاً وانفعالاً كبيرين في إنجلترا، عندما وصلت رسالة من ساندر إلى والده الذي قام بإخطار إيرل بدفورد، وأحاط هذا الأخير الملكة بما حدث. طلبت الملكة إلى السلطان بموجب رسالة مؤرخة في 5/ 9/ 1584

(*) استعمل المؤلف هذه العبارة، ويقصد بها اعتناق الإسلام ـ المترجم.

إفرنجي «إعادة السفينة المسماة جيسوس، والأسرى الإنجليز المسجونين في طرابلس الغرب». ومن الغريب أن رسالة الملكة كانت مكتوبة باللغة اللاتينية التي كانت لغة الدبلوماسية في ذلك العصر. لا أعرف إذا كان في البلاط التركي من كان يستطيع قراءة اللاتينية في ذلك الوقت. كان السفير، على أي حال، قادراً على تقديم ترجمة للرسالة. واهتم مراد الثالث بالأمر.

هذا ما كان وراء وصول بارتون، وضابط العدالة التركي إلى طرابلس.

كان الضابط التركي حاملاً رسالة من سيده (السلطان) إلى رمضان باشا مؤرخة في أكتوبر 1584 إفرنجي. جاء في الرسالة ما يلي:

«المحترم والنبيل الباشا رمضان، باي بايات، والقاضي الحصيف، وحكيم طرابلس الغرب. إن فرنسياً مساعد تاجر غير معروف من الإنجليز أخذ معه فرنسياً آخر مديناً لمغربي، وأَجبر الإنجليز الذين فوق السفينة على الرحيل بالقوة. لم يكن هؤلاء يشكون في وجود تهريب، أو غش ومن ثم بدأوا الإبحار. . . ».

من الواضح أن السفير قدم الأمر على طريقته. وسلم لبارتون رسالة موجهة إلى رمضان باشا مؤرخة في 15/ 1/ 1585 إفرنجي.

أمام إرادة السلطان، لا يستطيع مراد إلا الخضوع، فغداة وصول المبعوثين فُكت قيود المساجين وسلموا لبارتون. لقد عرف رمضان باشا كيف يتصرف دون أن يفقد الاعتبار. فقد أعلن بكل وقار:

«لقد خالفتم قوانين هذا المكان، بموجب هذه القوانين حكم على بعض منكم بالإعدام وحكم عليكم أنتم بأن تكونوا عبيداً حتى نهاية حياتكم. على الرغم من ذلك فقد راق لسيدي السلطان التركي العظيم أن يعفو عن مخالفاتكم، وأن يعطيكم حريتكم. عليه أسلمكم لهذا السيد الإنجليزي».

لم يكن الأسرى الذين أطلق سراحهم ـ للأسف ـ إلا ثلاثة عشر، فقد أعدم اثنان، وتحول اثنان إلى الإسلام، ومات تسعة بسبب الطاعون. حدث هذا يوم 28/ 4/ 1585 إفرنجي، وبعد حوالي ثمانية أشهر من ترحال طويل وصل الأسرى إلى وطنهم.

ماذا حدث لكل من ريتشارد بيرج وجون سميث اللذين تركناهما في جربة في ظروف حزينة وقد أصبحا «تركيين» رغم أنفيهما؟ . لقد وجدا حريتهما بعد سلسلة من الأحداث التي لم تكن متوقعة. ففي شهر سبتمبر سنة 1585 إفرنجي، قُتل رمضان باشا على أيدي جنوده في ظروف لم نتمكن من استيضاحها. وكانت العادة تقضي بأن تحول كنوزه، وممتلكاته، وجواريه، وأسراه إلى السلطان الذي يرثها، وأدى ابن رمضان باشا هذا الواجب. فقد توجه إلى القسطنطينية على ظهر سفينة كان عليها عبداه المفضلان. أثناء الرحلة اتفق بيرج، وسميث وإنجليزيان آخران، ختنا بالقوة هما أيضاً، مع رفاقهم من الرقيق المسيحيين على القيام بحركة تمرد. ولكن الأسرى المسيحيين الآخرين تراجعوا في آخر لحظة بسبب الخوف، وهكذا وجد العصاة الأربعة وحيدين بالسلاح في أيديهم، وأمكن التغلب عليهم بسهولة. وقد قتل أحدهم وقيد الآخرون

بالسلاسل وحكم عليهم بالشنق عند الوصول إلى القسطنطينية. كان المحكوم عليهم مستسلمين لمصيرهم، عندما هوجمت سفينتهم قبالة جزيرة سيڤالونيا من قبل قادسين تابعين للبندقية، وقد قتل ابن الباشا وزوجته وكل الأتراك الذين كانوا معه، وتم تحرير كل المسيحيين وعددهم مائة وخمسون. رجع بيرج وسميث إلى إنجلترا براً، ووصلا بعد شهرين فقط من وصول رفاقهم.

هذه هي الرواية التي تركها لنا توماس ساندر، إنها رواية مطولة، وقد اختصرتها، وأعدت ترتيبها في بعض الأحيان. ويستطيع القارىء الذي يهوى النوادر الطريفة أو المأساوية قراءة النص الكامل في كتاب «**الرحلات البحرية الرئيسية للأمة الإنجليزية**» المنشور في لندن سنة 1598 إفرنجي، ويمكنه العثور على هذا الكتاب في المكتبة البريطانية في قاعة «**أوراق الدولة**»[262]. لم يكن ما حدث للسفينة «**جيسوس**» حالة فريدة على الشواطىء الشمال أفريقية. كان الوضع في الجزائر أكثر توتراً، وتوضح السجلات الرسمية قائمة بالسفن الإنجليزية التي تم الاستيلاء عليها من القوادس الجزائرية، وكذلك أسماء الطواقم، وقيم الشحنات. نقرأ في هذه السجلات:

- لوسالومون، من بلايموث، 36 رجلاً، محملة بالملح، القيمة: 5600 فلورين.
- إليزابيث، من قارنيزي، 10 إنجليز + عدد غير محدد من البريتون، القيمة: 2000 فلورين.
- لوماريا مارتان، من لندن، 35 رجلاً القيمة: 1400 فلورين.

- اليزابيث ستوكس، من لندن، القيمة: 21500 فلورين.
- نيكولوس، من لندن، القيمة: 4800 فلورين[263].

بالرغم من هذا الوضع، لم يفقد وليام هيربورن الأمل، وقام بتعيين السيد تبتون قنصلاً لإنجلترا في الجزائر وتونس وطرابلس بموجب رسالته المؤرخة في 30 مارس سنة 1585 إفرنجي. وأمره بالإصرار على تطبيق المزايا الممنوحة من السيد الأعظم (السلطان). ولكن جهود تبتون بقيت دون نتيجة، لأن لا سلطة للباشاوات تقريباً، وهو ما أكده تبتون. كان الأمر كله في أيدي الجنود الانكشاريين، وكان هَم الباشاوات هو القرصنة[264]، كما كتب ألفرد سيسل وود «Alfref Cecil Wood»:

«لقد توقفت الجهود من أجل تنمية التجارة على الشواطىء الشمال أفريقية، كان التعامل مستحيلاً مع أناس لا يعيشون إلا من النهب، والسلب»[265].

لم يكن وضع المعاملات الفرنسية أحسن حالاً[266]. فقد عين قنصل فرنسي في طرابلس في عهد هنري الرابع (1610 ـ 1589)، ولكنه لم يستمر طويلاً، ولم يكن موجوداً[267] في سنة 1610 إفرنجي. فعدم الاستقرار السياسي وفوضى الجنود منعت أي نشاط تجاري، وقد كان مقتل رمضان باشا ـ سنة 1585 إفرنجي ـ بداية فترة من القلاقل والاضطرابات، وتتابع على حكم طرابلس ستة باشاوات خلال فترة عشرين سنة، ومن الواضح أن المؤسسات تزعزعت. كانت الظروف توحي بثورة، وهو ما حدث بالفعل. في أي سنة بالتحديد؟ من الصعب الجزم. فالأنصاري يقول بحدوثها

سنة 1693 إفرنجي[268]، ويورد أتوري روسي «Ettore Rossi»[269] وقوعها سنة 1606 إفرنجي، بينما وقعت في سنة 1612 إفرنجي[270] بالنسبة لجيرار. المهم أن الثورة حدثت بالفعل. فقد قام الجنود الانكشاريون بعصيان ضد الباشا، واستولوا على قصره، واضطروه للمنفى، واختاروا كرئيس سليمان الملقب بصفر، والذي حكم طرابلس دون موافقة السلطان. في ذلك الوقت كان بايات البايات يخلفون الدايات. كانت القسطنطينية مستمرة في إرسال الباشوات، ولكن لم تكن لهم أي سلطة، ولا يقيم لهم أحد اعتباراً. كان يوجد عبيد فرنسيون في سجن طرابلس في تلك الفترة، وكانوا في بعض الأحيان يستطيعون مغافلة حراسهم وتمرير رسائل إلى قنصل مرسيليا. وها هو أحدهم يلخص في رسالة مؤرخة في 8 / 2/ 1612 إفرنجي الوضع كالآتي:

«إن سيدنا صفر يحكم هذه البلاد، ولا يقيم أي اعتبار للباشا»[271].

استمر هذا الوضع حتى وصول القرمانليين للسلطة سنة 1711 إفرنجي، وبانقطاع لمدة قصيرة من 1632 إلى 1672 إفرنجي.

نشَّط سليمان صفر حركة القرصنة، وكانت ضحاياه الرئيسية من السفن الفرنسية. ففي سنة 1515 إفرنجي كان في سجن طرابلس مائة وخمسون عبداً فرنسياً مقيدين بالسلاسل، تم القبض عليهم كلهم خلال السنتين السابقتين. كتب أحدهم: **«كان الداي صفر يتذرع بعدم وجود قنصل لنا هنا، وعدم وجود سلام بيننا للقيام بقرصنة سفننا»**[272]. لم يكن أسطوله مهماً، فكل ما لديه أربع سفن تعمل

في الشتاء، وثلاثة قوادس في الصيف[273]. لم يتوقف من خلفوه عن زيادة أعداد السفن، وهكذا وصل عدد سفن الطرابلسيين في السنوات (1627 ـ 1634) إفرنجي في البحر إلى خمسة عشر سفينة وقارباً، وثلاثة قوادس[274].

تحولت طرابلس، بعد الجزائر وتونس، من السفن المجدفة إلى السفن الشراعية. ولم يكن الشمال أفريقيون يعرفون استعمال السفن التي يستولون عليها فقط، وإنما تعلموا بناء السفن «المستديرة» كذلك. وقد أورد بيير دان «Pierre Dan» أن كفاراً (علوجاً) هم الذين قاموا بتعليمهم هذه الصناعة. ففي الجزائر قام فلمنكي يسمى سيمون دانسر «Simon Danser» بتعليم الجزائريين هذه الصناعة سنة 1605 إفرنجي، وقام بتعليمها في تونس إنجليزي اسمه إدوارد، وفي طرابلس قام بها يوناني اسمه الريس مامي سنة 1618 إفرنجي. بإدخال هذه التقنية أعطى هؤلاء الخونة للقراصنة الشمال أفريقيين إمكانية مزاولة القرصنة في البحار البعيدة. ففي سنة 1627 إفرنجي زاول قراصنة الجزائر نشاطهم حتى الدانمارك. وحتى إنجلترا وإيرلندا[275] في سنة 1631 إفرنجي.

لم تعرف التجارة في طرابلس ظروفاً أسوأ من قبل، فلم يعد للبضائع الأوروبية وجود في السوق إلا بالمصادفة فيما يحصل عليه القراصنة من غنائم. أكثر من ذلك لم تعد البضائع تصل من الداخل لأن فزان، نقطة تقاطع طرق التجارة عبر الصحراوية، كانت تمر بفترة اضطرابات وقلاقل.

بعكس رمضان باشا، أظهر سليمان صفر، بمجرد وصوله

للسلطة، تصميماً على فرض سيطرته. وقد استطاع فرض النظام والانضباط على الجنود الانكشاريين بعد بعض الإعدامات، وهكذا استقرت الأوضاع، وانتظم تحصيل الضرائب[276]. بقيت فزان وحدها مترددة. كان ملكها آنذاك هو المنتصر بن الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي، ولما كان يدَّعي عدم القدرة على دفع المبلغ السنوي الواجب عليه أداؤه، بعث إليه سليمان بحملة من الفرسان والمشاة.

عندما علم المنتصر بزحف الجيش نحو مرزق، استعد للمقاومة، وهب لملاقاة الجيش على رأس قوة من عشرة آلاف رجل. كان الصدام بين الطرفين مرعباً، وأظهر المنتصر كثيراً من الشجاعة، ولكن عساكره هزموا، وجرح هو جروحاً بالغةً. وقبل أن يسلم الروح أرسل إلى شقيقه الطاهر آمراً إياه بالهرب من مرزق بالحريم والكنوز. أطاع الطاهر الأمر ولجأ إلى كاتسينا في السودان. في هذه الأثناء استكمل الأتراك إخضاع فزان، ووضعوا حامية في عاصمتها تحت أمرة حسين النعال، وبعد أن انتهى الجيش من مهمته انسحب عائداً إلى طرابلس.

أدركت طرابلس، هذه المرة أيضاً، مدى صعوبة إدارة بلد بعيد جداً، ومتمسك بتقاليده. فبعد سنة من احتلالها فزان، ثار أهله وقتلوا الحاكم التركي، وأرسلوا مبعوثاً إلى السودان لدعوة الطاهر للعودة. وقد عاد المنفي وأُعترف به ملكاً.

أظهر الطاهر ـ في بداية حكمه ـ أنه عادل، ومع مرور السنين وقع ضحية إغراءات السلطة المطلقة كما يحدث هذا كثيراً. كان

ضحاياه الأساسيون من وادي الآجال الواقع شمال مرزق على مسافة مائة كيلو متر تقريباً. أرهقت الضرائب سكان الوادي الذين كانوا يرون الطاهر يحتفظ بها لنفسه، ولا يدفع منها لطرابلس إلا مبلغاً تافهاً، فذهبوا لتقديم شكوى لوالي طرابلس الذي كان في ذلك الوقت الداي رمضان (1625 ـ 1632) إفرنجي. اتفق الداي رمضان مع وجهة نظر سكان وادي الآجال، وأرسل إلى فزان قوة بقيادة زوج ابنته محمد الساقزلي. لم يحاول الطاهر المقاومة، وهرب برفقة أخيه الجهيم. وبينما توجه الجهيم إلى كاتسينا، صمم الطاهر ـ خلافاً لرأي ذويه ـ على اللجوء إلى بورنو التي كانت تحت حكم عمر (1619 ـ 1639) إفرنجي. لماذا نصحته حاشيته بعدم الذهاب إلى بورنو؟ كان من المتوقع أن يستقبل فيها استقبالاً سيئاً، فعمر ـ ملك بورنو ـ كان يكرهه لأنه عند الوصول إلى السلطة قام بفقأ عيون ابني شقيقه وذلك وفق عادة كانت شائعة في العالمين العثماني والأفريقي، وقام بإرسالهما ـ لا نعرف لأي سبب ـ إلى بورنو. حتى ذلك الحين كان عمر يحافظ على علاقات جيدة مع ملك فزان، ولكن الفظاعة التي كان شاهداً عليها جعلته يغير تصرفاته، ودفعته إلى التفكير في محاربة فزان عندما ادعى المنجمون أنهم رأوا في السماء الطاهر يستعد للقيام ضده. ثم عدل عن مشروعه. والآن ها هو المجرم يأتي إليه طالباً اللجوء. يا لها من فرصة! قبض على الطاهر، وأولاده، وكل حاشيته بمجرد وصولهم إلى بورنو، ووضعوا في أكياس ألقي بها في النهر.

يقال من المحتمل أن لا يكون الدافع وراء ما قام به عمر هو

العدل وإنما الطمع، فقد أحضر الطاهر معه كنزه، وهو عبارة عن حمولة اثني عشر جملاً من قطع الذهب. كان هذا مغرياً.

في الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث في بورنو، عين الأتراك المدعو أحمد رئيساً لفزان في مرزق وهو أصيل وادي الآجال. بالنسبة لأهل مرزق، كان أحمد دخيلاً والشرعية لا يمكن أن تكون إلا في أسرة محمد الفاسي. ولكن، من هو الوريث الشرعي لآل الفاسي؟ فقد قتل الطاهر وأولاده، وتوفي أخوه الجهيم الذي لجأ إلى كاتسينا، ولم يتبق إلا ابن هذا الأخير محمد، فوجهت إليه الدعوة، وحضر. كان الناس من وادي الآجال متنبهين إلى ما يدور، وانتظروا محمد على الطريق بين زويلة، وتراغن وتواجه الطرفان. هُزم أهل وادي الآجال وهربوا إلى مرزق وأغلقوا المدينة على أنفسهم، فتمت محاصرتهم حتى عانوا من الجوع، مما اضطرهم لأكل الدواب، وطلب مساعدة محمد باشا الساقزلي (1632 ـ 1649) إفرنجي الذي كان قد خلف صهره الداي رمضان منذ وقت قصير. أرسل الوالي الجديد لنجدتهم جنراله الباي عثمان على رأس قوة عسكرية. بعد بعض المناوشات هرب محمد بن الجهيم، وبدأ حياة من التنقل وعدم الاستقرار في الريف، فقد كان الجيش التركي على أثره في كل مكان. وهو مدين بنجاته لمرابطي فزان الذين توسطوا لصالحه لدى الباي عثمان. وأحال هذا الأخير الأمر إلى محمد باشا الساقزلي الذي قرر إبرام اتفاقية ترك بموجبها الأتراك فزان لمحمد بن الجهيم مقابل أتاوة سنوية مقدارها أربعة آلاف مثقال من الذهب (دينار)، يدفع ألفان منها نقداً، وألفان في

شكل عبيد من الجنسين، ويُحسب الذكر من العبيد بخمسة وعشرين مثقالاً، والأنثى بثلاثين مثقالاً. وكانت هذه الاتفاقية فرصة للباشا لإنشاء وظيفة جديدة هي جابي أتاوات فزان، وكان شاغلها يسمى «باي النوبة»[277].

الفضل لمصطفى خوجه، وخاصة لسلفه البهلول في الكثير الذي وصلنا عن الحياة الاجتماعية والسياسية في فزان في القرن السابع عشر. فإلى جانب التطاحن القبلي نكتشف نفوذ الجمعيات الدينية. وفي مجال العلاقات الخارجية، رأينا كم كان الوضع غير مريح في مملكة ضعيفة نسبياً تقع بين طرابلس الشرهة المتكبرة، وبورنو الحساسة. كان محمد الساقزلي واحداً من أعظم ولاة طرابلس، ورأينا كيف عالج بحكمة وواقعية موضوع فزان. كان علجاً يونانياً، أصيل جزيرة شيو «Chio». عمل في البحرية العثمانية، وكان يقود أسطولاً في الجزائر، عندما ارتأى أن يذهب إلى طرابلس بسفنه. لم يكن من النادر في ذلك الزمن أن يتوجه القراصنة، الذين تضيق عليهم الخناق الاتفاقيات التي تعقدها حكومتهم مع فرنسا، من الجزائر إلى طرابلس للاستقرار حيث القرصنة حرة. استقبل الساقزلي استقبالاً حسناً من الداي شريف والي طرابلس من (1616 إلى 1625) إفرنجي، وأسندت إليه قيادة الأسطول، وشهد نجمه صعوداً في عهد خلف شريف، الداي رمضان. وعندما قرر رمضان سنة 1632 إفرنجي التنازل عن الحكم، بعد أن تجاوزته الأحداث، تنازل لصالح الساقزلي الذي جعل منه زوج ابنته[278].

كان محمد الساقزلي سياسياً بارعاً، وقد عرف وبهدايا ثمينة، كيف ينال رضا السلطان مراد الذي وافق على تثبيته والياً. وهكذا بعد انقطاع استمر حوالي ثلاثين سنة، عادت طرابلس من جديد محكومة بباي بايات. لم يكن محمد الساقزلي يحمل لقب الوالي فقط وإنما كانت له السلطة الحقيقية كذلك. وقد قال معاصره بيير دان أن النظام الذي أقامه الباشا الجديد كان نظاماً ملكياً.

«لقد أصبح الوالي في طرابلس قوياً ومطلقاً لدرجة أنه لم يكن يؤتى بأمر إلا بموافقته لأنه لم يكن يخشى الديوان ولا الميليشيا».

ولم يكن كذلك يسمح للسلطان بالتدخل في شؤون ولايته طرابلس:

«كان السلطان يعرف المزاج المتقلب لهؤلاء البرابرة البعيدين عن القسطنطينية، ومن ثم كان يكتفي بما يستطيع الحصول عليه منهم، بالإضافة إلى أنه كان يخشى تواطؤهم مع فرسان القديس يوحنا إذا ما أساء معاملتهم، لأنهم لا يبعدون عن مالطا إلا بحوالي مائتي ميل»[279].

برهن محمد باشا الساقزلي على أنه إداري موهوب. فقد أنشأ وظائف، وعين موظفي دولة، ونظم خدمات الجمارك والضرائب، ووضع على رأس القوات المسلحة الباي عثمان، وهو مثله علج يوناني من جزيرة شيو، وعتيق الداي شريف[280]. لقد كان مهاباً في البحر، كما كتب ماسون «Masson»، مستشهداً برسائل عبيد فرنسيين في طرابلس، كان قراصنته **«يوجدون حيث الأماكن التي لا**

تستطيع أسلحة الملك(*) الوصول إليها»[281].

بالرغم من هذا لم تكن بحرية طرابلس بالمستوى الذي كانت عليه سنة 1620 إفرنجي، فقد فقدت بعض السفن في البحر، كما تم الاستيلاء على أخرى. في سنة 1631 إفرنجي، استولى فرسان مالطا على ثلاثة من سفن طرابلس، وفي سنة 1639 إفرنجي، لم يكن في ميناء طرابلس إلا سبع إلى ثماني سفن للقراصنة[282].

من المثير للدهشة عدم اهتمام محمد باشا وهو المالي النابه بتشجيع التجارة الأوروبية، وقد قدرت إيرادات الدولة في سنة 1637 إفرنجي بثمانين ألف ديكات[283]، وفق بيير دان. لم تتوقف فرنسا منذ بداية القرن عن السعي بكل جهد من أجل أن يكون لها قنصل في طرابلس، وقد استجيب لمطالبها ثلاث مرات، ولكن لفترة قصيرة كل مرة. وسبق ورأينا أن القنصل الذي عينه هنري الرابع اضطر لترك وظيفته سنة 1610 إفرنجي، واستطاع قنصل آخر وهو نيكولا برن «Nicolas Brun» الاستمرار في عمله من 1615 إلى 1619 إفرنجي. في 1620 إفرنجي، كانت طرابلس في حالة حرب من جديد مع فرنسا، وفي سنة 1630 إفرنجي ترك السيد برينقوي سفير الملك لويس الثالث عشر والذي كان مبعوثاً إلى طرابلس لتحرير عبيد وبموافقة من الداي شريف، المدعو دي مولان «de Moulin» كقنصل لفرنسا في طرابلس، ولكن هذا الدبلوماسي اضطر بعد سنتين للمغادرة لأن القراصنة عاودوا أعمالهم العدائية[284].

(*) المقصود ملك فرنسا ـ المرتجم.

نجح محمد باشا، بعد الكثير من الاخفاقات، في التعامل مع فرنسا بعد أن أعطاه أهل مرسيليا الفرصة. فقد أرسلوا سنة 1634 إفرنجي إلى طرابلس بالقبطان جان بو «Jean Beau» ليناقش إبرام اتفاقية. بدأت المباحثات بداية سيئة لأن الباشا اعتبر الهدايا المقدمة «لا تليق بمقامه»، بالرغم من ذلك وعد بالصداقة، وأرسل إلى المارشال دي سانت فيتري «de Saint Vitry» حاكم جنوب فرنسا بخيول ثمينة. كانت الشروط التي وضعها الباشا للقبطان مجحفة، مما أدى إلى عدم وصول المفاوضات إلى اتفاق، ومن ثم لم يتم إرسال قنصل واستمرت القرصنة[285].

بالرغم من ذلك لم تكن المبادلات منعدمة مع فرنسا، فقد كان بعض الخواص يتحملون المخاطر ويحاولون المغامرة.

كتب جيرار: «**في سنة 1640 إفرنجي، استقر تاجر فرنسي يدعى بايون** «Bayon» في طرابلس وزاول فيها التجارة، وكسب احتراماً جعله يقوم بوظائف القنصل بالرغم من أنه لم يحصل على أي تفويض من الملك بذلك. كما أن السيد استيان «Estienne» وهو تاجر كبير من مرسيليا استقر أيضاً مدة طويلة في طرابلس، واعتبر كقنصل بالرغم من أنه لا يتمتع بأي سلطة من الملك»[286].

يجب انتظار النصف الثاني من القرن حتى تتمكن إنجلترا ثم فرنسا، وبعد استعراض للقوة من وضع قناصل في طرابلس.

لم تكن علاقات محمد باشا الساقزلي مع الجنوب أحسن وأنجح من علاقاته مع الشمال، ولكنه لم يكن هو المسؤول عن الخطأ هذه المرة. كان يقدر تقديراً صحيحاً الأرباح الكبيرة للتجارة

مع بورنو، ومن ثم فقد كتب سنة 1636 إفرنجي إلى الملك عمر (1619 ـ 1639) ليؤكد له تعاونه، وكان هذا الأخير من جانبه، يبحث عن هذا التحالف المفيد لازدهار بلاده، وبعث في سنة 1638 إفرنجي بوفد إلى طرابلس محملاً بهدايا ثمينة:

«مائة عبد، ومائة بنت، وسلحفاة من الذهب الخالص ذات حجم عظيم، والعديد من الكؤوس الخزفية، وطرائف أخرى مما تنتج بورنو».

عومل المبعوثون معاملة كريمة فائقة خلال الأيام العشرين التي قضوها في طرابلس، وعند مغادرتهم سلمهم الباشا هدايا لعمر:

«مائتان من الخيول الجميلة، وخمسة عشر شاباً من المرتدين (العلوج) الأوروبيين، وعدد من البنادق، والسيوف المرصعة بالأحجار، وقد استلمها الملك بسرور بالغ»[287].

كان كل شيء يسير على ما يرام، ولكن الأوضاع تدهورت على أثر وفاة عمر، وتولي الملك علي، الابن الأكبر لعمر. ولما كان محمد باشا مهتماً بأن يرتبط مع الابن باتصالات ممتازة كما كانت مع والده، فقد أرسل إليه وفداً. ولما كان علي صغير السن، عديم التجربة وقليل الألمام بقواعد البروتوكول فقد استقبل الوفد استقبالاً غير لائق. أثار هذا الحدث ضجة واسعة في طرابلس لدرجة أن جيرار لم يجد صعوبة في الإحاطة بتفاصيله بعد ثلاثين سنة من وقوعه. هكذا قص جيرار الوقائع:

«بمجرد ما علم الباشا بوفاة الماي عمر، وتولي الماي علي أرسل إليه سفيراً ليقدم له التهاني ويطلب إليه استمرار التحالف،

واتفاقية التجارة. لم يستقبل السفير بالاحترام والتشريفات المتوقعة. وعندما اقترح السفير تجديد التحالف والاتفاقية، عامله الملك، الذي كان حديث العهد بأمور الدولة، ببرود لدرجة أن السفير رأى فيها عدم الرغبة في الحصول على ما طلب. فخرج من مدينة بورنو غير راض، وسلك طريق العودة إلى شمال أفريقيا.

عندما قدم السفير تقريراً عن رحلته، غضب الباشا غضباً شديداً للاحتقار الذي قابل به ملك بورنو سفيره وصمم على الانتقام. كان القيام بحرب ضد هذا الأمير أمراً مستحيلاً بسبب بعد المسافة بين الدولتين، ولكنه وجد فرصة أسهل لتنفيذ انتقامه، ونشره في الآفاق.

كان الماي علي متعلقاً بالاحتفالات الخرافية في مذهب محمد، وكان قد سافر إلى مكة قبل اعتلائه العرش، كما قرر الذهاب ثانية للحج بعد إعلانه ملكاً. علم محمد باشا بما قرره الملك، وعزم على القبض عليه عند عودته للحصول على ترضية عن الإهانة التي ألحقها بشخص السفير، وللحصول منه على فدية كبيرة. من أجل تنفيذ هذه الفكرة جهز ستمائة حصان في حالة جيدة تحت أمرة الباي عثمان، وحدد مهمته في الذهاب وانتظار الماي علي طريق عودته، والقبض عليه وإحضاره أسيراً. نفذ عثمان الأمر بكل السرعة والعناية الممكنة، فقد توجه في شهر أكتوبر نحو ولاية برقة، وذهب مباشرة نحو أوجله ليستطلع أخبار الماي علي. وعلم أن الملك قد غادر القاهرة الكبرى في طريق العودة إلى بورنو مصحوباً بحوالى أربعمائة شخص أغلبهم دون سلاح، ولا يمكنهم المقاومة كثيراً.

أفرح هذا الخبر عثمان الذي اعتقد أن ملك بورنو واقع في يديه

لا محالة، فتوجه بسرعة إلى تخوم النوبة وولاية فزان وفتش لأيام هذه الصحارى المخيفة دون جدوى، إلى أن تقابل مع مجموعة من حجاج فزان راجعين من مكة، فأكدوا له أن الماي علي قد سبقهم منذ أيام قليلة، ويمكن أن يكون قد قطع خمسين مرحلة. تألم عثمان كثيراً لهذا الخبر، وتحقق لديه أن لا أمل في إدراك الذين كان يبحث عنهم، ولم تكن المؤن لمن معه وللجياد متوفرة في هذه الصحارى الرملية، فعاد أدراجه إلى طرابلس بعد أن عانى الكثير في هذا السفر.

غضب الباشا غضباً شديداً لإضاعة الفرصة التي لن تتكرر أبداً. وقد علم علي بالذي كان، فشكر السماء ألف مرة لأنها جنبته لقاء قراصنة الشمال الأفريقي»[288].

كان فشل الأتراك، بالرغم من المرارة، سعيداً لأنه حافظ على المستقبل، وبعد بضع سنوات عادت العلاقات بين طرابلس وبورنو، وكان المسؤول عن هذا التصالح هو الباي عثمان الذي صار باشا لطرابلس.

توفي محمد باشا الساقزلي ميتة طبيعية سنة 1549 إفرنجي، وهو أمر غير عادي في ذلك الزمان، وخلفه الباي عثمان رئيس الجيش الذي حصل قبل انقضاء سنة على موافقة السلطان على تثبيته باشا لطرابلس. بدأ حكمه مبشراً، ولكن بمجرد استقراره في السلطة برزت طبيعته الحقيقية؛ طاغية، وقاس، وطماع[289]. ولتفسير هذه الميول المحزنة يُروى أن علاماتها كانت تظهر عليه منذ طفولته.

كان والد عثمان جان ستليانو «Jean Stiliano» إسكافيا فقيراً من

جزيرة شيو، وديانته المسيحية. ولد عثمان حوالى سنة 1600 إفرنجي، وتم تعميده في الكنيسة اليونانية تحت اسم ليوني.

«منذ صغره أعطى ليوني مؤشرات واضحة على الميل الذي لديه للقسوة، والسرقة. ففي منزل أبيه، في مدينة شيو كان يعامل شقيقه، وشقيقاته، والأطفال الصغار الآخرين كرئيس وسيد. كان يضرب بعنف هؤلاء الذي يعارضونه، والذين لا يطيعونه عندما يكونون أضعف منه. كما كان يسرق رفاقه، وينكر سرقاته بكل وقاحة ما لم يفاجأ».

تفاقمت لديه هذه الميول السيئة، في سن المراهقة، «حتى أنه بمجرد بلوغه السادسة عشر لم يكن لديه من اهتمام إلا الملهى والمبغى». وقد حددت تجاوزاته مجرى حياته، ففي أحد الأيام اغتصب فتاة صغيرة قاومته، وأقام والدا الضحية ضجة حول ما قام به ليوني مما اضطره للهجرة. وأخذه قراصنة إلى البحر وهكذا وقع في أيدي شريف باشا:

«الذي أحبه كثيراً، وعرف نفسيته فألزمه بدراسة اللغة العربية، كما حاول أيضاً تعلم التركية ولكنه لم يتعلم كتابتها. وتعلم الفرنسية، ولغة العبيد من المحادثة»[290].

عن قسوة عثمان ترك لنا جيرار بعض الأمثلة:

«عندما يُحكم على أحد بالضرب بالعصا مسيحياً كان أو يهودياً، مغربياً أو تركياً، كان العقاب يتم بحضوره، وكان يعد الضربات مستعيناً بمسبحة من المرجان يمسكها دائماً في يده. كانت معاملته لإحدى زوجاته مقلقة أكثر. فبعد أيام من تعيينه باشاً، لم

يذهب للنوم مع زوجته التي كان الأسبوع لها. استاءت السيدة العاشقة، ولم ترسل له ملابس بيضاء في الغد الذي كان يوم استقبال في الديوان. استاء عثمان من هذا التصرف كثيراً، وبمجرد انتهاء الاحتفال ذهب إلى السيدة ـ التي كان قد أحبها برقة ـ وطلب إلى الخصيان إغلاق أبواب مسكنها وضربت خمسمائة ضربة عصا من عبد، وفي حضوره دون أن تثنيه توسلات ابنته للافطوم، أو شكوى هذه المسكينة»[291].

هذا عن قسوة عثمان، أما عن شراهته فقد كانت بدون حدود. لم يكتف بجمع أداءات مرهقه في كل مكان، بل زاد الضرائب على السلع والمعاملات، فزادت الأسعار وهو أمر مخرب للبلاد. وبينما كان الناس معدمين امتلأت خزائن الباشا[292].

كان لهذه التجاوزات الضارة نتيجتان إيجابيتان: بسبب قسوته خافه الناس وأصبح مطاعاً، ومن ثم ساد النظام، نوع معين من النظام. ولما كان طماعاً فقد شجع التجارة الخارجية. ووجدت طرابلس تحت حكمه وظيفتها الحقيقية كمحطة للتبادل بين الشمال والجنوب.

منذ سنة 1652 إفرنجي، كتب عثمان إلى الماي علي قائلاً بأن من العاجل تجديد التحالف بين الدولتين، وهو التحالف الذي فصم عراه ـ دون حسن تقدير ـ سلفه محمد باشا. كان الملك في انتظار الفرصة، فرد برسالة ودية تجنب فيها الإشارة لأحداث الماضي، وعدَّد فيها الهدايا المرسلة إلى عثمان: خمسمائة عبد من بينهم ثلاثون صبياً، وخمسة أقزام، وعشرون خصياً، واثنان وأربعون ثوباً، وثلاثون قدحاً من الفخار. ومن أجل تأكيد الاتفاقية أرسل

علي بعد أربع سنوات وفداً آخرا. وكان مبعوثه، هذه المرة، إسماعيل وهو من أقاربه، وكان مكلفاً أن يسلم لعثمان مائتين من العبيد صغار السن من الجنسين من بينهم عدد من الخصيان، وسرج محلى بمسامير من الذهب، وسيف، وأشياء أخرى. وفي المقابل، وبناء على طلب إسماعيل، قدم عثمان عدداً من المرتدين (العلوج) والذين كانوا مقدرين تقديراً كبيراً في بورنو، وخمسين حصاناً[293].

احتكر عثمان التجارة مع بورنو، وكانت عائداتها كبيرة جداً، قال عنها جيرار بأنها تُكون «**الجزء الأهم من اقتصاده**». ماذا كانت مكونات التبادل بين البلدين؟ أننا لا نعرف، والمؤشرات النادرة التي بين أيدينا تجعلنا نعتقد أن بورنو كانت تصدر بشكل خاص العبيد، وإن الكثير منهم كان يوجه إلى تركيا، وتبقى أعداد منهم للاستخدام في طرابلس. وكان عددهم كبيراً لدرجة أن المعتوقين كونوا جماعة خاصة، لهم رئيسهم الذي كان مكلفاً بتمثيلهم لدى السلطات، وتسوية الخلافات التي تدب بينهم. ويلاحظ جيرار أن النساء كلهن تقريباً من الخبازات «**ويخبزن الخبر الأكثر بياضاً الذي يباع في المدينة**». وكان جراحنا السجين (جيرارد)، مثل كثيرين قبله، يعتقد أن ملوك بورنو كانوا يغزون لاستجلاب العبيد من أثيوبيا، وأن هؤلاء كانوا أصلاً من المسيحيين، ومن هنا جاءت تسمية «**كردي**» التي كانوا يعرفون بها. كان جيرار ـ دون شك ـ ضحية التباس، فالكلمة «**كريدي**» كانت تعني في تشاد الوثنيين[294].

كان يجب استيراد سلع من بلدان الشمال من أجل تزويد قوافل الجنوب بالسلع. وهنا كان عثمان يواجه مشكلة صعبة، فإذا كانت

تجارة بورنو مصدر دخله الأول فأن القرصنة كانت المصدر الثاني لإيراداته. كيف يمكن التوفيق بين القرصنة والتجارة؟ توصل عثمان، وبنجاح أكبر من أسلافه، إلى حل توفيقي تمثل في إعطاء جوازات سفر لعدد مختار من أصحاب السفن الأوروبيين هم وحدهم الآمنون في البحر، وغيرهم كان فريسة مشروعة للقرصنة. كان نجاح هذه الترتيبات يتطلب احترام القراصنة للوثائق الرسمية وهو ما يفترض أن تكون للداي أو الباشا سلطة غير منازعة. كان الوضع هكذا في عهد محمد باشا الساقزلي واستمر في عهد عثمان.

رأينا، في السنوات 1640 إفرنجي، اثنين من الفرنسيين يتمتعان بحماية الباشا. ونستطيع القول بوجود آخرين، وكان عددهم دون شك أكبر في زمن عثمان. وشهد ميناء طرابلس نشاطاً كبيراً رسم له جيرار صورة مختصرة ولكنها مفيدة:

«كان الفرنسيون يأتون بالأقمشة، والخمر، والورق وغيرها، والبندقيون بأقمشة الحرير، وبالأقمشة القرمزية، والزجاج، والكبريت، والحديد، والبرونز وصفائح النحاس، والصقليون بخمر سيراكوزا، والألواح الخشبية، وغيرها من أنواع الخشب الصالح لأعمال البناء. وكان الإنجليز والهولنديون يأتون بالأسلاك، وحبال السفن، والرصاص، والتوابل. وغير هؤلاء كانوا يأتون ببضائع بلدانهم.

كان هؤلاء التجار يشحنون سفنهم بمواد خام من البلد، أو بسلع من التي غنمها القراصنة. من خامات البلد كان يشحن السنا، والصوف، والشمع، والجلود، والتمور، والشعير، والملح

وغيرها. كان الفرنسيون والبندقيون هم الوحيدين الذين لا يشحنون السلع المهربة أي تلك التي استولى عليها القراصنة في البحر، وذلك لأن الملوك (ملوك فرنسا) المسيحيون جداً منعوا منعاً باتاً بموجب قوانينهم وإجراءاتهم شراء غنائم القراصنة، وكذلك فعلت جمهورية البندقية»[295].

احتكر عثمان التجارة البحرية[296] كما فعل بالنسبة للتجارة مع بورنو، وكان يحصل 5% على السلع القادمة من البلدان المسيحية والمصدرة[297] إليها. وهكذا بفرضه ضرائب مبالغ فيها على البضائع والمعاملات، وباحتكاره للتجارة الخارجية أصبح عثمان أكبر تجار البلاد. كان هذا موضوع استنكار من الأنصاري بعد أربعة قرون، وأوضح استناداً إلى براهين من الكتاب والسنة أن ما قام به عثمان كان ضد أحكام الإسلام. أو لم يقل الرسول (ﷺ) ما معناه(*):

«غير عادل الحاكم الذي يتاجر على حساب رعاياه».

وأيضاً ما معناه:

«ليست هناك خيانة أعظم، من خيانة حاكم جعل من رعاياه موضوع تجارة»[298].

إذا كان نظام جوازات السفر يبدو مفيداً للباشا فإنه لم يكن ليرضي الدول الأوروبية التي كانت ترى سفنها المسافرة إلى الشرق تحت رحمة القراصنة، وأخطرهم قراصنة طرابلس. لم تكن سفن عثمان كثيرة العدد ـ ثمان في سنة 1561 إفرنجي[299] ـ ولكنها كانت

(*) لم نستطع العثور على أحاديث بهذا المعنى. المترجم

فعالة وخطرة. وقد اقتيد في عهد هذا الباشا ستة آلاف مسيحي إلى سجن طرابلس[300]. ولوضع حد لهذا الوضع المأساوي والمذل لم يكن هناك من حل إلا: استعمال القوة. كانت إنجلترا هي الأولى لوضعه موضع التنفيذ العملي حتى وإن لم تكن الأولى لإدراكه. كان أوليفير كرومويل «Oliver Cromwell»، الذي أصبح اللورد الحامي للمملكه سنة 1653 إفرنجي هو واضع السياسة الجديدة. فبعد أن جدد التحالف مع الباب العالي ووقع اتفاقيات سلام مع الجزائر وتونس[301]، قام بإرسال أسطول إلى طرابلس بقيادة الأميرال جون ستكوس «John Stoakes». وصل الأميرال طرابلس يوم 2 أغسطس سنة 1658 إفرنجي، وكانت مهمته تحرير العبيد الإنجليز وفرض معاهدة.

بمجرد وصول الأسطول الإنجليزي إلى المرسى، بعث برسالة إلى الباشا، ووضعه أمام خيارين: الحرب أو السلام. تردد عثمان، فقد كان في اعتباره الغنائم التي تم الاستيلاء عليها من الإنجليز، وتلك المحتملة مستقبلاً، وكان يخشى في نفس الوقت على سفنه في البحر. حتى الغداة 3 أغسطس لم يكن قد اتخذ قراراً بعد، عندما جاء من يخبره أن أسطول طرابلس والذي لم يكن يعلم بوجود الأسطول الإنجليزي قد ظهر قبالة رأس مصراته. أصبح القراصنة تحت رحمة الأميرال، ولم يعد هناك مجال للتردد ولا بد من الخضوع لإرادة كرومويل. في يوم 4 أغسطس تم توقيع السلام، وتم تحرير كل العبيد الإنجليز، وبعد أن أدى ستوكس واجبه غادر تاركاً في المكان قنصلاً للدفاع عن المصالح الإنجليزية،

والتأكد من تنفيذ أحكام الاتفاقية. كان هذا القنصل هو صامويل توكر[302] «Samuel Tooker».

كانت مهمة القنصل صعبة، إن لم تكن مستحيلة. فعندما اختفى الخطر ندم عثمان على الوعود التي أعطاها، بالإضافة إلى أن ما يُوقع تحت الإكراه لا يلزم بشيء. ومنذ سنة 1661 إفرنجي أرسل طواقمه لقرصنة السفن الإنجليزية. كان توكر عاجزاً. أرسل في 22 أغسطس برقية يائسة يقول فيها:

«لقد أعطوا الأوامر بالبدء في رحلتين بحريتين لاعتراض وإحضار السفن الإنجليزية التي يقابلونها في البحر، بالرغم من أنني بذلت كل جهد ممكن من أجل إقناع الباشا بالعدول»[303].

كان وضع القنصل لا يمكن الاستمرار فيه، فبالإضافة إلى الفشل الدبلوماسي كان يواجه مشاكل مالية. لم يكن الملك يدفع له أي أجر، وكان مضطراً بحكم وظيفته لمصاريف مرتفعة، فوصل إلى حالة إفلاس. في سنة 1667 إفرنجي وبدون إذن الملك ترك وظيفته وغادر طرابلس.

من المفارقات أن عثمان ندم لمغادرة القنصل وافتقده، فقد علمته التجربة ما كان يمكن أن يعود عليه من التجارة الإنجليزية. وما لم يتمكن الإكراه من إلزامه به، دفعه الآن إليه تقدير صحيح للمصالح الاقتصادية، فأرسل إلى شارل الثاني التماساً ملحاً، واستجاب هذا الأخير وبعث سنة 1671 إفرنجي إلى طرابلس ناتليان برادلي «Nathalien Bradley» بمرتب سنوي قدره ألف أيكوس. كان اختيار برادلي اختياراً موفقاً، فقد مارس هذا النبيل اللندني واجبه

بتفان لا حدود له. وأصبح حامياً ليس فقط للإنجليز وإنما لكل رعايا الدول الأخرى، «**لم يكن يتردد أبداً في تقديم وساطاته**». كان هذا الثناء من جيرار[304]، وكان السجين الفرنسي في موقع يُمكنه من الحكم، فقد كان برادلي هو الذي تمكن من إطلاق سراحه في سنة 1676 إفرنجي.

لم يترك الزمن لعثمان الفرصة لجني ثمار سياسته الجديدة، فقد توفي بعد سنة، وانفجرت طرابلس بالثورة.

ثورة سنة 1672
والمنافسة الفرنسية البريطانية

تكتسي سنة 1672 إفرنجي أهمية بالغة في تاريخ طرابلس. ففي هذه السنة انفجرت ثورة وضعت نهاية لأربعين سنة من حكم الباشاوات المطلق. وتمت العودة لنظام حكم الدايات المنتخبين من ممثلي الميلشيا، والمُراقبين من مجلس الديوان. ولهذا السبب أعطى الشهود الغربيون لهذا النظام الحكومي اسم الجمهورية.

تم الفعل الذي أحدث هذا التغير الأساسي بسرعة كبيرة جداً، وانتهى كل شيء خلال عشرة أيام. لدينا روايتان مفصلتان عن الوقائع: الأولى من الجراح الفرنسي جيرار، والأخرى من القنصل الإنجليزي ناتانيل برادلي. والصورة التي يرسمانها للأحداث تمثل أهمية مزدوجة، فهي تمكننا من اكتشاف العادات العسكرية في تلك الفترة، وتضع أمامنا سيناريو لانقلاب نفذ بإحكام ونجح، وهو نموذج نادر المثال.

كان عثمان باشا هو الشخصية الرئيسية في الفصل الأول للمأساة، فقد أدى طمعه، وعدم تبصره إلى اندلاع الأحداث واستمرارها. خلال شهري سبتمبر وأكتوبر سنة 1672 إفرنجي رجع

قراصنة طرابلس إلى الميناء وأحضروا معهم غنائم كبيرة: سفينتان بندقيتان، ومركب فرنسي. قدرت قيمة السفن وحمولتها بـ 150000 جنيه استرليني تقريباً، وكانت العادة تقضي بأن يكون نصف الغنائم للرجال، ولكن الباشا لم يترك لهم إلا 20000 جنيه. كتب برادلي: «**إن هذا هو ما دفع الجنود لحمل سلاحهم لأخذ حقوقهم بأنفسهم**».

أرسل الباشا مبلغ 20000 جنيه لمسكن أميرال الأسطول الريس علي ليوزعه على رجال الأطقم. امتعض هؤلاء من بخل عثمان واحتجوا، ورفض كثيرون منهم استلام أنصبتهم. تم استدعاؤهم إلى القلعة، ولكنهم قرروا عدم الذهاب خوفاً من الخنق، واستلموا ما خصص لهم. بالرغم من ذلك لم تسكن حالة الاستياء والسخط، بل تعالت بعد وقت قصير الهتافات المعادية مصحوبة بالتهديدات. كانت الظروف مهيأة للعصيان والتمرد، وأدرك جندي تركي، اسمه مصطفى بلوان، الفائدة التي يمكن أن تعود عليه من هذا الوضع، فقام مع بعض من أصدقائه الأتراك بتدبير تمرد ضد الباشا. بعد مغيب الشمس بأربع أو خمس ساعات، أي أثناء الليل، حمل هو وثلاثة من زملائه في الغرفة أسلحتهم، وذهبوا إلى المنامة المجاورة حيث التحق بهم أربعة أو خمسة آخرون. وهكذا خلال ساعة واحدة من الزمن وباستعمال الإقناع والتهديد وجدوا أنفسهم على رأس حوالي أربعمائة رجل. ذهبوا ـ عندها ـ إلى ثكنة أخرى حيث التحق بهم مائتان من المجندين الجدد. وتمت زيارة كل المعسكرات ومحال إقامة الجنود، وتكونت قوة عسكرية مستعدة للتحرك، ولكنها لم تكن تتضمن إلا جنوداً. كان يجب إقناع

الرؤساء. ذهب المتمردون ـ بالتتابع ـ إلى بيت الريس علي، ثم قبطان البحرية الريس عثمان، ثم كل قباطنة سفنهم وأجبروهم على قيادة الحركة. ولم يغفلوا كذلك زيارة المفتي، والقاضي، وشخصيات أخرى لضمان دعمهم وطالبوهم برأس عثمان باشا. بقي إقناع رئيس جيوش البر الباي رجب الذي ذهب إليه الريس عثمان، والمفتي، والقاضي وطلبوا إليه أن يكون على رأس التمرد على الباشا. رفض الباي رجب، وتمت مراجعته مرتين أو ثلاثاً ولكنه بقي على موقفه. عندها «**تحول التمسك به إلى حقد كبير عليه، وأقسموا أن يقتلوه هو والآخرين**»[305].

تحصن الباي في منزله مع مائة من الأتراك والمغاربة والمسيحيين. عند الساعة السادسة صباحاً تقريباً ـ يوم 21 نوفمبر ـ أحضر المتمردون ثلاثة مدافع وأربعمائة إلى خمسمائة من البنداقه. قاوم الباي بفاعلية طوال اليوم، وخلال الليل حاول ومن معه الهرب بحفر ممر تحت الأسوار، ولكن المحاولة أحبطت بسبب عمل مضاد. نال فشل هذه المحاولة من عزيمة الباي وأنصاره، ورأوا أن لا إمكانية أخرى للهرب فاستسلموا. أخذ الباي سجيناً، وقيد بالحديد صباحاً يوم 24. وفي نفس الليلة قتل خنقاً هو وأربعة من المخلصين له وقطعت رؤوسهم وألقيت جثثهم في الشارع للكلاب.

من الجدير بالملاحظة أن العصيان الذي أدير حتى حينها بطريقة ممتازة، كان قد انطلق من القاعدة، ولم يقم ضباط الجيش إلا بمسايرة الحركة طوعاً أو كرهاً. رغم أن الجنود البسطاء كانوا قادرين على إدارة أمورهم بأنفسهم، إلا أن الشعور لديهم بمراعاة

التسلسل في السلطة العسكرية دفعهم لعدم تغييب ضباطهم، وطوال سير العمليات حافظوا على الاتصال مع رؤسائهم؛ وهم الريس عثمان قبطان البحرية، والأميرال الريس علي، ودولار آغا الذي اختير كباي محل رجب، ولم يقصروا في اطلاعهم على الخطط واستطلاع آرائهم. هل كان هذا تصرفاً تلقائياً من رجال في حالة اضطراب خارج الإطار المألوف؟. لا شك، وهو أيضاً إجراء حكيم. فقد كان من الأهمية ضبط النظام، وتجنب أي تجاوزات عادة ما تحدث أيام الثورات. كما كان من الواضح أن الاستيلاء على القلعة لن يكون سهلاً، ومن ثم فأن رأي الرؤساء الكبار المجربين مفيد أن لم يكن ضرورياً. وأخيراً كان لا بد من تنسيق الأعمال.

حالما تم أسر الباي، هاجم المتمردون القلعة مطالبين برأس الباشا، وأحضرت بطاريتان من المدافع للمكان، وقام الباشا من جانبه بقصف مواقع الخصوم. ولكن النتائج كانت هزيلة من الجانبين.

أُقفلت القلعة من جانب المدينة، ولكنها بقيت مفتوحة من جانب الريف جهة الغرب حيث كانت تصلها الإمدادات، والدعم. لم يكن الباشا في وضع يائس، ووجه نداء إلى رؤساء المغاربة في الجوار، وخاصة إلى رئيسهم الجنرال عبد الله، الذي أقام معسكراً على تلة في الغرب وحدد واجبه في حصار المدينة، وهكذا أصبح المتمردون من جانبهم محاصرين. نقص التموين لدى المتمردين، فكان لا بد من الاستيلاء بسرعة على معسكر المغاربة.

يوم 26 نوفمبر، خرج دولار آغا مع بعض الفرسان وثلاثمائة إلى أربعمائة تركي، وبعد ساعة واحدة من المناوشات اضطرت القوات الموالية للباشا للانسحاب من خيامها بعد فقدها أربعة أو ستة من رجالها. كان لما حدث أثر في النيل من شجاعة القوات وتصميمها، وأمام تصميم العصاة بدأ الكثير من الموالين للباشا يتساءلون عما إذا لم يكن من المناسب الانضمام إلى المتمردين. يوم 27، عند الساعة العاشرة صباحاً هاجم دولار آغا من جديد معسكر الباشا. بمجرد بدء الهجوم تقريباً، غادر مائة وثمانون فارساً، وأكثر من خمسمائة من المشاة المعسكر وانضموا إلى جانب الميليشيا (دولار آغا). بعد ثلاث ساعات قام دولار آغا بالهجوم النهائي، فاستسلم عبد اللّه وأغلب المغاربة الذين كانوا معه. منذ تلك اللحظة أصبح الباشا محاصراً في قلعته، دون أمل في استقبال أي نجدة.

في الغداة صباحاً علم بوفاة الباشا، فقد توفي في الساعات الأخيرة من الليل. هل مات مسموماً كما اعتقد البعض في البداية؟ كلا، أنه الحزن الذي أدى لوفاته كما شهد بذلك الأطباء. كان عمره اثنين وسبعين عاماً، وترك سبع نساء كلهن من الاماء: قوقازيتين، وروسية، وكلابرية، واثنتين من أصول غير معروفة، ومن ثلاثين ولداً وبنتا أنجبهم لم يكن على قيد الحياة عند وفاته إلا أربعة عشر[306].

انتشر نبأ وفاة الباشا مع طلوع نهار يوم 28 نوفمبر، وفقد الذين يدافعون عنه الحافز لمواصلة المعركة، ودخل الريس عثمان رئيس

البحرية مصحوباً بالأميرال وآخرين من رؤساء الميليشيا إلى القلعة، فأجلسه الذين في القلعة على كرسي الباشا وعبروا له عن احترامهم بتقبيل يده. كان هذا تسرعا، لم تستمر حكومة الباشا الجديد أكثر من ساعة واحدة. فقد هاجم رجال الميليشيا الغاضبون من هذا الاختيار القلعة، وأعلنوا ـ بكل صراحة ـ أنهم لن يسمحوا من الآن فصاعداً بأن يكون على رأسهم يوناني، وأدخلوا المدعو بالى شاوش وأعلنوه دايا، وليس باشا. وكانوا يقصدون بهذا أن يكون على رأس الدولة أحد رجالهم، وليس رجلاً من رجال سلطان القسطنطينية.

لم يكن ما حدث انقلاباً، بل ثورة غيرت النظام. كان من المهم تغيير كل مستويات السلطة، والقضاء على ممثلي النظام السابق الكريه. أعيد الريس عثمان الذي عين باشا لمدة ساعة إلى موقعه رئيساً للبحرية، ولم يبق فيه إلا يوماً واحداً، وعُزل ووُضع على ظهر سفينة كانت تستعد للرحيل، لا نعرف إلى أي اتجاه، ولكن الميليشيا علمت بأنه يفكر في الفرار من السفينة على ظهر قارب، فأنزل إلى البر وقيد بسلاسل في القلعة.

من المستبعد أن يكون عبد اللّه جنرال المغاربة الذي ساند الباشا قد أبقي عليه في وظيفته، وهو ما كان يأمله، فقد استقبلته الميليشيا استقبالاً ودياً بعد استسلامه وقدمت له هدايا. كان أملاً بدون غد، فقد عزل وحل محله آخر يدعى منصور. غضب دولار آغا من هذه المعاملة وعبر عن استيائه، فعزل من وظيفة الباي التي كان قد اختير لها من الميليشيا وخلفه شعبان آغا، وأخيراً وضع

الأميرال الريس علي، على ظهر سفينة مغادرة إلى دزنة، ولكنه لم يصلها فقد قتل خنقاً أثناء الرحلة، ورقي الريس بيران لرتبة أميرال، بينما حل الريس هيزا محل الريس عثمان على رأس البحرية. وهكذا وضع في كل المواقع المهمة رجال من البحارة. كانت الترقية الأكثر أهمية هي تعيين مصطفى بلوان محرك الثورة كيخيا الداي. وبهذا رقي من مجرد جندي إلى وزير دولة رئيس للحرس، والشخصية الثانية في الدولة.

أن أكثر ما يدهش في تلك الأيام الثورية هو عدم اختلال النظام والاستقرار العام. كتب ناتانيل برادلي:

«كان من الإعجاز أن بقي النظام مستتباً في المدينة خلال هذه الاضطرابات ولم يلحق أذى بأحد».

كان الأمر تسوية حسابات بين الجنود، ومن ثم لم تلحق بالمدنيين أي خسائر.

بدأت حكومة بالي بداية مبشرة. وبرز الداي الجديد بكرمه، فقد استلم كل جندي عشرة جنيهات وثلاث ياردات من القماش بالإضافة إلى خمسة جنيهات كمقدم لأي غنائم مستقبلية. كما مُنح مسكن وراتب تقاعدي لكل زوجة من زوجات الباشا وأطفالها. لاحظ ناتانيل برادلي:

«بشفقته هذه، تجنب الداي إراقة الدماء التي كان يمكن توقع حدوثها».

بالرغم من ذلك وقعت بعض الحوادث المحزنة، وكانت على

ما يبدو من عمل الميليشيا وليس الداي. كان أول ضحايا الجند من القسس المسيحيين. كان البابا قد أرسل، قبل ثلاث سنوات، ثلاثة من الرهبان الكبوشيين إلى طرابلس، مكلفين قسساً مرشدين في السجن الذي كان أغلب من فيه من المسيحيين. كان القساوسة يسكنون منزلاً مؤجراً في المدينة، وكذلك كان مصلاهم في المدينة. قام الجنود بطردهم من مسكنهم، وهدم مصلاهم، وهدم كنيسة سانت جورج اليونانية. ومُنعت ـ منذ ذلك الوقت ـ تأدية العبادات المسيحية في السجن الذي نقل إليه الرهبان الثلاثة، ولم يخرجوا منه إلا بناءً على تدخل القنصل البريطاني، وتم ترحيلهم على سفينة متجهة إلى بلدان المسيحية.

حدثت تجاوزات أخرى؛ منها قتل الريس عثمان خنقاً في سجنه من قبل مرؤوسيه السابقين، وقتل اثنين من أبناء شقيق عثمان باشا، ومقتل إيطالي وجد في السريرمع امرأة تركية، وقتل كيخيا الباشا الأخير، وأخيراً اختفاء الريس علي بينما كان في طريقه إلى درنة.

هل يمكن اعتبار بالي مسؤولاً عن هذ الوقائع؟ فيما يتعلق بما حدث للرهبان يلاحظ برادلي أن الداي تصرف بضغط من الميليشيا، وكان بالي ما زال تحت رحمة هؤلاء الذين انتخبوه، والذين باستطاعتهم عزله في أي لحظة. . . أو قتله خنقاً، فلم يكن قد تمكن من السلطة بعد. وإذا كان قد اتخذ إجراءات ليبرالية في الأيام الأولى، فدافعه أن يكون محبوباً شعبياً.

أعلن أولاً، ميناء طرابلس ميناء حراً ومفتوحاً.

«لكل المسيحيين الذين يرغبون المتاجرة بشرط دفع الرسوم الجمركية».

كما أعيدت حرية البيع والشراء للجميع، وكان عثمان باشا قد احتكر لنفسه كل المعاملات التجارية، كما أعطى الحق لكل شخص ـ تركياً كان أو مغربياً ـ في تسليح سفن قرصنة، كما هو معمول به في الجزائر في حينها. وهكذا عدل بالي عن الاحتكارات التي منحها عثمان باشا لنفسه.

كان فتح الميناء للتجارة مع المسيحيين، والسماح في نفس الوقت بمزاولة القرصنة بدون حدود يمثل نوعاً من الاستخفاف. لاحظ برادلي:

«إذا لم يبسط الله رحمته، فإن البلدان المسيحية ستعاني كثيراً من الطرابلسيين أكثر من معاناتها في الماضي».

لم يمنع ما سبق الداي من المصادقة، يوم 21 ديسمبر، على كل بنود السلام التي وقعها عثمان باشا مع بريطانيا العظمى، والتعهد باحترامها. لم يكن هذا هو التناقض الوحيد من قبل بالي.

كان موقفه ـ كذلك ـ غامضاً تجاه الباب العالي، ففي 31 ديسمبر غادرت سفينتان إلى القسطنطينية بهدايا قدرت قيمتها بمائة ألف جنيه، وكان الهدف إحاطة السلطان بما جرى[307].

«أسرعت الجمهورية الجديدة بإرسال مفوضين إلى السيد الأعظم (السلطان) لإحاطته بالتغيير الذي وقع».

لكن السلطان لم يأخذ في الاعتبار ما حدث، وأسرع بإرسال

باشا جديد، اسمه علي، لخلافة عثمان، وهو ما لم يضايق المتمردين كثيراً:

«عند وصول الباشا استقبل بكل التشريفات التي يمكن تصورها، وحصر في قصر جميل دون تمكينه من المشاركة في أمور الدولة. ووضعت عليه حراسة من أجل عدم إتاحة الفرصة له لمزاولة أي تجارة أو مسؤولية. ولم يغفل إعطاؤه من رسوم الغنائم، والجمارك، والتموينات الضرورية للمحافظة على مسكنه بما يليق بكرامة باشا»[308].

لم يكن ممثل السلطان إلا واجهة، ولم يكن وجوده يقلق أحداً، بل ربما كان مفيداً، فقد كان من اختصاص الباشا التوقيع على المعاملات الرسمية، وخاصة على الاتفاقيات التي تبرم مع القوى الأوروبية من قبل الداي، والديوان[309]. لم يكن هذا لينطلي على أحد، ولكنه قد يضع الباب العالي في وضع محرج.

كان هناك عدم اتساق بين المعاهدة مع إنجلترا، وحرية القرصنة. وبعد أقل من سنتين من تجديد الاتفاقيات كانت القرصنة في أوجها. ومن بين الغنائم سفينتان إنجليزيتان: مارلين وربانها روجر مارتن «Roger Martin» مؤجرة من البندقية ومقصدها أليكانتي «Alicante»، والأخرى ألهنتر وهي بقيادة الربان توماس باركر «Thomas Parker» ذاهبة من ليفورن في اتجاه سميرن «Smyrne» محملة بالكونتانتي[*]، والقماش، والقصدير، والرصاص،

(*) لم نجد لهذه الكلمة ترجمة في القواميس الفرنسية، والإنجليزية التي في حوزتنا ـ المترجم.

والحرير. وقد أُتي بالأولى يوم 12 سبتمبر والثانية يوم 11/ 10/ 1674 إفرنجي. وبناء على طلب القنصل أطلق سراح القباطنة، ورُجعت الأموال المملوكة للإنجليز ولكن السفن وشحناتها لم ترجع. وهكذا نقض السلام عمداً[310].

أمام هذه الجرأة لم يكن هناك إلا حل واحد: القوة. كان رد فعل الحكومة البريطانية مباشراً، وأسرعت بإرسال أسطول إلى طرابلس تحت إمرة الأميرال جون ناربروغ «John Narbrough». غادر هذا الأخير ليڤورن في مايو 1675 إفرنجي، ووصل إلى مالطا يوم 7 يونيه. كان يوم 12 أمام طرابلس، ورأى في البحر أربعة من أحسن السفن الطرابلسية، فطاردها واضطرها للدخول إلى الميناء، ثم توقف في عرض بحر المدينة[311].

بدأت المفاوضات غداة وصول ناربروغ، ولكن محادثيه لم يعودوا هم الذين نقضوا السلام ووجهوا للنشاط البحري البريطاني ضربات قاسية. فقد مات بالي يوم 13 مايو وعمره خمس وستون سنة، وانتخبت الميليشيا مساعده مصطفى بلوان[312] ليحل محله. يا له من صعود لهذا البحار الذي كان وراء التمرد قبل سنتين ونصف! ويا له من انفراج كذلك! لقد خيب بالي بسرعة الآمال التي كانت معقودة عليه، فعندما اطمأن على وضعه تحول إلى طاغية لا يحتمل. ولم يجد الأنصاري الكلمات الكافية في قسوتها لإدانة **«طبعه العنيف، وقسوته، وعشوائيته»**[313]. كما تذمرت منه الدول الأوروبية. وقد أظهر الداي الجديد تفهماً أكثر، وبدأ، بمجرد انتخابه، اتصالات لتجديد الارتباط مع بريطانيا العظمى، فقد كتب

يوم 19 مايو إلى برادلي معبراً عن رغبته في توقيع اتفاقية سلام جديدة، وفي نفس الوقت أرسل ثلاث رسائل، إحداها لتجار مرسيليا، والأخريين إلى ليڤورن، والبندقية أكد فيهما أن بإمكان التجار من كل الدول العيش بحرية في طرابلس.

هل أثمرت هذه النوايا الطيبة؟ لا نعرف. ما كاد مصطفى بلوان يستلم السلطة، حتى ندم الميليشيون على اختيارهم، بدعوى أنه لم يكن كريماً عند وصوله إلى السلطة، بالإضافة إلى تعيينه المدعو سليمان، كيخيا وهو شخص معروف بسلوكه الشاذ. هكذا كانت الأوضاع يوم 30 مايو عندما دخل إلى الميناء ثلاثة من مشاهير القراصنة، كان بالي قد أرسلهم في شهر أبريل لقرصنة شرق البحر المتوسط. كان من بين القراصنة العائدين ميسير أوغلي الذي ذهب إليه الساخطون من الميليشيا فور وصوله، وبعد تبادل وجهات النظر معه تم التوصل إلى قرار بعزل مصطفى بلوان وتعيين ميسير أوغلي محله. ومن الغداة تم تنفيذ هذا البرنامج[314].

اتضح أن اختيار الجنود كان موفقاً هذه المرة. أن الأنصاري الذي كان قاسياً في أحكامه امتدح أوغلي، كتب عنه:

«رجل مصمم، مراع للأوامر الإلهية، مهتم بالعدل والمساواة، لطيف المعشر، قاس بالنسبة لسوء استعمال السلطة والإخلال بالواجبات، حتى أصبحت في عهده الطرق آمنة»[315] بالرغم من ذلك لا يجب أن ننسى أن ميسير أوغلي كان قرصاناً خطراً، ومن ثم ليس من السهل التعامل معه. وقد عاش ناربروغ التجربة.

ستكون المفاوضات طويلة، فقد بدأت في يونيه 1675 إفرنجي، ولم تصل إلى نهايتها إلا في مايو سنة 1676 إفرنجي. لنتابع تقدمها. يوم 22 يونيه وجهت رسالة من ناربروغ إلى الداي والديوان، وكلف ناتانيل برادلي الذي كان على ظهر سفينة الأميرال بحمل الرسالة التي كانت عباراتها غامضة. كان الأمر يتعلق في هذه المرحلة باختبار تصميم الطرابلسيين، وقد اكتفى الأميرال بطلب التعويض عن الخسائر التي لحقت بالإنجليز. وجاءت الإجابة التي أحضرها القنصل واضحة: لن يستجاب لهذا الطلب، وإذا كان الأميرال يوافق على ترك هذه الادعاءات فمن الممكن التوصل إلى السلام[316]. لم يكن الوقت للإصرار بالنسبة لناربروغ، فهو في انتظار مدد. وبالفعل، وصلت يوم 21 يوليه سفينتان حربيتان، «السوالو» و«الدارموث»، وأصبح الأميرال قادراً على قفل الميناء، ففي حوزته الوسائل الضرورية لذلك. بدأت قوارب السفن الحربية في عمل دوريات ليلاً ونهاراً أمام الميناء مستعدة لإخطار الأسطول عند أي محاولة للخروج.

أظهرت الإجراءات المتخذة من قبل الأميرال فاعليتها. فيوم 22 خرجت ثلاثة قوادس من الميناء لمرافقة وتوصيل مركب محمل بخشب البناء. عند عودتها ـ في الغد ـ قاطرة المركب وجدت فجأة محاطة بثلاث سفن من الأسطول الإنجليزي مصحوبة بقواربها الشراعية. عندما رأى الطرابلسيون أنهم محاطون، قاموا بإشعال النار في المركب وأحد القوادس وارتموا على الرمال واستطاع الأتراك الوصول إلى الشاطيء رغم قصف الأسطول الأنجليزي،

وتمكن الإنجليز من تحطيم القادسين الآخرين دون خسائر أخرى إلا ستة عشر أو سبعة عشر جريحاً. كتب ناربروغ:

«بالنسبة لطرابلس كانت الخسارة فادحة، فقد كان الطرابلسيون يعولون على السفن الثلاث للدفاع عن مينائهم، وتحييد السفن الحارقة التي كانت تهاجمهم. ولم يعد في حوزتهم أي سفن من هذا النوع، وبقيت لديهم ثلاث سفن من ذات الساريين، وعشرة إلى اثني عشر قارباً. وقد فكوا سواري سفنهم من أجل وضعها في مأمن».

بدا وضع طرابلس ميؤوساً منه، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً. فالأسطول الإنجليزي كان معرضاً لخطر مزدوج: نقص المواد التموينية، وسوء الأحوال الجوية. كان من المهم للداي، والديوان كسب الوقت عن طريق إطالة المفاوضات، وهذا ما حرصوا عليه. يوم 31 يوليه، وجهوا رسالة إلى الأميرال طلبوا فيها أن يبعث إليهم القنصل برادلي من أجل الاتفاق على شروط السلام. أصر ناربروغ على دفع الخسائر التي أُلحقت بالإنجليز، وطلب كذلك رؤوس المسؤولين عن نقض معاهدة السلام، وإجابه الطرابلسيون بأن لا أموال لديهم، أما عن المسؤولين عن نقض معاهدة السلام فهم معروفون، إنهم بالي والكيخيا مصطفى بلوان، وقد توفي الأول، ونفي الثاني، وليس هناك رؤوس أخرى للقطع، متجاهلين أن أحد المسؤولين الرئيسيين كان ميسير أوغلي الداي الجديد. كان من الأهمية البالغة عدم قطع الاتصالات. لهذا وجه الداي والديوان رسالة جديدة إلى الأميرال بعد ظهر نفس اليوم، السبت، يرجونه

فيها أن يبعث برسالة يبين المبالغ التي يطلبها للتعويض. عرفهم ناربروغ بالمطلوب، إنه يصر على ثمانية آلاف دولار يدفع نصفها مباشرة عند الاتفاق على السلام، ويدفع النصف الآخر للملك في نهاية الإثني عشر شهراً اللاحقة، وطلب أيضاً إطلاق سراح كل الأشخاص الذي أخذوا من السفن الإنجليزية أو السفن الحاملة للعلم البريطاني، وكل الرقيق من الجنسية الإنجليزية. وفي حالة عدم الاستجابة لهذه المطالب، فإنه يطالب برؤوس المسؤولين عن خرق بنود السلام، وإطلاق سراح كل من تم أسرهم تحت العلم البريطاني. وأجاب الداي والديوان ـ كما في السابق ـ بأنهم مفلسون، وأن المسؤولين عن الحرب لم يعودوا موجودين ليساءلوا[317].

يوم 7 أغسطس، أرسل الداي رسالة جديدة يقترح فيها أن يُدفع المبلغ عيناً في شكل ملح وليس نقداً. توقفت المباحثات بسبب هبوب الرياح وأصبح من المستحيل البقاء في المرسى، وهبط المراسلون على عجل إلى البر. حير موضوع الدفع عينا ناربروغ. هل كان هذا مقبولاً من حيث الشكل، وما هي الكمية التي يصر عليها؟ وخطر له حل آخر زاد اقتناعه به كلما فكر فيه أكثر. أن الطرابلسيين يقولون الحقيقة، دون شك، عندما قالوا بإفلاسهم، زد على ذلك، إن وضعهم المالي يسوء أكثر كلما طال أمد الحصار. ومن ثم لماذا لا يكتفي بطلب إطلاق سراح كل الرقيق المسيحيين؟

كتب ناربروغ:

«أظن أن لدى الداي ألفين من الرقيق من عدة دول ولكن عدد

الإنجليز ليس أكثر من ثلاثة في كل المملكة. . . أعتقد أنني إذا ما طلبت إلى الداي والحكومة إطلاق بعض الرقيق المسيحيين محل التعويض فإنهم سيقبلون. وأن هذا ببساطة يُشَرِّف صاحب الجلالة. . . وسيعرف به العالم كله. وهكذا سيناله الكثير من الشرف، عوضاً عن الربح»[318].

قُبل اقتراح ناربروغ في لندن، فأرسل يوم 23 سبتمبر برادلي ليقدم الاقتراح إلى الداي. جاء الاقتراح متأخراً جداً، فقد اقترب الشتاء، واضطرت بعض السفن لمغادرة المرسى، وعما قريب سيضطر كل الأسطول للمغادرة. استطاع الداي بإطالة المباحثات كسب الوقت، ومن ثم رفض الاقتراح.

كان ناربروغ يعرف أنه لإخضاع الخصم، لا بد من توجيه ضربة قاصمة له، وفكر في دخول الميناء وحرق كل سفن القراصنة، ولكن فصل الشتاء تقدم، ويجب تأجيل هذا لتاريخ لاحق. يوم 2 أكتوبر، أعطى الأمر بالإبحار والمغادرة، وبعد ثمانية أيام كان في مالطا، وهناك، أيضاً، وجد نقصاً في المؤن، واضطر لإرسال سفينتين إلى إنجلترا، واثنتين إلى ليفورن، وذهب هو وبقية الأسطول إلى كورون، ومودون[319].

وصل ناربروغ من جديد أمام طرابلس في بداية يناير، وبدأ يوم 14 في تنفيذ مشروعه. أعطى هو نفسه رواية لهذا العمل المأثور. كان أسطوله مكوناً من أربع سفن حربية، وسفينتين حارقتين، وسفينتين تجاريتين. وكانت بالميناء أربع سفن حربية طرابلسية مربوطة إلى أسوار القلعة. لم يكن من المتصور، بكل وضوح،

دخول السفن الحربية إلى المرفأ. كان لدى ناربروغ اثنا عشر قارباً مجهزاً بمعدات حرق تحت إمرة مساعدة كلودسلي شوفل «Cloudesly Shovel». لنترك الحديث للإميرال:

«حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً، دخلت قواربي بتصميم إلى الميناء، واستولت على قوارب الحراسة، واقتربت من السفن وأشعلت فيها النيران وحطمتها كلها.

وقد قتل بعض الأتراك والمغاربة، ووجد الآخرون النجاة في الهرب. كانت السفن المحطمة تحت أسوار قلعة الداي، وكانت هي فقط الموجودة في الميناء، وذلك باستثناء سفينة تجارية تونسية طَلبت عدم التعرض لها، وقد نجت من الحريق. تم إنجاز هذا العمل في أقل من ساعة، دون أي خسائر من جانبنا إلا استهلاكنا لبعض الذخائر، والقنابل، والقوارب الحارقة».

كانت الضربة التي وجهت إلى بحرية طرابلس قاسية جداً. لم يتوقف ناربروغ عند هذا، وقام يوم 26 يناير بقصف المدينة بحوالي مائة قذيفة أطلقها على الأحياء السكنية. وقام يوم 3 فبراير، على الساحل الشرقي لطرابلس، بتحطيم خمس سفن مشحونة بالحبوب وكمية من خشب بناء السفن. يوم 10 فبراير استولى في البحر على سفينة طرابلسية[320]، وتوجه على إثر ذلك إلى مالطا. في مايو عاد ناربروغ من جديد، ووقع يوم 10 مايو معاهدة سلام. لم يكن موقع الاتفاقية عن طرابلس ميسير أوغلي، الذي عزلته الميليشيا يوم 9 أبريل السابق[321] بعد أن ضاقت ذرعاً بتصميمه على معاقبة التجاوزات. لهذا السبب حملت الوثيقة طابع مصطفى الداي

الجديد. وعندما غادر الأميرال أخذ معه عدداً من العبيد المسيحيين الذين تم تحريرهم، وكان من بينهم الجراح الفرنسي جيرار[322]. ترك ناربروغ في طرابلس نائب قنصل، معين من طرفه بشكل مؤقت، يسمى هنري كابل[323] «Henry Caple».

لم ترض الاتفاقية التي وُقِّعت صاحب الجلالة البريطاني رضاء كاملاً، وبعد سنتين من توقيعها كان السفير البريطاني في القسطنطينية يضغط على السلطان من أجل إلزام طرابلس بإعادة الأموال التي تم الاستيلاء عليها من السفينتين «المارلين» و«الهنتر». كانت الاتفاقيات الموقعة، أياً كان النقص فيها، تعطي للبحرية البريطانية أفضلية على كل الدول الأخرى، وكان ناربروغ يتابع احترامها، فها هو في يوليه 1668 إفرنجي يقوم بأعمال الدورية من جديد أمام طرابلس[324].

كان السلام الذي أمكن التوصل إليه بصعوبة بين طرابلس وبريطانيا سلاماً هشاً، وذلك لسببين، أولهما عدم استقرار النظام الذي كان تحت رحمة مزاج الميليشيا المتقلب. عند استعراضنا لقائمة الدايات الذين تعاقبوا من نهاية 1672 إفرنجي إلى 1683 إفرنجي ـ أي خلال عشر سنوات ـ نجد أن من بينهم أربعة تم عزلهم من قبل الميليشيا وهم: ميسير أوغلي، وخلفه إبراهيم شلابي الذي لم يحكم إلا خمسة أيام، وأق محمد الذي قتله الجنود سنة 1679 إفرنجي، وأخيراً حسن عبازة الذي تم نفيه سنة 1683 إفرنجي[325]. وكان ظهور فرنسا على مسرح الأحداث سبباً آخر لعدم استقرار السلام الموقع مع بريطانيا.

بعد حملة ناربروغ بقليل، بدأت فرنسا في إظهار قلقها من الخسائر التي لحقت بسفنها في البحر المتوسط. وبضغط من كولبرت «Colbert» لم تتوقف عن المطالبة بالحصول على اتفاقية سلام. لم يكن ممكناً لطرابلس أن تكون في حالة سلام مع بريطانيا وفرنسا في نفس الوقت، لأن القرصنة تكون مستحيلة في هذه الحالة، وهو ما يعني خراب طرابلس. وقد نبه كل قناصل بريطانيا الذين تتابعوا في طرابلس حكومتهم إلى هذا التناقض، وهو أن من الضروري لاستمرار الحياة الاقتصادية في الجمهورية أن يتمكن قراصنتها من استهداف سفن هذه الدولة أو تلك. يجب ألا ننسى أنه بالإضافة إلى أسعار السفن وحمولاتها التي يتم الاستيلاء عليها، كان بيع الأسرى يمثل قيمة ضخمة. فقد كانت الفدية المطلوبة لكل عبد يتم تحريره تتراوح بين مائتين وثلاثمائة دولار في بداية سنة 1675 إفرنجي، ورفعها ميسير أوغلي إلى خمسمائة دولار[(326)] عند وصوله إلى السلطة في مايو من نفس السنة.

كانت الحركة التجارية في طرابلس في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر قليلة الأهمية لدرجة لا تمكن من الاستغناء عن القرصنة. ولهذا كان القنصل الإنجليزي يرسل إلى حكومته منذراً كلما ظهر أسطول فرنسي أمام طرابلس. كانت المنافسة مفتوحة بين فرنسا وبريطانيا العظمى.

كان سبب التدخل الفرنسي، هو انعدام الأمن في الأرخبيل اليوناني، وبحار سوريا، حيث كان القراصنة الطرابلسيون مدعومين من قراصنة الجزائر وتونس، يمثلون فيها خطراً حقيقياً بالرغم من

الدرس الذي لقنه لهم ناربروغ. وكان على رأس الضحايا فرنسا التي كانت تجارتها من مرسيليا مهددة. لهذا السبب كلف كولبرت «Colbert» سنة 1680 إفرنجي الفارس دي فالبل «de Valbelle» بالذهاب إلى طرابلس وفرض معاهدة عليها. ظهر هذا الأخير أمام المدينة يوم 1 فبراير[327]، مصحوباً بمفوض من غرفة التجارة في مرسيليا، السيد دي سانت جاك «de Saint Jaques»، وطالت المباحثات بين الطرفين دون التوصل إلى أي اتفاق[328]. لم يكن من الممكن الوصول إلى اتفاق لأن الطرابلسيين أعادوا بناء أسطولهم وكانوا يعدون لعمليات جديدة. وصف برادلي الموقف بأسلوب تصويري:

«كان دخان سفنهم التي حطمها سير جون ناربروغ قد اختفى منذ وقت طويل، واستطاعوا تعويض الخسائر التي لحقت بهم ثلاث مرات باقتناء سفن جديدة».

في شهر يونيه، جاء القراصنة بخمسة أسلاب، ثلاثة منها سفن فرنسية: الأولى كانت محملة من اليكانت «Alicante» بستمائة كيس صوف من إسبانيا، وبضاعة لرجال السفينة من البندقية، وكانت الثانية قادمة من مرسيليا، وغادرت الثالثة البندقية بشحنة أرز وسلع أخرى ثمينة[329].

كان من المستحيل ألا يكون هناك رد فعل من فرنسا. وانتشرت إشاعة في طرابلس تقول بأن أسطولاً فرنسياً من مائة وخمسين سفينة مستعد لمغادرة طولون، وهو ما مثل تهديداً دفع أغلب السفن

الحربية التابعة للجمهورية للمغادرة نحو المشرق للتجول في انتظار الأحداث[330].

كان الذين نشروا هذه الأخبار من الفرنسيين واليهود، وكانت رؤيتهم صحيحة. فبعد فشل دي فالبل استلم دكسن «Duquesne» أمراً بمعاقبة الطرابلسيين. كان عدد مائة وخمسين رقماً مبالغاً فيه بكل تأكيد، فعندما ظهر دكسن أمام طرابلس يوم 16/ 8/ 1680 إفرنجي، كان أسطوله مكوناً من سبعة أشرعة (سفن) فقط، ولكنها سفن حربية خطيرة، من بينها سفينة الأميرال التي كانت مسلحة بثمانين مدفعاً من النحاس.

بعد بعض أيام قضاها الأميرال في عرض البحر، مخافة التراكمات الرملية التي توجد في بعض المواقع البحرية في المنطقة، دخل إلى المرفأ ورسى فيه يوم 20 أغسطس. وأرسل ضابطاً في بزة عسكرية رائعة ليطلب السلام. كان الداي هو حسن عبازة، وقد أجاب بأنه لا يستطيع المخاطرة بتوقيع أي اتفاق في غياب قراصنته الذين كانوا في المشرق خشية عدم موافقتهم على ما يتوصل إليه عند عودتهم. كان هذا صحيحاً. وروفق المبعوث إلى زورقه باحترام بالغ. عند الساعة العاشرة من الليلة اللاحقة أعطى الأميرال أمره بالإبحار[331].

شعر قنصل إنجلترا ـ وهو الآن توماس بيكر «Thomas Baker» ـ بالرضا فقد كان يعرف أن توقيع سلام مع فرنسا يعني نقض السلام مع بلاده، ولكنه لم يكن مطمئناً للمستقبل. وقد عبر عن مخاوفه في رسالة بعث بها بعد تسعة أشهر، بتاريخ 15/ 5/ 1621 إفرنجي. كان يدين فيها أولاً:

«الانحلاف الخلقي، ووقاحة الجنود الصغار».

بالإضافة إلى هذا، يؤكد أهمية البحرية الطرابلسية، المكونة من ست عشرة سفينة حربية مسلحة كل واحدة منها بأربعة عشر إلى اثنين وأربعين مدفعاً، وينبه حكومته إلى قوة الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط.

«الأعظم في البحر في هذا الجزء من العالم».

إن وصول الأسطول الفرنسي أمام طرابلس كان سيدفعها لا محالة إلى الاتفاق مع فرنسا، وقطع العلاقات مع بريطانيا العظمى. باعتراف الطرابلسيين أنفسهم، **«إن من المستحيل على هذه الحكومة الاستمرار، مع الاحتفاظ بالسلام مع التاجين في نفس الوقت»**.

كان من المتوقع عودة دكسن وبوارجه لدرجة أن القراصنة، غادروا الميناء[332] كما فعلوا في المرة السابقة، وتوجه الأميرال الطرابلسي إلى الأرخبيل[333]، خلافاً للتعليمات التي تلقاها، والتي تقضي بالتوجه إلى الاسكندرية. كان القراصنة يبحثون عن فريسة سهلة، ولم يكونوا يشكون في مقابلة الأسطول الفرنسي. كان هذا في بداية يوليه، وكان دكسن في مالطا، وبدأ الإبحار في اتجاه الشرق. يوم 8 يوليه، قابل مساعده الماركيز دانفرفيل «d'Anfreville» الذي كان في انتظاره أمام جزيرة السبيانس «Sapience» ليخطره بأن القراصنة الطرابلسيين، وعددهم ثمانية، قد انسحبوا إلى ميناء شيو «Scio». كان الحظ إلى جانب دكسن، فتابعهم إلى الميناء مصمماً على مهاجمتهم. وعندما وصل أمام الجزيرة بعث إليه الآغا قائد المكان جندياً انكشارياً مستفسراً عن نواياه، ومذكراً بأن فرنسا في

حالة سلام مع الباب العالي. كتب الفارس دارڤيو «d'Arvieux»:

«أجاب السيد دكسن الجندي الانكشاري أن باستطاعته التأكيد للذين بعثوا به، إن ليس في نيته شيء ضد قلعة السيد الأعظم (السلطان)، ولا ضد المدينة، ولا ضد القادس التركي الذي كان في الميناء، ولكنه يريد مهاجمة قراصنة طرابلس، أعداء فرنسا الذين يستعملون سفنهم بالمخالفة للاتفاقيات، وهو مصمم على مهاجمتهم في أي مكان يوجدون فيه».

وهذا ما فعل. تحت قصف المدافع وقعت السفن الطرابلسية في الفخ، وفقدت صواريها ولحقت بها أعطاب بالغة وكانت ستغرق، أو يستولى عليها، لو لم يتدخل القبطان باشا خاصة بعد إصابة المدينة ببعض القنابل. وبدأت مفاوضات بين الطرفين بتوسط القبطان باشا، استمرت مدة طويلة، ولم يتم التوصل إلى اتفاقية إلا يوم 25 أكتوبر.

وقد اتفق فيها على الآتي:

1 ـ «يحترم الطرابلسيون بنداً بنداً اتفاقية السلام الأخيرة التي تكرم الملك بمنحها لهم.

2 ـ يسلمون حالاً المائة والسبعة والعشرين عبداً الموجودين على ظهور سفنهم، والثمانية عشر صبياً من نفس الدولة الذين يخدمون في غرفة القبطان.

3 ـ يردون آخر سفينة فرنسية استولوا عليها وكل طاقمها المكون من خمسة وعشرين رجلاً، وكذلك بضائعها.

4 ـ غير مسموح للطرابلسيين بزيارة أو الصعود إلى أي سفينة فرنسية تقابلها سفن طرابلس.

5 ـ إذا استولت سفن طرابلس على سفن لأعدائهم، فيطلقون فوراً سراح الفرنسيين الذين يوجدون على هذه السفن وبشرط ألا يزيد عددهم عن عشرة.

6 ـ تشتري فرنسا كل العبيد الفرنسيين الموجودين حالياً في طرابلس. ويكون السعر مائة قرش للواحد بالنسبة للذين أخذوا من على سفن تجارية، ومائة وخمسين قرشاً للذي أخذ من على سفينة من سفن القراصنة»[334].

إن البند الأخير يشد الانتباه، فمن الغريب أن لا يصر المنتصر على تحرير كل الأسرى الفرنسيين دون قيد أو شرط. لا شك أنه كان في وضع لا يستطيع فيه إملاء شروطه. كان القبطان باشا هو الحكم، وهو واضع هذا السلام الأعرج. فلم يسبق وأن ظهر الوضع في طرابلس بهذا الغموض. من الذي كانت له السلطة في طرابلس؟ الداي؟ أو القراصنة، أو الباب العالي؟ كان من السهل للداي والديوان رفض التعهدات التي يعطيها بحارتهم على بعد ألف وخمسمائة كيلو متر تقريباً من طرابلس تحت إكراه الباب العالي، ومن هنا كانت الاتفاقيات الموقعة في شيو «Scio» هشة.

عندما رجع الأميرال الطرابلسي يوم 20 ديسمبر مع اثنين من قراصنته مصحوباً بضابط فرنسي إلى قاعدته شق عليهم الخضوع، أي قيمة تعطى لهذه الاتفاقية الموقعة في شيو بواسطة أميرال كان

عليه ألا يوجد في ذلك المكان؟ إنه المسؤول، ويستحق العقاب، وبالفعل عزل من منصبه وتم نفيه بعد ثلاثة أيام من رجوعه.

كان الطرابلسيون في انتظار وصول دكسن في أبريل سنة 1682 إفرنجي، فقد حان الوقت عندئذ لتنفيذ البند الأخير من الاتفاقيات، والاتفاق بصفة نهائية على السلام. ولكن الأميرال الفرنسي، الذي كان قد قاد أسطوله إلى القسطنطينية[335] من شيو، أهمل طرابلس. كان هذا خطأ مؤسفاً، لا سيما وقد تم تسليم تسعين عبداً فرنسياً إلى ممثل فرنسا مجاناً مقابل وعد بزيارة من السيد دكسن[336].

لم يكن دكسن هو الذي ظهر في طرابلس يوم 1/11/1682 إفرنجي، وإنما الأميرال هربرت «Herbert» قائد الأسطول البريطاني في المتوسط، وقد استقبل استقبالاً حسناً[337]، وسلمه الداي رسالة إلى الملك عبر له فيها عن:

«سروره الذي يعجز عن وصفه، للمصادقة على اتفاقية السلام المبرمة منذ بعض الوقت مع عزيزنا جداً سيرجون ناربروغ»[338].

كان مجيء الأسطول البريطاني حاسماً، كما لاحظ توماس بيكر الذي جاء الأسطول بناء على إلحاحه. وبالفعل لم تتأخر القطيعة مع فرنسا. يضيف القنصل:

«إن الخطأ الأكبر هو تصور أن هؤلاء الناس بإمكانهم الإنفاق على أسطول ضخم، وثلاثة آلاف جندي مشرقي (شامي)، وألف وخمسمائة فارس تركي، وكل المصاريف العامة الأخرى، في حين أن البلد غير منتج، والخزانة خاوية. أن سلاماً حقيقياً مع التاجين يحطم أساس وجودها»[339].

يوم 9 / 12 / 1682 إفرنجي، جاء القراصنة بسفينة فرنسية حمولة 200 طن، محملة من صيدا ومتجهة إلى مرسيليا. كانت غنيمة كبيرة: خمسمائة كيس بوتاس، وثلاثمائة باله قطن، وخمس مقاطع من الحرير، وقيمتها الإجمالية ثلاثون ألف دولار. أعلنت حكومة طرابلس أن القراصنة تصرفوا دون أمر، واكتفت باتخاذ إجراءات منع القرصان المسؤول(340) من الإبحار، ولكن هذه الإجراءات رُفعت يوم 29، وأخذ طاقم السفينة الفرنسية إلى السجن وأعلنت الحرب على فرنسا. وكانت الأسباب المثارة هي عدم استلام أي رسالة من ملك فرنسا منذ توقيع السلام في شيو، كما لم يظهر دكسن كما كان موعوداً به، من أجل إطلاق سراح بقية العبيد مقابل السعر المتفق عليه. كتب توماس بيكر مخطراً وزيره: «**ترون أي ذرائع تافهة يتذرع بها هؤلاء الناس لإعلان الحرب على دولة قريبة وقوية**»(341).

كان أكثر المتضررين تجار مارسيليا، ومن ثم حاولوا تسوية الأمور بإرسال ابن النائب الأول لعمدة المدينة حاملاً رسالة من الملك. وصلت المركب التي تقله أمام طرابلس يوم 1/ 2/ 1683 إفرنجي في منتصف الليل. كان القمر ساطعاً، والنسيم غربياً عليلاً، والبحر هادئاً، إلا أن الباخرة اصطدمت، لسبب غير معروف، بصخر بحري أمام المدينة أدى إلى تحطمها. وبدون مراعاة درجة المسافر والرسالة التي يحملها، أخذه الميليشيون عبداً، هو وطاقم السفينة، وكان عددهم جميعاً سبعة عشر(342) شخصاً. يوم 10 أبريل اقتاد أحد ضباط الداي قنصل فرنسا ووضعه على ظهر سفينة، بدأت

أبحارها مباشرة إلى الاسكندرية. وأكد بيكر أن هذا الدبلوماسي البائس كان متوتراً لدرجة انفجاره باكياً عند صعوده على ظهر الباخرة. لم يكن ذلك بدون أسباب: ففي نفس هذا الشهر استولى الطرابلسيون على أربع سفن فرنسية: باخرة صغيرة محملة بالحبوب، وباخرة حمولتها مائة وخمسون طناً تسمى «القولدن صن» من مرسيليا محملة بشحنة قيمة من الاسكندرية وقد استطاع طاقمها، لحسن الحظ، الهرب على جزيرة كاندي «Candi»، ومركب مغادر من صيدا ببضائع، وثمانية عشر ألف دولار لإسبانيا وقد تم الاستيلاء عليها برجالها السبعة عشر، والرابعة سفينة بشراعين مثلثين برجالها الاثنين والعشرين[343].

قرر لويس الرابع عشر الرد على هذه الإهانات الخطرة، وأعطى أوامره للقيام بعمليات ضد الطرابلسيين وتكرارها حتى يخضعوا. قام دكسن في آخر سنة 1683 إفرنجي بقصف طرابلس[344] بالقنابل، وبعد سنتين قام داستري «d'Estrees» بنفس الشيء، وكانت الأضرار هذه المرة، جسيمة جداً ـ هدم نصف المدينة ـ لدرجة اضطر معها الداي الحاج عبد اللّه للخضوع لكل شروط نائب الأميرال، وتم توقيع السلام يوم 29/ 6/ 1685 إفرنجي. وقد لخص بتي دي لاكروا «Petis de Lacroix»، الذي قام بالترجمة، أهم بنود الاتفاق والتي تضمنت أن تدفع طرابلس خمسمائة جنيه، وتعيد كل العبيد الفرنسيين والأجانب المأخوذين من على سفن فرنسية، وعددهم ألف ومائتان بدون مقابل[345]. حققت الاتفاقية مزايا كبيرة لصالح فرنسا، ولكن فرنسا كانت تعرف عدم وفاء

القراصنة بالتزاماتهم، ففي سنة 1686 إفرنجي جاء أسطول فرنسي أمام طرابلس ووقع مورتمار «Mortemar» الذي كان يقود الأسطول اتفاقيات جديدة[346].

كان المعتقد أن السلام قد استتب، ولكن الأمر لم يكن كذلك. فقد بذل القنصل البريطاني كل جهوده من أجل المحافظة على العلاقات بين طرابلس وبلاده، ونجح في ذلك. فقد أكدت رسالة موقعة بتاريخ 29/ 9/ 1686 إفرنجي من قبل الداي، والباي، والأميرال لملك إنجلترا استمرار السلام بين البلدين. عند إرساله لهذه الرسالة، أوضح القنصل كيف، **«كان من الضروري ظهور بعض بوارج صاحب الجلالة»**[347] للحصول على هذا الالتزام.

في سنة 1687 إفرنجي، أرسل الداي إبراهيم رسالة جديدة إلى الملك جيمس، وفي السنة اللاحقة كتب الداي محمد من جانبه إلى **«ملك إنجلترا، وإيرلندا، وفرنسا»**[348].

وهكذا على غير ما كان متوقعاً، أصبحت طرابلس في حالة سلام مع فرنسا وإنجلترا في نفس الوقت. ما كان هذا ليستمر. حاول كل طرف من جانبه أن يشكك في مصداقية منافسه. ففي سنة 1689 إفرنجي بذل الفرنسيون جهوداً لإقناع الطرابلسيين بعدم قدرة الإنجليز على الظهور بأسطولهم في تلك السنة[349]. وفي نفس الوقت كان قنصل بريطانيا العظمى ناتانيل لودنجتون «Nathaniel Lodington» يُحرض الداي وحاشيته ضد فرنسا. كتب في 15 ديسمبر 1689 إفرنجي الآتي:

«لقد اغتنمت كل فرصة لتشجيع هؤلاء الناس على القطيعة مع فرنسا، وهذا ما سيقومون به كما يقولون، عندما يعلمون بظهور بوارجنا في المتوسط»[350].

في يوليه 1690 إفرنجي، بدت الحرب وشيكة مع فرنسا. كان الجنود الباحثون عن غنائم يطالبون بذلك. ولكن قنصل فرنسا عرف كيف يعرقل مطلب الجنود برشوة الشخصيات المؤثرة. تمرد جزء من الميليشيا الغاضبين ولكن المتمردين تفرقوا[351] عندما رأوا رؤساءهم يقتلون في مواجهة مع أنصار الداي. لم يعد لودنجتون يُعول على شيء إلا على وصول أسطول بريطاني، وكان الأسطول الفرنسي هو الذي ظهر في شهر أكتوبر، وتوقع القنصل الإنجليزي الأسوأ ولكن شيئاً لم يحدث. أكثر من ذلك حصل القنصل الإنجليزي في 5 يونيه من السنة اللاحقة على تأكيد البنود الموقعة من ج. ناربروغ في سنة 1676 إفرنجي[352].

لم يبق أمام القنصل البريطاني إلا إحداث قطيعة في العلاقات مع فرنسا، وهو ما لم يكن صعباً، فالبؤس كان يدفع الطرابلسيين إلى ذلك، ولم يكن يمنعهم منه إلا خشية الانتقام. وحاولت إنجلترا بالتعاون مع هولند امتصاص هذا الخوف، وتعهدت في حالة هجوم فرنسي بدفع ثلاثين ألف قرش لطرابلس وتزويدها بقماش الأشرعة، والحبال، وعتاد السفن[353]. كان هذا كافياً لإقناع الداي والديوان. وبالفعل تم إعلان الحرب على فرنسا يوم 21/ 1/ 1692 إفرنجي، وتم القبض على القنصل والرعايا الفرنسيين، وصودرت أموالهم سواء في المدينة أو الميناء، وتم الاستيلاء على خمس سفن بأطقمها كانت راسية في الميناء، (حوالي مائة رجل)[354].

عادت القرصنة من جديد في البحر ضد كل السفن التي تحمل العلم الفرنسي. وتم الاستيلاء على إحدى عشرة سفينة، وأخذ مائة وخمسة عشرة رجلاً عبيداً. وقد اعترض القراصنة أكبر سفينة في أسطول مرسيليا كانت عائدة من سمير ن «Smyrne» بحمولة قيمتها ستمائة إلف جنيه. وبعد معركة طويلة وقاسية قرر ربان السفينة إغراقها بدل الاستسلام[355].

كانت حكومة الجمهورية تعرف أنها تخاطر، ولكنها كانت مصممة على عدم قبول أي شروط للسلام مع فرنسا، ومن ثم فإنها لن تخضع حتى ولو قامت السفن الفرنسية بقصف المدينة. ودعي السكان لمغادرة المدينة إلى المزارع المجاورة. وهكذا: «**إذا جاء الفرنسيون بقنابلهم فلن يجدوا إلا جدراناً خالية**».

كان القنصل البريطاني مصمماً من جانبه على الوفاء بتعهداته، وكان يضغط على حكومته لإرسال كميات كافية من البارود والقذائف إلى الطرابلسيين، وحدد عياراتها: 4، 6، 8، 12[356].

لم تتأخر فرنسا في الرد، ففي 6 يونيه من نفس السنة 1692 إفرنجي وصل أسطول فرنسي مكون من أربعة بوارج حربية، وسفينتين من ذات الشراعين، وسفينة أخرى، وبعد أربعة أيام من المباحثات غير المجدية بدأ الفرنسيون قصف المدينة. كانت القذائف قصيرة المدى ولم تتمكن من إحداث خسائر إلا في بعض المساكن القريبة من الشاطيء ومنها منزل القنصل الإنجليزي. وكاد الأمر أن ينتهي بمأساة، فقد أخذ الجنود من السجن القنصل الفرنسي، وضابطين وأشخاصاً آخرين، وقاموا بربطهم إلى فوهات المدافع

وكانوا يستعدون لإطلاق النار عندما تدخل ضباطهم ومنعوهم من هذا العمل الشنيع. بقي الأسطول أربعة عشر يوماً، وبعد محاولة أخيرة غير ناجحة لمعاودة الاتصال أبحر الأسطول مغادراً[357].

كان الطرابلسيون مصممين، ولم يكن الملك لويس الرابع عشر أقل تصميماً. وتم قصف طرابلس مرة ثانية خلال شهر أغسطس ولكن بدون نتيجة[358]. كان استعراض القوة هذا أبعد ما يكون عن التأثير في تصميم الطرابلسيين، بل ازدادت جرأتهم يوماً بعد يوم. كما أن بحريتهم التي لم تكن تتكون إلا من ست سفن حربية[359] سنة 1689 إفرنجي، أصبح عددها الآن أربعة عشر إلى خمسة عشر سفينة، وأصبحت القرصنة أنشط مما كانت عليه في أي وقت مضى، وتعرض البندقيون خاصة لخسائر جسيمة[360].

من أجل إنقاذ تجارة مرسيليا، كان على فرنسا أن تتدخل بقوات ساحقة، وهو ما لم تكن تستطيعه. فقد كانت مشغولة حينها بحرب جمعية أقسبورغ، وكان تورڤيل «Tourville»، الذي هزم في سنة 1690 إفرنجي البحرية الإنجليزية والهولندية في رأس بيفيزي «Cap de Beveziers»، قرب جزيرة وايت «Wight»، قد مر بمأساة حقيقة منذ وقت قصير في لاهوج «Lahouge». كان هذا في سنة 1692 إفرنجي. ولكن ما لم تستطعه فرنسا بالإكراه، حصلت عليه بالدبلوماسية، وخدمها في هذا النفوذ الذي كانت تتمتع به عند الباب العالي. فقد جاء إلى طرابلس في ربيع سنة 1693 إفرنجي أحد ضباط الباب العالي، وكان مصحوباً بمفوض فرنسي يسمى دينيس دوسو «Denis Dusault». لم يأت هذا الأخير دون أوراق تفاوضية

في الحقيقة. فقد استولى الفرنسيون على سفينتين حربيتين طرابلسيتين، ومن أجل استعادة سفنها كانت الجمهورية على استعداد لتقديم تنازلات. وبالفعل أدت المفاوضات إلى اتفاقيات سلام وقعت[361] بتاريخ 27/5/1693 إفرنجي. كانت الشروط لصالح الطرابلسيين إلى حد كبير جداً، إذ اتفق بالنسبة للأسرى أن يطلق تركي مقابل كل فرنسي، وتقرر أن يتنازل كل طرف عن خسائره. وأصبح من حق الطرابلسيين إيقاف السفن الفرنسية وزيارتها، كما فُتحت أمامهم موانىء مرسيليا وطولون بكل التسهيلات للمؤن والصيانة. كما يقال أن الفرنسيين دفعوا مبلغاً كبيراً للداي من أجل هذا السلام، واتفق على الاحتفاظ بهذا البند سرياً مخافة إثارة طمع الجنود[362]. كما اشترى الفرنسيون من الداي كمية من الحبوب بسعر يفوق سعر السوق[363]، بالإضافة إلى إعطاء مدفعين وكمية من بارود المدافع دون مقابل.

كانت النتيجة الطبيعية للسلام مع فرنسا هي القطيعة مع بريطانيا العظمى، وكان الفرنسيون يدفعون طرابلس إلى ذلك. وقد استطاع دوسو يوم 10 يونيه أن يبلغ نجاحاته الأولى. كتب الآتي:

«إن أربعة من سفن الجمهورية التي في المرسى على استعداد للإبحار حالما تواتي الرياح. والأوامر لدى ربابنة هذه السفن هي الاستيلاء على السفن الإنجليزية والهولندية التي يجدونها في البحر»[364].

في يوم 21 يوليه أعلنت طرابلس الحرب ليس فقط على

بريطانيا العظمى، ولكن على هولندا كذلك، واضطر ناتانيل لودنجتون أن يغادر إلى مالطا.

كانت فرنسا تدرك مساوىء السلام المُفاوض والمُشترى، وكانت طرابلس تتصرف بوقاحة وتكبر، وتصر على إعادة السفينتين اللتين تم الاستيلاء عليهما السنة الماضية من قبل فرنسا. أكثر من ذلك اقتاد القراصنة سفينة فرنسية تركها طاقمها، وعندما جاء ربانها يطالب بها، رفض طلبه رفضاً قاطعاً. كان في إمكان هذه السفينة حمل ثلاثين مدفعاً، وهو ما يناسب القراصنة، فهي تضيف قوة إلى بحرية قوية ومهابة، فبارجة الأميرال لوحدها خطرة جداً، لأنها مسلحة بثمانية وخمسين مدفعاً[365] حسبما أورد لودنجتون.

كان قد مر وقت طويل جداً لم تظهر فيه سفن فرنسية أمام طرابلس لمنع الجمهورية من أي تحرك، وهكذا سمحت لنفسها بتجديد الاتصالات مع إنجلترا. ففي يوم 26 أغسطس، وصل مركب مؤجر من بنجامان لودنجتون، شقيق ناتانيل وقنصل إنجلترا في تونس، إلى مالطا، وكان ربان المركب يحمل رسالتين: الأولى موجهة إلى ملك إنجلترا تُعرب عن الرغبة في تجديد السلام، والأخرى موجهة إلى ناتانيل لودنجتون تدعوه للرجوع إلى طرابلس[366].

بعد ثلاثة أشهر فقط من قطعها العلاقات مع بريطانيا العظمى، أرادت طرابلس تجديد العلاقات مرة أخرى. قد يبدو هذا التقلب مدهشاً، كان ذلك في الظاهر فقط، فالداي لم يقم بقطع العلاقات مع بريطانيا إلا مكرهاً، وقد أخبر[367] لودنجتون عندما طلب إليه

المغادرة إلى مالطا أنه بمجرد الإفراج عن كل الأسرى الأتراك في جنوب فرنسا سيدعوه إلى العودة. كان التنافس بين فرنسا وإنجلترا يخدم مصالحه، ولم يكن يخشى أياً من القوتين، فقد كانتا مشغولتين بالحرب بينهما مما يمنعهما من إرسال قوات إلى طرابلس. فكر الداي في إرغام إنجلترا على شراء سلام جديد باهظ الثمن بعد نجاحه في عقد اتفاقية مجزية بالنسبة له مع فرنسا.

لم يُكلف لودنجتون بالمفاوضات، وإنما كلف دبلوماسي آخر هو توماس بيكر. وقد ارتكب هذا الأخير خطأ، فبدل أن يصل طرابلس مدعوماً بأسطول، وصلها برسائل توسط من داي الجزائر. كان هذا يعني أنه وضع نفسه في موضع المتوسل. و«**تشجيع هؤلاء الناس على طلب عطية كبيرة جداً من الملك**»[368].

وقع توماس بيكر اتفاقية سلام يوم 11 أكتوبر سنة 1694 إفرنجي، ثم غادر تاركاً وراءه قنصلاً مؤقتاً هو دانيال سكنر[369] «Daniel Skinner».

أُنتقد توماس بيكر انتقاداً شديداً سواء من قبل دانيال سكنر، أو من لودنجتون. انتقده الأول لأنه جاء طالباً، والأسوأ أن يكون ذلك بواسطة الجزائر، بينما كانت المبادرة من الداي الذي توسل إلى الملك. ولاحظ سكنر، أن سلاماً مبرماً دون دعم من المدافع، هو سلام أعرج، وأن ما تم التوصل إليه ليس سلاماً صحيحاً[370]. أما عن لودنجتون فقد كان أكثر قسوة، واتهم بيكر بأنه:

«**أعطى الملك معلومة غير صحيحة، وهي أن داي الجزائر عين**

حاكماً لكل الشمال الأفريقي من قبل السيد الأعظم (السلطان)، وأن حكومة طرابلس لا تستطيع توقيع السلام بدونه»[371].

مهما كانت مسؤولية بيكر، فقد ترك للقنصل واجباً لا يحسد عليه.

«لاحظ لودنجتون، أن الارتباك كان كبيراً في نوفمبر سنة 1694. وأن العلاج للموقف يتطلب رجلاً أكثر اتزاناً ومهارة»[372].

أُتفق في لندن بعد شهرين على إعادة لودنجتون إلى سابق عمله. كان حينها عند شقيقه بنجامان[373] في تونس، ولم يستلم عمله[374] إلا في شهر يونيه من نفس السنة. في هذه الأثناء كان دانيال سكنر يبذل كل جهوده الممكنة في وضع غير مريح، فقد كان الداي يصر على تنفيذ الالتزامات التي تعهد بها بيكر بأسرع ما يمكن. كان في انتظار بارود المدافع، وأقمشة الأشرعة، والصواري، والحديد والرصاص. كتب لودنجتون وكان حينها في طرابلس:

«إنني على يقين، أنه ما لم ترسل هذه المواد ـ ولو جزئياً ـ فإن السلام سيكون متزعزعاً هذا الصيف»[375].

أدركت السلطات في لندن أن لابد من العمل. ووضعت هدايا على السفينة «أيقل» التي كانت تحت إشراف كلودسلي شوفل «Cloudesly Shovel»، ولكن هذا لم يستطع مواصلة السفر إلى أبعد من المضيق. ولما لم تكن هناك أي بارجة تابعة لصاحب الجلالة في طريقها إلى طرابلس ـ كانت حرب أوقسبورغ ما زالت

مستمرة ـ فقد أصاب العطايا بعض العطب وُرجعت إلى مخازن الملك.

«ورتبت جيداً، إلا حبلين كانا ناقصين».

انقضت سنتان والعطايا في مخازن صاحب الجلالة، وكان لودنجتون يطالب بإرسالها من جديد[376]. يفهم سبب إلحاحه، وقد اضطر هو شخصياً لدفع ألف وثلاثمائة وخمسين دولاراً أي 337 جنيها لتهدئة الداي وضباطه الرئيسيين[377]. وكان قد دفع عند مغادرته طرابلس إلى مالطا في 7/ 1693 إفرنجي، مبلغ ألف وستمائة دولار أي 400 جنيه. لقد كلفته هذه المشكلة البائسة مبلغ 737 جنيه وهو ما كان يطالب ـ بكل تواضع ـ خزينة صاحب الجلالة[378] بدفعه له.

استوحى لودنجتون نفس الأساليب التي انتقد فرنسا لاستعمالها في شراء السلام في شهر مايو سنة 1639 إفرنجي. لقد وجد نفسه في نفس الموقف الذي وُجد فيه زميله الفرنسي، ففي غياب المدافع لا مناص من استعمال حيل وذرائع. لم تعد كل من فرنسا، وإنجلترا مهابتين في البحر المتوسط. كان البحر للقراصنة الشمال إفريقيين، وانضاف إليهم المسيحيون. فبعد كارثة تورڤيل «Tourville» في لاهوق «Hougue» سنة 1692 إفرنجي، ازداد عدد القراصنة المسيحيين في البحر المتوسط، ولم يظهروا قبلها إلا في بعض الحوادث. في منتصف سنة 1693 إفرنجي كان سبعة قراصنة من فلورنسا، وإنجليزي يتجولون على طرق المشرق، وبلغ عدد القراصنة من فلورنسا تسعة في سنة 1694 إفرنجي. وفي فرنسا

أدخل بونشارتران «Bonchartrain» نظام مجموعات المراقبة، وكان الوضع سيئاً جداً في سنة 1695 إفرنجي مما اضطره لمنع شرق المتوسط على سفنه. كان هذا إجراء مؤقتاً، ففي السنة اللاحقة سمح بالإبحار، وذلك بفضل وجود سفينتين فرنسيتين في المنطقة. بالرغم من ذلك بقي الإبحار في هذه المناطق مملوءاً بالمخاطر. توضح هذه المخاطر الأرقام التالية والمأخوذة من سجل الفاقد لشركة تجارة مرسيليا، فقد كان الإعلان عن الاستيلاء من قبل القراصنة ضرورياً، بعد التحقق من قبل الغرفة، للحصول على التعويضات من قبل التأمين. من سنة 1689 إفرنجي إلى سنة 1697 إفرنجي، بلغت الخسائر 260 سفينة، و182 مركباً، و38 طرطنا (مركب بصار واحد). وبينت التفاصيل: 30 سفينة في سنة 1689 إفرنجي، و30 سفينة أيضاً في سنة 1690 إفرنجي، و49 في سنة 1691 إفرنجي، و59 في سنة 1692 إفرنجي، و56 في سنة 1693 إفرنجي، و60 في سنة 1694 إفرنجي، و49 في سنة 1695 إفرنجي، و62 في سنة 1696 إفرنجي، و85 في سنة 1697 إفرنجي.

كانت حرب الأوسبروغ، ضارة بالمتحالفين أيضاً، فكثيراً ما منعت البحرية الفرنسية دخول البحر المتوسط على الإنجليز والهولنديين، وكان قراصنة مرسيليا نشطين أيضاً. مثَّل سلام ريسفيك «Ryswick» الموقع في 21 سبتمبر سنة 1697 إفرنجي بالنسبة للمتحاربين انطلاقة جديدة للمشاريع التجارية التي انقطعت مجدداً ما بين سنة 1701 إفرنجي، 1715 إفرنجي، بسبب حرب الخلافة في إسبانيا(379).

لم ينتج عن السلام الذي أبرمه الداي مع إنجلترا سنة 1694 إفرنجي، القطيعة مع فرنسا كما كان متوقعاً. ومن الآن فصاعداً ستجد طرابلس مصلحتها في الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع القوتين، وكانت الدول الأخرى، وخاصة البندقية، تمثل فرائس سهلة ووفيرة للقراصنة. بالرغم من ذلك فقد نقض السلام مع فرنسا ولكن لفترة قصيرة جداً سنة 1728 إفرنجي. كانت طرابلس حينها تحت حكم أحمد القره مانلي، وقد مر انتخابه داياً سنة 1711 إفرنجي دون أن يلاحظ، لا سيما وأن بدايته كانت صعبة. فبعد انتصاره على منافسيه، تم الاعتراف بسلطته من قبل السلطان، وتحصل في سنة 1718 إفرنجي على فرمان تثبيته تحت لقب «باي بايات»[380]. وقد أعلن استقلاله عن الباب العالي سنة 1720 إفرنجي تقريباً، بحجة أنه لا يتحصل (من الباب العالي) على أي مساعدة، ولا يستطيع الاعتماد إلا على قواته الذاتية من أجل الدفاع[381].

لم يكن أحمد في حاجة لأي دعم لنشر الرعب والخوف، هذا ما أظهره منذ سنة 1721 إفرنجي. ففي هذه السنة كانت بحريته خطيرة جداً، وتتكون من سبع سفن مسلحة كل واحدة منها بأربعين إلى ستين مدفعاً، دون الأخذ في الاعتبار سفن أخرى شراعية وبالمجاديف[382]. لم يستثن قراصنته أحداً، فقد استولوا أولاً على مركب إنجليزي، وباخرة بندقية من ذات الخمسين مدفعاً، ولم يجد نفعاً إرسال الباب العالي لأربع سفن حربية لغرض إعادة ما تم الاستيلاء عليه[383]. ولكن الضحايا الأساسيين كانوا من الفرنسيين الذين قدرت خسائرهم في سنة 1728 إفرنجي بعشرين ألف قرش غرناطي.

كُلف السيد قراند بري «Grand Pre» بإعادة الباشا إلى الصواب، ووصل يوم 16 يوليه سنة 1728 إفرنجي أمام طرابلس بست سفن حربية، وقادسين، وثلاث سفن شراعية للقصف، وثلاث سفن أخرى، واضطر للبقاء هناك ثلاثة عشر يوماً. لرواية الوقائع التي جرت في تلك الفترة، لنسأل شاهد عيان متميز هو بنجامان لودنجتون والذي خلف أخاه ناتانيل في القنصلية البريطانية في طرابلس. أصر قراند بري أولاً على تسليمه السفن الفرنسية الثلاث التي كانت محجوزة في الميناء، ووافق الباشا. لم يكن أمام الباشا من خيار آخر، فقد سبق وأن غادرت السفن الأسيرة الميناء لتكون تحت حماية هذا الأسطول الذي ظهر في الوقت المناسب. قضى السيد مارتان قنصل فرنسا الفترة من 17 إلى 19 يوليه جيئة وذهاباً بين الباشا والعميد البحري. طالب قراند بري بخمسين ألف دولار تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بالسفن الحاملة للعلم الفرنسي، وإطلاق سراح عشرين عبداً، وأجاب الباشا بأنه لا يستطيع القبول بهذا. عندها لم يكن هناك من وسيلة إلا القوة. وفي يوم 19 أخذت الطراطن القاذفة الثلاثة موقعاً ملائماً لإطلاق قذائفها، وبدأ القصف يوم 20 ما بين الساعة الثامنة والتاسعة مساء ولم يتوقف إلا عند الساعة التاسعة صباحاً، وقد أطلقت أربعمائة قذيفة. وتواصلت عمليات القصف يوم 21 ما بين الساعة التاسعة مساء، والثالثة صباحاً، وأطلقت أثناءها حوالى مائتين وثمانين قذيفة على المدينة. تكررت العمليات خلال ليالي الفترة من 22 إلى 24 بمعدل ثلاثمائة قذيفة كل ليلة. هل كان الدرس كافياً؟ هذا ما اعتقده

قراند بري الذي كتب إلى الباشا رسالة محررة باللغة الإيطالية يبين له فيها ما يلي:

«اضطر الفرنسيون لتنفيذ أوامر ملكهم، بعد أن تعذر حصولهم على التعويضات، والآن لا يستطيعون تحاشي التعامل والسلاح في أيديهم».

كيف يتم توصيل الرسالة؟ كان إرسال مبعوث يحمل مخاطر جمة بعد الذي حدث للمدينة، ومن ثم وضعت الرسالة في برميل صغير حمله قادس إلى مدخل الميناء بالتجديف، وأرسل قارباً صغيراً بالبرميل في اتجاه الأرصفة، وقذف بالبرميل الصغير في الماء أمام أحد المنازل، فالتقطه الناس، وهكذا وصلت الرسالة.

رد الباشا في نفس اليوم بأنه على استعداد لاستقبال مبعوث. على أثر هذا، وفي يوم 26 تقدم زورق إنقاذ فرنسي رافعاً علماً أبيض إلى الميناء للقاء زورق بعث به الباشا. كان الزورق الفرنسي حاملاً لرسالة جديدة. بقيت المطالب دون تغيير وهي: 50000 دولار، و20 عبداً، ولكن أضيف إليها تسليم سفينة فرنسية دخلت الميناء في الآونة الأخيرة، ومتعلقات القنصل الشخصية، وتحرير كل العبيد الفرنسيين. في هذه المرة أيضاً أجاب الباشا بالرفض موضحاً أنه يعبر عن موقف كل مستشاريه، وضباطه، ورعاياه. يوم 27، كان النسيم بارداً ولم تطلق أي قذيفة. في الغداة صباحاً أُرسل مبعوث جديد إلى البر، ورُفض استقباله. كان من غير المفيد الضغط أكثر، وهكذا غادر الأسطول يوم 29 دون تحقيق أهدافه(384).

لقد أُطلقت ألف وخمسمائة قنبلة في عشرة أيام، وترك هذا آثاره، فبعد ثلاث سنوات من هذه الوقائع مر بطرابلس الرحالة تولوت «Tollot» وشاهد أن هناك **«عدداً من المساكن المخربة بالكامل، وجدراناً محطمة، وفي كلمة واحدة، الكثير من الأضرار»**[385].

لم تتأثر معنويات الطرابلسيين، ولم ينل ذلك من تصميمهم، وكانت بحريتهم لا تزال مهمة، فيها سفينتان كبيرتان إحداهما مسلحة بثلاثين مدفعاً، والأخرى بأربعين، كما كان لديهم عدد كبير من السفن الصغيرة السريعة تضم خمسة عشر أو ستة عشر شراعاً، ونصف قادس، وتسع أو عشر سفن غليونية. وبمجرد اختفاء الأسطول الفرنسي بدأت أعمال القرصنة، وخلال الخمسة عشر يوماً اللاحقة اقتادت الغليونيات، وسفن التجديف القرصانة سفينتين فرنسيتين محملتين بالحبوب من المشرق. كما قيل أن أربعاً تم الاستيلاء عليها في درنة. وقد أضاف بنجامان لودنجتون الذي أورد هذا الوقائع أن **«العديد من سفن القراصنة الشراعية والمجدفة أبحرت مؤخراً، ويمكننا توقع أن تأتينا الأخبار كل يوم بالخسائر التي تُلحقها بالفرنسيين أو غيرهم من الجنسيات»**[386].

حدث ما توقعه القنصل الإنجليزي، فبعد شهر عاد القراصنة ومعهم الكثير من الغنائم الفرنسية، ومنها سفينة حمولتها مائتا برميل كانت في طريقها من سميرن إلى مرسيليا بشحنة مقدرة بستين ألف كورون. وقد رفعت الغنائم الأخيرة قيمة الخسائر التي لحقت بفرنسا إلى مائتي ألف كورون منذ قصف طرابلس من قبل السيد دي جراند بري «de Grand Pre»[387].

كان الوضع مأساوياً، ومصدر قلق لقنصل فرنسا بروش «Broche» الذي خلف مارتان. كان القنصل يضغط على حكومته من أجل أن تتدخل، وكان مندهشاً لعدم مبالاتها. كتب يوم 8 أكتوبر سنة 1728 إفرنجي الآتي:

«الجميع مندهشون لرؤية التقدم الذي يحرزه هؤلاء القراصنة دون أن تزعجهم أي من سفننا. لقد زادهم هذا تصلباً، وهم يقومون الآن بتسليح كل سفنهم ومن ثم سيكون لديهم منها عشر في البحر خلال هذا الشهر».

ذكَّر القنصل بعد يومين بالخسائر، وأعطى لها قائمة مفصلة في تقرير عنوانه:

«حالة السفن الفرنسية التي تم الاستيلاء عليها من قبل قراصنة طرابلس، أو موقوفة في مينائهم منذ نقض السلام حتى 10 أكتوبر سنة 1728 إفرنجي:

- **موقوفة في موانىء المملكة: مركب بصار وحيد، وأربعة قوارب.**

- **مستولى عليها من قراصنة طرابلس: قارب، ومركب وحيد الصاري، ومركب، وسفينة القبطان قاش من مرسيليا، وسفينة القبطان مارتان من كاسيكس وطاقمها المكون من خمسة عشر رجلاً، واثنان من رجال الدين تم إطلاق سراحهما، وقارب، وقارب».**

هل كانت القائمة نهائية؟ يمكننا أن نشك في ذلك فمن أجل أن

يوضح القنصل بروش الأخطار الجديدة التي يتعرض لها النشاط البحري الفرنسي كتب:

«حالة السفن التي تقوم حالياً بالقرصنة، وهذه الموجودة حالياً في ميناء طرابلس لتسليحها:

- **في القرصنة: الباخرة لابترون** «Lapatronne»، وهي مسلحة باثنين وعشرين مدفعاً، وعلى متنها مائتا رجل، صناعة برتغالية. ومركبان بثمانية مدافع ومائة رجل لكل منها، وقارب بستة مدافع وستين رجلاً، وسفينة بمنجنيقين وعشرة رجال.
- **في الميناء: البارجة الريال (الريس) وهي مستولى عليها من القبطان قاش** «Gache» من مرسيليا، ويمكن تسليحها بأربعة وعشرين مدفعاً، ومائة رجل وهي صناعة إنجليزية وقد بوشر في إصلاح هيكلها، وأربعة مراكب بعشرة إلى ستة مدافع لكل منها، وخمسة قوارب بأربعة مدافع لكل منها وطرطن بمدفعين... وأخيراً عشر سفن غليونية واحدة منها بأربعة مدافع، واثنتان بمدفعين لكل واحدة منها، وسبع بستة مجانيق لكل واحدة منها».

وجد نداء قنصل فرنسا أصداء، وهكذا كان على مكتب الكردينال دي فلوري وزير لويس الخامس عشر **«مشاريع مختلفة لحرب ضد الطرابلسيين»**، كان أكبرها دون شك هو مشروع ديقوي تروان «Trouin Duguay» المؤرخ في 28/ 11/ 1728 إفرنجي.

أوضح فريق المملكة، وكان قد رقي منذ فترة قصيرة لهذه

الدرجة، إن: «من الضروري إرسال اثنى عشر ألف رجل من رجال القوات إلى طرابلس، وأضاف: أننا بالاستيلاء على هذه المدينة وإحراقها كلياً، وهدم الأسوار والتحصينات، وأحداث أضرار في الريف نثير الرعب لدى جميع القراصنة في أفريقيا»(388).

لم يُذهب إلى هذا المدى، واتخذت إجراءات أقل دراماتيكية إلا أنها أثبتت فاعليتها. تقرر أولاً، ألا تبحر السفن الفرنسية إلا في مجموعات محروسة، كما حرص على وجود سفن فرنسية حربية في عرض البحر في طرابلس. من الأيام الأولى لشهر يناير 1729 إفرنجي قامت سفينتان منهما بإغلاق الميناء(389). وفي شهر مارس استولت فرقاطة فرنسية على مركب طرابلسي يحمل مائة وخمسين عبداً أسود وعدداً مساوياً من المغاربة من رعايا الباشا(390). وفي الثالث من يونيه، دخلت أربع سفن حربية فرنسية إلى ميناء طرابلس(391). في هذه المرة، لم يرد الباشا تكرار استعمال القوة من جديد، وقبل عقد اتفاقية. في 9 يونيه، تم توقيع السلام من قبل كل من الفارس دي جويون «de Gouyon» قبطان سفينة، وقنصل فرنسا في تونس السيد بينون «Pignon».

«لاحظ ماسون: قبل الطرابلسيون شروطاً صعبة، فقد جددوا الضمانات التي أعطوها للتجارة بموجب الاتفاقيات السابقة، وتعهدوا بدفع عشرين ألف قرش غرناطي تعويضاً عن ما استولوا عليه منذ سنة 1720 إفرنجي، وإعادة كل العبيد، وقبلوا حتى تقديم فدية لهؤلاء الذين أُرسلوا إلى دول الجزائر وتونس وغيرها. ولا تستطيع سفنهم التجارية في المستقبل الإبحار إلا مزودة بشهادات

قناصل فرنسا بالإضافة إلى توكيل الباي، وإلا ستوقف وتعامل كقرصانة. فيما يتعلق بالتجارة نص أحد البنود على أنه لا يجوز إعطاء أي مزايا لأي دولة ما لم تعط للدولة الفرنسية»[392].

كانت حرب سنة 1728 إفرنجي هي آخر الحروب بين طرابلس وفرنسا. وقد تعلمت فرنسا من التجربة، فلم تعد تتراخى في المراقبة، وكانت أساطيل فرنسية تظهر بانتظام أمام طرابلس لتذكير القراصنة بالحذر، وضرورة احترام الاتفاقيات ـ كان دوقوي ـ تروان «Duguay - Trouin» هناك في الشهر السابع من سنة 1731 إفرنجي بأربعة بوارج حربية[393]، وبعد ذلك تكررت الزيارات كل سنة[394].

حافظت إنجلترا، من جانبها، على مصالحها ليس باستعراض سفنها وإنما بتكرار تقديم الهدايا. كان هذا يكلف غالياً دون شك، ولكنه أقل تكلفة من التقتير. هذا ما بينه قنصل بريطانيا العظمى روبرت هوايت «Robert White» بوضوح في مذكرة مؤرخة في 26 يوليه 1750، كتب:

«أن الطمع هو المحرك الرئيسي لهذه الدولة كما لغيرها من دول هذا الشاطىء، فالذين يعطون أكثر يعتبرونهم أحسن أصدقائهم. والدولة التي تستطيع أن تكيف هداياها مع الاحتياجات الحالة، ستجد في ذلك منافع وامتيازات عظيمة».

وبعد تذكيره بأنه بعد سلام سنة 1682 إفرنجي، تكررت الهدايا في سنوات 1686 إفرنجي، و1691، و1700 إفرنجي، و1703 إفرنجي و1716 إفرنجي، اقترح أن يؤذن له بصرف 500 جنيه في

هدايا جديدة، وهو ما يُمكِّن من تحاشي المصاعب التي تم التعرض لها سنة 1735 إفرنجي. ففي تلك السنة أرسلت كل الدول هدايا. . . باستثناء إنجلترا، وكانت النتيجة أن رأى الرعايا البريطانيون ارتفاع رسوم الجمارك على بضائعهم دفعة واحدة من 3% إلى 8%.

لمن كان ينوي القنصل تقديم هدية قيمتها 500 جنيه؟ ليس للباشا وإنما للباي، لماذا هذا الاختيار المثير للدهشة؟ يقول لنا روبرت هوايت:

«كانت حكومة طرابلس في ذلك الحين ذات طابع عشوائي وعسكري»[395].

لم يعد الباشا هو أحمد الذي توفي في سنة 1745 إفرنجي، وإنما ابنه محمد الذي لم يكن مثل والده. كان رجلاً، **«ذا طباع طيبة، ولطيفة ولكن حبه للخمر والنساء قاده لعدم الاهتمام بأمور الدولة»**.

كان احترامه لصاحب الجلالة عظيماً، ولكن أنصار فرنسا في حاشيته كانوا من أصحاب النفوذ. في الحقيقة هناك آخرون يفضلون الإنجليز، لا حباً في الإنجليز بكل تأكيد وإنما للمصلحة. وهكذا كان الطرابلسيون منقسمين على أنفسهم في الوقت الذي عدلت فيه أكبر قوتين في أوروبا عن كل مظاهر العداء. وبفضل براعة القنصل البريطاني لم يتمكن الموالون لفرنسا من التغلب، بل أكثر من ذلك استطاع روبرت هوايت الحصول على تجديد السلام.

«وضعت كل بنود اتفاقية سنة 1716 إفرنجي، وأضيفت بنود عديدة أخرى مجزية»[396].

أدرك القنصل أنه قدم خدمة جليلة لملكه، فالقطيعة كانت تعني نتائج مأساوية. فقد كانت لطرابلس في ذلك الوقت بحرية خطيرة تتكون من ست عشرة سفينة، منها ثلاثة بوارج: اثنتان مسلحتان كل واحدة باثنين وثلاثين مدفعاً، وواحدة بستة عشر مدفعاً، وخمس سفن شراعية بعشرة مدافع لكل واحدة منها، واثنان من السنابك كل واحدة بعشرة مدافع، بالإضافة إلى ست سفن غليونية[397]. وكانت الاعلام المعادية تدفع أداءات كبيرة. استولى القراصنة، في الشهور السبعة الأولى من عام سنة 1752 إفرنجي، على إحدى عشر سفينة: ثمان تابعة لنابولي أربع منها محملة بالحبوب، وواحدة بالملح، واثنتان بالخزف والفخار، والأخيرة خالية، وقد استطاعت أطقم هذه السفن النجاة في قوارب، كما تم الاستيلاء على مركب مالطي محمل بالحبوب وعلى ظهره اثنان وعشرون رجلاً، ومبلغ سبعمائة سكين[*] نابولياني نقداً، وأخيراً باخرة دنمركية ذاهبة من تراني إلى لشبونة محملة بالحبوب ولكنها سلمت للقنصل بمجرد وصولها. كانت الدنمرك قد وقعت السلام مع طرابلس منذ وقت قصير. بالإضافة إلى هذه الغنائم يجب إضافة تسعة وتسعين أسيراً أخذوا من على سفن الصيد في خليج البندقية، وإغراق قادس تابع للبندقية، وإلحاق أضرار كبيرة باثنين آخرين.

لم تعر فرنسا ما كان يحدث أي اهتمام، فهو لا يخصها، ولكنها لم تكن تتسامح مع أي مساس بالسفن الحاملة العلم الفرنسي. ففي يونيه من نفس سنة 1752 إفرنجي عندما تعرض عدد

(*) وحدة نقديه.

من القوارب التابعة لجنوا والمبحرة تحت العلم الفرنسي لبعض الأضرار ظهرت قبالة طرابلس سفينتان حربيتان فرنسيتان لحقتهما وبسرعة أربع أخرى مسلحة كل واحدة بسبعين وستين مدفعاً وذلك لطلب تعويضات[398].

باستعمال وسائل مختلفة كانت فرنسا وإنجلترا في حالة سلام مع طرابلس، واختفى التنافس بينهما، وولى الزمن الذي كان فيه قنصل بريطانيا العظمى يتسلم أمر سكرتير الدولة الرئيسي:

«بأن يحصل على قطيعة بين هذه الحكومة وفرنسا، ويجب دفع الثمن»[399].

منذ سنة 1728 إفرنجي كان بنجامان لودنجتون لا يجد أي دافع للرضا[400] عندما يُخطر بالخسائر التي ألحقت بفرنسا. أكثر من ذلك، عبر القنصل الجديد جون بسويك «John Beswick» عن غبطته عندما تناول في السنة اللاحقة السلام الموقع مع فرنسا لأن يرى: **«يبدو الوضع هادئاً حالياً»**[401].

تغير غريب في الموقف! ما هو السبب وراء ذلك؟ أولاً، لم تعد فرنسا وإنجلترا وحدهما وجهاً لوجه. وانفتحت طرابلس تدريجياً على التجارة الدولية، ونراها خلال القرن الثامن عشر توقع اتفاقيات مع الكثير من الدول، أحياناً تحت ضغط المدافع ـ في سنة 1728 إفرنجي، أرسلت هولندا أسطولاً من أحد عشر سفينة، ثمانية من بينها سفن حربية تحت أمرة نائب الأميرال دي غراف «de Grave» من أجل تجديد اتفاقيات السلام[402] معها ـ وربما في كثير من الأحيان مدفوعة بالمصلحة. وقد دفعت الدنمرك مبلغ ثلاثة

وثلاثين ألف سكين بندقي نقداً، وعطايا أخرى لشراء السلام[403] في 22/ 1/ 1752 إفرنجي.

إذا كانت العلاقات الفرنسية البريطانية قد تحولت جذريا فهذا راجع قبل كل شيء إلى سبب بسيط: وهو تفوق فرنسا في القوة البحرية أثناء القرن الثامن عشر لحد لم تعد معه المنافسة قائمة. فمنذ سنة 1730 إفرنجي لاحظ قنصل بريطانيا العظمى:

«أن كل التجارة لفرنسا، وتتعامل من الباطن في منتجاتنا الصوفية[404] المصنعة».

من جانبه، أكد ماسون مطولاً التفوق البحري الفرنسي في المتوسط ابتداء من السنوات 1730 إفرنجي. أما فيما يتعلق بطرابلس فاكتفى بالاستشهاد بتقرير بعث به روبرت هوايت إلى دوق بدفور سنة 1752 إفرنجي، فقد كتب متناولاً المكانة التي تحتلها فرنسا:

«منذ سنوات عديدة، سيطرت هذه الدولة على كل التجارة تقريباً في هذا المكان الذي كان لنا فيه في السابق نصيب»[405].

كان الازدهار الاقتصادي يعتمد بدرجة كبيرة على مبادلات طرابلس مع الداخل، مع تشاد خاصة. وإذا أردنا التحقق من ذلك، فيجب النظر إلى الحركة العامة للتجارة الطرابلسية. فالبيانات عن العلاقات شمال جنوب خلال القرن السادس عشر، والجزء الأكبر من القرن السابع عشر نادرة، ولكنها تصبح أكثر توفراً ودقة ابتداء من سنة 1685 إفرنجي. لم يتبق لنا إلا سرد بياناتها وهنا نفتح فصلاً جديداً.

ملحق رقم (1)

التقويم القديم والتقويم الحديث

كان التقويم القديم ـ أي وفق الطريقة القديمة ـ هو المستعمل في إنجلترا، بعكس التقويم الجديد الذي يعني التقويم الجريجوري والذي تم تبنيه سنة 1582 إفرنجي من قبل إيطاليا، وفرنسا، والبرتغال وإسبانيا، والأراضي الواطئة الكاثولكية، ثم تم تبنيه بين سنة 1584 إفرنجي، 1700 إفرنجي من الدول الأوروبية الأخرى باستثناء إنجلترا والسويد، وسويسرا البروتستنتية.

وفق الاستعمال القديم كانت السنة تبدأ في 25 مارس وهو تاريخ اعتدال الربيع، وتجسد المسيح، بالإضافة إلى أن التقويم يتأخر بعشرة أيام عن السنة الجريجورية. وهكذا فإن تاريخ 1 / 1/ 1675 إفرنجي كان يوافق 11 يناير سنة 1676 إفرنجي من السنة الجريجورية. ولم يتم الأخذ بالتقويم الجريجوري في إنجلترا واسكتلندا إلا في سنة 1751 إفرنجي، بموجب القرار رقم (24 Geo II.c.23) والذي نص على أن سنة 1702 إفرنجي وكل السنوات المستقبلية تبدأ من 1 يناير بدلاً من 25 مارس، وأن يحسب اليوم التالي ليوم 2 سبتمبر سنة 1752 إفرنجي هو يوم 14 سبتمبر، وإن يتم اتباع نظام السنة الكبيسة من الآن فصاعداً.

بقي الإنجليز مخلصين للتقويم القديم حتى سنة 1752 إفرنجي. بالرغم من ذلك فقد اتبع كثير منهم، خاصة المقيمين في الخارج، التقويم الذي انتشر في أوروبا، وكان الذين يستعملون التقويم البريطاني يوضحون أنهم يستعملون «النظام القديم» فجون

ناربروغ، مثلاً، والذي يفضل وفق مقولة كيبلر «**أن يكون على عدم اتفاق مع الشمس من أن يكون على اتفاق مع البابا**» كان يستعمل دائماً الطريقة القديمة. وهكذا في رسالته المؤرخة في 9 أغسطس سنة 1675 إفرنجي نظام قديم كتب أن 7 أغسطس كان يوم سبت. في الحقيقة أن 17 / 8/ 1675 إفرنجي هو الذي يوافق السبت وفق تقويمنا.

كما كان هناك آخرون يستعملون التقويمين في نفس الوقت، وهذه حالة ناتانيل لودنجتون الذي أرخ رسالة هكذا 15/ 25 أغسطس 1689 إفرنجي، وأخرى 5/ 15 ديسمبر 1698 إفرنجي.

ويحدث أن الرسالة لا تحمل التاريخين إلا للسنة.

ملحق رقم (2)

السفن الفرنسية المستعملة في البحر المتوسط خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر

(Vaisseau) (باخرة، سفينة): ثلاثة صواري، وصار مائل في مقدمة السفينة. الصارية الكبيرة، وصارية التوازن مزودة بأشرعة مربعة، بينما تحمل صارية المؤخرة شراعاً لاتينياً. وهي سفينة بمصطبتين إحداهما مثبتة في الصارية الكبيرة والأخرى في صارية التوازن.

حمولتها: 3000 إلى 7000 قنطار، وطاقمها من 20 إلى 25 رجلاً. وكانت هناك باخرة مرسيلية، من هذا النوع تبلغ حمولتها 10000 قنطار، وطاقمها من 70 رجلاً.

«في عهد كولبرت Colbert، كانت البواخر البروفانسية من هذا النوع تتراوح حمولتها بين 300، 400 برميل، ولم تتغير أبعادها حتى سنة 1715 إفرنجي. . . ولم تكن مبنية وفق المعايير الإنجليزية والهولندية. فقد كان هؤلاء يهتمون خاصة بأن تستطيع سفنهم نقل حمولات ثقيلة، وتخفيض عدد الطواقم، وذلك بتبسيط الأشرعة. كان إبحارها بطيئاً ولم يكن هذا مهماً، فقد كانت تبحر في مجموعات، وتصل معاً إلى الموانىء، وتعود بنفس الطريقة. بينما كان اهتمام البرفانسيين آخراً: فبين السفن التي تتاجر مع الشرق كانت المنافسة شديدة، وكان عددها دائماً كبيراً حتى في الأوقات الصعبة، ومن ثم كان من

يصل إلى الموانىء أولاً هو الذي يغتنم الفرصة. . . ومن هنا كان يُضحى بكل شيء عند بناء السفينة لصالح السرعة، وكانت السفن البروفانسية تعتبر أرشق السفن في البحر المتوسط. «ماسون».

Polacre: سفينة بمصطبة واحدة. تحمل الصارية الكبيرة أشرعة مربعة، بينما تزود صارية التوازن، وصارية المؤخرة بأشرعة لاتينية. وكان صاري المؤخرة صغير جداً.

تتراوح حمولتها بين 1500، 2500 قنطار، وطاقمها بين 15، و20 رجلاً.

Barque (مركب): سفينة بثلاثة صواري بأشرعة لاتينية، حمولتها بين 1000، 2000 قنطار.

Pink ou Pinque (بنك): الفرق الوحيد بينها وبين المركب Barque في المقدمة، فالمقدمة مقوسة في المركب، ومنسلة في هذا النوع من السفن.

Quech ou Caiche: سفن تستطيع أن تحمل أكثر من 3000 قنطار، والسفن من هذا النوع التي لا تتجاوز هذه الحمولة تدفع ضريبة يحصلها القناصل في المشرق، كما لو كانت سفناً من نوع Polacre، وكانت تلك التي تقل حمولتها عن 1300 قنطار تعتبر مراكب. وكان هذا النوع من السفن يحمل أشرعة مربعة مع قلع يرفع في المؤخرة على العارضة.

Senau ou Senault: (أصل الكلمة هولندي **Snauw**): وهي سفينة

شراعية ضخمة، ومزودة بشراعين مربعين (شراع لكل صارية)، وصارية مائلة في المقدمة، وقلع شبه منحرف الشكل في المؤخرة. في جزئها السفلي تكون الصارية الكبيرة مُثَنَّاة بصارية أخرى تحمل شراعاً ذهبياً يسمى السنو Senau.

Brick ou Brig: سفينة صغيرة الحمولة، مزودة بصوار وأشرعة ضخمة مقارنة بحجمها: صاريين بأشرعة مربعة، وشراعين مثلثين في المقدمة، وقلع مربع الزوايا في المؤخرة. لا تتجاوز حمولتها الثلاثمائة برميل إلا نادراً.

Brigantin (قارب): الكلمة تصغير Brig. لها صاريان، وصار مائل في المقدمة، وتجهيزها يشبه تجهيز Brick.

Kerch: صاريان. ويحمل الصاري الكبير شراعاً ذهبياً، وشراعاً في شكل سهم، وشراعين مثلثي الزوايا. والصاري الثاني مزود بشراع ذهبي ومثبت أمام الدفة.

Tartane: (طرطن) «مستطيلة الشكل ومزودة بصار واحد يحمل شراعاً لاتينياً» «ماسون»، وصار مائل في المقدمة.

Settee: مركب خاص بالبحر المتوسط، ذو مقدمة مستطيلة وأشرعة لاتينية.

إن الشراع الذي كان سيد البحر، لم يلغ تماماً المجداف. وكانت تصنع سفن تتحرك بالأشرعة أو بالتجديف وهي: Chebek، la galiote، وla galere بنماذجها المصغرة Semi-galere، وla galiote.

Chebek ou Chebec: وهي سفينة ذات شكل أنيق تستطيع الأبحار بالشراع أو بالتجديف، وثلاثة صواري بأشرعة لاتينية، وشراع مثلث الشكل في المقدمة.

Felouque ou Feloucan: (من العربية فلوكة): مزودة بصاريين مائلين قليلاً نحو المقدمة وتحمل أشرعة لاتينية.

Galere (قادس): منذ نهاية القرن السابع عشر وخلال النصف الأول من القرن الثامن عشر أخذ هذا النوع من السفن أبعاداً ضخمة. وقد عقد مجلس للبناء اجتماعاً في مرسيليا في سبتمبر 1691 إفرنجي، وحدد الأبعاد كالآتي:

طول 46,777 متر، عرض: 5,847 متر، والعمق: 2,328 متر، طول المجاديف: 12 متراً، (جوريان دي لا قرافيير: الأيام الأخيرة لسفن المجاديف).

وفي موسوعة دايدرو Diderot والمبير Alembert (1752 إفرنجي) وصفت هذه السفينة كالآتي: «سفينة مسطحة، طويلة، وقليلة العرض، واطئة، وهي تسير بواسطة الأشرعة أو المجاديف، يكون طولها من 20 إلى 22 قامة، وعرضها ثلاثة قامات، ولها صاريان يمكن نزعهما عندما يكون ذلك ضرورياً تسمى إحداها مستر، والأخرى ترنكيت وهي تحمل شراعين لاتينيين. ولكل قادس 25 إلى 30 مصطبة على كل جانب، على كل منها خمسة أو ستة مجدفين. يمكن وضع خمس قطع مدفعية في القادس: اثنان من مدافع القوادس، واثنان أصغر منهما،

وآخر يوضع في المقدمة ليتمكن من القذف فوق الجزء البارز من المقدمة: وهو مدفع من عيار كبير تزن قذيفته حوالى 34 رطلاً.

نعرف عن حياة المحكوم عليهم على ظهر السفينة بفضل شهادة أحدهم، وهو مارسييل دي برقيراك Marteille de Bergerac والذي حكم عليه سنة 1701 إفرنجي بالخدمة فوق القوادس الفرنسية لأنه بروتستانتي.

كتب: «جميع المحكوم عليهم كانوا مربوطين بالسلاسل كل ستة إلى مصطبة. كانت المسافة بين المصاطب أربعة أقدام، ومغطاة بأكياس مملوءة بالصوف، وفوقها جلود ممتدة إلى أسفل حتى موضع الأقدام، وكان مراقب التجديف يقف في المؤخرة بالقرب من القبطان لاستلام أوامره. وكان للمراقب مساعدان أحدهما يقف في الوسط، والآخر في المقدمة، وفي يد كل واحد منهما سوط يضرب به أجساد العبيد العارية تماماً. عندما يعطي القبطان الأمر بالإبحار، يعطي المراقب الإشارة عن طريق صفارة من الفضة يحملها معلقة في رقبته. يتم ترديد الإشارة من قبل مساعدي المراقب عندها يضرب العبيد الماء معاً في نفس الوقت، وكأنما الخمسين مجدافاً مجداف واحد. تصوروا ستة رجال مقيدين بالسلاسل إلى مصطبة عراة كأنما ولدوا الآن، وكل بإحدى رجليه على الأرضية، والأخرى مرفوعة وموضوعة على المصطبة التي أمامهم، وممسكين بأيديهم على مجداف ثقيل جداً،

وممددين أجسامهم نحو مؤخرة القادس، والأذرع ممدودة لدفع المجداف من فوق أظهر هؤلاء الذين أمامهم، والذين هم في نفس الوضع: وهكذا تتقدم المجاديف، يرفع العبيد الطرف الذي يمسكون به بأيديهم لغطس الطرف الآخر في البحر. عندما يتم هذا يقذفون بأنفسهم إلى الخلف فوق المقعد الذي ينثني عند سقوطهم عليه. ويحدث في بعض الأحيان أن يعمل المجدفون لمدة عشرة أو اثنتي عشرة أو حتى عشرين ساعة دون انقطاع. في هذه الحالة كان المراقب أو بحارون آخرون يضعون في أفواه هؤلاء المجدفين البؤساء قطعاً من الخبز المغموس في الخمر من أجل منع أي خور. وكان القبطان يصرخ في المراقب ليضاعف من الضرب بالسياط. إذا سقط أحد العبيد مغشياً عليه فوق مجدافه كان يضرب بالسوط حتى يُعتقد أنه مات ثم يلقى به في البحر بكل بساطة».

لقد مات جان مارسيل في كلمبورج في الجولدرا سنة 1777 إفرنجي وعمره خمس وتسعون سنة كتب جوريان دي لاقراڤيير عنه بعبارة سوقية «لقد قاسى عذاب الحياة».

القوافل: أيام السعد، والنحس

قبل تناول تاريخ المبادلات بين الشمال والجنوب، يبدو من المفيد لفهم الأحداث، أن أقدم بعض الملاحظات. أولها: أن الشهود سواء القناصل في طرابلس أو أعضاء الغرفة التجارية في مرسيليا اشتكوا من ضعف مشاركة البروفانس (جنوب فرنسا) في تجارة طرابلس. في هذا الخصوص لاحظ ماسون:

«لم يوجد أبداً أي وسيط، وحوالي سنة 1760 إفرنجي لم يكن لتجارة مرسيليا أي ممثل مقيم»[406].

في سنة 1766 إفرنجي أعرب القنصل دي لانسي «de Lancey» عن أسفه لهذا القصور. كتب:

«إن حجم التجارة في طرابلس يصل لحوالي ثلاثة ملايين في السنة، إن شركة تجارية فرنسية يمكن أن تجد مجالاً للعمل فيها»[407].

يكفي الاطلاع على عدد السفن الفرنسية التي دخلت ميناء طرابلس، وخرجت منه لنتحقق من الندرة البالغة للمبادلات بين

مرسيليا وهذا الميناء. فإذا أخذنا ـ عشوائياً ـ قائمة السفن التي خرجت من طرابلس بين أكتوبر 1779 إفرنجي ومارس 1790 إفرنجي، نلاحظ أن أربعاً فقط من إجمالي ثمانية عشر سفينة كانت متوجهة إلى مرسيليا[408]. وكان الوضع أسوأ في سنة 1785 إفرنجي، فمن يناير إلى يونيه لهذه السنة، ثلاث فقط من ثمان وعشرين سفينة دخلت إلى الميناء، كانت قادمة من مرسيليا، وثلاث فقط من ثلاث وثلاثين كانت متوجهة إليها[409].

إن نفس الشهود، مؤكدين بتقارير القناصل الإنجليز، يوضحون بطريقة جلية سيطرة وتفوق النشاط البحري الفرنسي. كيف يمكن تفسير هذا التناقض الظاهر؟ الأمر بسيط: فالسفن الفرنسية كانت أغلبها مستأجرة. كان أصحاب السفن يربحون الكثير، ومن هنا هذا العدد الكبير من السفن الفرنسية في ميناءطرابلس. في سنة 1766 إفرنجي، لاحظ دي لانسي أنه في كل سنة «**تؤجر ثمان إلى تسع سفن فرنسية لنقل عبيد سود إلى الشرق، وهو ما يعود على فرنسا بحوالي عشرين ألف جنيه فرنسي**». كان العبيد يمثلون الجزء الأهم من التجارة المنقولة بالسفن الفرنسية، وأحياناً، ولكن نادراً، من قبل الدول الأخرى[410].

يبدو لنا اليوم غريباً أن الأمم الأوروبية ساهمت في هذه التجارة الكريهة، ولم تصدم هذه التجارة قناصل فرنسا، وإنجلترا. أكثر من ذلك كان القناصل في التقارير التي يكتبونها لحكوماتهم عن التجارة في طرابلس وإمكانياتها، يعربون عن أسفهم لمنع طرابلس مزاولة تجارة الرقيق على المسيحيين، والتي هي مصدر ربح محرومة منه

دولهم باستثناء عوائد تأجير السفن. فقد طرح القنصل البريطاني فريزر «Fraser» في مذكرته بتاريخ 24/ 8/ 1767 إفرنجي، السؤال الآتي:

«ما هي الحصة من هذه التجارة التي يمكن للبريطانيين القيام بها عندما تنشأ وكالة في طرابلس؟ ويجيب: ليس من الممكن للمسيحيين القيام بتجارة الرقيق في البحر المتوسط بسبب القانون المحمدي. لهذا فإن الربح الوحيد الذي يمكن أن تحصل عليه سلطة مسيحية هو تقديم الخدمات التي يطلبها التجار المغاربة، وهي تأجير السفن لنقل العبيد إلى القسطنطينية»[411].

أما أن هذه التجارة الكريهة كانت مدانة، فأمر لم يدركه هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيها، والذين كانوا شهوداً عليها. وفق ما أعرف، شخص واحد طرح السؤال حولها، وهو القنصل دي لانسي سنة 1767 إفرنجي. لقد وجه السؤال إلى الرهبان الذين كانوا دون شك يقومون بأعمال الإرشاد الديني في سجن طرابلس للعبيد المسيحيين، وقد حصل على الإجابة التالية:

«يستطيع المسيحي أن يشترك في هذه التجارة براحة ضمير: لا يقوم بها باسمه، وإنما تحت أسماء تجار مسلمين، وهم يقبلون هذا دون تردد بسبب ما يجدونه من مزايا في هذه المشاركة»[412].

غريب ما قال به الرهبان، مع ذلك يمكن القول بأن مما يخفف من مسؤوليتهم ومسؤولية السيد دي لانسي أن الاعتبارات الإنسانية ـ وهي لم تكن مطروحة من قبل أصحاب السفن الأوروبيين ـ تتطلب إخراج هؤلاء العبيد بأسرع ما يمكن من الحالة البائسة،

والمتقلبة التي كانوا يعيشونها في مستودعاتهم في طرابلس، ونقلهم نحو تركيا حيث يشغلون في الأعمال المنزلية، أو في خدمة الحريم، ويتمتعون ببعض الرفاه، وأمن نسبي. إن القناصل البريطانيين في القرن التاسع عشر، وقد كانوا أكثر وعياً من أسلافهم بالظروف البشعة لتجارة الرقيق، وضمائرهم أكثر استشعاراً كذلك ـ تطور العقليات مع الزمن ـ عملوا على إبراز هذا الجانب.

كان الرقيق السود يمثلون جزءاً مهما من الحركة التجارية في طرابلس، وكانت هذه التجارة تمثل أحد الموارد الرئيسية، بل المورد الوحيد في سنوات الجدب خاصة عند توقف القرصنة في البحر. يصف القنصل الفرنسي مارتان الوضع في سنة 1725 إفرنجي كالآتي:

«إن هذا الشعب بائس، لحد أنه لولا تجارة العبيد الذين يأتون بهم من فزان، وينقلونهم إلى المشرق على سفننا، لاضطروا لترك هذه البلاد، فليست لديهم أي تجارة أخرى. ومنذ حوالي ثلاث سنوات لم يجنوا أي محاصيل تقريباً»(413).

يحدث أن يتوقف المورد الأخير الذي تمثله تجارة الرقيق. ففي السنة الجارية ـ التي يكتب فيها مارتان ـ كانت طرق القوافل آمنة تقريباً، ولم يكن الحال هكذا دائماً، فحركات التمرد، والعصيان، والثورات كانت شائعة، وحالة الحرب مع العرب في الريف دائمة تقريباً. وكانت فزان ـ نقطة الوصل مع البلدان المنتجة للعبيد ـ تعيش في أحيان كثيرة حالات تمرد وعصيان. لقد كانت طرق الداخل، مثل الطرق البحرية، تحت رحمة الصدف.

إن تاريخ مبادلات طرابلس مع الجنوب مدون، ولكنه ـ للأسف ـ غير منشور. لقراءته تجب العودة إلى الوثائق الوطنية الفرنسية للاطلاع على البرقيات، والتقارير، والمذكرات، واليوميات التي كتبها القناصل إلى حكوماتهم. إن الفضل يعود إلى وزراء لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر لإرسالهم دبلوماسيين متميزين إلى طرابلس. إن مراسلات هؤلاء الدبلوماسيين تظهر أنهم رجال مثقفون، منفتحون على المسائل الأفريقية، حريصون على المعرفة والفهم. رجال مسؤولون، قادرون على أداء مهامهم في ظروف صعبة، وخطيرة في أغلب الأحيان. ويجب إضافة أنه كان من الحكمة تركهم في مواقعهم لمدد طويلة.

كانت السلعة الأساسية المستوردة من الداخل هي العبيد، وكانت كثرتهم في السوق مؤشراً على ازدهار المبادلات، وأمن الطرق. يعطي القناصل أحياناً بعض الأرقام، ولكن لدينا مصدر معلومات آخر وهو تقارير حالة السفن الفرنسية، فالقوائم تظهر أعداد السفن المؤجرة لنقل «السود رجالاً ونساء» إلى القسطنطينية والشرق. هكذا نجد خلال الفترة (1721 ـ 1726) إفرنجي أربعاً وأربعين سفينة لنقل الرقيق السود من إجمالي مائة وخمسين سفينة فرنسية غادرت ميناء طرابلس.

تظهر هذه المعطيات، بالرغم من أنها غير كاملة، التغيرات في كثافة الحركة. فمن 1685 إفرنجي (تاريخ سلام الأستري) حتى نهاية القرن الثامن عشر يمكننا تمييز ثلاث مراحل. المرحلة الأولى تمتد

من 1685 إلى 1711 إفرنجي وهي فترة اضطرابات وعدم استقرار سياسي، وستكون موضوع هذا الفصل. وتمتد المرحلة الثانية حتى سنة 1765 إفرنجي وهي مرحلة الانطلاق الاقتصادي. يأتي بعدها تدهور لحقه ـ بعد فترة وجيزة ـ انهيار كامل، مع فترة قصرة وأخيرة من الانتعاش بين 1785، و1786 إفرنجي (الفصول من 10 إلى 12).

رأينا في الفصل السابع أن فرنسا نجحت في الثلث الأول من القرن السابع عشر في وضع بعض القناصل في طرابلس ولكنها كانت محاولات غير مثمرة. ولم يستقر ممثلون رسميون لفرنسا بصفة دائمة إلا ابتداء من 1685 إفرنجي. كان أول هؤلاء كلود لومير «Claude Lemaire». وكان ذا روح منفتحة، اهتم بالعلاقات مع الداخل وعرَّفنا بفزان وبورنو فاتحاً الطريق أمام خلفائه. وقد حل محله في سنة 1692 إفرنجي لويس لومير. كما أن آخر يدعى لومير كان قنصلاً من 1701 إلى 1708 إفرنجي، وبقي اسمه مرتبطاً بتاريخ الرحلات والمهام جنوب الصحراء.

إن الأعمال التي قام بها هؤلاء تثير الإعجاب، خاصة وإن مدد خدماتهم تزامنت مع فترات مضطربة. ففي سنة 1682 إفرنجي، قامت الحرب بين الجمهورية وفزان. كان الداي في حاجة ملحة، كالعادة، للدخول المحصلة من المملكة (فزان). وقد لاحظ سكرتير المالية في طرابلس أن الأتاوة لم تدفع من قبل فزان، بينما ادعى ملك فزان ـ وكان وقتها النجيب ـ دفعها. من كان منهما صادقاً؟ كان النجيب كاذباً وفق ما أورده الأنصاري، فقد كان مما

يضايق رعاياه كثيراً أن يقاسوا نتائج سرقته الأموال التي كانوا يدفعونها. في جميع الأحوال، أرسل الداي حسن عبازة (1679 ـ 1683 إفرنجي) جيشاً تحت قيادة الباي مراد الملقب بالمالطي إلى فزان. بعد أن استولى مراد على سوكنة وودان، قام بمحاصرة سبها، واستطاع أحد الأشخاص الهرب من البلدة والوصول إلى مرزق حيث أعطى الإنذار. خرج النجيب بقواته لقطع الطريق على الأتراك، وتمت المواجهة في الدليم على مسافة ست ساعات مشياً من العاصمة، وهزم جيش النجيب وقتل هو شخصياً. أعطى مراد الأمان لإخوة النجيب ـ ومن بينهم الناصر الذي كان جريحاً وموضوع عناية فائقة ـ ثم زحف على مرزق ونهب الخزانة، والقصر الملكي. كان مغنماً أسطورياً: الكثير من الذهب الذي قدر بحمولة اثني عشر جملاً دون الأخذ في الاعتبار عدد العبيد، والخادمات، والخيول. ولم يضيع الجنود الفرصة «فقد ملأوا أيديهم من الغنائم». وبعد سبعة أيام أوكل الباي مراد حكومة فزان إلى الناصر الذي كان قد شفي من جروحه. وبعد انتظار أسبوعين، وفرضه على الملك الجديد أتاوة تعادل أتاوة ثلاث سنوات غادر «وأيديه مملوءة». وقد حكم الناصر مدة طويلة جداً لحد يتعذر فيها بقاؤه مخلصاً لوضعه كدافع أتاوة. سنرى[414].

عُولج الوضع في فزان، وقد يدفع هذا للاعتقاد باستقرار النظام. لم يكن الأمر كذلك، فحملة سنة 1682 إفرنجي كانت مقدمة لخمس سنوات من عدم الاستقرار السياسي. إن الجنرالات المنتصرين كثيراً ما يمثلون خطراً على الأمة. كان الباي مراد يفكر

من قبل في الإعداد لانقلاب، وقد قام به بعد مدة قصيرة من رجوعه من فزان. ففي 11 يونيه سنة 1683 إفرنجي أعطى الأوامر للجنود بالقبض على حسن عبازة ونفاه إلى جزيرة جربة. ومن الغريب أنه لم يقم بأي عمل للاستيلاء على السلطة. كان يعتقد، دون شك، أن وضعه كقائد لجيش البر يتسق أكثر مع طموحاته. واستطاع خلال ثلاث سنوات أن يلعب اللعبة، فالخليفتان الأولان لحسن عبازة وهما عبد اللّه الروم (11 يونية 1683 ـ 30 أغسطس 1684 إفرنجي)، وعبد اللّه الأزمرلي (30 أغسطس 1684 ـ 11 مارس 1686 إفرنجي) كانا مجرد دمى بين يديه، واستطاع الثالث إبراهيم الطرزي (11 مارس 1686 ـ 4 نوفمبر 1687) أن يتخلص من الباي مراد، ولكن انتصاره كان وهمياً، فقد قتل بعد قليل ضحية للجند. كانت الميليشيا قد تخلصت من مؤامرات الباي مراد ومن ثم أحسنت الاختيار في شخص محمد شايب العين ليحل محل الطرزي. وعرف شايب العين كيف يجمع بين الاستقامة، والكرم، والحزم، ومن ثم أعاد بسط سلطة الدولة، لوقت قصير في الحقيقة، لأنه عزل يوم 19/ 4/ 1701 إفرنجي من قبل هؤلاء الذين أوصلوه للسلطة قبل ثلاث سنوات ونصف[415].

في عهد حكومة عبد اللّه الأزمرلي، قام كلود لومير بافتتاح القنصلية في طرابلس. لم تكن الظروف ملائمة بدرجة كافية للانطلاق الاقتصادي، عل الرغم من استعادة الاتصالات مع الجنوب بعد الحملة على فزان سنة 1682 إفرنجي. يشهد على ذلك التقرير الذي أرسله القنصل إلى السيد ديلاني «Delagny» مدير تجارة فرنسا في

طرابلس. التقرير مؤرخ في 8/11/1686 إفرنجي ويستحق الجزء الخاص بفزان وبورنو الانتباه. أعتقد من المفيد إيراده كاملاً.

«يرسل الداي مرتين كل سنة إلى فزان قافلة من حوالي مائة جمل أغلبها محمل بالحلي الزجاجية (أساور، وعقود من حبوب الزجاج من ألوان مختلفة)، والورق الخشن، وبالات من أقمشة سان بونز، والنحاس في شكل قضبان وألواح، وبعض الأقمشة الحريرية التي تأتي من شيو بأسعار رخيصة. ويقايض الداي هذه السلع المختلفة مقابل التبر، والسنا، والرقيق الأسود الذين يأتي بهم رعايا ملك بورنو لبيعهم في هذه المدينة، ويحضرون منهم سنوياً من خمسمائة إلى ستمائة. إن السلع التي يبعثها الداي يأتي أغلبها من البندقية. من المفيد أن أقول لك أن فزان مدينة أغلب سكانها من السود وهي على مسيرة أربعين يوماً من هذه المدينة الواقعة على الساحل الجنوبي، وسكانها مسلمون وتتكون تجارتهم من تراب الذهب الذي يأتي به تجار من رعايا ملك بورنو. وهذا الأخير ملك قوي جداً، وهو مسلم أسود ولكن تسامحاً كبيراً يسود مملكته لحد أن جزءاً كبيراً من رعاياه من المسيحيين، ويحتفظ دائماً بثلاثمائة ألف رجل من السود على حسابه، لأنه في حرب دائمة مع جيرانه. يؤكد الذين قاموا برحلات كثيرة إلى هناك أن ما لديه من الأراضي يساوي ما لدى السيد الأعظم (السلطان). ويتطلب السفر حيث يقيم، عادة، ثلاثة أشهر»[416].

يثير هذا التقرير ملاحظتين. تتعلق الأولى باستيراد العبيد السود. إذا ما قارنا العدد الذي أعطاه القنصل ـ خمسمائة إلى

ستمائة سنوياً ـ بالتقديرات اللاحقة فهو منخفض بشكل استثنائي. هل كانت الظروف تدفع أصحاب القوافل من بورنو للحذر؟. أما الملاحظة الأخرى فتتعلق بغرابة تأكيد «**أن جزءاً كبيراً من رعايا ملك بورنو هم من المسيحيين**». أخطأ لومير عندما كتب هذا. لقد اعترف بهذا الخطأ قنصل آخر يسمى لومير بعد حوالي عشرين سنة تقريباً في رسالة مؤرخة في 25 مايو سنة 1707 إفرنجي موجهة إلى رئيس المجمع المقدس للتبشير بالأديان[417]. يبدو أن كلود لم يعد مهتماً بالداخل. هل كانت محل اهتمامه مواضيع أخرى؟ من الممكن، وقد يكون نقص الفرص المواتية هو السبب، فالحرب مع فزان كانت على وشك الاشتعال من جديد.

بعد سبع سنوات من الإخلاص لتعهداته ـ أي في سنة 1689 إفرنجي ـ، ضاق الناصر ذرعاً ـ مثل كثير من أسلافه ـ بتحمل ظلم طرابلس، وأهمل إرسال الأتاوة السنوية. وجاء رد الفعل دون انتظار، فقد أسرع الباشا ـ وهو محمد شايب العين وقد حصل على موافقة السلطان على تثبيته بعد انتخابه ـ بإرسال جيش على رأسه الوزير يوسف تتبعه شخصيتان مقلقتان: علي المكنى، وابن عمه محمد الغزيل. كانت لأسرة المكنى أطماع في فزان منذ مدة طويلة، ومن أجل تحقيق أهدافه أجرى علي اتصالات سرية مع شقيق الناصر وابن شقيقه محمد بن جهيم، تمام بن محمد، ووعدهما بأن السلطة ستكون لهما إذا ما تعاونا معه للقضاء على الناصر. بقيت هذه الاتصالات سرية ولم يتسرب منها شيء، حتى الباي يوسف كان يجهلها تماماً.

تم اللقاء بين الجيشين أمام مرزق، واستمرت المعركة ثلاثة أيام. كان اليوم الأول لصالح يوسف، واليوم الثاني لصالح الناصر. ودارت معركة عنيفة في اليوم الثالث أدت إلى إرهاق الطرفين، ولكنها نالت من تصميم الناصر. أدرك الناصر أنه فاقد مملكته فطلب الأمان لنفسه، ولوزيره المسعودي وحاشيته. كان الباي يوسف شهماً، فأعطاه الأمان عن طريق قاضي فزان وبطريقة مشرفة. بعدها دخل يوسف إلى مرزق، واستولى على الخزينة ثم تنكر لتعهده، وقام بتعذيب الناصر، والقاضي، وابنه، وكذلك التجار واعتدى على شرف حريمهم وقبض على كل الذين لديهم أموال، واستولى عليها.

استغل محمد بن جهيم الفوضى وهرب. ومثل هذا فرصة مواتية لعلي المكنى. وبالفعل عندما قدر الباي يوسف أن الوقت قد حان للرحيل اختار محمد الغزيل حاكماً لفزان. ثم سلك طريق العودة وأخذ معه الناصر ووزيره المسعودي. وأودعهما السجن في طرابلس حيث بقيا شهوراً[418].

لماذا هذه المعاملة غير الإنسانية التي عومل بها الملك في مرزق بداية، ثم في طرابلس لاحقاً؟ لقد أخبرنا القنصل دي لالاند «Delalande»، بعد تسع سنوات بالسبب.

«لقد عذبوا الملك عذاباً قاسياً، ليكشف أين أخفى كنوزه، ولما لم يستطيعوا أن يعرفوا منه شيئاً أحضروه إلى هذه المدينة، وعذب دون فائدة طوال سنتين لنفس الموضوع»[419].

قد تكون سنتان رقماً مبالغاً فيه، فحسب مصطفى خوجه مؤلف

«تاريخ فزان» لم يبق الملك ووزيره في طرابلس إلا خمسة عشر شهراً. بعدها تم إطلاق سراحهما، وأعيدت إليهما حقوقهما. كانت هذه نهاية طيبة. كيف يمكن شرح هذا العفو؟ يرجعه دي لالاند إلى تعب وملل السجانين، ولكن هذا تبسيط غير مقنع، فالأمور أكثر تعقيداً.

رأينا أن الباي يوسف ترك، قبل مغادرته فزان، الحكومة للغزيل. كان عليه أن يتذكر دروس الماضي، فالفزانيون لا يتحملون الحكم الأجنبي طويلاً. ففي سنة 1612 إفرنجي لم يستطع حسن النعال الملقب بالتركي الاستمرار في الحكم إلا سنة واحدة. لم يستمر الغزيل ـ كذلك ـ إلا خمسة أشهر، فقد ثار عليه الناس وحاصروا القلعة. بعد ثلاثة أيام لجأ الدخيل إلى الحصن، وعندما رأى رفاقه ذلك طلبوا الأمان. قام المتمردون باقتحام المكان حيث يوجد الغزيل وقيدوا رجليه بالحديد وجروه إلى خارج القلعة. وحينها طالب رجل بالانتقام منه، لأن الغزيل بتر يده أثناء حكومته، وأصر الرجل أن يطبق عليه نفس العقاب، فقطع المتمردون يده ومنها توفي.

لم يتبق إلا إعادة السلطة إلى أحد أعضاء الأسرة المالكة، وكان لا يمكن التفكير في الناصر. بقي اثنان من المرشحين: محمد بن جهيم، وتمام بن محمد، والاثنان لاجئان في السودان في كاتسينا. وقع الاختيار على تمام الذي رجع وأُعترف به رئيساً. وهكذا تحقق السيناريو الذي تصوره أصلاً محمد المكنى، وباختلاف بسيط، وهو أنه لم يلعب فيه أي دور ولم يحقق منه أي مكسب. كان يجب

معالجة هذا الوضع بسرعة. كان الحل بسيطاً، وهو أن ترسل الجمهورية كل سنة لجنة مكلفة بجباية الأتاوة، سميت بالنوبة. ومديرها يصبح «باي النوبة»، ويبقى اللقب والوظيفة في الأسرة.

لم تكن لدى محمد باشا النية لإبعاد تمام، بالعكس، قرر منحه لباس شرف، وكلف المكنى بتسليمه له. كانت للمكنى أفكار أخرى، فعند وصوله قريباً من مرزق طلب إلى تمام ترك المدينة والانضمام إلى أخيه محمد جهيم الذي كان لا يزال في السودان مع قواد جيشه. ولكن الملك، الذي كان مطمئناً لثقة الباشا، رفض. وطلب إليه المكنى أن يأتيه، مع كبار حاشيته وأبناء الملوك، وأعطى الأوامر لرجاله بقتلهم بمجرد حضورهم. أدرك تمام الحيلة وعرف كيف يفشلها: ذهب وحيداً، فأسقط في يدي المكنى ولم يعد أمامه إلا صرف النظر عما كان يفكر فيه والدخول إلى المدينة.

لم يبق المكنى في مرزق إلا سنة واحدة. فقد رجع محمد بن جهيم مدركاً أن بإمكانه الاعتماد على دعم السكان. وعندما وصل إلى المكان المسمى وادي الكروان نودي به رئيساً وعلى أن تكون مهمته محاربة وطرد المكنى. فضل هذا الأخير أن يأخذ المبادرة، فقام مع قواته لملاقاة الخصم. وبينما كان في قلعة صغيرة لقضاء الليل، باغته محمد بن جهيم، وكانت مذبحة، لم ينج منها محمد المكنى وبعض أتباعه إلا بالهرب، وتابعهم محمد بن جيهم حتى وصلوا إلى مرزق حيث وجدوا ملجأ. ودخل محمد بن جهيم المدينة وأخرج منها تمام وحاصر منزل محمد المكنى. كان الوقت ما زال ليلاً. في الصباح طلب محمد الأمان، وحصل عليه بشرط

أن يعيد كل ما أخذ من الخزينة. وهكذا فشلت كل مشاريع المكنى ولم يبق له إلا العودة إلى طرابلس.

لم يكن ما حدث للمكنى آخر مآسيه، ففي سبها هاجمه المدعو جبر السليماني، وهو غالباً رئيس أحد بطون أولاد سليمان، الجبابر. وفي المواجهة قتل أحد أخوة المكنى، ولم ينج هو إلا نتيجة تدخل أحد أشقائه الحاج يوسف الذي أسرع لنجدته بخمسمائة من الفرسان.

على أثر هذه الأحداث، «**أخرج محمد باشا الناصر من سجنه، وألبسه لباساً شرفياً ومنحه حكومة فزان**»[420].

كان الأسير يمثل قيمة مضمونه مقارناً بالمتمرد محمد بن جهيم، ومحمد المكنى صاحب المناورات المشبوهة. فالناصر الذي حطمته سنتان من السجن والعذاب، سيكون من الآن فصاعداً أداة طيعة. وتعهد بدفع فدية في شكل كمية غير محددة من التبر، وتعهد بأن يدفع الأتاوة السنوية أي مائة مارك، وعشرين من العبيد صغار السن من الجنسين، وقد وفّى بما قاله.

بعد أن تمت معالجة الوضع في فزان، أصبحت الاتصالات مع الداخل آمنة، وتولد الأمل لدى التجار وأصحاب القوافل والسفن في انتعاش النشاط الاقتصادي، ولكن الوضع تدهور في البحر.

لنعيد التذكير بالأحداث: 21/ 1/ 1692 إفرنجي إعلان الحرب على فرنسا، 27/ 5/ 1693 إفرنجي سلام دوسو، 21 يوليه سنة 1693 إفرنجي القطيعة مع بريطانيا، 11/ 10/ 1694 إفرنجي اتفاقية السلام التي وقعها توماس بيكر باسم صاحب الجلالة البريطاني.

منذ سنة 1694 إفرنجي، وطرابلس في حالة سلام مع كل من فرنسا وإنجلترا في نفس الوقت. وكانت الطرق البحرية والبرية آمنة. نلاحظ حينها نشاطاً تجارياً مشجعاً. كان دي لالاند، وهو ابن عم دوسو، والذي حل محل لومير، شاهداً على الانتعاش الذي شهدته طرابلس في تلك الفترة. ففي الجنوب لم تكن تعكر العلاقات مع فزان أي شائبة. عن الناصر كتب القنصل:

«إن هذا الملك، وهو أسود، نفذ بحذافيره كل ما تعهد به، والتجارة هناك منظمة ونشطة».

نلاحظ، بالفعل، نمواً ملحوظاً للتبادل بين الجنوب والشمال، وكثر العبيد السود في السوق. كتب القنصل:

«إن هذا يعطي مجالاً لإبحار سبعة إلى ثمانية مراكب فرنسية في السنة»[421].

كنا نتمنى معرفة أعداد الرقيق السود الذين نقلوا إلى المشرق، ولكن عوضاً عنه يمكننا إجراء تقديرات. كانت المراكب «barques» هي أكبر ناقلات العصر بعد السفن «Vaisseaux»، والسفن ذات الشراعين «Ketchs» والسفن ذات الشراع الواحد «polacres»، وتتراوح حمولة المركب ـ بين ألف، وألف ومائتي قنطار. عندما نعرف أن البنك «Pinque» وهي سفينة من نفس الحمولة كان يمكنها أن تنقل مائتي عبد بالإضافة إلى مائة وخمسين قنطاراً من السلع المتنوعة[422]، نستطيع القبول بأن المركب يمكنها أن تستقبل بسهولة مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة من العبيد. ويعطى هذا إجمالياً قدره ألف وسبعمائة وخمسين إلى ألفين وأربعمائة شخص.

في هذه الظروف، ولد مشروع بعثة كاثوليكية إلى بورنو. فخلال سنة 1700 إفرنجي كتب الأب موريسيو لوكا «Maurizio Luca» الذي كان طوال سبع سنوات رئيساً للبعثة الفرنسيسكانية في طرابلس، لانتباه الكاردينال ساكريبانتي «Sacrepante» رئيس المجمع المقدس للتبشير بالأديان، مذكرة يؤكد فيها وجود مسيحيين بين العبيد السود المُستجلبين من بورنو إلى فزان. وقد ارتكب لومير نفس الخطأ في تقريره سنة 1686 إفرنجي. وقدم الكاردينال المذكرة إلى المجمع العام يوم 14 ديسمبر سنة 1700 إفرنجي، وقبلت اقتراحات الأب موريسيو، وقررت مخصصات لإرسال اثنين من الفرنسيسكيين إلى بورنو[423].

اكتفت الرهبانية في ذلك الوقت، بإرسال رجل واحد، ولكنه من طراز فريد، أنه الأب داميانو دا ريڤولي «Damiano de Rivoli». كان رجل دين متقدم في العمر، ومستعرب ممتاز مع بعض المعارف الطبية. عندما وصل الأب داميانو إلى طرابلس في آخر 1702 إفرنجي أو بداية 1703 إفرنجي، علم أن طريق فزان مقفلة بسبب الاضطرابات[424]. كانت غريان، كما يحدث كثيراً، في حالة عصيان. كتب لومير، الذي عين قنصلاً في طرابلس سنة 1701 إفرنجي، مايلي:

«أن عرب ساحل غريان، وهم على مسيرة يومين من هنا، في حالة عصيان. أنه جبل منيع. يُقدر أن فيه ألفين من العرب المسلحين جيداً، والذين يقومون من حين إلى آخر بأعمال قطع الطرق ويضايقون رعايا طرابلس»[425].

حاول الأب داميانو أن يصل إلى بورنو عن طريق وادي النيل. لهذا الغرض كان في سنار عاصمة الفونج يوم 11/ 11/ 1703 إفرنجي، وأجرى اتصالاً مع رئيس قافلة مسافرة إلى بورنو. كان هذا الأخير مرابطاً من بورنو ودعاه إلى الالتحاق بمجموعته. كان الوصول إلى هدفه يتطلب ثلاثين يوماً تقريباً، كانت فرصة مناسبة، ولكن الأب داميانو عدل عن مرافقة المرابط، فقد حذره أصدقاء من المسلمين أن المسافرين مع هذه القافلة من المسلمين والمسيحيين سيقتلون بكل تأكيد أثناء السفر. وهكذا غادر المبشر سنار، يوم 28 مايو سنة 1704 إفرنجي، عائداً إلى طرابلس[426]، وكان فيها خلال يوليه 1705 إفرنجي[427].

كانت طرابلس تعيش فترة من أسعد فترات تاريخها، والظروف ملائمة بطريقة غير مسبوقة. كان على رأس الدولة شخصية لا يتكرر مثلها إلا نادراً: الباي خليل. مجرد لقبه «باي» وليس «داي» ينبهنا إلى أن طرابلس تشهد صفحة غير عادية من تاريخها. بدأت الحياة الوظيفية لخليل في عهد محمد باشا (1687 ـ 1701) إفرنجي، وكان وقتها قائداً للجيش ويحمل لقب «الباي». في 19 أبريل 1701 إفرنجي، غادر إلى تونس ومنها إلى القسطنطينية على أثر قيام الجند بنفي محمد باشا قصراً، والتمرد على سلطة قائدهم. بعد سنة من هذه الأحداث رجع إلى طرابلس على رأس قوة بحرية عثمانية واستطاع الاستيلاء على طرابلس بفضل دعم أنصاره الكثيرين فيها. كان هذا في سبتمبر سنة 1701 إفرنجي، وجاء في الوقت المناسب، فقد أظهر خليفتا محمد باشا عدم كفاءتهما. كان الأول عثمان

«فظاً، عنيفاً، مهملاً لأمور الدولة» ولم يستمر في الحكم إلا ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، وكان الثاني مصطفى شنيعاً بقسوته، وطبعه الاستبدادي[428].

لم يجد خليل، بعد رجوعه إلى طرابلس «من يثق فيه ليعينه داياً» فاحتفظ بالسلطة وبلقبه القديم باي[429]، ولم يتحصل على موافقة السلطان على تثبيته إلا في السنة قبل الأخيرة من حكمه، أي أبريل سنة 1708 إفرنجي، وهكذا أصبح باشا[430].

كانت بدايات خليل صعبة. فعند وصوله إلى السلطة كان عليه أن يواجه تمرداً من عرب غريان، وهو الظرف الذي منع الأب داميانو من الذهاب إلى فزان. وبعد سنتين أعلنت عليه تونس الحرب، وتوجه باي هذه الجمهورية (تونس) بجيشه إلى طرابلس متذرعاً بأسباب واهية. خرج خليل لمنعه من دخول المدينة، ولكنه هُزم واضطر للجوء إلى داخل الأسوار، وتبعه[431] التونسيون الذين كانوا، صباح يوم 6/ 12/ 1704 إفرنجي، على مسافة حوالي أربعة كيلومترات من الأسوار[432]. بدا وضع الطرابلسيين ميؤوساً منه، وفجأة رأوا العدو يحمل أمتعته ويبتعد. لقد ظهر الطاعون في معسكره واضطره للانسحاب بسرعة[433].

كان خليل على شفا الضياع، وتركت هذه المحنة أثرها فيه. كتب لومير:

«لقد أنهكت هذه الحرب الباي كثيراً. . . لم يتجاوز عمر الثالثة والأربعين. . . ويخفي ألمه وراء رجل نبيه عاقل. فهو لا يرتكب أي قسوة، ويلتزم دائماً بما يقول، ولكنه لا يستطيع الاعتماد على

إخلاص الميليشيا التي من المفروض أن تؤيده، لأنه على يقين أن العرب سيصبحون سادة طرابلس في حالة تقاعس الميليشيا عن تأييده. يلاحظ أن أسلافه مهما بلغت قوتهم من الجند، وثراءهم، لم يحاولوا أبداً تحجيم الميليشيا وإلزامها بالنظام والسلام. مثل ما يفعل هو الآن»[434].

من الواضح أن القنصل كان يحمل للباي الكثير من الود والتعاطف. فهو لا يعبر عن إعجابه برئيس الدولة فقط وإنما بالرجل كذلك. وقد أكد المتأخرون هذا الحكم، فسيكتب عنه الأنصاري بعد قرنين:

«كان نبيلاً، وذكياً نابهاً يستهدف أهدافاً سامية. وكان شجاعاً شجاعة منقطعة النظير. قام بإرسال موظفين في كل مكان، وحرص على أمن الطرق، ونشر العدل بين الناس، وأصبحت بفضله المناطق البعيدة، قريبة»[435].

كان هذا صحيحاً فكأنما ألغيت المسافات، فمع فزان التي كان الذهاب إليها في السابق صعباً، أصبحت الاتصالات كثيرة، وسريعة، وآمنة. كانت أول اهتمامات خليل بعد انتهاء الأعمال العدوانية مع تونس هي:

«أن يبعث بناقل بريد على جمل لينقل إلى الملك خبر رفع الحصار».

كان للومير من جانبه، وهو المخلص في خدمة مليكه، مشروعاته:

«ستعود التجارة مع فزان. . . ومن دون مساعدة تجار مرسيليا، سأحافظ على هذه التجارة بالاقتراض من صهري حتى حد أربعمائة قطعة قماش في السنة صنع مصانع العجزة في مرسيليا. هناك القليل الذي يمكن عمله، ولكن هذا يمنع خروج النقود من فرنسا. سيكون من المناسب عمل نفس الشيء في كل المشرق. فيما يتعلق بالسود يمكننا الحصول على الكثيرين منهم حتى ألف في السنة، ولكن لا يسمح بخروجهم إلى البلدان المسيحية بالرغم من أن أغلبهم يحملون أسماء مسيحية، وبمجرد وصولهم هنا يتم ختانهم ويرسلون للبيع في المشرق. لقد وعدني الباي بأن آخذ منهم باسم أحد تجار هذا البلد. يمكن الحصول على عبد جيد مقابل مائة وخمسين جنيهاً. لولا تغير الحكومات المستمر في هذا البلد لأمكن أن يشهد تجارة نشطة، وبالإضافة إلى الأقمشة الفرنسية تباع فيه كمية من قماش القطن، والورق، والقرنفل، والمرجان، ويكون المقابل عبيداً من الجنسين، والسنا، والتبر»(436).

أدرك القنصل الأرباح من وراء تجارة الرقيق السود ذكوراً وإناثاً، وعزم تحت غطاء اسم آخر أن يشارك فيها مباشرة. لا أعرف ما إذا كانت قد واتته الفرصة لتحقيق ما نواه. من المستغرب أن يفكر القنصل ـ وهو المسيحي المخلص ـ في هذا الأمر في نفس الوقت الذي كان يتابع فيه جمع المعلومات عن بورنو والبلدان المجاورة من أجل أن يبعث إليها بمبشرين.

تحسنت وثائق القنصل ومعلوماته شيئاً فشيئاً، ووصلته معلومتان جديدتان. الأولى عن وجود مملكة مسيحية تحت اسم

غروفلا «Gorufla» بجوار بورنو، سلطانها لا يقصر في حسن استقبال رجال الدين. كان هذا يهم المجمع المقدس للتبشير بالأديان. لسوء الحظ لم يكن هذا الخبر دقيقاً. كان هناك خلاف حول نطق اسم هذه المملكة العجيبة البعض ينطقها غروفلا، وآخرون غروفا أو كروفا. وما هو أكثر تحييراً هو أن لا أحد كان قادراً على معرفة أين تقع بدقة. وبقي هذا الغموض دون إجلاء حتى اليوم.

لحسن الحظ، وصلت القنصل معلومة أخرى أكثر صدقاً تقول بوجود مملكة غير بعيدة عن بورنو، وسكانها ليسوا مسيحيين ولا مسلمين كذلك، ومن السهل تحويلهم إلى المسيحية. هل هي ماندرا؟ من المحتمل. فهذه الدولة التي سبق وأن ذكرها جيرار، وذكرها كل من أنانيا وابن فورتي في نهاية القرن السابع عشر، وقد تكون معروفة من ليون الأفريقي سنة 1518 إفرنجي تحت اسم مدرا، كانت لا تزال وثنية.

بمجرد رجوع الأب داميانو في يونيه أو بداية يوليه سنة 1705 إفرنجي، أخبره لومير باكتشافاته. وقام المبشر بإخطار المجمع المقدس للتبشير بالأديان طالباً إذا ما اتضح عدم وجود مسيحيين في فزان وبورنو، أن يؤذن له بالعمل في مملكة «سلطان غورورفا» وبين الأقوام غير المسلمين. بعد ذلك، أتيحت له الفرصة للاستفسار من كثير من السود رجالاً ونساء الذين وصلوا مع قافلتين، كما قدم الباي دعمه وتم معه لقاء في مسكنه. من هذه المقابلات اتضح جلياً عدم وجود مسيحيين في بورنو، ولكن هناك وجود مسيحي ولو

بالاسم في بلد مجاور.

هكذا كان المبشر يعد لرحلته. وبدا أن كل أسباب النجاح تضافرت. واقترح لومير أن يطلب إلى ملك فزان مخاطبة «ابن عمه ملك بورنو» لصالح البعثة. بقيت تسوية الصعوبات المادية، فمن طرابلس إلى فزان تستغرق القوافل للذهاب ـ حسب أقوال القنصل ـ خمسة وعشرين يوماً، ومن هناك إلى بورنو تسعين يوماً[437]. كانت الرحلة من طرابلس إلى بورنو نزهة بالنسبة لشاب في صحة جيدة، ولم يكن هذا وضع الأب داميانو «**الذي كان متقدماً في العمر وأضعفه المرض الذي أصابه في سنار**». ولهذا استدعاه رؤساؤه إلى موطنه ولاية بيومونت «Piemont» في أبريل سنة 1706 إفرنجي[438].

لم يمنع هذا الظرف، بالرغم من أنه محزن، القنصل من مواصلة مساعيه. فبعد سنتين وبالتحديد في 1/ 7/ 1707 إفرنجي كتب الآتي:

«أقوم منذ وقت طويل باتخاذ الإجراءات للسعي لتمرير مبشرين إلى مملكة غوروفا وهي مجاورة لمملكة بورنو. إن الملك مسيحي وكذلك شعبه ولكن لم يعد لديهم من المسيحية إلا الاسم. وربطت بخصوص هذا الموضوع اتصالات مع ملك فزان عن طريق مبعوثه هنا وهو رجل نابه عاقل وكثيراً ما يأتي إلى منزلي. إنني أرسل إلى ملكه هدايا عن طريق القوافل التي يتعامل معها ويوصي بها مبعوثه الذي أقدم له خدمات من جانبي. عندما ذهب عائداً إلى فزان، بعثت معه برسالة لمبعوث غوروفا الموجود لدى ملك بورنو أخبره فيها

عن قوة أعظم الملوك المسيحيين، وأُوَضح له أنني لما علمت أن ملكه وكل شعبه من المسيحيين فسيسعدني أن أرتبط بمراسلات معه، وأن أعرف خفايا ديانتهم لأرى عما إذا كانت تتفق مع ديانتنا، وإذا ما كان ملكه في حاجة إلى طبيب جيد، فإنني سأبعث إليه بواحد، وعما إذا كان يريد إرسال شخص لمرافقة الطبيب. من كل المعلومات التي لدي يتضح أن سلطان الغورورفا هو أقوى الملوك السود لأنه أجبر ملك بورنو على طلب السلام بعد أن هزمه في معارك عديدة. كانت رسالتي بالعربية، وقد رجوته أن يترجمها إلى لغته إذا كان ذلك في إمكانه. هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدتها لتمرير المبشرين. هناك أكثر من مائة ألف مسيحي في مملكة الغورورفا الذين لم يعد لديهم من المسيحية إلا الأسماء، ولكن من الصعب العثور على أشخاص قادرين على مقاومة تعب سفر طويل جداً، ويعرفون لغة العبيد وهي مختلفة من مملكة إلى أخرى. بالمناسبة، لاحظت أثناء رحلتي الأخيرة إلى القاهرة من أجل خدمة ملكي، وجود عدد كبير من المسيحيين الأقباط الذين يتولى مبشرونا تعليمهم وتوعيتهم. وعلمت أنهم لم يقوموا بتحويل أي واحد منهم. أعتقد أن الأمر سيكون كذلك في مملكة الغورورفا. لي الشرف أن أكتب إلى سيدي الكاردينال دي لا تريسموي «de la Tresmouille»، وأن أطلب إليه أن المهمة الحقيقية هي المحافظة على المسيحيين في دينهم وإيجاد الوسيلة لتخفيف معاناتهم من البؤس القاسي الذي يضطرهم في كثير من الأحيان للارتداد عن دينهم. وأن أعلمه أن المستشفى قد انتهي منه، وسينقذ حياة الروح

والبدن لعدد غير محدود في المستقبل للمساعدة الروحية والمادية التي سيجدونها[439].

لنقدر إخلاص القنصل لقضية كان يعتقد أن مآلها الفشل. وقد أخطأ، فالنجاحات التي حققتها البعثات التبشيرية جنوب الصحراء في النصف الثاني من القرن العشرين كذبت نبوءته. أي غد واعد كان سيكون للمسيحية لو أن الإنجيل بُلِّغ للسود في ماندرا والمناطق المجاورة منذ بداية القرن الثامن عشر! كان الوضع الثقافي لشمال الكمرون غير ما هو عليه الآن.

عندما كان لومير يتابع عمله في خدمة ملكه والكنيسة، كان للباي اهتمامات أخرى غير البعثة إلى بورنو. كان عليه مواجهة العرب الثائرين من كل جانب. في سنة 1706 إفرنجي قاد حملة ضد قبائل أوجلة في الشرق[440]، وبين مارس سنة 1707 إفرنجي، ومارس سنة 1708 إفرنجي كان عليه مواجهة محاميد الساحل، وعرب الجبال في الغرب، القبليين، كما يسميهم لومير.

لو اتحد العرب لاستطاعوا طرد الأتراك من طرابلس، بكل تأكيد. ولكن أن يطلب إلى العرب الاتحاد، يعني أن يطلب إليهم أكثر مما يستطيعونه، فالقبائل تتنازعها صراعات قديمة، ورؤساؤها يتنافسون في أمور غير مجدية، والنتيجة هي أن أعداداً من العرب يحاربون في صفوف القوات الحكومية. كان لومير شاهد عيان على هذا. فعندما تحرك الباي لمحاربة المحاميد في مارس سنة 1707 إفرنجي رافقه حتى معسكره. كان المنظر الذي رآه مثيراً للدهشة:

«وصلت من معسكر الباي الذي يوجد على بعد يومين من هنا،

بعد أن رافقته إلى هناك. لقد جمع الباي كل قواته وسلح ألفين من سكان هذه المدينة والأماكن المجاورة، وألفين من الأتراك من القوات النظامية، وحوالي ألفين من العرب. لقد غادر اليوم معسكره، وهو يحارب بتكاليف زهيدة. فالسكان لا يدفع لهم أجر، ولا تقدم لهم تغذية إلا قطعتين من البسكويت يومياً، أما رجال الميليشيا فتدفع لهم المرتبات العادية، وكذلك التغذية العادية. لا يمكن العيش ببساطة أكثر. إن كل جندي مجبر على أن يتسلح على حسابه، ويقوم الباي بتوفير الخيام فقط. مقاييس علم الأتراك خمسين في خمسين ولسكان البلاد نفس الشيء. أما العرب فليس لديهم شيء آخر إلا الأجمل من زوجاتهم وبناتهم يلبسوهن أجمل ما يمكنهم، ويحملونهن على أضخم جمالهم التي يزينونها ببسط كبيرة يحمل أطرافها عبيد مسلحون بالرماح. وتقوم النساء اللاتي على ظهور الجمال بضرب الطبول والسير في مقدمة الفرسان، الذين هم أول من يلتقي بالعدو، وذلك لتحريض القوات على القتال وتخليصهن من أيدي أعدائهم. إنهم لا يأخذون مساجين ولا يقتلون هؤلاء الذين يترجلون عن خيولهم طوعاً. ويداوون جروحهم بزبدة مذابة وساخنة جداً يضعونها على الجروح، كما يضعون فيها عدة حجرات من النار. لا يوجد في هذا الجيش إلا جراح واحد، وهو عبد مسيحي لا يعرف شيئاً من مهنته».

إن النساء في الصف الأول عند الالتحام للقتال، كدليل ولاء، وكشعار للأمة، عادة عربية قديمةٍ كانت معروفة في عهد النبي. فأثناء المعركة الحاسمة التي خاضها محمد (ﷺ) في حنين ضد

هوازن ـ في مارس سنة 630 إفرنجي ـ يعود الفضل في نجاة المسلمين وانتصارهم لبعض النساء.

دامت الحرب ضد العرب سنة كاملة، ولم تنته إلا في 13/ 3/ 1708 إفرنجي بعرض المتمردين المتحصنين في الجبل للاستسلام[441]. وبعدها بشهر استلم خليل موافقة السلطان على تثبيته باشا[442]. لم يكن ما قام به الباب العالي إلا اعترافاً رسمياً بواقع معاش، فلم يكن يخفى على أحد وخاصة الميليشيا العلاقات الوثيقة بين الباي والسلطة العثمانية، والدعم الذي قدمته له عند دخوله طرابلس. ساهمت الخطوة الجديدة ـ دون شك ـ في ضياع خليل، قاهر العرب في الريف، فقد سقط بعد فترة وجيزة تحت الضربات المتسقة للمغاربة، والأتراك أو جزء منهم على الأقل.

كان على رأس الساخطين المدعو إبراهيم الأركالي وهو ربان سفينة شراعية، وكان لا ينتظر إلا الفرصة المواتية للعمل والتي جاءته عن طريق رئيس مغربي يدعى عبد اللّه الصنهاجي، وهو قاطع طريق على الطرق الرئيسية. في 20/ 10/ 1709 إفرنجي، كان عبد اللّه ورجاله في انتظار القافلة العائدة من فزان والمكلفة بإحضار الأتاوة السنوية، وقاموا بمهاجمتها ونهبها. كانت الخسائر فادحة بالنسبة للحكومة، وبمجرد سماع النبأ خرج خليل بقواته لمعاقبة المجرم. لم يترك أي قوات في طرابلس ليقينه بأن لا أعداء له. اغتنم إبراهيم الأركالي الفرصة لتحريض مجموعات من الناس من كل الأصول في المدينة ومن البدو. نصب هذا التجمع خيامه أمام المدينة[443]، التي استسلمت بعد تسعة أيام من الحصار. عندما علم

الباشا بما حدث ترك مطاردة اللصوص ورجع. وقد أثرت فيه هذه الضربة التي لم يكن يتوقعها واستولى عليه قلق شديد، وعدل عن محاولة الاستيلاء على المدينة، وتوجه إلى سرت ومنها ذهب إلى القسطنطينية.

عن هذه الأحداث، أعد السيد بولار «Poullard» قنصل فرنسا - والذي حل محل لومير في أبريل سنة 1708 إفرنجي - تقريراً يُبرز دهشته وقلقه. كتب:

«إننا نخرج من ثورة عنيفة وقاسية، قمت خلالها بتغذية أربعمائة عبد تعرضوا لنيران قلعة طرابلس المستمرة، والتي استطاعت الصمود تسعة أيام وثماني ليالي مع خليل باشا الذي فقد هذا البلد بسبب نقص الشجاعة. من الواضح أن الله عاقبه، ولم يجرؤ على دخول طرابلس بألف وخمسمائة فارس، وخمسمائة رجل، وكانت القلعة بجانبه. لم يكن لدى الناس في المدينة بارود. ولم نر أبداً مثل هذا التمرد الذي توحد فيه الأتراك والمغاربة لطرد خليل وانتخاب إبراهيم، وهو رئيس سفينة، داياً. تغيرت هذه الحكومة كثيراً، وها هي تأخذ الشكل القديم»(444).

كما لاحظ القنصل، ما حدث كان ثورة تمت فيها العودة «للشكل القديم»، أي نظام الدايات، وعدم الاستقرار. لم تستمر حكومة إبراهيم إلا سنة واحدة، وهي لا تمثل في تاريخ طرابلس إلا فاصلاً دون أهمية، لو لم تشهد حدثاً مهماً وهو سفر المبشرين إلى وسط أفريقيا.

لم يكن استدعاء الأب داميانو في أبريل سنة 1706 إفرنجي

يعني ترك الموضوع، فقد سُمي من حل محله في شخص الأب كارلو ماريا دي جنوڤا «Carlo Maria de Genova» وهو خبير في الطب الباطني والجراحة. كان دي جنوڤا في القاهرة عندما تم تعيينه، وقبل المغادرة إلى طرابلس وجد فرصة سؤال اثنين من أبناء ملك بورنو كانا مارين بالقاهرة في طريق العودة من الحج. كان ما علمه منهما محدود الفائدة: هناك مملكة أو ولاية كانورفا «Canorfa» وفيها يحترم الناس الصليب ويضعونه على مساكنهم وكنائسهم ويقوم الملك فيها بدور كبير القساوسة. وقد استنتج الأب كارلو بحذر أن هؤلاء ليس لديهم: «**إلا معرفة محدودة عن شريعة المسيح المقدسة وعن شعائرنا**»، وكتب بما سبق إلى رئيس المجمع المقدس للتبشير بالأديان في 28/ 7/ 1708 إفرنجي.

لم يُذكر الأب كارلو في طرابلس إلا في مارس سنة 1709 إفرنجي، ولم يكن ذكره بعبارات مدح. فقد اتهمه كل من بولار قنصل فرنسا، ورئيس البعثة في طرابلس الأب فرانشيسكو ماريا دي سرزانا «Francesco Maria di Sarzana» بأنه تأخر في القيام بمهمته. كما يأخذان عليه علاقاته، فقد سمح لنفسه بأن يشرب نخب هذه الملحدة ملكة إنجلترا. وقد أجاب الأب كارلو على هذا مدعياً انقطاع القوافل. كان هذا ممكناً. أما عن علاقاته المشبوهة فلم يقدم شيئاً، ولكن كما يلاحظ ريتشارد قرى «Richard Gray»: «**ربما كان في اعتقاده أن مهمته غير المسبوقة تتطلب صداقات مرنة**»[445].

في بداية يونيه سنة 1710 إفرنجي، تمكن الأب كارلو من بدء رحلته مصحوباً بالأب سيڤيرينو دي سيليسيا وهو بوهيمي يتكلم

العربية بطلاقة. بفضل معارفة الطبية، كان الأب كارلو يقدم نفسه على أنه طبيب. كان يقول: «**إنه يعود إلى بلد السود حيث كان يقيم من قبل**»[446]. يوم 30/7/1710 إفرنجي، وصل المبشران إلى مرزق، ولكن حرباً ـ كان يقال أنها على وشك الانفجار ـ اضطرتهما للالتجاء مع الأسرة المالكة في مدينة تراغن المحصنة. في 17 أكتوبر بعث برسالة ـ وهي الأخيرة ـ إلى الكاردينال ساكريبانتي «Sacripante»، وفيها يحدثه عن مقابلته ابن رئيس الطوارق الذي كان عائداً من مكة، والذي قبلهم في قافلته المتجهة إلى أغاديس[447]. وبالفعل سافرا معه، ولم يرهما أحد بعد ذلك.

لم تعرف قصتهما إلا بعد انقضاء سنتين، ففي 10/10/1712 إفرنجي أخبر المدعو الحاج ميلاد ـ وهو صديق الأب كارلو ورافق المبشرين حتى أغاديس ـ رئيس الإرسالية في طرابلس بما جرى. عندما وصل المسافرون إلى أغاديس منعوا من الذهاب إلى بورنو «**بسبب الأخطار الكبيرة في الطريق**»، فانضموا إلى قافلة صغيرة متجهة إلى الجنوب الغربي للدخول إلى «**مملكة السودان**»، هكذا كانت تسمى بلاد الهاوسا. ووصلوا إلى كاتسينا في أغسطس سنة 1711 إفرنجي. أصيب أحد المسافرين بمجرد الوصول بمرض «**بسبب مياه غير صحية وطاعونية أدت إلى تورم جسمه كما يحدث للمصابين بالاستسقاء**». وقد حاول الأب كارلو، دون نتيجة، إجراء عملية للمريض، وأصيب هو نفسه بالمرض ومات بعد ثمانية أيام ولحق به الأب سيڤيرينو وكل المسافرين الآخرين في القافلة، ولم ينج منهم إلا شخص واحد هو الذي نقل الوقائع إلى الحاج ميلاد[448].

عندما علم الكاردينال رئيس المجمع المقدس للتبشير بالأديان الخبر في مارس سنة 1713 إفرنجي طلب إلى الفرنسيسكان تعيين مبشرين آخرين، ولكن لم يخلف أحد الأبوين كارلو وسيڤيرينو. في سنة 1846 إفرنجي، تكونت الوكالة البابوية لوسط أفريقيا واقتصر نشاطها على وادي النيل[449]. في سنة 1850 إفرنجي، وصل فرنسيسكي إلى بورنو عن طريق كوار لزيارة أسرة مالطية، ولم يبق هناك إلا عشرين يوماً[450].

بينما كانت قافلة المبشرين في طريقها من فزان إلى السودان، كانت طرابلس تغرق في الفوضى. ففي يوم 7/ 11/ 1710 إفرنجي عُزل الداي إبراهيم ونفي، وخلفه إسماعيل خوجه (7/ 11/ 1710 ـ 29/ 1/ 1711) إفرنجي، ثم الحاج مصطفى (29/ 1 ـ 11/ 7/ 1711 إفرنجي)، وأخيراً محمد بواميس (11 ـ 27 ويوليه 1711 إفرنجي). وهكذا تتابع أربعة ولاة خلال سنة وثمانية أشهر. وهنا ظهر الباي أحمد القرمانلي[451].

هكذا انتهت في الفوضى فترة من عدم الاستقرار السياسي، وانعدام الأمن على الطرق. ومن الغريب أن التجارة كانت مزدهرة نسبياً في طرابلس بالرغم من هذه الظروف الصعبة. كان أصحاب القوافل في الداخل، وأصحاب السفن يعرفون ركوب المخاطر... إلى حد يتناسب مع الأرباح المحققة دون شك. إن سؤالاً يطرح نفسه: ماذا كان موضوع هذه المجازفة؟ أي ما هي السلع المتبادلة، ومن أين تأتي، وأين تتم المقايضة؟.

كانت بورنو ـ كما رأينا ـ تصدر الرقيق بشكل أساسي وكذلك

العاج الخام، والذهب في شكل مسحوق غالباً (تبر، بالعربية). وقد قدر لومير في تقريره لسنة 1705 إفرنجي وبعد انتهاء الحرب مع تونس، وعودة تجارة فزان من جديد، عدد العبيد الذين يمكن الحصول عليهم بألف كل سنة. كانت الأرباح التي يمكن تحقيقها كبيرة جداً. وحسب تقديرات بتي دي لاكروا «Petis De Lacroix» في سنة 1697 إفرنجي، كان العبد الذي يُشترى بثمانية قروش في بورنو (كان القرش الواحد يساوي 50 سولس)، يساوي أربعة وعشرين في فزان، ومن أربعين إلى ستين قرشاً في طرابلس أي من مائة إلى مائة وخمسين جنيهاً[452] فرنسياً. والسعر الأخير أكده لومير بعد ثماني سنوات:

«يمكن الحصول على عبد جيد، يسلم هنا، مقابل مائة وخمسين جنيهاً»[453].

كان يتم شحن العبيد السود من طرابلس إلى المشرق، وكان هذا مصدر ثراء لأصحاب السفن الفرنسيين. وقد رأينا كيف أن لومير حاول أن يمارس هذه التجارة الممنوعة على المسيحيين، ويبدو أن مشروعه لم يدخل حيز التنفيذ، ولكن آخر استطاع أن يحقق من ورائها أرباحاً رغم عدم رضا القنصل: إنه نائب القنصل في درنة. كتب لومير الآتي بخصوص ما حدث:

«قام نائب القنصل بتدمير مركب قرصان، وصرف لهذا الغرض ثلاثمائة وأربعة وثلاثين قرشاً. هذا ما قاله... لقد قام تجاهي بعمل لصوصي. فقد سلمه الربان أسدو دي كاسبو لصالحي ألفاً ومائة أبو كيل منذ شهر. أخذ منها ثلاثمائة وأربعة وثلاثين دفعها لتحطيم

السفينة القرصانة، واستعمل الباقي لشراء مركب وذهب بها مع اثني عشر عبداً أسود لبيعهم ـ لحسابه في دورازو «Durazzo»، كما قال أنه لا يستطيع العيش في درنة بدون مرتب لا يقل عن خمسمائة قرش. لقد ترك خمس سفن فرنسية في الميناء لم يُحصل عليها سولاً واحداً كرسوم قنصلية فهي مؤجرة كلها لأتراك وهم لا يدفعون في كل الأراضي التابعة لهذه المملكة، وكذلك هنا. لقد أرسلت طرطنا (مركب بصار واحد) إلى دورازو للقبض عليه»[454].

هذا بالنسبة للعبيد، وأين كانت تذهب منتجات بورنو الأخرى؟ كان أغلب العاج يصدر إلى ليڤورن، وقليل منه إلى البندقية ومرسيليا[455]. يجب ملاحظة أن ليڤورن كانت ميناء حراً وتستخدم كمحطة للتجارة الأوروبية، وخاصة لتجارة إنجلترا. لا يبدو أن الطلب على العاج كان في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر بالأهمية التي شهدها في القرن التاسع عشر. ويقدر بتي دي لاكروا كمية العاج الموردة من الجنوب إلى طرابلس والقاهرة[456] بحمولة مائتي جمل (حوالي ثلاثين طناً).

بقي الذهب. لم تكن بورنو تنتج الذهب وإنما كان يأتي من وانقارا وهي منطقة غير محددة. ولما كان هذا الذهب مشهوراً جداً بنقائه كانت طرابلس تمنع خروجه. كان يستخدم في صناعة «السلطانية وهي أحسن نقود في العالم لأن ذهبها نقي جداً»[457].

كان الرقيق، والعاج الخام، والذهب هي صادرات بورنو الرئيسية. وماذا كانت تستقبل بالمقابل؟ أولاً، الزجاجيات التي كانت البندقية مختصة فيها، وهي مصنوعة في شكل عقود وأساور.

يضاف إليها مختلف أنواع الطرائف مثل لؤلؤ وماس التامبل «Temple» في باريس، والقواقع الصغيرة «**التي كانت تستخدم في الدفع للسود**». وكذلك في الزينة. كما كانت بورنو تستقبل أقمشة مارسيليا، والنحاس في شكل صفائح وقضبان من البندقية، والورق الخام، وأقمشة الحرير من شيو[458]، وأخيراً الخيول من طرابلس[459].

كان يتم تبادل هذه السلع مرتين، مرة في طرابلس والأخرى في فزان، وكانت سوق مرزق هي مكان المقايضة. كان أصحاب القوافل من بورنو يبادلون العبيد، والعاج والذهب بالبضائع التي يأتي بها التجار من طرابلس. كانت تغادر طرابلس كل سنة قافلتان إلى فزان، تَعُد كل واحدة حوالي مائة من الجمال، هذا ما كتبه لومير سنة 1686 إفرنجي. بعد ذلك بعشر سنوات كتب بتي دي لاكروا أن هذه القوافل كانت تغادر طرابلس في شهر ديسمبر لترجع في الربيع. كان الطرابلسيون يقضون ثلاثة إلى أربعة أشهر في مرزق للمتاجرة. بعدما تنتهي المبادلات تغادر قوافل بورنو إلى الجنوب، وتعود القوافل القادمة من طرابلس، أو درنة، أو أيضاً مصر إلى مواطنها.

هذه هي المعلومات التي أمكننا تجميعها عن تجارة الشمال جنوب في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. إنها مختصرة جداً. غابت عنا الكثير من الوقائع. فمن بداية سنوات 1750 إفرنجي فقط تزودنا التقارير والمذكرات، والصحف بمعلومات وأرقام تكتسب الدقة تدريجياً.

ازدهار التجارة وزوالها

عُزل آخر الدايات محمد بواميس يوم الثلاثاء 27/ 7/ 1711 إفرنجي، وبعد يومين من عزله ـ أي يوم الخميس 29 ـ انتخب أحمد القرمانلي ليحل محله[460]. إن الأسرة القرمانلية أصلها من مدينة قرمان في الأناضول واستقرت في طرابلس منذ وقت طويل، غالباً منذ عهد درغوت. كان أحمد قد خلف والده يوسف كآغا، أي رئيس الانكشارية[461]. ماذا كانت مهامه سنة 1711 إفرنجي كرئيس للانكشارية بالتحديد؟ لا أحد يعرف، ولكنها كانت مهمة ـ بكل تأكيد ـ لأنه كان يحمل درجة «باي»، والتي احتفظ بها في البداية عند وصوله للسلطة كما فعل قبله خليل باشا.

كانت بدايات أحمد متواضعة، ووضعه هش لحد أن قنصل فرنسا قدر أن بقاءه في السلطة سيكون قصيراً. لقد برزت له المخاطر من كل جانب. عند انتخابه، استغل العرب فرصة عدم استقرار السلطة، وبدا كما لو أنهم على وشك الاستيلاء على طرابلس وطرد الأتراك منها. كتب بولارد، خليفة لومير، في أغسطس مايلي:

«يقول الطرابلسيون أنهم ضائعون لا محالة، وأن العرب سيسيطرون على المدينة إذا لم يظهر خليل بأسرع ما يمكن، وبالرغم من ذلك فإنه يتأخر في المجيء إلى هنا»[462].

كان يُعول على الباشا المعزول لإبعاد الخطر، وكان هذا سوء تقدير للباي أحمد الذي هو أصلب مما يُظن. كان التهديد الحقيقي مصدره خليل باشا وليس العرب. فقد استدرك هذا الأخير بعد فترة ضعف، وكان يعرف أن لديه أنصاراً كثيرين وأقوياء، بالإضافة إلى استطاعته الاعتماد على الباب العالي. وبالفعل حاول في نهاية أكتوبر 1712 إفرنجي الاستيلاء على السلطة بعد أن تحصل على فرمان يثبته في وظيفته. لم يكن قنصل فرنسا الجديد إكسبلي «Expilly» أكثر تفاؤلاً من بولارد حول استمرار الباي أحمد، فقد كتب يوم 12 سبتمبر:

«ذهب الباي منذ ثمانية أيام على رأس خمسة آلاف رجل لمهاجمة قائد المغاربة المتمردين. ولما كان هدف تمردهم هو أن يضعوا الباشا على العرش، وله أيضاً حزب قوي في المدينة، فإن من شبه المؤكد أن يخسر الباي»[463].

لقد أخطأ إكسبلي، فالذي خسر هو خليل. عندما تخلص الباي أحمد من خليل باشا، كان عليه أن يواجه معارضين آخرين. ففي سنة 1713 إفرنجي قام أهل تاجوراء ضده، وفي بداية سنة 1714 إفرنجي تمردت مسلاته بدورها، ويبدو أنه لم يجد صعوبة في القضاء على هذين التمردين[464].

كان الباي أحمد محظوظاً جداً، ولكن الحرب باهظة

التكاليف. فعندما تغلب على خصومه، اتضح له أن الوضع المالي مأساوي والخزانة خاوية. كان لا بد من الإسراع في تحصيل مساهمات فزان لعلاج الوضع. كان الناصر حينئذ ـ سنة 1717 إفرنجي ـ هو ملك فزان، ووجد في وضع «منعه» من الدفع. قام الباي أحمد شخصياً بقيادة حملة على فزان في حوالي 20 نوڤمبر من نفس السنة. عن هذه الحملة كتب إكسبلي:

«منذ حوالي الشهرين غادر الباي مع فرسانه إلى مملكة فزان، وملكها ملتزم بدفع إتاوة لهذه الحكومة. وقد علمنا أمس أن الباي استلم كل المتأخرات المستحقة، وهي مبلغ كبير جداً، وسيعود الباي إلى المدينة خلال خمسة عشر يوماً»[465].

لم يكن نجاح الباي أحمد بالكمال الذي صُوِّر به، ففي السنة اللاحقة نراه من جديد على رأس حملة أخرى.

«ذهب الباشا إلى مملكة فزان بخمسة آلاف رجل لإرغام الملك الملتزم بالإتاوة على دفع المتأخرات المستحقة عليه. لقد اضطر للعودة دون نتيجة، وهو ما يضع طرابلس في بؤس شديد»[466].

لم يستطع الباي أحمد تصحيح الوضع المالي، ولكنه تمكن من تثبيت سلطته في الداخل كما في الخارج. يلاحظ هنا أن قنصل فرنسا استعمل هذه المرة لقب باشا، فقد استلم الباي منذ وقت قريب موافقة الباب العالي على تثبيته. يا له من نصر! خاصة عندما نعرف أن السلطة العثمانية كانت تعتبره متمرداً قبل بضع سنوات. كانت العلاقات مع فرنسا ممتازة، وكان دوسو الذي يتابع شؤون

طرابلس عن قرب، يسهر عليها. في 20 فبراير سنة 1720 إفرنجي، كتب إلى المارشال دي إستري «d'Estrees» ما يلي:

«إن مبعوث طرابلس بتكليف من الباشا والقوات ألح في طلب الحصول على مدفعين صغيرين من حديد الزهر لإخضاع قلاع لجأ إليها رعايا عصاة، ولا يمكن إخضاعهم بدون هذه المساعدة. لقد تفضل الملك بالموافقة على منحها. ولما لم تكن متوفرة في طولون فقد أعطى العقيد أوامره للسيد هكار «Hacquar» لصبها فوراً في مسابك هذا الميناء، وطلب مراعاة أن تكون ملائمة لقنابل من وزن ستين إلى خمسة وستين رطلاً، وهي الأوزان التي في المستودع»[467].

في الحقيقة، وجدت فرنسا والباب العالي نفسيهما أمام أمر واقع؛ فالباي أحمد بالرغم من مصاعبه المالية أصبح حاكماً مطلقاً. أكثر من ذلك، وكما كتبه إكسبلي، كان الباي أحمد يتصرف كطاغية[468] حقيقي، وكان لابد من التفاهم معه. لا شك أن بعث سلطة قوية له ميزة، فاستتباب الأمن ملائم للأعمال، وتزدهر فيه الأنشطة التجارية، وتكفي العودة إلى تقارير حالة السفن الفرنسية للاقتناع. فبين شهر أغسطس سنة 1721 إفرنجي، وشهر سبتمبر سنة 1726 إفرنجي أي خلال خمس سنوات خرجت من ميناء طرابلس مائتان وخمس وأربعون سفينة فرنسية من بينها أربع وأربعون على الأقل تحمل **«عبيداً سوداً»**.

نعرف أن أغلب هؤلاء العبيد السود يأتون من بورنو. ولكن ما هي البلدان التي يصدرون إليها؟ أن محرري «حالات السفن»

يقولون لنا أن أغلبهم يذهبون إلى تركيا (إلى سميرن وذكرت 25 مرة، شيو 16 مرة)، تأتي بعدها اليونان (إلى موري وقد ذكرت 6 مرات، لارتا 6 مرات، وأثينا، وبتراس، وسالونيك، وكاندي مرة واحدة لكل منها). كما ذكرت كذلك الإسكندرية، والجزائر، وتونس مرة واحدة لكل منها. إن عدد المدن المذكورة يتجاوز عدد السفن المغادرة، وتفسير هذا إن السفينة قد تذهب في الرحلة الواحدة إلى موانىء عديدة. ونلاحظ أن السفن المؤجرة تأتي من موانىء تقع كلها على البحر المتوسط: تأتي في المقدمة سانت تروبيز، ثم أغد «Agde»، وسيوتات «La Ciotat»، تليها لاسين «La Syene»، ومارسيليا، وأخيراً كاسيس، ومارتيق «Martigues».

من السفن الأربع والأربعين المؤجرة لنقل الرقيق هناك أربع وثلاثون لم تكن تحمل أي شيء آخر، وعشرة حمولتها مختلطة مكونة من العبيد السود ومسافرين (7 مرات)، والعبيد «والبركان» (مرة واحدة)، والعبيد و«المانتيق» (مرة واحدة). يمكن تقدير عدد السفن المؤجرة لنقل السود (ذكوراً وإناثاً) بسبع أو ثماني سفن سنوياً، وهو نفس الرقم الذي ذكره لالاند سنة 1698 إفرنجي. أعتقد من المفيد أن أوضح أن «البركان» يعني، في اللغة العربية قماشاً خاماً من الصوف يستعمل في صنع البرانيس، والمانتيق هي شحوم حيوانية تستعمل بديلاً للزبدة[469].

لم تصل التجارة شمال ـ جنوب إلى أوج ازدهارها إلا في سنة 1750 إفرنجي. وقد توافق الانطلاق الاقتصادي مع ترسيخ السلطة المركزية، ويبدو أن العامل الحاسم كان الحملة على فزان سنة

1732 إفرنجي. لم يكن هدف الحملة ـ كما في الماضي ـ تحصيل الإتاوة، وإنما القضاء على قوة فزان، وتحجيم دور ملكها إلى مجرد مندوب. لهذا أوكلت المهمة لحملة عسكرية ضخمة على رأسها محمد، الابن الأكبر للباشا. بينما كان محمد يحاصر مرزق أرسل بمفرزات لنهب مدن المملكة الرئيسية الأخرى وخاصة القطرون. ومن أجل التغلب على مقاومة العاصمة، طلب دعم قوات قدمت من مسلاته. أسند محمد قيادة المشاة إلى أخيه الأصغر محمود، واحتفظ بقيادة الفرسان. لم يكن ملك فزان هو الناصر ـ الذي توفي في سنة 1719 إفرنجي ـ وإنما ابنه الشيخ أحمد. وقد شعر هذا الأخير بأنه مهزوم لا محالة فعرض استسلامه، وتم الاتفاق على سلام مكلف جداً. بدا كل شيء على ما يرام، وباشر الجيش العودة، وعند وصوله إلى سبها جاء مبعوث من الباشا ـ ألكيخيا نفسه ـ على رأس قوات. كانت لديه أوامر جديدة: إن استسلام ملك فزان لا يكفي، ولا بد من وجوده في طرابلس. عاد الجيش إلى مرزق، وأجبر الشيخ أحمد على مرافقته. عندما وصل الشيخ أحمد إلى طرابلس جمع الباشا الديوان، وطرح سجينه في مزاد، وباعه لابنه الباي محمد بقطعتين نقديتين. بعد هذا سمح للعبد بالرجوع إلى بلده كحاكم. ولمنعه من أي تفكير في التمرد أزال الباشا أسوار مرزق(470).

لا شك أن التبعية التي فرضت على فزان كانت مفيدة للمبادلات. تأكد السلام، واستطاع التجار الاستثمار في تجارة القوافل(471)، دون خوف. وهكذا انبعثت بعد مدة قصيرة انطلاقة

اقتصادية أثرت أصحاب السفن الفرنسيين. وكان السيد ريد «Reed» قنصل إنجلترا شاهد عيان فقد كتب في 17/ 9/ 1741 إفرنجي بشيء من المرارة:

«توجد الآن أكثر من عشرين سفينة فرنسية في الميناء»[472].

بعد مضي أربع سنوات، توفي أحمد باشا وترك لابنه محمد إرثاً صلباً. وكان يجب أن يكون إرثاً قوياً ليقاوم عجز أمير ترك مقاليد الأمور لحاشيته. شهد بالحالة الجيدة للتجارة الخارجية القنصل كول «Caulles» في سنة 1750 إفرنجي، وقد عاش حينها ميناء طرابلس نشاطاً كثيفاً عاد بالربح على السفن الفرنسية وغيرها. كتب كول:

«كلها ـ أي السفن ـ كانت مؤجرة إيجاراً مجزياً، بسبب الحاجة لنقل السود الذين يوجد منهم عدد كبير في البلاد»[473].

توفي محمد باشا سنة 1754 إفرنجي وخلفه ابنه علي، وبدأ العهد الجديد بداية متفائلة. كان علي يتمتع بتعاطف الناس. لم يكن قنصل بريطانيا العظمى روبرت هوايت يخفي السرور الذي كان يشعر به، فقد كتب إلى كونت هولدرنيس «Holderness»:

«اعتقد سيدي أن الشمال الأفريقي لم يشهد إلا نادراً ـ إن لم يكن أبداً ـ مثل هذا الأمير الذي بدأ حكمه محاطاً بحب واحترام عام من كل طبقات المجتمع، وهو يستحق هذا بجدارة. فعمره ثلاث وعشرون سنة، ذو طبع لطيف، وزاهد، وعادل، وهو ضد كل الرذائل بشكل مطلق».

كان هذا أكثر من الرضا، كان الحماس.

أظهر روبرت هوايت تفاؤلاً كبيراً، ولكنه بعد وقت قصير اضطر لإدخال بعض التعديلات على الصورة التي رسمها:

«لم يحدث شيء يستحق الذكر منذ رسالتي الأخيرة، إلا وفاة سيدي خليل وهو أمير شاب عمره خمس وعشرون سنة وشقيق الباشا السابق. ولقد كان طموحاً جداً ومشهوراً بأن له وجهات نظر ضد مصلحة الباشا، ابن شقيقه، وضد أمن الدولة. ولهذا السبب أمر صاحب السعادة بقتله خنقاً، هو وأحد المقربين إليه. منذ هذه الحادثة هدأ الوضع تماماً»(474).

لم يكن هذا إلا بداية، بعدها قتل الباشا الجديد ستة آخرين من أعمامه دون الأخذ في الاعتبار خمسة أو ستة من أبناء أشقائه(475). لا شك أن الأمن العام يستحق بعض التضحيات، وبعدها ساد هدوء مطلق.

بلغت الحركة العامة لتجارة طرابلس أعلى مستوياتها خلال السنوات الأولى لحكم علي. وليس من قبيل الصدفة المحضة أن أصبحت التقارير القنصلية أكثر عدداً وتفصيلاً. أولها تقرير دي ڤاليير «de Valliere» وهو دون شك أحسن التقارير حيث أن محرره، بعكس أسلافه الذين كانوا يحاولون وضع إحصائيات عامة، حرص على وصف الوقائع التي كان شاهداً عليها بمجرد وقوعها. تناولت ملاحظاته فترة ثلاثة أشهر(*): من 1/31 إلى 30/ 51756 إفرنجي. هذا ما كتب:

(*) هكذا وردت في الأصل، وهي تغطي أربعة أشهر. (المترجم).

«31 يناير: لقد تأخرت قوافل فزان وغدامس لأكثر من شهر بسبب الأمطار والبرد. إن قافلة فزان مكونة من أكثر من سبعمائة أسود ومنتظرة في أي لحظة، وقافلة غدامس منتظرة خلال الخمسة عشر يوماً.

9 فبراير: وصلت أخيراً قافلة فزان التي كان منتظراً وصولها منذ وقت طويل. إنها مكونة من 680 عبداً وأمة، و1500 قنطار من السنا، وكمية من التمور التي ليست بالحجم الكبير الذي كانت عليه كميات التمور في السنوات السابقة، بسبب انخفاض المحصول في كل الشمال الأفريقي. في كل الأراضي التابعة لطرابلس لم تزد كمية المحصول عن عُشر ما كان يجنى عادة.

21 فبراير: أسعد الطرابلسيين وأفرحهم، وصول قافلتين أخريين مساء أمس من فزان وغدامس، أحضرتا معهما 1100 عبداً وأمة. إن هذه القوافل الأربع التي أحضرت مجتمعة 2000 عبداً وأمة ستنعش التجارة في هذا المكان، والتي كانت راكدة منذ بعض الوقت. إن الميزة التي نحصل عليها هي توفير عمل لبواخرنا لنقل العبيد إلى المشرق وإحضار البضائع منه.

30 مايو: وصلت منذ قليل قافلة من تمبكتو أحضرت معها كثيراً من التبر وحوالي 300 عبد. منذ أربع أو خمس سنوات لم تأت قافلة من هذا الجزء من نيجيريا»[476].

هكذا، خلال فترة أربعة أشهر، أوصلت القوافل إلى طرابلس 2555 عبداً أسوداً. ويبدو أن هذا الرقم ـ حسب قول القنصل ـ يتجاوز كل توقع. لماذا هذه الوفرة؟ هل هو نجاح الغارات في

البلدان المنتجة؟ أو انخفاض الوفيات أثناء عبور الصحراء؟ لا نعرف الأسباب. . . باستثناء سبب واحد، وهو أن تونس التي كانت حتى ذلك الوقت تمتص جزءاً ـ بسيطاً في الحقيقة ـ من العبيد القادمين من الجنوب، قطعت ـ منذ مدة وجيزة ـ مبادلاتها مع الداخل. فقد وضعت الحملة المنتصرة التي قام بها داي الجزائر على جاره حداً لتجارة لم تكن حتى في السابق مهمة.

كانت طرابلس هي المستفيد الرئيسي من التدهور الذي شهدته تونس. ففي طرابلس كانت تلتقي من ذلك الوقت فصاعداً كل القوافل القادمة من الداخل[477]، وإليها كان أصحاب السفن يرسلون سفنهم بكل رغبة. وليس من المدهش أن كلاً من فرنسا وإنجلترا أظهرتا اهتمامهما بهذه التجارة الواعدة. كان استغلال هذه التجارة كأفضل ما يكون يتطلب معرفة دقيقة بكل معطياتها. لهذا الغرض، وبطلب من حكوماتهم كرس القناصل دي لانسي «de Lancey» لفرنسا، وفريزر «Fraser» لإنجلترا، جهودهم.

تقرير الأول مرفق برسالة مؤرخة في 20/ 3/ 1766 إفرنجي[478]، والمذكرة الطويلة للثاني مؤرخة في 24 أغسطس سنة 1767 إفرنجي في بورت سموث. هاتان الدراستان منفصلتان انفصالاً كاملاً كل منهما عن الأخرى، فأسلوب التناول وعرض الوقائع مختلف، وتظهر الاختلافات أكثر عندما يتعلق الأمر بالتعبير بالأرقام. بالرغم من ذلك فهناك عامل مشترك بين المحررين: كلاهما يبدأ عرضه للمبادلات شمال ـ جنوب من النقطة الأبعد نحو الجنوب، أي من بورنو وبلدان الهاوسا. وبما أن الأمر يتعلق

بمتابعة السلع على طول مشوارها، كان من المنطقي البدء من نقطة الانطلاق. ولكن لماذا الجنوب لا الشمال؟ السبب واضح وهو الأهمية الحاسمة للرقيق الأسود في تجارة طرابلس، ويشير فريزر إلى ذلك بوضوح، فهو يكتب في بداية تقريره:

«كان ميناء طرابلس منذ بعض القرون مستودع الرقيق الأسود في البحر المتوسط»[479].

يمكنني لوصف هذا الجانب البارز في تجارة طرابلس أن أقدم تفسيراً سيكون بالضرورة عشوائياً، وعليه من المفضل أن أورد بالنص الوصف الذي أعطاه دي لانسي في الجزء الذي عنونه:

«مداخل إلى طرابلس من داخل القارة. مملكة فزان، وهي ملتزمة بدفع الإتاوة سنوياً لطرابلس. يأتي عادة إلى طرابلس ثلاث قوافل من فزان، أهمها التي تصل في يناير والأخريان تصلان في مايو وأكتوبر. تحضر هذه القوافل 2500 عبد وأمة، سعر الرأس 40 سكيناً أي بإجمالي قدره 100000 سكين، أو 925000 جنيه فرنسي. إن هؤلاء السود ينقلون ويباعون في القسطنطينية، وسمير، وسالونيك، وفي كل موريا. ويتم سنوياً تأجير ثماني إلى تسع سفن فرنسية لأعمال النقل. إن الناقلين الفرنسيين يحققون 20.000 جنيه فرنسي تقريباً من هذا العمل. ويأتي من فزان كذلك السنا المخلوط بالخشب والجريب: 1000 قنطار بسعر ستة سكين لكل قنطار، وهو لا يساوي أحياناً في طرابلس إلا خمسة سكين، وأحياناً ثمانية سكين، يعتمد هذا على المحصول. ويصدر جزء كبير منه إلى

ليڤورن والبندقية، ونابولي، وجنوا، و(مرسيليا عن طريق ليڤورن).
أي بإجمالي: 6000 سكين أو 555500 جنيه فرنسي.

تمور: 1500 قنطار بسعر سكين واحد للقنطار. ويستهلك جزء منه في طرابلس، وجزء ينقل إلى المشرق، ومالطا، والبندقية، وليڤورن. أي بإجمالي قدره 1500 سكين.

التبر من نوعية جيدة جداً وتأتي به فزان من كاتسينا (إمارة من إمارات الهاوسا) تقع بعد غدامس في قلب أفريقيا جنوب طرابلس: 7000 مثقال أو 1000 أوقية فرنسية، وبسعر 9 سكين للأوقية، وبالرغم من حظر خروج هذه السلعة من طرابلس فإن الجزء الأكبر منها يذهب إلى ليڤورن والبندقية. أي بإجمالي قدره: 9000 سكين.

غدامس: في جنوب طرابلس وغرب فزان. وتأتي منها كل سنة قافلة واحدة. تحضر 300 عبد وهو ما يساوي 12000 سكين أو 111000 جنيه فرنسي.

سنا أغاديس: 200 قنطار بسعر 9 سكين للقنطار أي 1800 سكين أو 16650 جنيه فرنسي.

التبر وهو بنفس سعر التبر الذي يأتي من فزان: 4000 مثقال.

تومبكتو وتأتي منها قافلة كل أربع أو خمس سنوات عن طريق غدامس. تحضر عادة 200 عبد أي ما يساوي 8000 سكين أو 74000 جنبيه فرنسي.

تبر من نوعية ممتازة: 9000 مثقال بسعر 9 سكين للمثقال».

إذا ما أردنا التلخيص فنحصل على الجدول الآتي:

	فزان	غدامس	تومبكتو	الإجمالي
رقيق	100.000	12.000	1.778	113.778
سنا	6.000	1.800		7.800
تمور	1.500			1.500
ذهب	9.000	5.143	2.571	16.714
	–	–	–	–
الإجمالي	116.500	18.943	4.349	139.792سكين
رقيق	925.000	111.000	16.444	1052.444
سنا	55.500	16.650		72.150
تمور	13.875			13.875
ذهب	83.250	47.573	23.784	154.607
	–	–	–	–
الإجمالي	1077.625	175.223	40.228	1293.076جنيه فرنسي

نلاحظ أن تجارة العبيد تمثل أكثر من 80% من تجارة فزان. وإذا أضفنا إلى تجارة العبيد الذهب يتضح أن السلع الآتية من بلدان جنوب الصحراء تمثل أكثر من تسعين في المائة في صادرات مرزق وغدامس. وهذان البلدان لا ينتجان شيئاً تقريباً، ويرجع ازدهارهما إلى الأرباح من عمليات الاستيراد والتصدير فقط. نفس الشيء بالنسبة لطرابلس حيث الحركة العامة للتجارة مقدرة من قبل دي لانسي بثلاثة ملايين جنيه فرنسي، يمثل الرقيق فيها الثلث. لم يكن قد ظهر أبداً بهذا الوضوح في السابق مدى اعتماد اقتصاد هذه الولاية على مبادلاتها مع بورنو، وبلدان الهاوسا.

كان الرقيق يُصدر إلى المشرق، وكانت طرابلس تستقبل في المقابل القمح، والشعير، والفول، والأرز، والزيت، والخمر، وخاصة المنسوجات. كان إيجار السفن لنقل هذه السلع يعود على الناقلين الفرنسيين بحوالي 31370 قرشاً، أو 112110 جنيهاً فرنسياً تقريباً.

كان الجزء الأكبر من الذهب يذهب إلى ليڤورن والبندقية اللتين كانتا محطتين للتجارة الأوروبية[480].

لا يظهر ريش النعام بين صادرات الدول جنوب الصحراء. هذا لا يعني أن الطلب لم يكن كبيراً في أوروبا على ريش النعام، أو أنه لا يستعمل في اللباس. لقد كانت طرابلس تصدر منه كمية لا بأس بها، وكانت تحصل عليها من أرضها أو في الجوار. كان النعام منتشراً في منطقة سوكنة، وغريان، وفيافي غدامس، وكان العرب يصطادونه على الخيل. فبعد أن يُطارد الطائر إلى أن ينهك ويعطش يرتمي أرضاً غير قادر على الاستمرار، فيترجل الصياد عن جواده، ويذبحه كالدجاجة[481].

كانت بورنو، وإمارات الهاوسا تصدر ـ غالباً ـ الجلود والشمع، بالإضافة إلى صادراتها الرئيسية من الرقيق، والتبر. أما عما كانت تستورده فقد أعد فريزر القائمة التالية: أقمشة نابولي خام، أقمشة الكتان من المشرق، وبطانيات من سميرن مخططة أو من لون واحد، وأقمشة خشنة من لون واحد، والخيوط، وأبر الخياطة، واللآلىء من الزجاج ومواد رخيصة أخرى، والمرجان، والورق، والمسامير، والدخان، والأدوية، والنحاس في شكل

رقائق وقضبان، والقصدير في شكل قضبان، وأغطية الرأس من تونس وفاس، والبسط من المشرق، ودمقس البندقية الموشى بالذهب، والأحذية من المشرق، والزيت[482] والملح.

كانت زجاجيات الزينة التي تأتي من البندقية مخصصة بالكامل للأقوام السود، كما كان الورق يمثل جزءاً مهماً من السلع المصدرة جنوب الصحراء وكان يأتي من ليڤورن والبندقية[483]. ربما من المدهش أحياناً أن كان الطلب على الورق بهذه الأهمية بين أقوام مشهورين بأميتهم. لقد كان مدرسو القرآن كثيرين ليس في المدن فقط، وإنما في الأرياف كذلك، وكان كل واحد يمتلك ـ وما زال الوضع كذلك اليوم ـ نسخته الخاصة من الكتاب (القرآن) مكتوبة في غالب الأحيان بخط يده على أوراق منفصلة مرتبة ومحفوظة بحرص في محفظة من الجلد مربوطة بخيط. وكان الكتبة يقومون بأعمال الكتابة العمومية حيث يُلجأ إلى خدماتهم لتحرير المراسلات.

كانت هذه المواد تأتي من البندقية وليڤورن بانتظام مرتين في السنة، ومن المشرق والجزر اليونانية كما يتاح. كان يقوم باستيرادها مسيحيون ويهود مقيمون في طرابلس، وتباع إلى تجار مغاربة من المدينة يقومون بنقلها إلى الداخل. ويحدث كذلك أن يأتي تجار فزان وغدامس ـ دون الأخذ في الاعتبار المغامرين الذين يذهبون من مكان إلى آخر مع القوافل ـ إلى طرابلس ويقومون بالمبادلات مباشرة مع المستوردين. وكانت تجارة الرقيق محصورة في المسلمين المغاربة أو الأتراك[484].

بوصولنا إلى هذه النقطة نلاحظ أن مساهمات دي لانسي

وفريزر تتضافر لرسم صورة منسقة للمبادلات شمال ـ جنوب، ولكن تبرز فجأة مشكلة محيرة وهي اختلاف أرقامهما. فيما يلي الحسابات التي يضعها فريزر لصادرات فزان وغدامس نحو طرابلس (القيم محسوبة بالسكين):

سلع العودة التي تأتي من فزان إلى طرابلس سنوياً:

ـ	800 عبد أسود	32000
ـ	600 قنطار سنا	3300
ـ	400 قنطار تمور	480
ـ	200 قنطار تمور سوكنة	200
ـ	200 قنطار نطرون (ملح معدني يخلط بالتبغ للنشوق)	250
ـ	ريش نعام سوكنة وأماكن أخرى على طريق فزان	1000
ـ	15 قنطار من الصمغ العربي	150
	الإجمالي	37380

ملاحظة: صادرات طرابلس نحو فزان كانت تساوي 26475 سكين أي أن الميزان يساوي 10905 سكين.

سلع العودة التي تأتي من غدامس سنوياً إلى طرابلس:

ـ	200 عبد أسود	8000
ـ	70 قنطار سنا أغاديس	252
ـ	800 كييس تبر	1000
ـ	ريش نعام	200
	الإجمالي	9725

كانت صادرت طرابلس نحو غدامس تساوي 7610 سكين، أي أن الميزان التجاري كان 2115 سكين.

تلخيص للواردات من الداخل:

37380

9725

47105

هكذا نصل إلى إجمالي 1000 عبد بقيمة 40000 سكين أي 17000 جنيه إسترليني، أو 370000 جنية فرنسي، وهو ما يقابل 2844 عبداً بقيمة 113778 سكين أو 1052444 جنيه فرنسي عند دي لانسي. إن الفرق هو 1844 عبداً بقيمة 682444 جنيه فرنسي.

أما عن الذهب فالفرق أكبر: 1000 سكين لفريزر، و16714 وفق لانسي، أي أن الفرق هو 15714 سكيناً أو 145354 جنيه فرنسي. يجب ملاحظة أن السكين يساوي 8 شلنات و6 بنس بالعملة الإنجليزية، و9 جنيهات وخمس سولات بالعملة الفرنسية.

بينما كان يصل إجمالي الواردات من الداخل حسب لانسي إلى 139792 سكيناً أو 1293076 جنيهاً فرنسياً، فإنه عند فريزر 47105 سكين أو 435721 جنيه فرنسي. إن هذا الفرق الكبير ينعكس على الحركة العامة لطرابلس، فعند إضافة الأرقام الموضوعة من فريزر يتلخص الوضع كالآتي:

ـ	من ليفورن	21459	ـ	إلى ليفورن	14930
ـ	من البندقية	10795	ـ	إلى البندقية	6025
ـ	من المشرق	46390	ـ	إلى المشرق	50485
ـ	من مالطا	1480	ـ	إلى مالطا	1815
ـ	من فزان	37380	ـ	إلى فزان	26475
ـ	من غدامس	9725	ـ	إلى غدامس	7610
	الإجمالي	127229 سكين 54072 جنيه 1176868 جنيه فرنسي			107340سكين 45619 جنيه 992895 جنيه فرنسي

أي إن حجم التجارة كان 2169763 جنيهاً فرنسياً، وهو يختلف كثيراً عن رقم الثلاثة ملايين جنيه المقدم من لانسي. من أين أتى هذا الاختلاف؟ السبب بسيط، ويتمثل في أن قنصل فرنسا أعد وثائقه خلال سنة 1765 إفرنجي، بينما أعد فريزر تقريره في أغسطس سنة 1767 إفرنجي ولم يعد الوضع هو نفسه. كانت تجارة طرابلس في ذلك الوقت ـ 1767 إفرنجي ـ على طريق الانحدار، ولكن اقتصاد البلاد كان لا يزال سليماً نسبياً، وبالفعل كان العجز المسجل في تجارة طرابلس الخارجية 19889 سكيناً، أي 183973 جنيهاً فرنسياً.

«يسدد ببيع العبيد (المسيحيين) الذين يستولي عليهم القراصنة، ومن النقود المصروفة في البلاد من قبل الوكلاء وقناصل الدول الأوروبية التي هم معها في حالة سلام».

لسنا بعد في حاجة للجوء إلى ذرائع، ولكن هذا لن يتأخر، ففي السنوات العشر اللاحقة انحدر المنحنى بطريقة سريعة جداً[485].

كان المؤشر الأول لهذا الانهيار السريع هو انخفاض قيمة النقد:

«إن ندرة النقود الذهبية والفضية تزداد كل يوم في طرابلس. لم يعد للسكين ثمن محدد ثابت. . . . إن النقد المحلي من مادة رخيصة جداً وهو مقوم بأكثر من قيمته الأصلية بشكل كبير جداً، لحد أنه لم يعد يقبل خارج حدود مملكة طرابلس»[486].

كتب لانسي ما سبق سنة 1767 إفرنجي، وبعد سنتين وتحت تأثير الكوارث الطبيعية؛ المجاعة، والطاعون، وحركات التمرد الداخلي ازداد الوضع سوءاً، وأصبح الباشا مفلساً.

كتب لانسي: **«كان من المستحيل علي الآن سحب مبلغ ألف سكين من حساب، ألححت في طلبه. إن الباشا مدين من جانب، وبدون نقود. . . إن بلده منهك، وقام بالأخذ مؤخراً من أموال المرتدين (العلوج) لتسفير قافلة طرابلس المتجهة إلى مكة»[487].**

إن القرصنة في البحر، أحد أهم الموارد في الولاية، لم تعد تحقق أي عائد.

«لقد تدهورت بحرية طرابلس، ولم يعد فيها إلا أربعة قوادس».

لم يكتف القراصنة بأنهم لا يأتون بشيء للدولة، وإنما يقومون بأعمال النهب.

«إن هذه السفن معدومة العتاد والذخيرة، ومن ثم ليس من المدهش أن يقوموا بأعمال لصوصية في البحر»[488].

كان الإفلاس كاملاً في سنة 1773 إفرنجي، وقام الوالي وحاشيته ـ وهم في أشد الاحتياج ـ بأعمال مضاربة مخجلة.

«إن الباشا، والباي، ووزراءه، لا يهتمون بالبؤس الشديد الذي يعانيه الناس، وقاموا بإرسال حمولات من الحبوب والزيت كانت في المخازن إلى مالطا وماهون بسبب حاجتهم الملحة للنقود»[489].

مؤشر آخر على البؤس العام، ونتيجة مباشرة لفقدان النقد قيمته: انحسار الحركة البحرية:

«يصبح هذا البلد ـ كل يوم ـ أكثر بؤساً، وأكثر حرماناً من النقود الجيدة الذهبية والفضية. وإن تأجير سفن الناقلين الفرنسيين أكثر ندرة، وأقل فائدة»[490].

وهذه أرقام للتوضيح:

«في زمن الازدهار، كانت ثمانون سفينة فرنسية مستعملة بربح في طرابلس. أما اليوم فنتمنى أن نراها تعود بعدد خمسين»[491].

هكذا واجهت تحويلات النقد الأجنبي المستحقة للبحارة والتجار مصاعب. ومن أجل مواجهة العجز في الميزانية، كان لا بد من اللجوء إلى السحب من الاحتياطيات؛ احتياطيات البلاد والشعب، لأن الدولة ـ أو الباشا، وهو والدولة واحد ـ كانت معدومة.

كان قنصل فرنسا، وأمام عينيه هذا المنظر المحزن، يتساءل:

ما هي أسباب المأساة؟ وكان يضع في مقدمة الأسباب عجز السلطة وفسادها، والأعراض واضحة منذ سنة 1766 إفرنجي.

«إن الباشا لا يرى البحر والريف إلا من فوق أسوار قلعته التي يعيش فيها منعزلاً وسط خمسمائة إلى ستمائة من المرتدين (العلوج) الذين يأويهم ويطعمهم فيها. يشرب أثناء الليل حتى الثمالة مع المقربين منه. إنه عندما يشرب الخمر يحتد حتى الهيجان، وإفشاء أسراره. لقد سيطر على الديوان والميليشيا مثل جده وبنفس الأساليب، ولكنه لا يعرف ــ أو لا يريد ــ جعلها محتملة من خلال شكل حكومته. إنه قلما يظهر في محكمته، ولا يقيم العدل إلا قليلاً بين رعاياه. بالرغم من ذلك، فلا يلاحظ إلا السخط، وليس الحقد، بين مغاربة المدينة والريف تجاه شخصه. إن أساس سياسة أمنه الشخصي هي تهدئة الخواطر بإظهار اللطف وعدم العقاب، وإتاحة الحرية لكل شخص ليعمل ما يناسبه»[492].

لم يكن علي باشا قد تنازل كلياً عن ممارسة واجباته: فلا زال يظهر من وقت لآخر في محكمته، وعرف بلطفه الغامر كيف يغطي تقصيره، وعيوبه. ولكن الوضع في سنة 1771 إفرنجي أصبح أكثر سوءاً.

«إن قلعة الباشا أصبحت علامة على الظلم والفظائع. إن هذا الأمير لا يقيم العدل... ومن هنا عمت الفوضى والانحطاط إلى حد لا يمكن علاجه، خاصة في مجال التجارة... إن الشعب يعاني من طغيان الوزراء، وأوهنته المجاعة والبؤس بسبب الجفاف المستمر منذ سنوات عديدة»[493].

بعد سنتين عم البلاء البلاد، وأثر في كل قطاعات الحياة العامة.

«إن الباشا، وعلوجه، وبعض الظروف السيئة وراء تدهور التجارة في هذا البلد. ها هي الأسباب الحقيقية: الاضطرابات المستمرة في الريف، والمكائد غير المعاقب عليها، بل والمسموح بها من قبل العلوج، والرؤساء في المناطق المختلفة، والتغيير غير القانوني (سوق سوداء) للنقد الرديء، وهو الوحيد المتوفر لدى الباشا، والتغيير العشوائي للسكين الذي أصبح نادراً، والتصرفات السيئة من قبل الرئيس وأعوانه تجاه أحسن تجار البلاد والذين لا يجرؤون على إظهار قدراتهم»[494].

ضاعفت الكوارث الطبيعية من الفوضى التي تولدت عن تقصير الحاكم. فالمجاعة، والطاعون مضافة إلى تصرفات العلوج خربت الريف وتسببت في هجرة جماعية شاملة. لاحظ دي لانسي سنة 1773 إفرنجي الآتي:

«ذهب أكثر من ستين ألف بدوي ـ عرب الصحراء ـ منذ خمس سنوات إلى أقاليم تونس والقاهرة. وهلك أكثر من خمسين ألف بسبب مرض وبائي. ومن هنا تقصلت زراعة الأرض، والرعي وقلت المواد التي يمكن أن تنتجها البلاد للتجارة. إن نقص المحصول، والمجاعة دمر مملكة طرابلس».

السبب الأخير، وليس الأقل أهمية، لانهيار التجارة هو العائد القليل لتجارة الرقيق الأسود. ففي سنوات الجدب كان تصدير الرقيق إلى المشرق يدعم اقتصاد البلاد، ولم تكن طرابلس أبداً في

وضع أحوج ما تكون فيه لهذا المصدر. أنه الآن غير متوفر، لا بسبب عدم توفره في البلدان المنتجة، وإنما لأن الطرق لا تعمل، أو تعمل في ظل مخاطر كبيرة. لم يكن السفر مأموناً سواء في البر أو على البحر، ولم تكن طرق الداخل آمنة.

«بغض النظر عن القلاقل التي تمنع مرور القوافل، كان التجار الذين يتمكنون من المرور يتعرضون للنهب من قبل ضباط الحكومة، وغالباً لا يحصلون على ثمن ما يجبرون على بيعه».

كانت المخاطر كبيرة في البحر كذلك، فالحرب بين البحرية العثمانية، وبحرية كاترين الثانية، ملكة روسيا، في البحر المتوسط منذ سنة 1769 إفرنجي جعلت الإبحار غير آمن.

«ضيقت الحرب على التجار الذين كان في مقدورهم مزاولة التجارة. لقد حققوا خسائر ضخمة في العبيد الذين بعثوا بهم إلى المشرق في هذه الظروف. إن استيلاء الروس على القبطان أوديبر دي لاسين «Audibert de la Seyne» بالعبيد، ووكلاء الشحن الطرابلسيين الذين كانوا على سفينته أقلق المعنيين وأثار مطالبات ملحة من قبلهم، وقد وجد السيد دي لانسي عنتاً كبيراً في تهدئتهم، وهم ينظرون إلى الأمر هنا كظلم من جانبه»[495].

لم تدم المعارك البحرية إلا لبعض الوقت، ولكن الأعمال العدوانية التي تعيق المبادلات مع الداخل، بقيت لسوء الحظ مستمرة. ما الذي كان يُلمح إليه دي لانسي عندما تحدث عن القلاقل التي تمنع مرور القوافل؟ لقد تناولها بدقة وبالتفصيل عدة مرات في رسائله: إنها ثورة العرب. إن تمرد القبائل العربية في

طرابلس ظاهرة مستمرة. واستطاع الدايات والباشاوات التغلب عليها دائماً، فقط كانت الانقسامات بين القبائل كبيرة لدرجة تجعلها لا تمثل خطراً حقيقياً، ولكن برزت حركة ذات اتساع غير معروف في السابق. كان أولاد سليمان هم القائمين بها. فبتحريض من سيف النصر شيخ فرع الجباير توحدت مختلف عائلات أولاد سليمان التي كانت متناحرة في السابق. والآن، الأمة بكاملها قائمة ضد سلطة الأتراك[496].

كان وراء الصراع، وكما يحدث غالباً، موضوع نقود. ففي سنة 1769 إفرنجي عانى الباشا خسائر كبيرة. كان الباشا يستلم من فزان كل سنة ستمائة إلى سبعمائة[497]، أو حتى ثمانمائة عبد أسود[498]، وفي هذه السنة قضى عليهم وباء[499]. كان الباشا مثقلاً بالديون ومن بين دائنيه دي لانسي المستحق له طرف الباشا 4200 سكين. لم يكن القنصل قلقاً، فستتم تسوية الأمر. كان أولاد سليمان دافعي إتاوة سنوية لطرابلس وكان مستحقاً عليهم متأخرات قدرها 20000 سكين، وخرجت مفرزة[500] لتحصيل هذا المبلغ، ولكنها رجعت لتعلن «**أن قبيلة أولاد سليمان لم تلتزم بالتعهدات التي أجبرت[501] على إعطائها**»، وبدأ الصراع.

حدث هذا في سنة 1771 إفرنجي، وبعد ثماني سنوات ـ أي في سنة 1779 إفرنجي ـ كان الحل يبدو في متناول اليد. فقد ظهر سيف النصر على رأس قبيلته أمام المدينة، وزاد من خطورته أنه كان مصحوباً بمرشح للسلطة وهو تركي كان يَدَّعي بأنه عم، أو ابن أخ الباشا. لم يكن هذا واضحاً في مجتمع شاع فيه الطلاق، والمعاشرة

خارج رباط الزوجية. فيحدث أن يكون العم أصغر من ابن شقيقه. هل كان ما يدعيه المطالب ـ وهو ما نسميه به من الآن فصاعداً ـ صحيحاً؟ كيف يمكن معرفة هذا؟ كم من الزوجات والجواري تتابع في قصر الحريم؟ لم يكن هذا مهماً بالنسبة لسيف النصر الذي تمسك بفزاعته.

كان الخطر كبيراً لدرجة أن الفرنسيين شحنوا أمتعتهم الثمينة(502) على السفن. ولكن طرابلس صمدت فتشتت المتحالفون. وبينما زحف سيف النصر على مصراتة للاستيلاء على معسكر آغا هذه المدينة(503)، انسحب المطالب إلى جبال غريان ومن هناك استطاع مقاومة قوات الباشا، «**واعتراض وسلب القوافل الراغبة في المخاطرة بحمل سلعها إلى طرابلس**»(504).

أصبح المطالب مدعوماً من قبل عرب غريان، بعد أن كان مدعوماً من أولاد سليمان. لماذا لم تنسق هاتان القبيلتان قواهما من أجل الإطاحة بالسلطة في طرابلس؟ كان سكان الجبل غيورين على استقلالهم، وقد عرض عليهم أولاد سليمان التحالف في سنة 1722 إفرنجي، ولكنهم رفضوا استقبال أولاد سليمان على أراضيهم(505). إن هاتين المجموعتين من العرب، وهما الأقوى في منطقة طرابلس، لم يتفقا أبداً على التوحد من أجل هدف مشترك. إن القاعدة عند العرب هي: «**كل لنفسه**».

كانت الفرصة مواتية، وكان نظام القرمانليين هشا على شفا الانهيار، والصورة التي رسمها له لانسي سنة 1775 إفرنجي هي صورة انهيار وتحلل سريع:

«كان منهكاً، ومرتبكاً في كل جوانبه بطريقة لا يمكن تصورها. . . وجاء انحطاطه بسرعة منذ عشر سنوات. . . للأسباب الآتية:

إن الباشا لا يقيم العدل، ولا يعاقب المجرمين، ولا يظهر للناس. سلبه علوجه السلطة وأصبح عبداً لهم، وهم يتصرفون بعشوائية، كما أنه مثقل بالديون.

لقد اندثرت تقريباً قوات البر والبحر، ولم يعد الجند يستلمون مرتباتهم أو إعاشتهم التي تصرف لهم في شكل مؤن.

إن البحرية التي كانت هي القوة الرئيسية للولاية وكانت الأقوى والأخطر في كل الشمال الأفريقي لم تعد تتكون إلا من أربعة أو خمسة قوادس، وقاربين لم ينته منهما منذ سنتين بسبب نقص التمويل. إن هذه السفن لا تتوفر على تجهيزات ولا ذخيرة حربية، ولا تموين. وأطقمها من مغاربة البلاد وهم كسالى وبؤساء لا يعرفون كيف يعملون، ومن هنا فإنهم يخسرون أنفسهم، بما يقومون به من أعمال قطع طريق في البحر ضد الأصدقاء والأعداء على حد سواء.

لم يعد هنا أرناؤوط كما كان الحال سابقاً لقيادة سفن القرصنة لأن السيد دي لانسي، مخاطراً بسلامته، نجح في طرد الأكثر شهرة منهم بالإضافة إلى أنهم لم يعودوا يجدون عملاً، أو وسيلة للعيش هنا. . . فغادروا إلى أماكن أخرى.

إن هذا مكسب لأمن وسلامة النشاط البحري، والاستقرار في القصر. . . . لكنه سبب رئيسي في ضعف طرابلس.

إن الترسانة خاوية . . . والتحصينات تنهار»[506].

كان الظرف سيئاً لدرجة جعلت قوافل البحر تتحاشى طرابلس. فمن أكتوبر سنة 1779 إفرنجي إلى مارس سنة 1780 إفرنجي غادرت ميناء طرابلس ثماني عشرة سفينة سبع منها خالية، ولم يكن من بينها أي سفينة تنقل عبيداً[507].

هذا لا يدهش، فقد كان المطالب وأنصاره يسيطرون على الريف، وكانت قوافل الداخل «**تخشى من الاعتراض، ومن ثم لا تأتي**»[508].

لم يكن الوضع أحسن في سنة 1781 إفرنجي، ووصفه قنصل فرنسا السيد أندري كما يلي:

«إن تجارتنا المباشرة مع مملكة طرابلس ليست مزدهرة كما يمكن أن تكون. إن افتقار سكانها، وانقطاع تجارتهم وتواصلهم مع ممالك فزان وبورنو أدت بالضرورة إلى تثبيط همم المؤسسات الفرنسية القليلة التي كانت توجد في طرابلس بسبب استحالة مزاولة الاستيراد والتصدير».

إن القنصل لا يستطع إخفاء الحقيقة، ولكنه لا يريد لمراسليه أن يفقدوا الأمل، فهو يوحي إليهم بتطورات أكثر ملاءمة:

«إن هذه الأزمة لتجارتنا ستكون غالباً مؤقتة، وتتأثر بأزمة الحكومة. إذا ما بقي علي باشا قابضاً على السلطة، أو إذا انتهت بالثورة إلى ابن أخيه الذي يقود العرب العصاة، سيكون من الممكن إعطاء دفعة لتجارتنا. كما يستطيع نشاطنا البحري أن يجد انطلاقة

جديدة، إذا ما شُجّع ربابنتنا الذين عملوا منذ سنوات على اكتساب المعرفة العملية والبحرية بسرت على إنشاء إبحار ساحلي منتظم في هذا الجزء غير المعروف حالياً تقريباً»[509].

بعد مضي سنة، كان العرب لا يزالون في حالة عصيان وتمرد، «إنهم يخربون الحقول، ويتلفون المحاصيل ويعترضون وينهبون القوافل». ولكن المطالب لم يعد يمثل خطراً، فهو الآن في تونس حيث تم حجزه. كان للقنصل مشاريعه، فهو يستكشف الإمكانات التي تتيحها قوافل الداخل، وخاصة قوافل بورنو.

«إن الميزة ستكون لهذا الذي يقيم هذا الاتصال».

إعلان للتجار الفرنسيين! يعدد أندري ـ القنصل ـ المواد والسلع التي يمكن تزويد هذا السوق بها؛ ليست سلعاً غالية، ولكنها بضائع رخيصة. إن من المؤكد تحقيق عوائد مرتفعة مقابل بعض الأشياء ذات الأسعار البخسة.

«من المهم عدم الخطأ في الوسائل أنها ليست الحلى الغالية التي يجب إحضارها إلى هنا. إنهم لا يعرفون أسعارها ولا استعمالها. . . . إن الحلى الزجاجية، وصناديق البنادق، والنسيج، وخردوات نحاسية من مختلف الأنواع، ومختلف أنواع الأسلحة، وبعض الورقيات تمثل بالنسبة لهم كنوزاً حقيقية فهي تخمد فيهم العواطف الطبيعية الغريزية. إن الأم، من أجل بعض من عقود اللؤلؤ لتلبسها أو تزين بها شعور بناتها على استعداد لأن تتنازل عن بنت أو عدد من بناتها وتسليمهن بطيب خاطر إلى التاجر، والأب يبيع أو يشوه أبناءه على أمل أن يحصل على بعض البنادق أو السيوف

كتعويض عن بربريته. ولكن لنغض النظر عن هذه القسوة ولنهتم بأهدافنا: لنسرع بإحضار وتسويق بضائعنا. إن التبر، وجلود النمور، وريش النعام والسنا ستكون هي المقابل في المبادلات. عندما يعرف هؤلاء المتوحشون احتياجاتنا، وأن دمهم وحريتهم لم تعد تساوي ثمناً، فإنهم لن يجمعوا أسرهم إلا للذهاب بهم إلى المناجم على ضفاف الأنهار، أو الصيد، أو الحقول»[510].

كان السيد أندري مخطئاً لحسن الحظ: فالآباء لا يسلمون أطفالهم للرق والتشويه أي الخصي. بالعكس كثيراً ما كانوا يقدمون حياتهم في محاولة إنقاذ أطفالهم من رعب الغارات. ولنقدر وجهات نظر القنصل الكريمة ولكنها نظرية. فهل كان السادة السودانيون، والتجار الأتراك والمغاربة على استعداد للتضحية بالأرباح المؤكدة لبيع الرقيق في المشرق، وفي الأسواق الأوروبية المحدودة؟ ماذا كانت تساوي بعض كيسات من التبرأو بعض من ريش النعام، أو بعض جلود النمور مقارنة بالرقيق؟.

كانت رؤيا أندري صحيحة بالنسبة لموضوع واحد وهو أن قوافل الداخل ستعاود نشاطها العادي، وسيكون هو نفسه ـ دون تخطيط منه ـ أداة هذه الواقعة السعيدة. كانت كفاءته معروفة، ونصائحه مسموعة. لقد أوصى بالإبحار على سواحل سرت، وكان يجب محاولة المغامرة.

سنرى عما إذا كان هذا خطيراً. يوم 22 / 1/ 1784 إفرنجي كان القبطان تورنل «Tournel» مبحراً على ساحل خليج سرت، عندما اضطره منفذ مائي لقيادة سفينته نحو البر. لم يخف ذلك على

العرب في المنطقة والذين كانوا يبحثون عن أسلاب. كان العرب في المنطقة من أولاد سليمان وقد قاموا بالاستيلاء على السفينة، ونهبها، وأخذ القبطان والبحارة إلى مكان آمن: إلى فزان. هكذا حاز سيف النصر رهائن ثمينة، وكان مدركاً للمزايا التي يمكن أن تعود عليه من هذا الأمر. لم يكن قنصل فرنسا ليتأخر في التدخل، وطالبه سيف النصر أن يكون مقابل حرية أسراه المصالحة بين قبيلته والباشا. توسط أندري لهذا الغرض ونجحت مساعيه بتاريخ 28 مارس. وتم العفو عن سيف النصر، ومنح[511] لباساً شرفياً (برنوس) وكان هو التوسيم في ذلك الزمن. إن مسعى سيف النصر فرضته المصلحة الظرفية، ولكن نواياه الحقيقية تجاه السلطة التركية لم تتغير، ـ سنرى ذلك بعد حين ـ ولكن اعترافه بالجميل تجاه قنصل فرنسا كان حقيقياً. فمنذ ذلك الحين أصبح النشاط البحري الفرنسي آمناً واستمر[512] تبادل الرسائل بين معسكر العرب، والقنصلية. كان هذا بداية تاريخ طويل من الصداقة ـ ومن التواطؤ تقريباً ـ بين أولاد سليمان وفرنسا.

استتب السلام، وأصبحت طرق الداخل آمنة فعرفت التجارة بعض الانتعاش لفترة قصيرة. بينما غادر ميناء طرابلس خلال سنة 1783 إفرنجي والثلث الأول من سنة 1784 إفرنجي سبع وعشرون سفينة فرنسية، اثنتان منها فقط كان تحمل بعض العبيد ـ وهو من أقل الأعداد المسجلة[513] ـ نلاحظ العودة إلى الانتعاش في منتصف سنة 1784 إفرنجي. ففي الثلث الأخير من هذه السنة تم استئجار خمس وعشرين سفينة فرنسية من بينها اثنتين لنقل السود

من الجنسين إحداها إلى شيو والأخرى نحو أشيل نيف[514] «Echelle Neuve». وفي سنة 1785 إفرنجي غادرت ميناء طرابلس خلال الفترة من يناير إلى سبتمبر أربعون سفينة فرنسية من بينها خمس لنقل الرقيق الأسود فقط، وثلاث تنقل بعضاً منهم، وسبع خالية[515].

إنها نتائج مدهشة، خاصة وأن الكوارث تضافرت على طرابلس، ففي سنة 1784 إفرنجي عمت المجاعة وانتشرت، وفي سنة 1785 إفرنجي كان الوضع أسوأ بظهور الطاعون. وفي أغسطس 1785 إفرنجي قدر ريتشارد توللي قنصل بريطانيا الوفيات بخمس السكان الأتراك والمغاربة، ونصف اليهود، بينما توفي تسعة أعشار المسيحيين[516]. في شهر سبتمبر أعطى أندري ـ قنصل فرنسا ـ أرقاماً أكثر دقة[517]، مات من الطاعون:

مغاربة في المنشية (ضاحية لطرابلس)	15000
يهود ومغاربة في المدينة	9600
يهود في الحي اليهودي	2700
أوروبيون	32
رقيق (مسيحيين)	21
الإجمالي	27353

لفرنسا أن تفخر بأن لديها في طرابلس ممثلاً في كفاءة السيد أندري الذي كان بالإضافة إلى تفوقه الفكري يتمتع بمعرفة كاملة بالبلاد والرجال دون الأخذ في الاعتبار أنه دبلوماسي موهوب. كانت شخصيته جذابة، وعيبه الوحيد سوء حالته الصحية. ولحسن

الحظ كان مدعوماً، منذ سنة 1782 إفرنجي[518]، بمعاون لا يقل عنه في التفوق: السيد ڤالبير «Valliere». وفي أكتوبر سنة 1786 إفرنجي عندما أصبح القنصل مريضاً لدرجة منعته من مزاولة العمل، تولى ڤالبير تسيير القنصلية[519]. وعندما مات أندري في أكتوبر سنة 1787 إفرنجي تولى أعمال القنصل بالنيابة[520].

إننا مدينون لڤالبير بمذكرة ذات أهمية تاريخية. وقد كتبها أثناء إقامته في فرساي في ديسمبر سنة 1785 إفرنجي. كان ملاحظاً نابهاً، وكاتباً أنيقاً رسم للحياة السياسية والاقتصادية في طرابلس صورة أترك للقارىء تقويمها.

طرابلس في سنة 1785

مذكرة حول طرابلس الشمال أفريقية[521]

ارتكب علي باشا حاكم طرابلس الحالي أعمال قسوة عند وصوله للسلطة، وذلك بأن اعتقل وقتل خمسة أو ستة من أبناء عمه الذين كان يخشى أن يطيحوا به من على العرش. إن ذكرى هذه الفظاعة تنغص عليه حياته منذ زمن طويل، كما يعذبه ـ في الوقت نفسه ـ وجود شقيق مزعوم لعمه المشار إليه أعلاه، ويقال أنه هائم في البادية، وقد جاء في سنة 1799 إفرنجي وحاصر طرابلس، وهو الآن محجوز في تونس، وسيقتل إذا ما تم تسليمه إلى طرابلس سواء كان مغامراً أو من دم ملكي. إنهم يحتفظون به في تونس لاستعماله في حالة قيام حرب مع طرابلس. إنه فزاعة توضع في المقدمة، كما يحتفظون في الجزائر بأبناء المرحوم المطالب بعرش تونس، كتهديد مستمر بوضعهم في مواقع أسلافهم، إذا ما فقد باي تونس الحظوة عند داي الجزائر.

إن الباشا أمير ضعيف، وجبان ولد ببعض الفضائل ولكن ذهبت بها الرذائل. إنه كريم ولكنه فقير، طيب ولكنه يأتي الشر بالنصيحة، ونبيه، وعادل، ولطيف المعشر ومؤدب يقيم الاعتبار للآخرين أكثر

من اعتباره لنفسه. إن علي باشا يأمر ولكنه غير مطاع... وهو سيد مساحات كبيرة لا تدر عليه شيئاً، ويعيش في فقر مدقع. ولو كانت هناك إدارة حكيمة لعرف السعة والرخاء. إنه غارق في الخمر مستسلم للسوداوات، مسيطر عليه من قبل عجوز يهودية يسميها الناس ـ هنا ـ الملكة أستير، كما أنه محاط بعلوج حقراء يتملقونه، وهو محتقر من أبنائه ووجهاء البلاد ومصاب بمرض حاد، ومأزوم أخلاقياً وسياسياً. إن باشا طرابلس هو شهيد الحكام.

يتطلع ابن الباشا الأكبر، الباي حسن، لخلافة والده ويحاول من الآن ممارسة فن القيادة. إنه أقدر من والده ومطاع ومهاب أكثر منه، وكثيراً ما يزاول السلطة لمصلحته الشخصية. إن طباعه تنبيء بأنه سيكون حاكماً سيئاً، وهو محب للمال وعلى استعداد لاستعمال كل الوسائل من أجل الحصول عليه. لقد رأيناه مؤخراً يحتكر السلع بطريقة مثيرة في زمن مجاعة قاسية. إن الباي حسن غني ويعيش في رفاهية، بينما والده وذووه وخيوله يموتون من الجوع.

وللباشا ولدان آخران، ولأَهما أحسن مقاطعتين في البلاد لتمكينهما من الدعم. إن هذين الأميرين، وأصغرهما جميل الوجه ويبدو واعداً، يجب أن يحترسا جيداً من إثارة أي شكوك لدى شقيقهما الأكبر.

إن باشا طرابلس لا يحكم اليوم إلا على عصاة، وأقاليم مجدبة، وأكوام من الحطام، والخراب. إن المدينة التي يقيم فيها كلها بقايا هدم وتخريب. كما أن قصره يتهاوى من كل جانب،

والأسوار المحطمة تجعل بوابات المدينة عديمة الجدوى. إن الحصون، ومواقع المدفعية المجهزة بمدافع سيئة وقديمة تتساقط عند استعمالها لتحية السفن التي تدخل الميناء. إن سبع أو ثمان سنوات من الجفاف ضاعفت أعداد الموتى والهجرات، ولم تعد طرابلس إلا قفراً يباباً.

قبل هذه الأوقات العصيبة كانت هناك صادرات كبيرة من القمح والشعير. كان المزارع غنياً، وكانت الحكومة تُحصل رسوم خروج، كما كان استهلاك سلع الرفاهية مهماً نسبياً. كانت إيطاليا والمشرق والإسكندرية تزود بسلع الرفاهية، ويدفع لها بالصوف، وريش النعام، والسنا، والتبر، والعبيد، وأشياء أخرى. وعندما حلت المجاعة لم تعد تأتي إلى ميناء طرابلس إلا السفن المحملة بالمأكولات. ويحقق الناقلون في زمن العوز هذا أرباحاً كبيرة، وكذلك الحال بالنسبة لتجار السلع. إن البضائع المحلية أبعد ما تكون عن معادلة البضائع الموردة، ومن ثم يجب الدفع نقداً. صرف أهل الريف ما عندهم من مدخرات، وأصبح أهل المدينة في مدة قصيرة معدمين من كل نقد وهكذا باع هؤلاء وأولئك حليهم وحلي نسائهم.... وخفضت قيمة النقد بخمس وعشرين في المائة من قيمتها الحقيقية.

كان الاستيراد من مرسيليا إلى طرابلس قليلاً دائماً، وليس مرشحاً لزيادة كبيرة، وتبلغ قيمته عادة خمسة وأربعين ألف جنيه. ويتكون من كميات صغيرة من القهوة، والسكر، والمشروبات الكحولية، والمشروبات المركزة، والحديد، والمدافع، والبلاتين،

وقطع البنادق، وألواح الشمال، والنحاسيات، والخردوات، والأقمشة، وخيوط الذهب. إن ربابنة كثيرين يذهبون للمغامرة من موانيء البروفانس (جنوب فرنسا) ويحلون بطرابلس وفيها يبيعون الخمر، وماء الحياة التي يشحنونها مجاناً على السفن.

تزود ليفورن كلاً من المشرق، وشمال أفريقيا بأقمشة خشنة جداً يستعملونها في ملابس الخدم والعبيد، وتذهب كمية كبيرة منها إلى مملكة فزان، وأغاديس، وبلدان داخلية أخرى. إن هذه الأقمشة مصنوعة في نابولي من أصواف بنغازي وطرابلس التي هي غير صالحة لصناعة أي أقمشة أخرى. ومن أجل زيادة وزن الصوف يرشه العربي برمل أحمر دقيق جداً، وهو ما يفسده ولولا هذه العملية لكان من نوعية جيدة.

إن ليفورن هي الشريك الأول لطرابلس في مجال التجارة من بين المدن المسيحية، وهذه التجارة كلها بين أيدي اليهود. إنهم يستوردون من هذا الميناء الحر ـ حيث يتمتعون بحماية كبيرة ـ سلعاً مختلفة قيمتها أربعمائة إلى خمسمائة ألف جنيه سنوياً منها الأقمشة من كل النوعيات، والأقمشة من الحرير، والعطور، وخيوط الذهب، والكتان، والورق، والسكر والقهوة، والمرجان، واللبان، والشب، والقصدير...، والنحاس، والرصاص، والحديد، والصبغة الحمراء وخشب الصباغة، والزجاجيات من كل نوع وغيرها. إن الأقمشة الخشنة، والنحاس، والزجاجيات، والمرجان توجه إلى سود فزان، وأغاديس، وسوكنة. وألاحظ هنا أن الحرائر، والعطور من فلورنسا وليفورن عليها طلب كبير في

المشرق وشمال أفريقيا. إن المادة القليلة المستعملة فيها تجعلها رخيصة الثمن، والمشتري لا يهتم بالنوعية السيئة.

تزود البندقية طرابلس بحمولة واحدة ـ وأحياناً حمولتين ـ من خشب الصنوبر، والعوارض الخشبية، وصواري السفن للقراصنة، والمسامير، والحلي الزجاجية وبعض القطع من الفلور، والساتان والأقمشة، ودوائر الغرابيل.

إن قنصل البندقية في طرابلس هو صاحب هذا الفرع من التجارة، وبالرغم من محدوديتها إلا أنها تدر عوائد تحت إشرافه. إن المبلغ لا يتجاوز أبداً ستين إلى ثمانين ألف جنيه.

إن التجار المالطيين ـ الذين تحميهم فرنسا ـ يزاولون تجارة صغيرة في المأكولات، وهم يرافقون غالباً السلع التي يوردونها أو يصدرونها. يأتون من مالطا بالسكر، والقهوة، وخمر صقلية، وماء الحياة، وكل المعجنات الإيطالية، واللحوم المجففة، والخبيز، والشب، وأحجار مالطا وغيرها. وفي الأوقات الأخيرة كان القمح، والشعير، والفول، والحمص، والخروب أهم ما استلمته طرابلس خلال المجاعة التي كادت أن تؤدي بأرواح السكان. إن القيمة الإجمالية لهذه المواد هي غالباً من خمسين إلى ستين ألف جنيه، وتُحمل على عدد من السفن الصغيرة.

حاول القائد مصطفى رئيس جمارك الولاية، وهو علج نابوليتاني، بعض المضاربات مع صقلية ونابولي، ولكن محاولته تعرقلت بسبب الطاعون. إن مشروعه يجب أن يعطي بعض النتائج،

إذ أنه يقوم بنقل الصوف مباشرة إلى نابولي بدل أن ينقل إليها عن طريق ليڤورن كما هو الحال الآن.

كما بدأ قنصل إسبانيا، الذي استقر مؤخراً في طرابلس بعد إبرام اتفاق سلام مع دولته، بعض المحاولات التجارية مع ماهون، ولكنه لم يكتسب بعد أي وزن في هذا المجال.

أقدر الواردات العامة لطرابلس من البلدان المسيحية ـ دون خطأ كبير ـ بحوالي ستة إلى سبعة آلاف جنيه، وسأتناول بحث التصدير فيما يلحق.

إن إنتاج مدينة طرابلس وإقليمها لا يذكر، ولكن باعتبارها العاصمة، فهي مستودع أغلب السلع التي تنتجها الولايات. إن السلع تأتي إليها من المواني بواسطة سفن ساحلية صغيرة أوروبية، وبالبر على ظهور الجمال.

كما تصدر طرابلس إلى مرسيليا كل سنة **10000** قنطار من كربونات الصوديوم المحروقة في طرابلس القديمة، و**7000** قنطار محروقة في زوارة. وهذه الأخيرة أجود من غيرها. وقد احتكر الباشا هذه المادة، ويعطيها ـ في العادة ـ لمدة ثلاثة سنوات للفرنسيين، ثم لمدة ثلاث سنوات للإنجليز مقابل ديونهم المستحقة عليه. إن ما يمكن تحصيله من هذه المادة يصل أحياناً إلى **20000** قنطار وأحياناً أقل من **10000** قنطار، ونوعيتها رديئة جداً.

لقد زادت زراعة جذور الفوة في السنوات الأخيرة إلى معدلات لم تتحقق أبداً في الماضي. إن أكثر من **2000** قنطار من هذه الجذور بعثت إلى مرسيليا سنة **1784** إفرنجي، وأعطت أرباحاً لم يشارك

الفرنسيون فيها تقريباً. لقد تكون نشاط تجاري جديد ـ نشاط صغير في الحقيقة ـ وتتحقق منه أرباح تزيد عن مائة في المائة، ويتكون هذا النشاط من أعمدة الصواري والحصائر، والسلال المصنوعة من سعف النخيل، والقفاف للبنائين. كما بدىء في تصدير جلود الماعز، ويمكن أن تضاف إليها جلود البقر، وجلود الجمال، وجلود الخراف، وجلود الماعز المدبوغة الملونة، والإسفنج، وغالباً زيوت السنا. إن قيمة الصادرات التي تتراوح عادة من خمسين إلى ستين ألف جنيه يمكن أن تزداد. فمثلاً الريش والقنازع الرائجة جداً يأتي الجزء الأكبر منها من مملكة طرابلس، ويتم إرسالها بالكامل إلى ليڤورن.

إن اليهود يقومون بإعدادها ومن ثم تتضاعف قيمتها. كما إن كل ناقل بريد يحمل منها إلى باريس. لقد قابلت في أوتون «Auton» يهودياً باع منها بما قيمته 12000 جنيه. لماذا لا نرتاد المنافسة في هذه السلعة المربحة؟.

إن صادرات طرابلس إلى ليفورن تتكون من: 2000 قنطار من الصوف، و1005 قنطار من السنا، و120000 إلى 150000 جنيه من ريش النعام، ومن 700 إلى 800 جلد ماعز مدبوغ ملون، و300 قنطار من جلود الخراف، و300 جلد، و50 قنطار من الشمع الآتي من المغرب، و300 قنطار من جذور الفوة، وقنطاران من الزعفران، وحزمتان من القماش الصوفي، ومبلغ كبير في شكل سبائك ذهبية وتبر، و60 قنطار من السوسن البري، و40 قنطار من الإسفنج، وعشرة من الكونيو Cunieus(؟).

إن الصادرات للبندقية تتم بشكل عارض ومحسوبة على أساس الأرباح والخسائر التي توضحها الأسعار المعلنة في كل من طرابلس والبندقية. وتتم عادة في السلع المذكورة أعلاه وبقيمة تصل أحياناً إلى 100000 جنيه وغالباً ما تكون أقل بكثير. ولا توجد بين طرابلس والبندقية علاقات منتظمة دائماً.

نفس الشيء بالنسبة لنابولي، حيث يصدر إليها في السنوات الأخيرة من 30000 إلى 40000 جنيه من السنا، والصوف، وجلود الماعز المدبوغة الملونة، وجلود الخراف، والجلود المملحة، وجلود الماعز، والزيت، والزعفران، والشمع، والإسفنج، وجذور الفوة، وعصير الليمون.

تصدر طرابلس إلى نابولي 20 قنطاراً من الشمع، و50 قنطاراً من جذور الفوة، و300 قنطار من الصوف، و20 من جلود الخراف و700 إلى 800 قنطار من الأباسي، وجلود البقر والجمال، والجلود المملحة. كل ذلك بقيمة سنوية تتراوح بين 40000، و50000 جنيه، وعندما يكون هناك خصب تساهم طرابلس في تزويد نابولي بالأطعمة. كما أن بنغازي تزود نابولي بـ200 رأس من الأبقار الحية.

يهمنا قليلاً معرفة تجارة طرابلس مع الشمال الأفريقي والإسكندرية والمشرق، والجزر وهي صعبة التحديد. في جميع الأحوال لا يشارك الأوروبيون في هذا المجال.

تستورد طرابلس من تونس، وصفاقس، وجربة كمية كبيرة من أغطية الرأس، والجرود الجيدة، والبرانيس، والأحزمة، والشيلان، والعطرية، والتبغ، والفحم الخشبي، واليانسون، والتين المجفف،

والعنب المجفف الذي يستخرج منه عرق قوي جداً، وكثيراً من المصنوعات الحديدية. وفي أوقات الجفاف تكون عنابة التابعة للجزائر، وتونس هما مصدر الغلال ويزودان طرابلس بالقمح والشعير، والماهي، والكسكسي، والفول، والحمص.

إن سفينتين محملتين من الإسكندرية ومتجهتين إلى جربة وطرابلس، تنزلان في طرابلس بما قيمته مبالغ كبيرة من الموصلين، ونسيج الكتان، والسجاد، وقطع الأقمشة، والأرز، والعدس، والعسل، والسكر في شكل أرغفة الخبز، وقهوة الموكا، والتبغ، وجلود الماعز، والقنب، وقطع النحاس، والقدور المعدنية، وأشياء صغيرة أخرى.

تستورد طرابلس من القسطنطينية، وسميرن، وموري، والجزر التابعة أخشاب البناء، والأحذية، والسجاد، وأقمشة الكتان، والأقمشة الجيدة، والتين المجفف، والعنب المجفف، والعسل، والتبغ، والجفان الخشبية من كل الأحجام، والمأكولات عند الحاجة.

وتبيع قافلة حجاج المغرب الذاهبة إلى مكة والتي تكبر يومياً على طول مسارها جزءاً كبيراً من البركان الجيد، ومن أغطية الرأس العادية، ومن اللؤلؤ، والعقاقير، وجلود الماعز المدبوغة الملونة، والأحذية المغربية التقليدية، والشمع، وخاصة القروش الإسبانية، والتبر. وفي طريق عودتها تحضر الساتان الفارسي المخطط من كل الأنواع، والشالات، والزبد أو العطر، وتأخذ الزعفران، والحرير والصبغة الحمراء.

يزاول التجار المغاربة في طرابلس، وبعض اليهود الذين يشاركونهم تجارة مربحة جداً مع بلدان فزان، وأغاديس، وسوكنة[522]. إن عدد العبيد والإماء الذين يؤتى بهم سنوياً من هذه البلدان يصل إلى الألف. وتأتي الجمال من هذه البلدان بأكثر من 2000 قنطار سنا، و600 قنطار تمور، و3400 قنطار من الطرونة، وقنطار واحد من التبر، وما قيمته 15000 إلى 20000 جنيه من ريش النعام. إن هذه السلع القيمة تباع بأسعار زهيدة مقابل أقمشة رديئة النوعية، وخردوات غير متقنة، وحلي زجاجية من كل نوع، وسبائك وخيوط نحاسية، ونحاس وهي مفضلة على الذهب، وحلي صغيرة من المرجان، وأشياء تافهة مماثلة، وبعض الخيول المسنة السيئة.

يتم من طرابلس تصدير ألف من العبيد والإماء سنوياً إلى موري «Moree»، وشيو «Scio» وسميرن «Smirne»، والقسطنطينية. إن هذا النوع من التجارة مزدهر ومجز، ولا يوجد إلا القليل من الخواص الأثرياء الذين لا يشاركون فيه. فهذا يشارك بأربعين رأس، وذاك بثلاثين، وآخرون بعشرين أو عشرة أو أقل، وكثيرون يشاركون بثلاثة أو أربعة وهناك من يشارك بواحد أو اثنين. إن متوسط سعر العبد هو ثلاثمائة وخمسين جنيهاً ويتضاعف عادة عند البيع في المشرق حيث يؤدون الخدمات، وهم مظهر رفاه، وبهجة للكبار والأغنياء. وفي أوقات الوفيات الأخيرة صدرت طرابلس 20000 جلد ماعز مدبوغ وملون مقابل المأكولات، وثلاثين إلى أربعين حزمة من السمك الرديء المملح. كما تصدر مع السود

كمية كبيرة من الحصائر، والقفاف، وأربعمائة إلى خمسمائة قنطار من التمور، ومائتي قنطار من الأباسي، وبضع قناطير من الزعفران، وريش النعام الأسود.

يحمل إلى الإسكندرية خمسون عبداً على السفن الناقلة للحجاج إلى مكة، وحوالي مائة حزمة من النسيج الصوفي، وخمسة عشر حزمة من سجاد مصراتة، ومائة قنطار من جذور الفوة، وحوالي خمسة عشرة رطلاً من الأشرطة، وبعض القناطير من الزعفران، والحصر، والقفاف وكثير من حبال الصواري.

تستورد تونس والموانىء التي في شاطئها الشرقي من طرابلس ثمانية قناطير من الزعفران، وخمسمائة إلى ستمائة قنطار من جذور الفوة، وأربعمائة قنطار من الطرونة، وثلاثمائة قنطار من الأباسي، ومائة حزمة من قماش أسود لصنع الأكياس، وألف قطعة من سجاد مصراتة، ومائتي قنطار من التمور.

لقد حاولت في حدود ما هو ممكن إعطاء فكرة عن تجارة الاستيراد والتصدير في طرابلس. إن الجميع في هذه الولاية المنهكة من الابن الأكبر للحاكم إلى أصغر مواطن تجار. كلهم رحالة، وكلهم يدخلون مشاركين في الثروة العامة. من هذا الطابع للصناعة، والنشاط، والمهارة يؤمل أن يجد البلد طريقه إلى بعض الانتعاش شيئاً فشيئاً. إن جهود المواطنين والعبقرية الوطنية لا تؤتي أكلها إذا لم تسخر لها ظروف ملائمة، ولم تكن لها حكومة رشيدة.

إن تربة طرابلس رميلة دقيقة، تزرع دون جهد، وهي خصبة عندما تجد الماء، وتنتج القمح والشعير، والماهي، والكساكر،

والبشنة (وهي حبوب حمراء يصنع منها العرب خبزة سوداء ثقيلة الوزن فجة، وهي تشبه حبوب اللفت الصغير عندنا). كما تنجح، بطريقة مدهشة، زراعة جذور الفوة، والأباسي. إن اللوز، والرمان، والليمون ممتازة، والزيت طيب ولذيذ، كما إن التمور الطازجة جيدة ولكنها لا تتحمل النقل بكميات كتمور الجريد، والإسكندرية. كما تنجح زراعة التين، والموز، والتبغ، والليمون. وينجح قصب السكر ولكنه يتطلب مزارعين آخرين، وسيأتون.

إن صوف الخراف من نوعية متوسطة، وتصنع في البلاد كمية كبيرة من الجرود وهي اللباس الوحيد لسكان الريف. كا توجد حرف إنتاج نسيج كتاني خشن، وأقمشة حريرية. ولكن هذه المنتجات الرئيسية لا تعطي انطباعاً حسناً عن مهارة، وذوق العاملين في إنتاجها.

تنتج مصراتة كثيراً من السجاد الخشن. أما بنغازي حيث يسود التمرد والعصيان يومياً والذي تصاحبه معارك بين السكان المولودين في بنغازي، وأهل مصراتة الذين لديهم الأموال والممتلكات، فهي معروفة بأصوافها، وشحومها الحيوانية، والأبقار التي تصدر إلى مالطا، والأغنام الكثيرة، وريش النعام، وجلود البقر والماعز والخراف. إن هذا البلد البائس (بنغازي) يقدم الدليل على ضعف ـ لا قوة ـ الباشا في طرابلس.

لقد عين الأمير (باشا طرابلس) شقيقه باياً لبنغازي، وغالباً ما يضطر الباي للهرب ولا يستطيع القيام بأي علاج، لا بالقوة ولا بالمهادنة واللطف، للانقسامات بين ثلاثمائة إلى أربعمائة من العرب

المغاربة الذين يتقاتلون يومياً، كما لا يستطيع الحصول منهم على أي عون مالي.

يتم حرق الصودا في طرابلس القديمة وزوارة ويوجد بالقرب من ميناء زوارة ملاحات واسعة جداً، وقد أجرتها جمهورية البندقية لمدة عشرين سنة من الباشا لاستخراج الأملاح، وتعاقدت من الميلانيين لتزويدهم بها. إن عقد الإيجار ينتهي هذه السنة، ولا يرغب الباشا في تجديده وأعلن أنه سيبيع الملح لمن يرغب. وترسل من حين إلى آخر شحنات منه إلى الجزائر والقسطنطينية.

بقدر ما يحرص الباشا على التوفيق والمصالحة، يحرص ابنه على رفض معاقبة هؤلاء الذين يتعرضون بالأضرار للسفن الصديقة في البحر. إن بحرية هذا الأمير القرصان لا تتعدى سنبكاً واحداً (مركب بثلاثة صوار) في حالة سيئة، وثلاثة قوادس هزيلة، وأصبحت القرصنة غير مجدية منذ فترة طويلة.

إن سياسة الباشا هي أن يزوج بناته، والبنات من دم ملكي إلى العلوج الذين رفع مراتبهم، وجعلهم المقربين لديه. وهو يخشى وضع بذور عصيان يمكن أن يلحق به الضرر، إذا ما زوجهن من وجهاء بالمولد، أو الأموال والممتلكات. ويعتقد أنه يجد في العلوج الذين ينقذهم من الوحل ويقربهم إليه الدعم والطاعة.

إنني أتحسر لأنني لم أطلب الإذن من القصر سنة 1783 إفرنجي لمرافقة الباي الذي كان على رأس أربعة إلى خمسة آلاف رجل، وبدأ حملة امتدت إلى ثلاثين أو أربعين موقعاً حول طرابلس لجمع الضرائب. إن الدواخل غير معروفة تماماً، وكانت تلك فرصة

لإعطاء بعض البيانات الأولية المتنوعة عن هذه المملكة الشاسعة، ومن المأمول أن تسمح الظروف للسيد ديفونتين «Desfontaines» بالتنقل فيها كما سبق له التنقل في دواخل الجزائر وتونس. إنني ألوم نفسي لعدم القيام بهذه الجولات، وهو ما يحرمني اليوم من معلومات كان يمكن أن تكون مفيدة لهذه المذكرة.

فرساي، 30 ديسمبر سنة 1785 إفرنجي

فاليير

الانهيـار والفـوضى

أعطى السلام بين أولاد سليمان والحكومة، والذي عمل عليه بكل صبر قنصل فرنسا سنة 1784 إفرنجي، الأمل في انطلاقة جديدة للمبادلات مع الداخل، ومن ثم لازدهار طرابلس. ولكن هذا الأمل استمر لفترة قصيرة، ولم يكن ذلك لأن العرب عاودوا الأعمال العدوانية. إن المسؤولية تقع ـ وهذا هو المقلق ـ على الابن الأكبر للباشا، الباي حسن الذي اغتنم فرصة ضعف والده، ولم يكن لديه من اهتمام إلا إرضاء ملذاته.

«الخمر، والنقود، والشباب، هؤلاء هم أربابه».

كان أثناء نزواته وطيشه يرتكب أعمالاً عنيفة.

«كان خطيراً في حفلات مجونه وعهره، ولم يكن محظيوه في مأمن من غضباته. إن زوجته ستطلق قريباً»[523].

كان يجب توفير نقود ـ نقود كثيرة ـ لهذا الفاسق الماجن المحب للرفاهية، والذي لم يكن يتردد في استعمال أي وسيلة للحصول عليها.

«يريد هذا الأمير الجشع أن يغرق كل شيء ويضحي ببلده،

ومواطنيه، وحتى والده من أجل مصالحه، وجشعه. إن قراصنته لم يعودوا عليه إلا بالخسائر، فحول اهتماماته في المضاربة إلى التجارة... سيء المشورة، مسروق من وكلائه، يسيء استعمال مزاياه وينفق مبالغ ضخمة على مسكنه. إنه يحطم نفسه. وهو نهم دائماً للنقود، وفي الغالب الأعم يلجأ إلى الطرق الأكثر تكلفة للحصول عليها».

إنها ليست مكلفة بالنسبة له، وإنما للآخرين. إن التجار، وأصحاب السفن، وعامة الناس هم الذين يتحملون التكاليف.

«إن تجارة التجار المسلمين الذين يُثرون قوافلنا هي اليوم ضحية عقبات ومصاعب ليس من السهل تخطيها. لقد أصبح الباي تاجراً، ويتدخل في كل الشؤون التي لها علاقة بالتجارة، ويقبل في بعض الأحيان مشاركة رعاياه، ويشاركهم إذا ما أدرك أن عملياتهم ذات عائد مجز. إنه يؤجر كل السفن التي تدخل إلى الميناء، ويطلب من الربابنة رهونات ضخمة. ولا يجرؤ التجار الخواص على استئجار أي سفينة، خشية أن يعاقبهم الباي لمنافسته»[524].

إن إلقاء نظرة على وضع السفن الفرنسية سنة 1786 إفرنجي يسمح بالوقوف على مدى الخسائر. لقد غادرت الميناء ثلاث وخمسون سفينة فرنسية، ولكن أربعة عشر منها كانت خالية وغادرت بدون هدف محدد، وثلاث كانت تحمل «عبيداً وإماء»، وثلاث أخرى تحمل «بعض العبيد».

إذا أضفنا إلى التسع والثلاثين سفينة فرنسية المؤجرة سفن الأمم الأخرى، فالربح لن يكون كبيراً: تسع من راجوزا، وسبع

يونانية، وخمس بندقية، وواحدة سويدية، وواحدة إنجليزية، وواحدة إسبانية، وواحدة نابوليتانية، وواحدة امبراطورية. أي بإجمالي خمسة وستين سفينة:

«استعملت في التجارة الخارجية لنقل السلع من طرابلس شمال أفريقيا في سنة 1786 إفرنجي».

أظهر الميزان التجاري عجزاً ضخماً، فبينما وصلت الواردات إلى مبلغ 2388899 جنيهاً فرنسياً، لم تبلغ الصادرات إلا مبلغ 1432804 جنيه أي أن العجز بلغ 956095 جنيهاً. لحسن الحظ، وجدت وسيلة لمعالجة العجز.

«إن مبلغ 956095 جنيهاً الذي تجاوزت به الواردات الصادرات قدمه الطرابلسيون في شكل وحدات نقدية من السكين، والذي فقد قيمته في بلادهم، بينما كانت قيمته كبيرة في المشرق».

لم يشرح لنا ڤالير، الذي زودنا بهذا الخبر، كيف يمكن لنقد أن يفقد قيمته في البلد الذي صكه، ويكتسب قيمة أكبر في الخارج[525]. سيتضح الأمر سريعاً.

لم يكن من غير المدهش أن نرى خمساً وستين سفينة فرنسية تدخل إلى ميناء طرابلس سنة 1787 إفرنجي، وتغادره أربع وستون. ونلاحظ أن واحدة فقط من هذه السفن، وهي من طولون، كانت مؤجرة لنقل العبيد إلى سميرن، بينما اثنتان كانتا تنقلان حمولة مختلطة: أحداهما من طولون أيضاً تحمل عبيداً وتموراً إلى أثينا، والأخرى من السين، كانت محملة بالبرانيس والعبيد إلى كاني[526] «Canee». هذا يعني أن التجارة مع المشرق كانت تعاني عجزاً

كبيراً. يبقى أن عدد السفن التي وصلت طرابلس في سنة 1787 إفرنجي كان مدهشاً. لقد كانت هذه آخر محاولات البحرية الفرنسية، فقد كانت نتيجة سنوات الثورة التي عاشتها فرنسا ابتداء من عام 1789 إفرنجي، وملحمة نابليون المأساوية التي تبعتها، انتهاء الوجود الفرنسي في البحر المتوسط. أصبحت اليد العليا، منذ ذلك الحين، للإنجليز.

سقطت طرابلس من جانبها في الفوضى. وبينما كان الشعب في فرنسا يلغي الامتيازات، ويقطع رؤوس ملكه وملكته ونبلائه، كان القرمانليون يتقاتلون فيما بينهم، ممهدين السبيل للعرب في الريف للانتقام. في سنة 1788 إفرنجي، بدأت جلبة الانشقاقات في الانتشار داخل الأسرة المالكة؛ الأبناء ضد الأب، والأخوة ضد بعضهم البعض. وفهم سيف النصر شيخ أولاد سليمان أن الوقت قد حان لوضع حد لولاء قبيح ومكلف، فرفض دفع الأتاوة السنوية، وهكذا انتهى السلام[527] بينه وبين الحكومة.

كان يجب أن يتحد العرب مع سيف النصر، ولكن الأعمال العدائية بين القبائل انفجرت، والنتيجة أن طريق فزان لم تعد آمنة[528].

«لم يكن العرب فقط في حالة عصيان وتمرد، وإنما كانت القبائل في حالة حرب فيما بينها، وتقوم بمهاجمة ونهب القوافل وكل المسافرين الذين يلاقونهم، وامتد هذا حتى إلى جوار المدينة على مسافة 25 إلى 30 ميلاً».

في بداية نوفمبر، هوجمت قافلة كبيرة لفزان في طريقها إلى

طرابلس على مسيرة اثني عشر يوماً من المدينة. كما لم تعد المنطقة الساحلية، كذلك، مأمونة، فقد تعرض للضرب تاجر إسباني كان مبعوثاً لشحن سفينة في طرابلس القديمة. وفي بنغازي كان الباي شقيق الباشا محصوراً في قلعته ويطلب النجدة[529]. الوحيدون الذين لم يكونوا يتعرضون لهذه الممارسات هم رجال الدين الذين كانوا بتقواهم، وعلمهم، أو نبل أصولهم يفرضون احترامهم على الكل، وهكذا وصل شريفان، من مرزق إلى طرابلس، يقودان بعض العبيد للبيع في السوق[530].

كان لا بد من عمل عسكري لوضع حد للاضطرابات. استغرقت الاستعدادات وقتاً طويلاً، ولم يبدأ الجيش، الذي كان بقيادة الباي حسن ومعه شقيقه يوسف، التحرك إلا في بداية مارس سنة 1789 إفرنجي. كان الهدف الرئيسي إخضاع أولاد سليمان. كانت أعداد الجيش كبيرة جداً، من خمسة إلى ستة آلاف رجل، من بينهم المحاميد وشيخهم خليفة حليف الولاية، وهو حليف متردد وغير موثوق. كان متردداً لدرجة الخيانة، فقد قدم لسيف النصر بيانات عن المكان، والوقت الذي يجب أن يهاجم فيه ليباغت عدوه. ولكن حسن كان حذراً واستطاع كشف المؤامرة، وهزم سيف النصر. وحملت إلى طرابلس ثمانون رأساً للقتلى في المعركة من جماعة سيف النصر وعلقت على أسوار القلعة. وبدأت مفاوضات سلام بعد هذه المعركة، ولكنها قطعت بعد وقت قصير لادعاء الباي أنه يعيد بناء قلعة «**في مكان ما في الرمال**» كان قد شيدها من قبل محمد باشا، والد علي[531].

كان هذا يحدث في مارس سنة 1789 إفرنجي. هل حصَّل الباي الاداءات المستحقة على العرب؟ لم نُخبر حول هذا، ولكننا نعرف أن طريق فزان بقيت مقفلة. من بين ضحايا انقطاع القوافل المستكشف الإنجليزي سيمون لوكاس «Simon Lucas» الذي كان ينتظر منذ سنة، دون جدوى، ليستطيع السفر لاستكشاف الداخل[532].

أبرز يوسف شخصيته الحقيقية أثناء الحملة العسكرية. إنه لم يعد ذلك المراهق ذو الوجه الجميل، والذي قال عنه ڤاليير قبل خمس سنوات من ذلك التاريخ إنه «**ينبيء بشخصية واعدة**».

«**لقد كانت أساليبه عنيفة جداً مع العرب، وارتكب أعمال نهب وسلب للحد الذي عرض للخطر حياة الباي الذي يعتبره العرب مسؤولاً عن الخسائر التي أحدثها شقيقه**»[533].

ما كان يوسف ليتصرف بطريقة أخرى، إذا ما أراد أن يضع حداً لحياة شقيقه. كانت تصرفاته مقدمة للأحداث الدموية التي لحقت. إننا ندخل الفترة الأكثر سواداً، ومأساوية في تاريخ القرمانليين.

من هم المسؤولون؟ لعلي باشا ثلاثة أبناء «**من أب واحد، وأم واحدة**». أكبرهم حسن وعمره ثلاث وثلاثون سنة وهو ولي العهد المنتظر، سبق وأن قابلناه. أما عن الثاني أحمد، فلا نعرف الشيء الكثير إلا أنه استسلم للملذات والشراب وهو سكير مدمن[534]، ولكنه كان ذا طباع لطيفة والناس يفضلونه[535]. كان من الممكن أن يكون نسخة طبق الأصل من والده لو أن له نفس الذكاء. للأسف! أخبرنا عنه سيمون لوكاس «**إنه ضعيف المدارك والفهم**». أما عن

الابن الثالث يوسف، فعمره تسعة عشر عاماً، وقد سبق لنا اكتشافه، فهو عنيف، عديم الذمة، مصمم لا يتردد أمام الوسائل. ولم يكن قيامه بتجاوزات تعرض حياة شقيقه للخطر من دون وعي، بل كانت وفق حساب، فمن أجل أن يصل إلى السلطة كان عليه التخلص من شقيقيه. لم يكن أحمد الأبله يمثل عقبة كبيرة، ولكن حسن كان أمراً آخر.

من الخطأ، والظلم أن لا نرى في يوسف إلا طامحاً للسلطة. لقد كان ذكياً كذلك، ولم تكن كل الأهداف التي تحركه شريرة. فالولاية كانت سنة 1789 إفرنجي في حالة تحلل لا يجب أن تستمر. كان وضع الأسرة الحاكمة محزناً: والد بدون سلطة، وأبناء مستسلمون للملذات والشراب. كان من المستبعد أن يقوم حسن أو أحمد، إذا ما وصل أي منهما للسلطة، بإنقاذ الدولة. كان يوسف هو الوحيد القادر على ذلك، ويعرف هذا. أصبح الوقت ضاغطاً، وانتشرت المؤامرات في طرابلس، وبدأ الباب العالي يقلق، وربما بدأ التفكير في إرسال حاكم جديد إلى طرابلس تتم تسميته تلقائياً. كان لا بد من العمل بسرعة إذا ما أرادت الأسرة القرمانلية الاحتفاظ بالولاية.

لا بد ليوسف من الاعتماد على حزب قوي إذا ما أراد تحقيق أهدافه. كان في حاجة إلى حليف ثقة. لا يمكن أن يكون هذا الحليف هو سيف النصر الرافض لأي تنازل يشوهه، ولكنه سيكون خليفة، شيخ المحاميد، أو على وجه الدقة أحد فروع المحاميد، وهو فرع بني نوير، والذي وجد ملجأً بعد خيانته عند أولاد

سليمان. لم يتأخر الشيخ خليفة في الانضمام إلى المعسكر المنتصر، فالطمع كان أبرز خصاله، وكان يبيع خدماته غالياً جداً.

في منتصف سنة 1790 إفرنجي، وفي تلك الظروف أجرى يوسف اتصالات مع الشيخ خليفة. جذب انتباهه في رسالة مطولة إلى الحالة الحزينة التي آلت إليها الولاية، وتساءل أنه أمام تدهور السلطة، أولا يخشى تدخل الباب العالي وعزل الأسرة الحاكمة؟ وطلب إليه في النهاية أن يدعم ترشيحه لحكومة المدينة. وأجاب الشيخ بالموافقة[536]. وهكذا كان في إمكان يوسف أن يبدأ العمل.

لم يكن يوسف يسكن القلعة وإنما اتخذ منزلاً في المنشية، وهي ضاحية لطرابلس يملك فيها الباشا بساتين وحدائق، وكان من وقت لآخر يقوم بزيارة لوالديه. لا أحد كان يجهل مقدار الحقد الذي يكنه يوسف لشقيقه، ويحاول إخفاءه تحت مظاهر مسالمة، ولا شيء يوحي بالمأساة التي كانت تتهيأ ويعد لها.

يوم 20 يوليه، ذهب يوسف ـ كالعادة ـ إلى القلعة. لم يكن وحيداً هذه المرة، وإنما كان مصحوباً بعبيده الثقاة والذين أعطاهم تعليماته. توجه مباشرة إلى شقة والدته وأعرب لها عن رغبته في التصالح مع شقيقه. لم تكن للاحلومة ـ وهذا اسم أمه ـ تتوقع أن تجد عند ابنها هذا الاستعداد الطيب، فغمرها الفرح وأرسلت فوراً إلى ابنها حسن، الذي كان في شقة زوجته عائشة، تخبره أن يوسف عندها بدون سلاح، وعلى استعداد لتجديد روابط الصداقة في حضورها، ورجته أن يحضر.

كان رد فعل الباي ـ بداية ـ أن يتسلح بمسدساته وسيفه،

ولاحظت زوجته أن من غير اللائق أن يدخل بسلاحه عند والدته. كما كانت تخشى أن يتخذ يوسف ورجاله من ذلك ذريعة لارتكاب بعض أعمال العنف. انصاع الباي مرغماً لحجج زوجته، وعندما هم بمغادرة الحجرة ارتمت عائشة عند قدميه، فقد غيرت رأيها تحت تأثير إحساس شنيع، ورجته أن يأخذ معه سيفه. وهو ما فعل.

بمجرد دخول الباي عند أمه لاحظت السيف في حزامه، وطلبت إليه أن يتخلص منه قبل التحادث مع أخيه. وبالفعل وضع الباي سلاحه على نافذة قريبة. عندها أصبحت للاحلومة.

«مقتنعة بسلامة نوايا الباي، ولكنها أخطأت تماماً فيما يتعلق بنوايا سيدي يوسف، وأخذت الأميرين على صوفا وجلست بينهما، وأخذت يداً لكل واحد منهما ووضعتهما بين أيديها ونظرت إليهما بالتناوب، وهنأت نفسها برؤيتهما متحدين في ود».

لقد قصت هي نفسها تفاصيل ما حدث بعد ذلك.

أبدى حسن دهشته. فمن جانبه لم يكن يحمل أي حقد لأخيه. بالعكس، لما لم يكن لديه أطفال ذكور، فقد اعتبر إخوته كأبناء له، وينوي أن يعاملهم كذلك عندما يرتقي العرش. عبر يوسف عن رضاه. ولماذا لا يؤكدان صداقتهما بالقسم على القرآن؟ أجاب الباي **«من كل قلبي، أنا مستعد»**. عندها وقف يوسف وأمر بصوت عال بإحضار الكتاب، وكانت هذه هي العلامة التي اتفق عليها مع عبيده. بدل القرآن أحضر العبيد مسدسين بذخيرتهما، ودون أي اعتبار لوالدته التي كانت لا تزال جالسة بجانب الباي، أطلق الرصاص على أخيه.

في رد فعل تلقائي مدت للاحلومة ذراعها لحماية ابنها، ولكن محاولتها كانت غير مجدية، فقد مزقت الشظايا يدها. أصيب الباي في جنبه وقام مهرولاً نحو النافذة حيث يوجد سيفه وأمسك به، ولحظة محاولته توجيه ضربة إلى قاتله، أفرغ فيه هذا الأخير المسدس الثاني. وسقط حسن في بركة من الدماء بعد أن اخترقت الطلقات رقبته. وقبل أن يسلم الروح، وجد القدرة ليصرخ في وجه أمه:

«آه سيدتي، أهذه هي الهدية الأخيرة التي تحتفظين بها لابنك الأكبر؟».

مات حسن وهو يعتقد أن أمه غدرت به. يا لها من شناعة! أما يوسف فقد اكتفى بالقول لعبيده:

«هذا هو الباي، أجهزوا عليه».

سحب العبيد الباي من الموضع الذي وقع فيه، وكان لا يزال يتنفس، وأفرغوا فيه أسلحتهم وأجهزوا عليه.

على أصوات الطلقات النارية، انتزعت عائشة نفسها من النساء اللاتي كن يحاولن الإمساك بها، ودلفت إلى الصالون وضمت جسد زوجها الدامي، وفقدت للاحلومة الوعي بعد أن ألقت بنفسها على الجثة، بينما انكب خمسة من العبيد على جثمان الباي ضرباً بالسيوف، ثم هربوا.

كانت زوجة الباي في حالة يأس وألم، وقامت بخلع كل حليها، وملابسها الرفيعة، وانتزعت من على أحد عبيدها برنوساً

متواضعاً ولبسته مثلما يفعل العبيد، وطلبت أن ينثر عليها الرماد. وعلى هذه الحالة جرت عند الباشا، وأوضحت له أنه إذا كان لا يريد أن تنتحر هي وأطفالها بالسم، فليأمر حالاً بالسماح لهم بمغادرة القلعة، قائلة:

«لا أريد أن أرى الحوائط، أو أن أمشي على الدرج المغطاة بدم الباي».

لم ينته يوسف بعد من إنجازاته الدموية، إذ بينما كان خارجاً من القلعة التقى فجأة بالكيخيا الباي عبد اللّه، وهو ابن بالتبني لأحمد باشا ومتزوج من ابنته. استوقفه هذا العجوز الثمانيني وسأله ماذا يفعل، فما كان من يوسف إلا أن أغمد خنجره في قلب الكيخيا وأمر برمي جثته في الشارع. كان الطريق سالكاً، فقفز على ظهر حصانه، وأسرع متبوعاً بعبيده نحو أبواب المدينة. وقد روى مترجم القنصل البريطاني أنه رآه وملابسه ملطخة بالدماء يجري بحصانه بكل سرعة ليتفادى غضب الناس.

كان الغموض سيد الموقف في طرابلس.

«حالما علم الناس بمقتل الباي. تجمعوا بأعداد كبيرة في الشوارع؛ العرب والقبليون ببنادقهم الطويلة، وخناجرهم، والمغاربة مسلحون بالمسدسات والسيوف. كان منظراً مرعباً، وكل واحد يخشى أن يكتشف في جاره عدواً».

أما المواطنون العاديون فلم يكونوا يفكرون إلا في الهرب، وتدافعوا نحو الأبواب لترك المدينة مع أسرهم يسوقون حيواناتهم أمامهم. كما لجأ كثيرون إلى قنصلية بريطانيا العظمى[537].

مَثَّل ما حدث فضيحة كبيرة في طول البلاد وعرضها، وكان الكل يتوقع أن يعاقب الباشا ابنه قاتل شقيقه بقسوة، ولكن الأب أظهر تسامحاً غير متوقع واستغرب كثيرون هذا الموقف لدرجة شك البعض ومن بينهم نائب قنصل فرنسا في تواطؤ[538] الباشا. في موجة الاحتجاجات التي غمرت الناس اختفت الحساسيات القديمة. وهكذا نرى سيف النصر بجانب سليم آغا مصراتة لتهديد سلطة فاسدة.

حصل يوسف من أبيه على الإذن للقيام بحملة ضد المدينة المتمردة (مصراتة). كان أحمد الذي أصبح الباي بموت أخيه هو الذي يجب أن يقود العمليات، ولكنه رفض بحجة ـ ولم يكن ذلك بدون سبب ـ إنه لا يمكن القيام بالحرب قبل محاولة التصالح. ولكن يوسف لم يبال وغادر متبوعاً بخليفة (شيخ المحاميد) وذويه من العرب. ومرت فترة اعتقد فيها أن الشيخ خليفة سيتراجع، ولكنه تأخر في القلعة لينتزع من الباشا ثمن خدماته. وكان على الباشا ـ كما لاحظ ريتشارد توللي ـ أن يستجيب لمطالب الشيخ؛ فقد كان من الأهمية البالغة أن ينضم هذا إلى جانبه، وخصوصاً أن لا ينضم إلى جانب سيف النصر. هذه المرة، وبالرغم من المخاوف أظهر شيخ بني نوير أنه مخلص، وفي المعركة التي تمت المواجهة فيها مع سيف النصر قتل الشيخ خليفة أحد أبناء سيف النصر، وأحضروا رأسه إلى طرابلس[539].

منذ وفاة حسن، أقام يوسف في القلعة، وكانت مشاجراته مستمرة مع شقيقه، وأصبح التعايش بينهما مستحيلاً. يوم 2 مايو

سنة 1791 إفرنجي، ترك يوسف القصر إلى المنشية حيث تكونت مجموعة صغيرة من المناصرين له. وكان عندما يذهب إلى المدينة، يكون متبوعاً بمائتي رجل مسلح، كما كان الباي يتخذ إجراءات أمن غير معهودة في السابق، ويحمل السلاح بشكل دائم وأعلنت المدينة وقوفها بجانبه. اضطر الباشا للخروج من لا مبالاته، وأصدر أوامره إلى ابنه المتمرد بالتخلي عن سلاحه، ولكن دون جدوى. في يوم 20 يونيه سنة 1791 إفرنجي، تقدم يوسف لمسافة في مدى إطلاق المدافع على رأس ستمائة من الفرسان، ولكنه أمام تصميم سكان المدينة اضطر للتراجع. أكثر من ذلك استولت مفرزة من مائتي فارس من فرسان الباي على المزرعة حيث كان يقيم يوسف. وقد حاول المتمرد دون نجاح أعادة الاستيلاء على الموقع وفقد ثمانية قتلى.

بالرغم من كل ما سبق لم يقلع يوسف عن المحاولة. ففي يوم 26، ظهر من جديد وقد انضم إلى فرسانه الستمائة مجندون جدد. مر اليوم في مناوشات، وكان من الواضح أن المتمردين ليسوا بالكثرة التي تمكنهم من حسم الموقف. وهكذا عندما أعلن الباشا في نفس اليوم منح العفو لكل من يسلم سلاحه خلال أربع وعشرين ساعة، وتوعد الآخرين بالنفي ومصادرة أموالهم تخلى كثير من المتمردين عن يوسف الذي لم يكن أمامه إلا الاستسلام، فأرسل إلى والده طالباً العفو، ولم يجرؤ هذا الأخير على منحه له، ولكنه حافظ عليه بأن أمره بالهرب فوراً[540]. هكذا انتهى الفصل الأول.

لم يعف الباشا عن ابنه المنفي إلا بعد مرور سنتين، وفي 4

يونيه سنة 1793 إفرنجي، عينه حاكماً لمدينة بنغازي وبدا المستقبل أقل سوءاً، فحركة القوافل ستتمكن من معاودة نشاطها قريباً. خاب الأمل بعد مدة قصيرة، فبعد سبعة عشر يوماً من قرار تعيينه لم يستلم يوسف موقعه الجديد، بل ظهر أمام طرابلس[541]. لقد استجاب لدعوة مزارعي المنشية الفقراء الذين أرهقتهم أعمال الغصب والابتزاز التي كانوا ضحاياها[542]. تقوى يوسف بالدعم الشعبي وكان على رأس ألفين إلى ثلاثة آلاف رجل جلهم من رجال الشيخ خليفة وبدا واثقاً[543] من النصر هذه المرة. فقام بمحاصرة المدينة وقطع الاتصالات وحصر قوافل الداخل في ثلاثة مواقع في المدينة. لن يتمكن الباشا العجوز المحصور في قصره من المقاومة لمدة طويلة، وسيكون يوسف عما قريب هو السيد.

فجأة، يوم 24 يوليه، عم الذعر، بسبب دخول أسطول بحري عسكري إلى الميناء[544]، مكون من ست سفن عسكرية: اثنين من السنابك كل منها مسلح باثني عشر مدفعاً، ومركبان مسلح كل واحد منها بعشرة مدافع، وغليونيتان مسلحة كل واحدة منها بأربعة مدافع. وكانت هذه السفن مصحوبة بسفينتي نقل إحداهما سفينة شراعية بندقية، والأخرى شراعية إسبانية. وكان على متن سفن النقل حوالي ثلاثمائة جندي متطوع أغلبهم من الأرناؤوط، وذخيرة. وتحقق ـ أخيراً ـ ما كان يخشاه يوسف منذ مدة طويلة، فقد عينت القسطنطينية باشاً جديداً هو علي برغل. وهو جيورجي صهر داي الجزائر[545]، وكان له سند في الباب العالي فأخوه كان نائب[546] قائد البحرية (القبطان باشا). كان علي برغل يحمل فرماناً

من السيد الأعظم (السلطان) يعلن عزل علي القرمانلي ويعطيه سلطات مطلقة. في الغداة، يوم 30 يوليه، هبط إلى البر واستلم المدينة دون أي مقاومة[547].

لم يكن يوسف يشك في أن ما جرى، والذي بدا كما لو أنه قضى على كل طموحاته، سيخدم هذه الطموحات. فقد أدى ظهور التركي إلى المصالحة بين الباشا العجوز وأبنائه، بينما قام الشعب كله ضد هذا الذي يصفونه بـ«المغتصب». اكتسب القرمانليون ـ الذين كانوا بالأمس مكروهين ـ شعبية مفاجئة، وبينما انسحب علي باشا مع ابنه أحمد إلى جربة بقي يوسف ليقود المقاومة[548].

أصبح علي برغل كسلفه محاصراً داخل طرابلس، ولكن في حوزته وسائل أكثر قوة. بعد أربعة عشر شهراً من الحصار، تمت هزيمة العرب المحاصرين للمدينة بعد أن تعرضوا لقصف هائل من داخل المدينة.

«لقد تركوا أميرهم الذي اضطر للهرب نحو الجبل، واستسلم في سرية يوم 1 سبتمبر سنة 1794 إفرنجي».

هل كانت هذه نهاية الأسرة القرمانلية؟ ليس بعد. لقد ارتكب علي برغل الخطأ الشائع بين رؤساء الدول الذين يعميهم أول نجاح، فبحجة أن جربة كانت سابقاً تابعة لطرابلس قرر الاستيلاء عليها، ونزلت فيها قواته سراً ليلة 28/29 نوڤمبر سنة 1794 إفرنجي. بوغت حاكم الجزيرة ولم يكن لديه الوقت لتنظيم أي مقاومة، ولكنه نجح في الهرب والوصول إلى الشاطىء، وعند وصوله رأى قرصاناً مبحراً استطاع اللحاق به بواسطة قارب، وهكذا

وصل إلى صفاقس. ومن هناك أسرع بإرسال مبعوث حاملاً الخبر إلى العاصمة. لا يستطيع باي تونس أن يتساهل في هذا الخرق للقانون دون أن يعرض مملكته للخطر، واكتشف فجأة كم كان مصيباً عندما منح اللجوء لعلي باشا القرمانلي. إن العمل الطائش الذي قام به علي برغل منحه الفرصة ليطرح نفسه مدافعاً عن الباشا المسلوب. وهل كان الفرمان الذي استعمله المغتصب للاستيلاء على السلطة صحيحاً؟. وهل حرص على إخطار الباب العالي[549] عندما هاجم جربة؟. بدون أن يهتم باي تونس نفسه بما يمكن أن يفكر فيه السلطان، قام بتسيير جيش من عشرين ألف رجل مزود بمدفعية ميدان[550] للزحف على طرابلس.

تقوى الجيش في طريقه بانضمام القبائل العربية التي أعلنت مناصرتها للقرمانليين.

يوم 14/1/1795 إفرنجي، ظهرت على المرتفعات الغربية لطرابلس[551] قوة تقدر بثلاثين ألف رجل، قامت بمحاصرة المدينة، ولكن مدفعية الأسوار أوقفت التونسيين وألحقت بهم خسائر. وبينما كان التونسيون مترددين في القيام بالهجوم، أصيبوا بالدهشة صباح يوم 29 عندما رأوا الأسوار مغطاة بأناس لم تكن تصرفاتهم عدوانية. بالعكس، أعلن هؤلاء أن المغتصب هرب ليلاً[552]، وأخذ معه كل النقود والأشياء التي استطاع اغتصابها من السكان[553].

هكذا انتهى فاصل استمر بالضبط سنة ونصفاً. وتمت إعادة الأسرة القرمانلية إلى السلطة في يوم هرب علي برغل. كان الباشا

العجوز مريضاً ومنهكاً منذ وفاة زوجته للاحلومة، ومن ثم تنازل لصالح ابنه أحمد، وأصبح يوسف هو الباي[554].

هل مثل هذا حلاً وتسوية؟ حتى قبل أن نعرف الوقائع اللاحقة يمكننا التخمين بأن المشكلة لم تنته، فيوسف لا يمكن أن يقبل بدور الثاني، ويرى أن عليه التخلص من أحمد. فعل هذا بأبسط الطرق. هذه المرة لا داعي لكارثة، بل أخذت الواقعة شكل تمثيلية مضحكة. كان يوسف يتمتع بميزتين في مواجهة شقيقه الأكبر: أولهما الهيبة التي اكتسبها من مقاومته للمغتصب، والثانية العجز الملاحظ الذي كان يظهر به أحمد. يصف سيمون لوكاس ـ وهو مراقب نبه ـ الوضع كالآتي:

«كان الباشا، سيدي أحمد، ضعيف الإدراك مستغرقاً كلياً في ملذاته، وكان في حالة سكر في غالب الأحيان. . . سيدي يوسف، بعكس شقيقه تماماً، لا يشرب ولا يدخن. . . وقد طلب إليه وجهاء الشعب مراراً ـ وبشكل سري ـ أن ينقذ البلاد من الدمار الكلي».

كان يوسف ينتظر انسحاب الجيش التونسي والذي صاحبه القيام بأعمال سلب ونهب. ولم يقم بالتنفيذ إلا في شهر يونيه.

«يوم 10 الجاري، ذهب الباشا للنزهة على حصانه ومعه عدد كبير من المرافقين، ودعا شقيقه ليتبعه. أعطى يوسف الأوامر لقواته لتستعد لهذا الغرض، عندما يقول له أصدقاؤه أن اللحظة حلت، تقفل الأبواب خلف هذا السكير، وينصب نفسه باشا. وهو ما تم؛ في أقل من ساعة وجد يوسف نفسه جالساً على العرش»[555].

روى المستكشف البريطاني الوقائع بطريقة مضحكة. لقول

الحقيقة، لم تنته الأمور دون إراقة بعض الدماء. لقد حاول حراس باب القصر التصدي لأوامر يوسف، وتم تبادل لإطلاق النار، وقتل ثلاثة من رجال يوسف. أما عن الكيخيا المسؤول عن الأمن فقد تم احتجازه أولاً سجيناً، ثم أذن يوسف ـ بشهامة ـ بأن يلتحق بأحمد الذي عين حاكماً لدرنة[556].

إن سنة 1795 إفرنجي سنة مفصلية في تاريخ طرابلس، فبعد سنوات من الفوضى والبؤس، افتتح يوسف عهداً وصل بالولاية إلى أوجها.

من جانبه عاش الحوض التشادي الشريك التجاري الرئيس لطرابلس في الداخل منعطفاً، حدثت فيه تغيرات كبيرة. لم تعد الخريطة السياسية والأتنية هي تلك التي رأيناها في النصف الثاني من القرن السادس عشر. لقد تغيرت الصورة. فبجانب بورنو «العظيمة» التي أسسها إدريس الأمة، نلاحظ مملكة أخرى تعد بأن تكون منافساً خطيراً لجارها الغربي، هي الواداي. ودول أخرى أعطاها تبنيها للإسلام تلاحماً أكبر ومن ثم قوة أكبر: أولاً الباقيرمي، ثم الماندارا، وأخيراً إمارات الكوتوكو.

تكون الصورة متكاملة، إذا ما قلنا أن المنطقة في جنوب تشاد الواقعة في غرب اللاجون والشاري شهدت تدفق موجتين من الهجرة: الأولى قادمة من الغرب جاءت بالرعاة من الفولبي إلى سهول دياماري، والأخرى تقدمت في الاتجاه المعاكس وقادت العرب إلى بلاد الكوتوكو حتى حدود الماندارا.

تغيرات جوهرية في طرابلس، وفي حوض تشاد وكذلك في

أوروبا. حيث بدأت الأمم في الغليان تحت تأثير صدمة الثورة الفرنسية. وهكذا في تاريخ المبادلات شمال جنوب انتهى عصر، وبدأ آخر.

أنجامينا

18 مارس 1991 إفرنجي

المراجع

1 ـ المراسلات الرسمية

- Grande Bretagne: Public Record Office: State papers (Chancerey lane, London) SP Foreign Office (Kiew, Surrey) FO.
- France: Archives nationales. Fonds des affaires étrangères.
  * Sous collections B' et B''' AE B' AE B'''.
  Archives du ministère des relations extérieures.
  * Correspondance consulaire et commerciale AEccc.

ب ـ كتب

1 ـ العصور الوسطى

- CUOQ, (Joseph M.), Recueil des sources arabes concernant l'Afrique orientale du VIII^{e} au XVI^{e} siècle. Paris. CNRS, 1975.
- IBN KHALDÛN, Kitâb al'ibar, Dar al Kitâb al lubnâni, Beyrtouth, 1968, 7 vol.
- MAS LATRIE (Jacques-Marie-Joseph-Louis, comte De), Traités de paix et de commerce entre les Princes chrétiens et les États barbaresques , Paris, 1872.

  Relations et commerce de l'Afrique septentrional avec les nations chretiennes au Moyen Age. Firmin Didiot, Paris, 1886.
- AL YA'QÛBI. Kitâb al buldân (vers 891), édit, de Goeje. Leyde, 1882.

- ALI MUSTAFA AL MISRÂTI, Ibn Ghalbûn, mu'arrikh Libya, Dâr al fikr Tarâbulus, 1972.

- ANANIA (Giovanni Lorenzo), L'universale Fabrica del mondo, overo cosmographia, traduction de Dierk Lange, dans Les cahiers d'histoire mondiale, vol. 14, 1972, N° 1 et 2.

- AL ANSÂRI (Ahmad Bek al Nâ'ib), Al manhal al'adhb fî ta'rîkh Tarâbulus al gharb, Al Aasitâna, 1899. Réédité à Tripoli, Maktabat al Farajâni, s.d.

- AL BAHLÛL (Husayn bnu Ahmad), mort en 1701. Ouvrage perdu, mais utilisé par Ibn Ghalbûn et Mustafa Khûja. Voir Al Ansâri, p. 273, et 'Ali Mustafa al Misrâti, p.50.

- BÉROT (Jean) ou Joannes Etrobius, Commentarium seu potius diarium expeditionis tunetanae, Lovanii, 1547, réédité par Cornelius Scepperus en 1554.

- BOSIO (Jacques), ou Bosius, Istoria della sana Religione de San Giovanni Gierosolimitano, Rome, 1594, 2 vol. Adaptation française de P. Boyssat.

- BOYSSAT (P.), Histoire des chevaliers de l'ordre de l'hopital de Saint Jean de Hierusalem par P. Boyssat, seigneur de Licieu, conseiller du Roi, Lyon, 1612.

- BRANTÔME, Œuvres complètes de Pierre de Bourdeille, abbé séculier de Brantôme et d'André, vicomte de Bourdeille, édition, revue et augmentée d'après les manuscrits de la bibliothèque royale avec notices littéraires par J.A.C. Buchon, Tome 1, Des hommes. Grands capitaines français et étrangers, Auguste Desvez, Paris, 1838.

N.B.: Brantôme est né en 1540, mort en 1614.

- CALVETE DE ESTRELLA (Juan Christoval), ou Joannes Christophorus Calvetus Stella, De Aphrodisio expugnato, édité par Cornelius Scepperus en 1554. (1re éd. Anvers 1551).

- CLONARD (Teniente general Sotto Conde De). Historia organica de las armas de infanteria y caballeria españolas desde la creacion del exercito permanente hasta el dia. Madrid. 1851 - 1859, 16 vol.

  Album de la caballeria española desde sus primitivos tempos hasta en dia, Madrid, 1861.

- CORNELIUS SCEPPERUS, Rerum a Carolo V Caesare Augusto in Africa bello gestarum commentarii elegantissimis iconibus ad historiam accommodis illustrati, Anterpiae. anno M.D. L.IIII. (1554).

- DAN, Histoire de Barberousse et de ses corsaires, par le R.P. Pierre Dan, ministre et supérieur du couvent de la Trinité et Rédemption des Captifs, Paris, 1637.

- DAPPER (D.M.), Description de l'Afrique, traduit du flamand, Amsterdam, 1686.

- AL FISHTÂLI ('Abd al 'Aziz, mort en 1622), Manâhil al Safa, édité par A. Ganûn, Tetuân, 1961.

- IBN FURTÛ (al imâm Ahmad), kitâb ghazawât al sultan Idris Alawma fî Bornû (1564 - 1576), édition critique de Dierk Lange, Franz Steiner Verlag Wiesbaden, Stuttgart, 1987.

- IBN GHALBÛN (Abu 'Abd Allâh Muhammad bnu Khalîl Ghalbûn), Al tidhkâr fî man malaka Tarâbulus wa mâ kâna bihâ min al akhbâr, B.N., ms arabe 1889. (Ibn Ghalbûn est mort en 1763).

- GIOVIO (Paolo), ou Paulus Lovius Novocomensis, évêque de Nucera, Historiae sui temporis, Florence 1550 - 1552 (2 tomes en un volume), Paris, 1553 - 1554 (2vol.). Des fragments du livre XXXIII. De Caroli V in Tunetum expeditione, ont été édités par cornelius Scepperus. en 1554. Ce sont ces fragments qui ont été utilisés ici.

- GIRARD (D.), Histoire chronologiques du royaume de Tripoly de Barbarie (1685), B.N. Fonds français, ms 12219 - 12220.

- GRAMMONT (H.D. De). Histoire des rois d'Alger, par Fray Diego de Haedo, traduit et commenté par H.D. de Grammont, Alger, 1881.
- HAEDO, Topographia e historia general de Alger, dirigid a al ilustrissimo señor Don Diego de Haedo. Arcobispo de Palermo, Presidente y capitan general del Reyno de Sicilia. Por el maestro fray Diego de Haedo Abad de Fromesta, de la ordon del Patriar casan Benedito, natural del Valle de Carrança, Valladolid. Año M. DC. XII (1612).
- HÂJJI khalîfa (Mustafa bnu 'Abd Allâh. surnommé). The history of the maritime wars of the Turks. translated from the Turkish of Hajji Khalifah by James Mitchell, London, 1831. (- Hâjji Khalîfa est né en 1608, est mort en 1658).
- HAKLUYT (Richard). The princicpal navigations, voyages, traffics and discoveries... of the English nation, made by sea or overland, to the remote and farthest distant quarters of the Earth, at any time within the compass of these 1500 years: Divided into three general volumes, according to the position of the Regions whereunto they were directed. By Richard Hakluyt, master of Arts, and sometimes student of Christchurch. Oxford. Imprinted at London by George Bishop, Ralph Newberie and Robert Baker, 1598.
- HAMMER. Histoire de l'empire ottoman, tradtui de l'allemand par M. Dochez. Paris, 1841. (1e éd. Paris 1835).
- AL HASNÂWI (Habîb Wadâ'a). éditeur du Ta'rîkh Fazzân de Mustafa Khûja.
- Hitti (Philip K.). History of the Arabs, MacMillan. London, 1949.
- JURIEN DE LA GRAVIÈRE (Jean Edmond, vice-amiral, membre de l'institut). Les derniers jours de la marine à rames, Plon. 1885, Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Grand. Plon, 1887.
- LANGE (Dierk). Voir Ibn furtû.

- LEO AFRICANUS. La descrittione dell' Africa, in Primo volume delle Navigutioni e Viaggi Venise 1550.

Traduction française de Jean Temporal, Historiale description de l'Afrique tierce partie du monde, Anvers, 1556,

Traduction anglaise de John Pory, The history and description of Afirca, London, Hakluyt Society, 1896, 3 vol.

- MANTRAN (Robert), Histoire de la Turquie, coll. Que sais-je? PUF, 1952.
- MARMOL (Luis del Marmol y Carvajal en su Obra). Description general de Africa, Grenade, 1573.
- MARTIN (B.G.), Maï Idrïs of Bornu and the ottoman Turks, 1576 - 1578, international journal of Middle East studies, 3, 1972.
- MASSON (Paul, prof. d'histoire et géographie économiques à l'université d'Aix en Provence), Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1570 - 1793), Hachette Paris, 1903.
- AL MISRÂTI, voir 'Ali Mustafa.
- MITCHELL (James), voir Hâjji Khalîfa.
- MORGAN (A.), A complete history of Algiers, London, 1731.
- MUHAMMAD BNU MAS'ÛD, Mawjaz ta'rîkh Libya al hadîth, 8e éd. Tripoli, 1959.
- MUSTAFA BNU 'ABD ALLÂH, Voir Hâjji Khalîfa.
- MUSTAFA KHÛJA (Mustafa al Misri, dit Khûja, ce qui veut dire «le savant» en turc, mort en 1798. Voir Al Ansâri, p.312).

Ta'rîkh Fazzân, remis en 1793 au vice-consul de France, Anne Charles Froment de Champ Lagarde, copié par lui, puis perdu en 1799, retrouvé à la bibliothèque de Malte. Une autre copie se trouve à Paris. Édition critique de Habîb Wadâ'a al Hasnâwi, Centre d'Édute Historiques, Tripoli, 1979.

- NICOLAY, Les quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales de Nicolas de Nicolay Dauphinois,

seigneur d'Arfeuille, varlet de chambre et géographe ordinaire du Roy, Avec les figures au naturel tant d'hommes que de femmes selon la diversité des nations et de leurs port, maintien et habit. A Lyon, par Guillaume Roville, avec privilège du Roy, 1568.

- NORTH (Anthony) and HOGG (Ian V.), The book of guns and gunsmiths. Burlington Books, 6 Blundell st., London, 9BH, 1977.
- PASTOR (Dr. Louis), Histoire des papes depuis la fin du Moyen Age, traduit de l'allemand par Alfred Poizat. Plon. 1925.
- PERROT (Nicolas, sieur d'Ablancourt), L'Afrique de Marmol, Paris, 1667.
- PORY (John), voir Leo AFricanus.
- RANG (Sander) et Denis (Ferdinand), Histoire de Barberousse, 2T. Paris, 1837.
- RAYNAL (Abbé Guillaume) Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens de l'Afrique septentrional, Ouvrage posthume, Paris, 1826.
- ROSEO (Mambrino), Histoire de Naples, cité par Girard, I.f. 115.
- ROSSI (Ettore), Storia di Tripoli, Roma, 1968.

  Traduction arabe de Khalîfa muhammad al Tilîsi, Dâr al thaqâfa, Beyrouth, 1974.
- SALAZAR (Pedro de), Historia de la guerra y presa de Africa (1549), Naples, 1552.
- SANDERS (Thomas), The voyage made to Tripolis in Barbarie in the year 1583 with a ship called the Jesus, wherein the adventures and distresses of some Englishmen are truly reported, and other necessary circumstances observed. Written by Thomas Sanders. Dans Hakluyt, T. 1, p. 184 à 191.
- SANADOVAL (Don Fray Prudencio de Sandoval, su Coronista obispo de Pamplona), Historia de la vida e echos del emperador

Carlos V maximo fortissimo. Secunda Parte: Tratante en esta secunda parte los echos desde ez año 1528 hasta el de 1557. Año 1614, en Pamplona

Traduction partielle dans Sander Rang.

- SCEPPER, voir Cornelius.
- SEIGNOBOS (Christian), les systèmes végétaux pré-coloniaux, Annales de l'université du Tchad, Sept. 1978. N° spécial.
- SOTTO, voir Clonard.
- TEMPORAL, (Jean), voir Leo Africanus.
- VILLEGAGNON (Nicolas Durand de), Caroli V Caesaris augusti expeditio in African ad Argieram. per Nicolaum villagagnonem, equitem Rhodium, cum ejus urbis pictura.

Composé à Rome, où Villegagnon, blessé, fut obligé de s'arrêter, et adressé à G. du Bellay, Publié à Paris en 1542. Tradcution française envoyée par Villegagnon à Mr. de Langest publiée à Paris par de Gourmont en 1542.

Original latin édité par Cornelius Scepperus en 1554 (Utilisté ici).

- Traduction de Tolet, avec texte latin, Paris,. 1874.
- WOOD (Alfref Cecil). A history of the Levant company, London, 1935.
- AL ZAYYÂNI, Turjumân al mu'rib, traduction de R. Le Tourneau dans Revue de l'Occident méditerranéen. N° 23. 1er semestre 1977.

3 ـ القرن السابع عشر

- AL ANSÂRI, déjà cité.
- ARVIEUX (Chevalier d'). Mémoires du Chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roi à la Porte, consul d'Alger, de Tripoli et autres échelles du Levant, mis en ordre et édité par le R.P. Jean-Baptiste Labat, de l'ordre des Frères Prêcheurs, Paris, Delespine, librairie rue Saint Jacques,M. DCC. XXXV (1735).

- BRADLEY (Nathaniel), A narrative of the revolution in Tripoli in November and December 1672, sent by consul Bradley to Tanger, and from thence received July 3d 1673. SP 71/22, Part 1, f. 68 sq.
- DAN, déjà cité.
- DELALANDE, État du gouvernement présent de Tripoly et du commerce français qui se fait dans l'étendue de cette Régence, 22 déc. 1698, Archives nationales Marine, B7 220.
- GIRARD, déjà cité.
- LE MAIRE ou Lemaire, Mémoire pour M. Delagny, 8 nov. 1686, AE B[1] 1088.
- MASSON (Paul), ouvrage de 1903, déjà cité.

  Histoire du commerce français dans le Levant au XVII[e] siècle, Hachette, 1896.
- MUSTAFA KHÛJA, déjà cité.
- NARBROGH, ou NARBROUGH (Admiral John), A narrative of my burning the enemy's ships of war in their own port of Tripoli, on Friday, the 4/14 th of January 1675/6, SP 71/22,. Part 1, f 213 sq.
- PÉTIS DE LACROIX, «secrétaire et interprète du Roi en langue arabesque et turque», Tripoly de Barbarie, Bibliothèque Nationale, Français, Nouvelles acquisitions, ms. 7488.
- ROSSI, déjà cité.

4 ـ القرن الثامن عشر

- ANDRÉ (D') ou DANDRÉ, Mémoire sur le commerce que les Français pourraient établir à Tripoly de Barbarie, 10 août 1782, AE B[1] 1108.
- AL ANSÂRI, déjà cité.
- CAULLES, Journal, 1752 à 1754, AE B[1] 1096.
- CHAMP LAGARDE (Anne Charles), Mémoire concernant les

troubles du royaume de Tripoly, 8 juillet 1791. AE B[1] 1113.

- EXPILLY, Mémoire sur le commerce de Tripoly, 30 déc. 1715, AE B[1] 1092.
- Frank (Dr. Louis), Tunis, description de cette Régence. 1816.

  Notes manuscrites éditées par J.J. Marcel dans l'univers pittoresque 1[re] livraison, tunis.
- FRASER, Some account of the trade carried on by the Tripoline Moors to the inland parts of Africa, 24 Aug. 1767. FO 76/2. f. 166 - 179.
- GRAY (Richard) Christian traces and a fransciscain in the Central Soudan, 1700 - 1711, dans jouranl of African History, VIII, 3, 1967, p. 383 à 393.
- GUYS (Consul Pierre Alphonse), Mémoire sur le consulat de la République, précédé de l'état historique et politique de cette région, 14 messidor an 5.

  Mémoire sur le commerce de Tripoli de Barbarie, 14 messidor an 5, AEccc Tripoli de Barbarie, T. 29, f. 144 à 150 et 162 à 167.
- HICKEY (Raymond, O.S.A.), Heralds of Christ to Bornu. History of the Prefecture and Diocese of Maiduguri, 1700 - 1978, Augustinian Missionaries, Diocese of Maduguri, Silver Jubilee, 1978.
- LANCEY (De), Notte concernant le gouvernement actuel de Tripoli de Barbarie, 20 mars 1766, AE B[1] 1100.

  Observation additionnelle à celle de la Chambre de Commerce de Marseille sur le projet de l'établissement d'une maison française à Tripoly de Barbarie, 29 février 1767, AE B[1] 1101.

  Mémoire, 6 janvier 1772, AE B[1] 1103.

  Mémoire, 5 janvier 1773, AE B[1] 1103.

  Mémoire concernant la Régence de Tripoly de Barbarie et le consulat de France qui y est établi, 1775, AE B[3] 305.
- LODINGTON (Benjamin), A narrative of what passed at Tripoli

when the French squadron commanded by commodor Mr. Gran' pré coming to said place and bombarding the same place, Aug. 1728, SP 71/22, 3d part. f. 123 sq.

- MASSON (Louis), Histoire du commerce français dans le Levant au XVIII[e] siècle, Paris, Hachette, 1911.
- MUSTAFA KHÛJA, déjà cité.
- RAYNAL, (Guillaume Thomas), Mémoires divers, 1784, B.N., Fonds français, ms. 6429.
- TOLLOT, Nouveau voyage fait au Levant les années 1731-1732, Paris, André Cailleau, M. DCC. XLII (1742).
- VALIÈRE: Journal, 1756, AE B[1] 1098.
- VALIÈRE: Mémoire sur Tripoly de Barbarie, 30 déc. 1785, AE B[1] 1112.
- ANONYME, A complete History of the Piratical states of Barbary, viz. Algiers, Tunis. Tripoli and Morocco, by a gentleman who resided there many years in a public character, London, Printed for R. Griffiths, at the Duncial, in St. Paul's churchyard, 1750.

الهوامش

الفصل الأول

(1) Zeltner, 1980, p. 34-37.
(2) Mas Latrie, Traités, p.215.
(3) dito, p.222.
(4) dito, p.210.
(5) dito, p.221.
(6) dito, p.215.
(7) Mas Latrie, Relations et commerce, p. 131-173.
(8) Ibn Khaldoun, dans Cuoq. P.342.
(9) Mas Latrie, Traités, p.224-225.
(10) dito, p.269.
(11) Girard, citant Giovo, f. 107.
(12) Marmol trad. Nicolas Perrot. II. p. 566.
(13) dito, p. 562-563.
(14) dito, p. 563-565.
(15) Leo, trad. Temporal. f. 308 v°.
(16) Marmol; trad. Perrot. II. p. 566.
(17) Girard, I.f. 108.
(18) Marmol, trad. Perrot. II. p. 572: Leo. 1550. f. 78. trad. Temporal, 313.
(19) Haedo, trad. de Grammont. p. 9: Marmol, trad. Perrot. II. p. 566; Leo, trad. Temporal, f. 305.
(20) Ph. Hitti, P. 702-705.
(21) Haedo, trad. de Grammont. p. 41.
(22) Haedo, 1612, f. 50 v°.
(23) Haedo, 1612, f. 53.

(24) Haedo, trad. de Grammont. p. 3 à 26..
(25) Haedo, 1612, f. 27 - 31.
(26) Bérot, 1554, f. 2 - 3.
(27) Giovio, f. 72.
(28) Giovio, f. 72.
(29) Masson, 1903, p. 1.
(30) Leo, trad. Temporal. f. 308 v°
(31) Leo, 1550, f. 78: tr. T...f. 313 v°.
(32) Leo, 1550, f. 82 v°; tr. T..f. 343 v° - 344 v°.
(33) Leo, 1550, f. 85 v°; tr. T..f. 343 v° - 344 v°.
(34) Ibn Furtu, trad. D. Lange. 1987.
(35) Leo, tr. T., cité de mémoire. C'est Jean Boulègue qui a attiré mon attention sur ce fait,.
(36) Pour cette guerre de cent ans, voir mes Pages d'histoire du Kanem. 1980, p. 111 à 113.
(37) Leo, tr. T., f. 308v°
(38) Marmol, trad. N. Perrot, II. P. 566.
(39) Anania, trad. D. Lange, Cahiers d'histoire mondiale, vol. 14, 1972, n° 1 et 2, p. 313.

الفصل الثاني

(40) Bosio, trad. Boyssat, p. 397 à 404.
(41) Mantran, 1952, p. 49 - 50.
(42) Bosio, trad. B., p. 460-467.
(43) dito, p. 681.
(44) dito, p. 460-502.
(45) dito, p. 555.
(46) dito, p520.
(47) dito, p. 561.
(48) Bosio, 1594, II, f.107; trad. p. 518.
(49) Giovio, f. 77v°
(50) Bosio, 1594. II, f. 107.
(51) Dito, II, f. 164.
(52) Zeltner, 1980, p. 112.
(53) Sandoval, trad. Sander Rang et Ferdinand Denis. p. 211.
(54) Haedo, 1612. f, 56 - 57 v°, trad. de Grammont. p. 37 - 45.
(55) Bosio, 1594, f. 98, trad. B. p. 519.
(56) Ahmad bnu 'Aamir, Al dawlat al Hafsiyya, Tunis. p. 54.

(57) Marmol, trad. N. Perrot. II. p. 458.

(58) Bosio, 1594, f.98.

(59) Marmol, trad. P. II. p. 455.

(60) Bosio, 1594, f.107 à 109, trad. B. p. 527 à 530.

(61) Giovo, f. 74. Sandoval, trad. S.R. et F.D. p. 212.

(62) Sandoval. trad. p. 212.

(63) Haedo, 1612, p. 58.

(64) Sandoval 1614, II. f. 21.

(65) Giovio, f. 74.

(66) Hâjji khalîfa, trad. J. Mitchell, p. 47 à 49.

(67) Giovio f. 76 v° - 77.

(68) Sandoval, trad., p. 98 - 99.

الفصل الثالث

(69) Giovio, f. 78v° - 79.

(70) Sandoval, 1614, p. 191.

(71) Dan, p. 267.

(72) Dan, p. 268.

(73) Jurien de la Gravière, les derniers jours de la marine à rames, p. p. 231-232.

(74) Morgan, A complete history of Algiers, London. 1731. p. 517, cité par Lane-Poole, The Barbary Corsair, London. 1890, p. 215.

(75) Hammer II. p. 124.

(76) Bosio, trad. Boyssat. p. 605.

(77) Clonard, Historia organica. T.I, p. 61 - 68; T. II. p. 515 - 520. Album de la cavalleria Española, Madrid. 1861. Hoja 12, siglo XVI et XVII. Hoja 13, siglo XVI: Hoja 14; Hoja 16. siglo XVII.

(78) Anthony North and Ian V. Hogg, the book of guns and gunsmiths. New burlington Books. 6 Blundell st., London N79 BH. 1977. p. 26-37.

(79) Bosio, tr. B. p. 629.

(80) Mitchell, p. 50, note.

(81) Sandoval, 1614. II, p. 191.

(82) Bosio, tr. B., p. 547.

(83) Bosio, tr. B., p. 547; Sandoval. 1614. II. p. 192.

(84) Sandoval, 1614, II. p. 192.

(85) Marmol, Trad. N. Perrot, p. 459.

(86) Haedo, f. 58 v°.

(87) Hâjji Khalîfa, p. 50-51.

(88) Bosio, tr. B., p. 548.
(89) Marmol, tr. P., p. 460.
(90) Giovio, f. 97.
(91) Bérot, f. 4 v°.
(92) Louis Pastor, Histoire des papes, trad. Alfred Poizat, Plon, Paris, 1925, T. XI, p. 186-187.
(93) Bérot, f. 7v°.
(94) Giovio, f.101.
(95) Bérot, f.8; Giovio, f.101.
(96) Giovio, f 100-101 v°.
(97) Bosio, tr. B., p. 723.
(98) Giovio, f.97-99.
(99) Pastor, T.XI. p. 188.
(100) Giovio, f. 99 v°.
(101) Bosio, tr. B., p. 550 - 551.
(102) Bérot, f. 8 à 34.
(103) Bosio, tr. B., p. 553 - 554.
(104) Bérot, f. 34.
(105) Bosio, tr. B., p. 554.
(106) Bérot, f. 34.
(107) Bosio, tr. B., p. 554.
(108) Bérot, f. 36 à 43 v°.
(109) Virginio Urbino, lettre à Mgr Pierre, Bibliothèque royale, Dossier «Ambassade Turquie, traduite par Sander Rang et Ferdinand Denis.» T. II, p. 235 - 236.
(110) Bérot, f. 46 à 52 v°.
(111) Pastor, T. XI, p. 193.
(112) Bérot, f. 54 à 56 v°.
(113) Hâjji Khalîfa, p. 52 - 53.
(114) Pastor, T. XI., p. 194.
(115) Bosio, tr. B., p. 561 à 566.

الفصل الرابع

(116) Hâjji Khalîfa. p. 55 - 56.
(117) Pastor, XI, p. 224.
(118) Hâjji Khalîfa, p. 57-58.

(119) Pastor, XI, p. 231.
(120) Pastor, XI, p. 220.
(121) Pastor, XI, p. 245.
(122) Hâjji Khalîfa, p. 63.
(123) Pastor, XI, p. 245.
(124) Hâjji Khalîfa, p. 62.
(125) Haedo, 1612, f. 60 v°.
(126) Pastor, XI, p. 246.
(127) Hâjji Khalîfa, p. 63-64.
(128) Hâjji Khalîfa, p. 65; Pastor, XI, p. 246.
(129) Bosio, tr. Boyssat, p. 580 - 581.
(130) Hâjji Khâlifa, p. 67.
(131) Mambrin Roseo, Histoire de Naples, cité par Girard, I, f. p. 115.
(132) Al Ansâri, p. 188.
(133) Girard, I. f. 115-116 v°.
(134) Nicolay, I, ch. 18, cité par Girard, I, f. 115.
(135) Hâjji Khalîfa, p. 77.
(136) Marmol, tr. N. Perrot, II, p. 502.
(137) Bosio, tr. Boyssat, p. 641.
(138) Bosio, tr. Boyssat p. 585 - 586; Marmol, tr. P., II. p. 502.
(139) Calvete Estrella, 1554, f. 155 v°.
(140) Brantôme, Vie des grands capitaines. p. 111.
(141) Pastor, XI, p. 397.
(142) Sandoval, 1614, II, p. 400; tr. Sande Rang, p. 246.
(143) Pastor, XI, p. 1 à 6; Villegagnon, 1554. f. 136.
(144) Bosio, tr. Boyssat, p. 594.
(145) Villegagnon. 1554, f. 136 - 139. Pour les cent transports fournis par L'Espagne, voir Bosio, tr B. p. 595.
(146) Haedo, 1612, f. 62.
(147) Bosio, tr. B., p. 595.
(148) Hâjji Khalîfa, p. 67.
(149) Villegagnon. 1554, f. 138-139.
(150) Bosio, tr. B. p. 595.
(151) Villegagnon, 1554. f. 138 v° - 143.
(152) Bosio, tr. B. p. 597.
(153) Villegagnon, 1554. f. 143 v° - 145.
(154) Bosio. tr. B., p. 599 - 600.
(155) Hasan Agha est mort en novembre 1545, comme en témoigne l'inscrip-

tion de sa tombe. Voir: Revue Africaine 1864 p. 290 (note de Sander Rang. p. 62).

(156) Haedo 1612. f. 62.

(157) Catalogue de la B.N.

(158) Larousse du xx^e siècle.

الفصل الخامس

(159) Bosio, tr B. p. 586.

(160) Jurien de la Gravière, Les corsaires barbaresques p. 88 - 114.

(161) Marmol tr. Perrot. II. P. 504.

(162) Robert Christophe Les grandes heures d'Italie. Perrin. 1970 p. 180.

(163) Hâjji Khalîfa, p. 69.

(164) Bosio, tr. B. p. 604 - 628.

(165) Archives de Malte, dans Rossi: italien. p. 134 - 135. trad. arabe, p. 169. Voir aussi Al Hesnâwi. p. 42-44, note 11.

(166) Bosio, tr. B., p. 628 - 636. Calvelte Estrella. f. 156. Marmol. tr. Perrot, II, p. 505.

(167) Bosio, tr. B., p. 641.

(168) Marmol, tr. Perrot. II, p. 499.

(169) Marmol, tr. Perrot. II, p. 502.

(170) Hitti, p. 213.

(171) Hitti, p. 618 - 619.

(172) Marmol, tr. p., II. p. 502.

(173) Bosio, tr. B., p. 645.

(174) Calvete Estrella. f. 153-154. Voir le plan panoramique de la ville hors texte, entre f. 134 v° et 135, et le dépliant de l'édition de 1551. Voir aussi les plans de Salazar, f. XIV v° et LXXIVv°.

N.B.: Les plans de Salazar doivent être lus dans un miroir. En effet, le graveur, en reproduisant sur le bois le dessin qu'il avait sous les yeux, a oublié de l'inverser: si bien que le septentrion se trouve au midi, et vice versa.

(175) Bosio, tr. B., p. 645-646. De même Calvete Estrella, f. 156v°; Salazar, chap. IV, f. IX sq. et Marmol tr. Perrot, II, p. 549.

(176) Calvete Estrella, f. 157-162.

(177) Bosio, tr. B. p. 643.

(178) Bosio, tr. B., p. 645.

(179) Calvete Estrella, f. 140.

(180) Marmol, tr. Perrot, II. p. 509.

(181) Calvete Estrella, f. 126v°; Bosio, tr. B., p. 642 et 646.
(182) Calvete Estrella, f. 162 v° 165.
(183) Marmol tr. Perrot, II. p. 509.
(184) Calvete Estrella, f. 166-172.
(185) Marmol, 1573, f. 276.
(186) Salazar, f. LXI-LXIII v°.
(187) Calvete Estrella, f. 173 - 181.
(188) Bosio, tr. B., p. 650.
(189) Bosio, tr. B., p. 652-655. Marmol, tr. Perrot, p. 549-551.
(190) Jurien de la Gravière. Les corsaires barbaresques p. 195 - 207.
(191) Bosio, tr. B., p. 661 - 670.
(192) Marmol, tr. P., II. p. 567 - 568.
(193) Voir le plan de Dapper, ouvrage cité, p. 199.
(194) Bosio, tr. B., p. 660 - 676.
(195) Nicolay, p. 33.
(196) Bosio tr. B. p. 676 - 683.
(197) Nicolay. p. 40.
(198) Hâjji Khalîfa, p. 79 - 80.
(199) Jurien de la Gravière. Les corsaires barbaresques 1887, p. 221.
(200) Bosio, tr. B., p. 702 - 711.
(201) Hâjji Khalîfa, p. 80. Et aussi Hammer. II. p. 118.
(202) Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens de l'Afrique septentrionale, ouvrage posthume, Paris, 1826, I. p. 369.
(203) Marmol, tr. P., II. p. 567.
(204) Muhammad bnu Mas' ûd, Mawjaz târîkh Libya al hadîth, huitième édition, Tripoli, 1959, p. 17.
(205) Al Ansâri, p. 209.
(206) Girard, I, f. 114 v° II. f. 320.
(207) Girard, I, f. 133 v°.
(208) Anania, p. 323 et 347.
(209) Al Hasnâwi, p. 52, note 63.
(210) Conquête facile: Al Mahdiyya - ou Africa - n'exsitait plus. En 1554, Charles Quint, n'ayant pas les moyens de ravitailler et de tenir cette place, l'avait offerte aux chevaliers de Malte, qui s'était récusés. La cité fut alors détruite, les murailes minées. Il n'en restait plus que des ruines. Voir Bosio, 1594, II, p. 346 - 349.
(211) Al Hasnâwi, p. 75, note 252.

(212) Jurien de la Gravière, Les corsaires barbaresque, p. 121.
(213) Marmol, tr. P., II, p. 552.
(214) Hammer; II, p. 121.
(215) Marmol, tr. P., II, p. 558.
(216) Hammer; II, p. 121.
(217) Marmol, tr. P., II, p. 558.
(218) Jurien de la Gravière, les corsaires barbaresques, p. 282.
(219) Marmol, tr. P., II, p. 558.
(220) Jurien de la Gravière, les corsaires barbaresques, p. 260 - 264.
(221) Hammer, II, p. 121.
(222) Bosio, tr. B., p. 844 - 848.
(223) Jean Parisot de la Valette mourra à Malte en 1568.
(224) Muhammad bnu Mas'ûd, 1959, p. 17.

الفصل السادس

(225) Anania, p. 339.
(226) Ibn Furtû, I, chap. IV. § 9.
(227) Anania, p. 339.
(228) Marmol, tr. Perrot. III. p. 68; et Anania. p. 335.
(229) Ibn Furtû, I, Chap. IV. § 2.
(230) Marmol., tr. P., III. p. 70.
(231) Anania, p. 347.
(232) Marmol, tr. P. III. p. 70.
(233) Anania. p. 349.
(234) Marmol, tr. P. III. p. 70 - 71.
(235) Ibn Furtû. I. chap. III § 19 et 29: chap IV. § 2 et 3.
(236) Anania. p. 343.
(237) Ibn Furtû. I, chap,. VI. §1.
(238) Anania, p. 351.
(239) Ibn Furtû. I. chap. III.§ 12. 19. 29.
(240) Ibn Furtû. I. chap. VII.§ 36.
(241) Museum de Jos, Nigeria Ms 74.
(242) Ibn Furtû, II. édition kano, p. 71-72. Voir Zeltner. 1980. p. 150 - 151.
(243) Anania, p. 343 - 345.
(244) Ibn Furtû. I. chap. VII.§ 1 et 7.

(246) Ibn Furtû. I. chap. II. (Gafata). III (Amcakar). IV (Kano). VII (Ngizim), VIII (Tatala et Makari).

(247) Ibn Furtû. I. chap. V.§ 15.

(248) Communication personnelle.

(249) Haedo, 1612, P.77 v°.

(250) Al Ansâri, p. 212 à 215.

(251) Archives ottomanes, in Orhonlu, 1969. p. 111 - 130. Cité par D. Lange 1987.p. 118.

(252) Al Bahlûl (mort en 1701), ouvrage perdu.

(253) Mustafa Khûja, Târîkh Fezzân. p. 52 - 56.

(254) B.G. Martin, Maî Idris of Bornu and the ottoman Turks, 1576 - 1678. International Journal of Midde East Studies 3 (1972), p. 470 - 481.

(255) Zeltner, 1980, p. 182.

(256) Girard, I, f. 151, II. f. 319.

(257) Mustafa Khûja, p. 56.

(258) Al Fishtâli, Manâhil al Safa, édité par A Ganûn, Tetuân, 1961. Le texte de la lettre remise a l'ambassadeur du Bornou est reproduit par Al Zayyâni, Turjumân al mu'rib, traduction de R. Le Tourneau, Revue de l'Occident méditerranéen, n° 23, 1er sem 1977, p. 43 - 48. C'est au regretté Père Joseph Cuoq que je dois la communication de ces textes.

(259) Girard, II, p. 319 - 320.

الفصل السابع

(260) Girard, I, f. 142 v°.

(261) Wood, p. 7 - 12.

(262) Hakluyt, London, 1598, T. II, lst part, Récit de Tomas Sander, P.184-191. Correspondance, p. 177 - 178; 192.

(263) Hakluyt, même référence, p. 179.

(264) Hakluyt, p. 178 - 179.

(265) Wood, p. 8.

(266) Hareborne à John Lipton, 30 mars 1585. Hkaluyt, II.p. 178.

(267) Masson, 1896, p. 35.

(268) Al Ansâri p. 225.

(269) Rossi, p. 218.

(270) Girard, I. f. 128 v°.

(271) Archives de la chambre de commerce de Marseille. AA 555. Masson, 1896, p. 35.

(272) Masson, 1896, p. 41.

(273) Masson, 1896, p. 35.

(274) Masson, 1896, p. 42.

(275) Dan, 1637, p. 274-280.
(276) Al Ansâri, p. 226.
(277) Mustafa Khûja, p. 56 - 69.
(278) Al Ansâri, p. 232.
(279) Dan. 1637. p. 207.
(280) Al Ansâri, p. 232 - 233.
(281) Lettres d'esclaves, 18 Juin 1633; 2 mai 1634, Masson 1896. p. 43.
(282) Dan. p. 279.
(283) Dan. p. 208.
(284) Masson, 1903. p. 60 - 61.
(285) Lettre du capitaine Beau. 8 mai 1634. AA 555. Masson 1896. p. 43.
(286) Girard, cité par Masson, 1903. p. 61.
(287) Girard. II, f. 320-321.
(288) Girard. I. f.222 - 223.
(289) Al Ansâri, p. 239 - 241.
(290) Girard, I. f. 3 - 4.
(291) Girard, II. f. 136 v°.
(292) Al Ansâri, p. 239 - 241.
(293) Girard, II, f. 16 - 17; 26.
(294) Girard, I, f. 36 et 74.
(295) Girard, I, f. 67 - 68.
(296) Rapport de Nathaniel Bradley, reçu à Londres le 3 juillet 1673.. SP 71/22. Part 1. f. 68 sq.
(297) Girard, I, f. 68.
(298) Al Ansâri, p. 240.
(299) Samuel Tooker, 22 août 1661. SP 71/22 Part 1. f. 9.
(300) Girard, II, f. 165.
(301) En 1654, L'amiral Blake avait brûlé neuf vaisseaux dans le port de Porto Farina, à côté de Tunis. Il se préparait à attaquer Tripoli quand Cromwell l'avait rappelé pour faire la guerre à l'Espagen (Girard, II. f. 27).
(302) Girard, II, f. 30 - 31.
(303) Samuel Tooker, 22 août 1661, SP 71/22, Part I, f.9.
(304) Masson, 1903, p. 168.

الفصل الثامن

(305) Nathaniel Bradley, A narrative of the revolution in Tripoli in november and december 1672. SP 71/22 Part I. f. 68 - 73.

(306) Girard, Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Barbarie, B.N. Fonds Français, mss. 12219 et 12220, II, f. 164.

(307) Nathaniel Bradley, même référence.

(308) Pétis De Lacroix, «secrétaire et interprète du Roi en langue arabesque et turque», Tripoly de Barbarie, Bibliothèque Nationale, Français, Nouvelles acquisitions ms. 7488, f. 298.

(309) Girard, II. f. 277 verso.

(310) N. Bradley to Lord Arlington, Tripoli of Barbary, Oct. 19, 1674. SP 71/22 Part I, f. 82.

(311) N. Bradley to Thomas Bank, on board the Henrietta, off Tripoli. 10 Aug. 1675, SP 71/22 Part I, f. 107.

(312) N. Bradley to Sir John Williamson, off Tripol. 8 july 1675 (Journal, du 23 mars au 28 juin). SP 71/22 Part I, f. 103 sq.

(313) Al Ansâri, p. 243.

(314) M. Bradley, même référence.

(315) Al Ansâri. p. 249.

(316) N. Bradley, même référence.

(317) John Narbrough, on board His Majesty's ship the Henrietta, before Tripoli, 5 August 1675, old style, SP 71/22 Part, F. 111 à 113.
N.B.: Pour old stile ou old style, voir l'appendice 1, à la fin du chapitre.

(318) John Narbrough, on board the Henrietta, before Tripoli, 9 Aug. 1675. old style. SP 71/22 part I.f. 115 - 116.

(319) N. Bradley to Williamson, from aboard the Henrietta. in Malta harbour, the 14 th Oct. 1675. SP 71/22 Part I. f. 121.

(320) John Narbrough, A narrative of my burning the enemy's ships of war in their own port of Tripoli on Friday the 4/14 th of January 1675/6. SP 71/22 Part I. f. 213 sq.

(321) Al Ansâri. p. 250.

(322) Girard, II. f. 277 et 279.

(323) Henry Caple to Williamson. Trip. 25 July 1676. SP 71/22 Part 2. f.1.

(324) Paul Rycart. Smyrna. 26 July 1678. SP 71/22 Part 2. f. 16.

(325) Al Ansâri. p. 250 à 258.

(326) N. Bradley to Sir Joseph Williamson, off Tripoli, 8 July 1675, SP 71/22 Part I. f. 103.
N.B.: dollars. Il s'agit de dollars d'Espagne ou piastres sévillanes.

(327) Thomas Baker to Mr. Secretary Coventry. Trip. , 2 July 1680. SP 71/22 Part 2, f. 18.

(328) Masson 1903, p. 170.

(329) Thomas Baker to Coventry, Trip. 2 July 1680. SP 71/22 Part 2, f. 18.

(330) T. Baker to the Earl of Sumberland, Trip. 8 Aug. 1680, SP 71/22 part 2, f. 20.

(331) T. Baker to the Earl of Sumberland, Trip. 29 Aug. 1680, SP 71/22 part 2, f. 22.

(332) T, Baker, Trip, 15 May 1681, SP 71/22 Part 2, f. 26.

(333) T. Baker to Mr. Secretary Jenkins, Trip. , 10 jan, 1682, SP 71/22 Part 2, f. 28.

(334) Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roi à la porte, consul d'Alger, de Tripoli et autres échelles du Levant. (mis en ordre et édités) par le R.P.Jean-Baptiste Labat, de l'ordre des frères Prêcheurs, Paris, Delespine, librairie rue St. Jacques, M.DCC.XXXV (1735).

N.B.1: Le chevalier d'Arvieux était pour quelques chose dans les événements qu'il conte. Il était l'auteur d'un Mémoire présenté au Roy pour réprimer l'insolence des Corsaires de Tripoli d'Afrique et pour les forcer à une paix avantageuse aux sujets de Sa Majesté. Ce mémoire est reproduit à la page 413 de l'ouvrage édité par le R.P. Labat.

N.B.2: «Échelles». On désignait ainsi les comptoirs commerciaux établis par les nations chrétiennes en pays d'Islâm. Le mot vient du turc Iskele qui signifie «jetée de debarquement».

(335) T. Baker to Jenkins, Trip., 10 Jan. 1682, SP 71/22 Part 2, f. 28.

(336) T. Baker to Jenkins, 20 Dec. 1682, SP 71/22 Part 2, f.37.

(337) T. Baker to Jenkins, Trip., 30 Nov. 1682, SP 71/22 Part 2, f. 41.

(338) Assan Day (Hasan 'Abâzah Day) to the king, «Given in the castle of our residence, the 20 th of Nov. 1682. SP 71/22 part 2, f. 39.

(339) T. Baker to Jenkins, Trip. , 30 Nov. 1682, SP 71/22 Part 2, f. 41.

(340) T. B. to J., Trip. , 20 Dec. 1682, SP 71/22 Part 2, f. 37.

(341) T. B. to J., Trip. , 15 Jan. 1683, duplicata SP 71/22 Part 2, f.43.

(342) T. B. to J., Trip. , 15 Feb. 1683, SP 71/22 Part 2, f. 47.

N,B.: Pour «barque» et autres types de navires, voir l'appendice 2 à la fin du chapitre.

(343) T.B. to J., Trip. 20 April 1683, SP 71/22 Part 2, f. 51.

(344) Masson, 1903, p. 170.

(345) Pétis De Lacroix, Tripoly de Barbarie (voir note 308), f. 305.

N.B.: L'auteur note que, à la suite de cette paix, un consul fut nommé à Tripoli, et un vice-consul à Derna, «second port de la Régence».

(346) Masson, 1903, p. 170.

(347) Nathaniel Lodington, consul, Trip. 29 Sept. 1686, SP 71/22 Part 2, f.64.

(348) SP 71/22 Part 2, f. 67.

(349) Nathaniel Lodington, Trip. Aug. 15/25, 1689, copia. SP 71/22) Part 2, f. 78).

(350) N. Lodington, Trip., Dec. 5/15 1689, f. 82.

(351) N. Lodington to the Earl of Shrewsbury, Trip, 18 July 1690, SP 71/22 Part 2, f. 84.

(352) N. Lodington to Lord Nottingham. Trip., 5 June 1691, f. 100.

(353) Masson, 1896, p. 290.

(354) N. Lodington, Trip., 5 March 1692 et 1 April 1692, SP 71/22 part 2, ff. 112 et 114.

(355) Consul en France à Tripoli, 22 mai 1692, AA 547, Masson 1896, p. 291.

(356) N. Lodington to Lord Nottingham, Trip, 30 May 1692, SP 71/22 Part 2, f. 118. et, à nouveau, 28 oct. 1692, f. 126.

(357) N.Lodington, Trip. 25 June 1692, SP 71/22 Part, 2, f. 120.

(358) Masson, 1896, p. 291.

(359) N. Lodington, Trip., Aug. 15/25 1689, Copia, SP 71/22 Part 2, f. 78.

(360) N. Lodington to Lord Nottingham, Trip, 8 sept. 1692, SP 71/22 Part 2, f. 126.

(361) Masson 1896, p. 291 (d'après des lettres de Pontchartrin et de Dusault).

(362) N. Lodington to Principal Secretary of State, Whitehall, Trip. 20 May 1693, f. 136.

(363) N. Lodington Trip. 30 May 1693, même référence.

(364) Le sieur du Sault à Mgr (illisible). Trip. 10 juin 1693, AE B[1]- 1088.

(365) N. Lodington to lord Nottingham, Trip., 25 July 1693, SP 71/22 3d Part f. 1.

(366) N. Lodington to Sir John Trenchard, Pr. Sec. of State. Malta, 27 Aug. 1694, old stile. SP 71/22 3d Part. f. 11.

(367) N. Lodington to the Duke of Shrewsbury, Pr. Sec. of State, Tunis, 7 May 1695, SP 71/22 3d Part f. 38.

(368) N. Lodington to Sir John Trenchard. Trip., Nov. 1/10 1694, SP 71/22 3d Part f. 30 et verso.

(369) Daniel Skinner to Sir John Trenchard, Trip. 20 May 1695, SP 71/22 3d Part f. 46.

(370) Daniel Skinner, to Right Honourable (illisible). Trip. 26 Nov. 1694. SP 71/22 3d Part f. 24.

(371) N. Lodington to the Duke of Shrewsbury, Tunis 7 may 1695. SP 71/22 3d Part f. 38.

(372) N. Lodington to Sir John Trenchard. Trip. Nov. 1/10 1694, et 24 Nov. 1694. SP 71/22 3d Part ff. 30 et 30 verso.

(373) John Trenchard to Nathaniel Lodington. Whitehall. 19 jan. 1695. SP 71/22 3d Part. f.36.

(374) N. Lodington to sir John Trenchard, Tunis 20 June 1696 SP 71/22 3d Part. f. 64.

(375) N. Lodington to Sir John Trenchard, Trip. Nov. 1/10. 1694 SP71/22 3d Part. f. 30.

(376) Rapport anonyme, sans lieu (probablement Whitehall), 10 june 1697. SP 71/22 3d Part f. 66.

(377) Bill of extraordinary disburs att Tripol. Trip 10 june 1697, SP 71/22 3d Part. f. 68.

(378) Bill of extraordinary disburs by Benjamin Lodington for their Majesty's service here by order of Nathaniel Lodington at his departure to Malta to procure a renovation of peace on the former articles and to be requested by his government. Tripoli in Barbary, 1694, Sp 71/22 3d Part, f. 32.

(379) Masson , 1896, p. 291 â 295.

(380) Al Ansâri , p. 285.

(381) Benjamin Lodington to the Duke of Newcastle, Trip. , 3d jan. 1726. SP 71/22 3d Part, f. 110.

(382) Benjamin Lodington to Lord Carterett, Trip. , 25 Aug. 1721. SP 71/22 3d Part, f. 105.

(383) Benjamin Lodington to the Duke of Newcastle, Trip. , 3 jan. 1726. SP 71/22 3d Part, f. 110.

(384) Benjamin Lodington A narrative of what passed at Tripoly when the French squadron commanded by commodor M.Gran' Pré comeing to said place and bombarding the same place, SP 71/22 3d Part f. 123. verso.

(385) Tollot, Nouveau voyage fait au Levant les années 1731 et 1732, Paris, André Cailleau, M. DCC. XLII (1742), cité par Masson 1903, p. 335.

(386) Benjamin Lodington to the Duke of Newcastle Trip. 13 Aug. 1728 SP 71/22 3d. Part, f. 121.

(387) Benjamin Lodington, Trip. , 20 Sept. 1728. SP 71/22 3d Part f. 146.

(388) Broche, Trip. , 29 sept.; 8 oct.; 10 oct. 1728. Duguay Trouin, 28 nov. 1728. Billon de Canlevilles au cardinal de Fleury, 31 déc. 1728. AE B[1] 1092.

(389) B. Lodington to the Duke of Newcastle, Trip. , 3 Jan. 1729, SP 71/23 3d f. 3.

(390) B. Lodington, Trip. , 14 March 1729, SP 71/22 f. 8.

(391) B. Lodington to the Duke of Newcastle, Trip. , 3 June 1729, SP 71/23 f. 9.

(392) Masson 1903, p. 335 - 336.

(393) John Beswick to the Duke of Newcastle, Trip. , 25 July 1731, SP 71/23 f. 56.

(394) Robert White to the Duke of Bedford, Trip. , 4 Aug. 1752, SP 71/24 f. 126.

(395) Considerations in relation to the expediency of applyinq for £ 500 to purchase a new present for the Bey of Tripoly, 26 July 1750, SP 71/24, f. 144.

(396) Robert White to the Duke of Bedfort, Tripoli, 21 Sept. 1751, SP 71/24, f. 166.

(397) Valentine Applegath to the Duke of Bedford, Trip. , 27 May 1749, SP 71/24, f.76.

(398) Robert White to the Duke of Bedford, Trip. , 4 Aug. 1752, SP 71/24, f. 191 - 193.

(399) Nathaniel Lodington, Trip. , Nov. 1/10 1694, SP 71/22 3d part, f. 30. N. Lodington to the Duke of Shrewsbury, Tunis, 7 may 1695, f. 38.

(400) Benjamin Lodington to the Duke of Newcastle, Trip., 13 Aug. 1728, SP 71/22 3ō Part, f. 121.

(401) John Beswick to the Duke of Newcastle. Trip. , 16 Aug. 1729, SP 71/23, f. 19.

(402) Benjamin Lodington, Trip. , 20 Sept. 1728, SP 71/22 3d Part, f. 146.

(403) Robert White to the Duke of Bedford, Trip. , 4 Aug. 1752. SP 71/24, f. 192.

(404) Consul Lawrence, Tunis 22 Febr. 1730, SP 71/28. f. 235.

(405) Robert White to the Duke of Bedford, Trip., 4 Aug. 1752, SP 71/24, f. 191.

الفصل التاسع

(406) Masson, 1903, p. 603.

(407) Commerce de Tripoly de Barbarie. Note jointe à la lettre de M. de Lancey, n. 8, AE B[1] 1100.

(408) M. d'Esparon, Tripoli de Barb., 1 Janv. 1780; D'André, Trip. de B., 30 mars 1780, AE B[1] 1106.

(409) D'André, Trip. , 1785, AE B[1] 1106.

(410) De Lancey, Commerce de Tripoly 1766, AE B[1] 1100.

(411) Fraser, Portsmouth, 24 Aug. 1767. FO 76/2, f. 166 sq.

(412) Observation du sieur de Lancey additionnelle à celle de la Chambre de Commerce de Marseille sur le projet de l'établissement d'une maison française à Tripoly de Barbarie. Joint à la lettre du sieur de Lancey du 29 février 1767. AE B[1] 1101.

(413) Martin, trip. de B., 30 mars 1725, AE B[1] 1092.

(414) Mustafa Khûja, Târîkh Fezzân, p. 70 â 73.

(415) Al Ansâri, p. 256 à 271.

(416) Mémoire pour Monsieur Delagny, directeur du commerce de France à Tripoly, 8 novembre 1686. Joint à la lettre du sieur Le Maire à Mgr (illisible), Trip de B., 29 nov. 1686. AE B[1] 1088.

(417) Lemaire au Préfet de la Propagande, Trip. de B., 18 avril 1706. Archives de la Propagation de la Foi (APF), Sacr. Cong. Gen. 557, f. 134 - 135. Cité par Richard Gray, Christian traces and a Franciscan mission in the central Soudan, 1700 - 1711. Journal of African History, VIII, 3, 1967, p. 383 à 393.

(418) Mustafa Khûja, Ta'rikh, p. 73 à 80.

(419) Delalande. État du gouvernement présent de Tripoly et du commerce français qui se fait dans l'étendue de cette Régence. Joint à lettre du 22 décembre 1698. Archives Nationales Marine, B7 220. Dans Masson 1903, p. 78.

(420) Mustafa Khûja, p. 73 à 80.

(421) Delalande, même référence.

(422) Martin, États des bâtiments français, Trip. de B. 24 juin 1724, AE B[1] 1092.

(423) APF. Sacr. Cong. Gen. 536. f, 458 à 461. Richard Gray, même référence.

(424) APF SCG 557, f, 315 à 324, 326 à 343. Richard Gray.

(425) Lemaire, Trip. de B., 28 oct. 1702, AE B[1] 1089.

(426) APF SCG 557. R. Gray.

(427) Père Damiano de Rivoli à Préfet de la Propagande, Trip. de B., 4 juillet 1705, APF SCG 552, f. 422 - 423. R. Gray.

(428) Al Ansâri, p. 271 à 277.

(429) Lemaire, Trip. de B., 28 oct. 1702, AE B[1] 1089.

(430) Poullard, Trip. de B., 20 Avril. 1708, AE B[1] 1090.

(431) Al Ansâri p. 280 - 281.

(432) Lemaire, Trip., de 6 déc. 1704. AE B[1] 1089.

(433) Al Ansâri, p. 281.

(434) Lemaire, Trip., 8 mars. 1705 AE B[1] 1089.

(435) Al Ansâri. p. 278.

(436) Lemaire, Trip. , 8 mars 1705.

(437) Père Damiano à Préf. de la Prop. , Trip. , 4 juillet 1705 Memorandum examiné par la Sacr. Congr. le 22 février 1707. APF SCG 552, f. 422 - 423. R. Gray.

(438) Note du Procurateur des Franciscains, examinée de 9 janv. 1708. APF SCG 561. f. 23, R. Gray.

(439) Lemaire, Trip., 1 Juillet 1707. AE B[1] 1090.

(440) Lemaire, Trip. , 4 juillet 1707.

(441) Lemaire, Trip. , 15 mars, 22 mars, 29 mars 1707; 25 jan., 13 mars 1708, AE B[1] 1090.

(442) Poullard, Trip. , 20 avril 1708, AE B[1] 1090.

(443) Al Ansâri, p. 281.

(444) Poullard, trip. , 13 nov. 1709, AE B[1] 1090.

(445) Pour les références, voir R. Gray, notes 12, 13, 14.

(446) Père Carlo à Préf. de la prop. , Trip. , 9 Juin 1710, APF SCG 573, f. 41.

(447) Père Carlo à cardinal Sacripante, Fazzano da Daraghen, 17 oct. 1710, APF SCG 577, f. 125. R. Gray.

(448) Père Francisco Maria di Sarzana à préf. de la Prop. , Trip., 14 oct. 1712, APF SCG 586, f. 41 - 42. R. GRay.

(449) APF Acta 209, f. 36 - 37. R. Gray.

(450) Roymond Hickey, O.S.A, Heralds of Christ to Bornu. History of the Prefecture and Diocese of Maiduguri, 1700 - 1978. Augustinian Missionnaries Diocese of Maiduguri, Silver Jubilee 1978, p. 25 à 27. Référence: Belletino della Societate Geographica Italiana, 1870, p. 137. à 150.

(451) Al Ansâri, p. 281 à 284.

(452) Pétis De Lacroix, f. 309.

(453) Lemaire, Trip. , 8 mars 1705, AE B[1] 1089.

(454) Lemaire, Trip. , 23 juillet 1707, AE B[1] 1090.
N.B.: La piastre abouquel valait trois livres de France en 1715, selon Expilly, Mémoire sur le commerce de Tripoly, 30 décembre 1715, AE B[1] 1092.

(455) Delalande, 22 déc. 1698, dans Masson 1903, p. 179.

(456) Pétis De Lacroix, f. 308 verso.

(457) Delalande, même réf.

(458) Lemaire, Trip. , 29 nov, 1686 et 8 mars 1705, ainsi que Delalande.

(459) Pétits de Lacroix, f.308.

(460) Al Ansâri, p. 285.

(461) Habîb Wadâ'a al Hasnâwi, p. 81. n. 316 (citant Rossi, p. 276. 289).

(462) Poullard. Tripoli de Barbarie, 1er août 1711 AE B^1 1090.

(463) Expilly, Trip., 12 sept. 1712, AE B^1 1090

(464) Al Ansâri, p. 286.

(465) Expilly, Trip. 18 janv. 1718. AE B^1 1091.

(466) Expilly, Trip., 4 juin 1719. AE B^1 1091.

(467) Dusault à S.A. de Bourbon, le maréchal d'Estrées, Trip., 26 Fev. 1720 AE B^1 1091.

(468) Expilly, Trip., 20 mai 1721, AE B^1 1091.

(469) Etats des bâtiments français, du 11 Août 1721 à Sep. 1726 AE B^1 1091.

(470) Mustafa Khûja, Ta'rîkh Fazzân, p. 83 à 86.

(471) D'André, Trip., Mémoire sur le commerce, 10 Aôut 1682, AE B^1 1108.

(472) Reed to Newcastle, Trip., 2 Nov. old style 1741, SP 71/23, 2nd Part.

(473) Caulles, Trip., N°5, 27 avril 1753, AE B^1 1096.

(474) Robert White to the Earl of Holdeness Trip., 17 Aug. 1754, SP 71/24 Part.1.

(475) De Lancey, Trip., N° 8, 20 mars 1766, AE B^1 1100. Vallière. Trip. , 5 jan. 1786. AE B^1 1112.

(476) Vallière, Trip. 9 février 1756, AE B^1 1098.

(477) James Traill to the Earl of Shelburne. Tunis, 18 jan. 1767. SP 71/29, f. 613.

(478) Note concernant le gouvernement actuel de Tripoly de Barbarie... Joint à la lettre de M. de Lancey du 20 mars 1766. N° 8, AE B^1 1100.

(479) Fraser, Some account of the trade carried on by the Tripoline Moors to the inland parts of Africa, Portsmouth, 24 Aug, 1767, FO 76/2, f. 166 - 179.

(480) De Lancey, Rapport cité, 1766.

N.B.: Il peut paraître surprenant que les consuls dans leurs rapports sur les caravanes de l'intérieur, ne citent jamais Ghât. C'est que, à la suite du cartographe d'Anville (ou Danville), ils ont confondu Ghât avec Agades. Ce n'est pas Agades mais Ghât qui produisait du séné, «Gat que Danville a inexactement nommé Agades». (Pierre Alphonse Guys, consul, Mémoire sur le commerce de Tripoli de Barbarie. 14 Messidor an 5 - 3 juillet 1797 -, AEccc Tripoli de Barbarie, Tome 29, f. 167).

(481) Dr. Louis Frank, Tunis, description de cette Régence, 1816. Notes manuscrites éditées par J.J. Marcel, dans L'univers pittoresque, 1re livraison, Tunis, (Pour la chasse à l'autruche et au bœuf sauvage, voir p. 123).

(482) Fraser, Rapport cité 1767.

(483) De Lancey, Trip., 10 mars 1767, AE B^1 1101.

(484) Fraser, Rapport cité, 1767.

(485) Fraser, Rapport cité, 1767.

(486) Observation du sieur de Lancey additionnelle à celle de la chambre de commerce de Marseille sur l'établissement d'une maison française à Tripoly de Barbarie, joint à la lettre du sieur de Lancey du 29 février 1767, AE B^1 1101.

(487) De Lancey à Mgr le duc de Praslin, N° 63, Trip., 8 janv. 1769, AE B^1 1102.

(488) De Lancey à M. l'abbé Terrai. N°89 Trip., 29 mars 1771, AE B^1 1102.

(489) De Lancey à Mgr. de Boynen, N° 119, Trip., 5 janv. 1773, AE $B^1$1103.

(490) De Lancey , Trip., 10 mars 1767, AE B^1 1101.

(491) De Lancey, à M. l'abbé Terrai, Trip. , 29 mars 1771, AE B^1 1102.

(492) De Lancey, Rapport de 1766, cité plus haut.

(493) De Lancey, Mémoire joint à lettre du 20 mars 1773, N° 140, AE B^1 1103.

(494) Mémoire du sieur de Lancey concernant la Régence de Tripoly de Barbarie et le consulat de France qui y est établi (an 1775), AE B^3 305.

(495) Mémoire joint à lettre du 20 mars 1773, N° 140, AE B^1 1103.

(496) Pour l'histoire des Awlâd Sulaymân, voir mon étude «Les Oulâd Sulaymân à la fin du XVIII^e siècle» dans Gens du roc et du sable CNRS, sept, 1988, p. 149 à 173.

(497) D'andré, Mémoire sur le commerce que les français pourraient établir à Tripoly de Barbarie, joint à la lettre du 10 août 1782, AE B^1 1108.

(498) Guillaume Thomas Raynal, Mémoire sur Tripoly de Barbarie, dans Mémoires divers, 1784, Biblioth. Nat., Fonds français, Ms 6429, f. 87.

(499) De Lancey à Mgr, le duc de Praslin, Trip., 8 janv. 1769, AE B^1 1102.

(500) De Lancey à M. l'abbé Terrai. Trip,, 29 mars 1771, N° 94, AE B^1 1102.

(501) De Lancey à Mgr de Boynen, Trip., 31 Juillet 1771, N° 94, AE B^1 1102.

(502) Richard Tully to the Viscount of Weymouth, Trip. ,5 Nov. 1779, FO 76/3.

(503) D'André, Trip. , 11 déc, 1780, N° 102, AE B^1 1106.

(504) D'Esparron, Trip. 1 janv. 1780 AE B^1 1106.

(505) De Lancey,. Journal joint à lettre N° 99 du 6 janv. 1772, AE B^1 1103.

(506) De Lancey, Mémoire de 1775, cité ci-devant, AE B^1 305, pièce 116,

(507) États des bâtiments français, AE B^1 1106.

(508) D'André, Trip,. 7 févr. 1780 AE B^1 1106.

(509) Pièce N°7, an 1781, en fin de volume, sans titre, sans nom d'auteur (probablement d'André). AE B^1 1107, Tome 19.

(510) D'André, Mémoire joint à la lettre du 10 août 1782, AE B^1 1108, T.20.

(511) D'André, Trip., 22 février, 28 mars, 30 mai, 25 juillet 31 déc. 1784, AE B^1 1110, T.22.

(512) D'André, Trip., 29 oct. 1785. AE B^1 1111. Vallière, Trip., 10 avril 1787, AE B^1 1113.

(513) D'André, 5 mai, 9 juillet , 9 oct. 30 déc. 1783, AE B^1 1109, 10 avril 1784, AE B^1 1110.

(514) D'André Trip., 4 oct. 1784, État des bâtiments français et corsaires, juillet, août, sept., AE B^1 1110.

(515) D'André, Trip., 1785, État des bâtiments français. AE B^1 1111.

(516) Richard Tully to Lord Sydney, Trip., 12 July 1784, FO 76/4. Same to same, 14 June, 25 June, 20 Aug. 1785, FO 76/4.

(517) D'André (sic), Trip., 12 sept. 1785, N°31, AE B^1 1111.

(518) Vallière, Versailles, 5 janv. 1786, AE B^1 1112.

(519) Vallière, Trip., 18 oct. 1786, AE B^1 1112.

(520) Vallière, Trip., 20 oct. 1787. AE B^1 1113.

الفصل الحادي عشر

(521) Présenté au destinataire le 5 janv. 1786. AE B^1 1112.

(522) Au lieu de Agades, il faut lire Ghât. Voir, ci-devant, note 480. Au témoignage de tous les consuls, français et britanniques, les habitants du Fezzân, y compris la dynastie régnante, étaient des Noirs.

الفصل الثاني عشر

(523) Vallière, Trip., de B., 25 déc. 1786, AE B^1 1112.

(524) Vallière, Trip., 20 déc. 1786. AE B^1 1112.

(525) D'André, Trip., 4 Avril, 4 juillet 1786. Vallière, Trip, 2 oct 25 Déc. 1786, AE B^1 1112.

(526) Vallière, État des bâtiments français, 1787. AE B^1 1113.

(527) Richard Tully, Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa, London, 1816, p. 181.

(528) Hâggi 'Abd al Rahmân (late ambassador in Britain) to Evan Nepean. Trip., 14 Nov. 1788. FO 76/4.

(529) Simon Lucas to Evan Nepean esq. Trip., 12 Nov, 1788, FO 76/4.

(530) Same to same, Trip., 8 déc. 1788. Fo., 76/4.

(531) R. Tully, 18 and 19 march 1789, Narrative, p. 180 - 181.

(532) R. Tully, Trip, 31 March 1789, FO 76/4.

(533) R. Tully, March 20, 1789, Narrative p.182.

(534) Simon Lucas. Trip., 30 June 1795, FO 76/5.

(535) Anne Charles de Champ Lagarde (Vice-consul). Mémoire Concernant les troubles du royaume de Tripoli, Trip., 8 juillet 1791, AE B[1] 1113.

(536) Al Ansâri p. 300.

(537) R. Tully, lettre du 2 août 1790, Narrative p. 226 à 230.

(538) Anne Charles de Champ Lagarde, même référence que ci-devant.

(539) R, Tully, lettres du 18 oct, 1790 et du 10 nov. 1790, Narrative, p. 237 à 242.

(540) De Champ Lagarde, même référence que ci-devant.

(541) Guys, Trip. , 4 juin, 21 juillet 1793, AEccc Tripoli de Barabarie, Tome 26.

(542) R. Tully, Trip, 20 July 1793, FO 76/5.

(543) Simon Lucas, Trip., Aug. 22, 1793, et Al Ansâri, p. 300.

(544) Guys, Trip, 21 juillet 1793, même référence qui ci-devant.

(545) S. Lucas, Trip., Aug. 22, 1793, FO 76/5.

(546) Al Ansâri, p. 301.

(547) S. Lucas, Aug. 22, 1793.

(548) S. Lucas, Trip. , Sept. 5, 1793., FO 76/5.

(549) Al Ansâri, p. 302 - 303.

(550) S. Lucas, trip. , June 30, 1795, FO 76/5.

(551) Guys au citoyen Buchot, commissaire des relations extérieures, Trip., 30 nivose an 3, AEccc Trip. de B. Tome 27.

(552) Al Ansâri, p. 305.

(553) S. Lucas, June 30, 1795.

(554) R. Tully, Narrative, p. 362.

(555) S. Lucas, Trip. June 30, 1795, FO 76/5.

(556) Guys aux représéntants du Peuple, membres du comité de salut public, AEccc Tripoli de Barbarie, Tome 26, f. 100.

الفهرس



LIBRAIRIE EDITION DIFFUSION
16, rue des Ecoles. 75005 Paris
Tél. 01 40 46 79 20 (comptoir et renseignement libraires)
Tél. 01 40 46 79 14 (manuscrits et fabrication)
Fax 01 43 25 82 03 (commercial)
Fax 01 43 29 86 20 (manuscrits et fabrication)

email : harmat@worldnet.fr
site Internet : http://www.editions-harmattan.fr

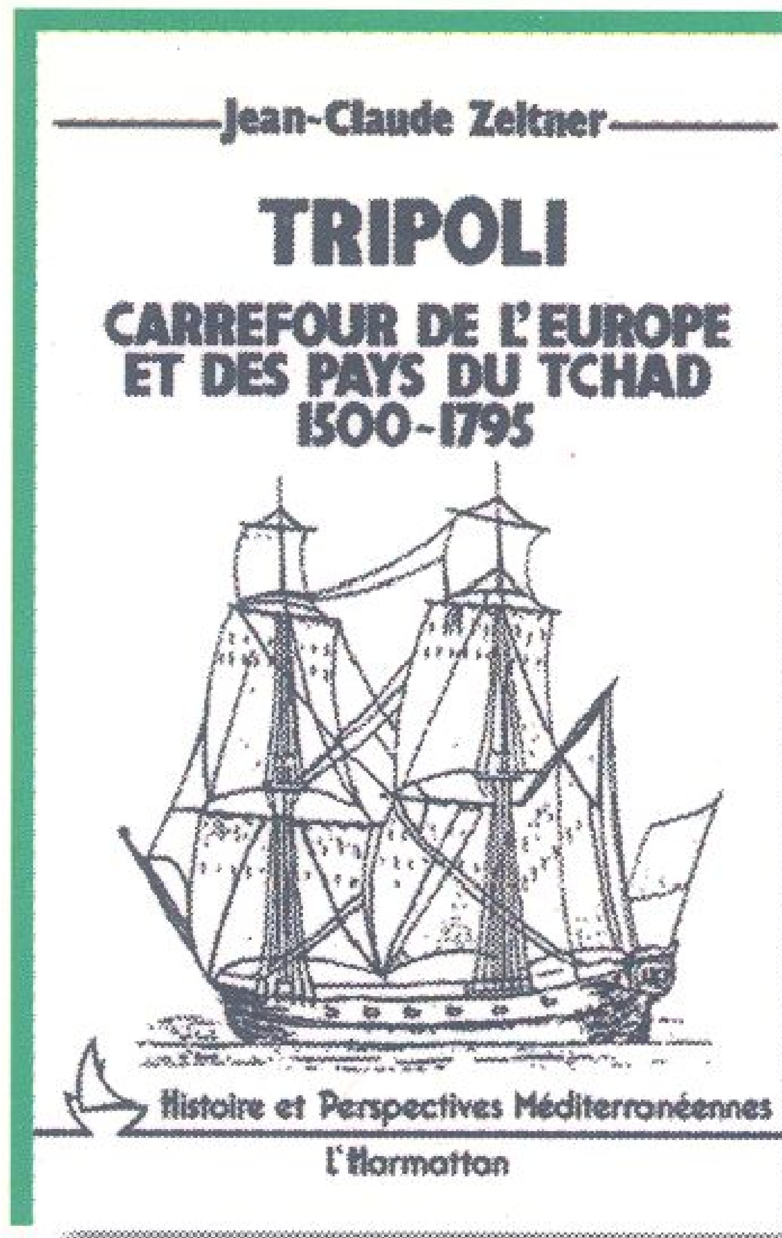
CONVENTION

Les éditions l'Harmattan cèdent à EL DAR EL JAMAHIRA les droits d'édition en langue arabe pour l'ouvrage : *Tripoli carrefour de l'Europe et des pays du Tchad* de Claude ZETNER.

Pour l'Harmattan

pour EL DAR EL JAMAHIRA

CCP 23 625 44N Paris. RC75 B 3599. SIRENE 311023121. SIRET 0024



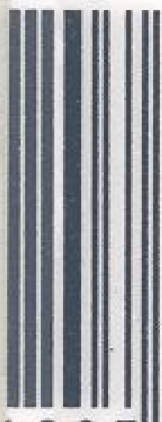
طرابلس

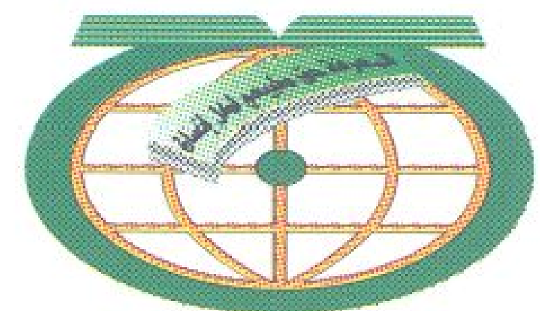
ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا

• لم يكتشف الروّاد الأوروبيّون الحوض التشادي الاّ في الأعوام 1820، في أثناء اجتيازهم للصحراء الكبرى. غير أن منتجات صناعتهم كانت قد عرفت طريقها إلى تلك المنطقة ولاقت رواجاً كبيراً قبل ذلك بوقت طويل، من زجاجيّات البندقية إلى قرطاس بيزا بالاضافة إلى الدروع والزّرد من لومبارديا وألمانيا والأقمشة من مرسيليا والنّسج القطنية والكتانية والقنّبيّة المحاكة على أنوال انكليزية وفرنسية وإيطالية والتي كان الطلب مشتداً عليها في الأسواق الداخليّة. وبالمقابل، كانت هذه الأخيرة تصدّر العاج والجلود وذرور الذهب .. والعبيد.

• وكانت مدينة طرابلس مركز المقايضة، وكان مرفأها مكيّفاً للتجارة عبر المسافات الطويلة يستقبل القوافل البرية والبحرية. وكان العمل فيه مربحاً دون شك ولكنه لم يكن ليخلو من بعض الأخطار على نحو مستمر: فالخطوط البحرية لم تكن أكثر أماناً من الطرق البرّيّة؛ ومع ذلك لم تنقطع أبداً عمليات التجارة والمقايضة على نحو مستمر، فقد كان المقاولون والهواة ورؤساء القوافل يبدون عناداً واصراراً مثيران للدهشة.

• أبصر المؤلف النور في أميان (Amien) عام 1921. وكان استاذاً مساعداً في جامعة بايروت. اهتم بادئ الأمر في الحقل الثقافي للعرب التشاديين، ثم اتجه إلى توسيع ميدان بحثه شيئاً فشيئاً. في هذا المؤلّف، كما في غيره، كان همّه أن يرتقي إلى الينابيع والمصادر الوثيقة، من طريق الرجوع إلى الشهود ذوي الصلة الوثيقة بالوقائع واغتراف المعلومات من المراجع المزامنة لها.


الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL - JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING
مصراتة: ص.ب. 1459 هاتف: 614658 - 051
بريد مصور: 619410 - 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى